حركات النضال
في جبل عامل

جهاد بنوت

حركات النضال في جبل عامل

قدم له
الدكتور وجيه كوثراني

دار الميزان

توزيع
مكتبة الفقيه
شارع معوض - الضاحية - بيروت

* جهاد بنوت، **حركات النضال في جبل عامل**
* الطبعة الأولى ـ ١٩٩٣

* لوحة الغلاف: للفنان أكرم قانصو

بسم الله الرحمن الرحيم

وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم
ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين.

صدق الله العظيم

البقرة - ١٩٠ -

الإهداء

إلى الأحرار أينما وجدوا ..

صفحة من تاريخهم.

الفهرس

التـــاريـــخ والـــــذاكـرة

د. وجيه كوثراني

تزدهر كتابة التاريخ عادة ، في مراحل الصراع والازمات والمحن ، تلك ظاهرة نشهدها في كل الحضارات والامم والمراحل ، نشهدها في التاريخ الاسلامي القديم حيث انتعشت كتابة السير والتراجم والفرق والمدن والطبقات والخطط ، وكل هذا على موازاة نشوب احداث وانفجارات وانتفاضات وثورات وقيام دول وانكفاء اخرى . . كما نشهدها في التاريخ الاوروبي الحديث ، منذ النهضة وحتى القرن التاسع عشر ، متلازمة مع الحروب الدينية ومغامرات الاكتشاف وصراعات التوسع والالحاق والحروب الاستعمارية الاولى وصولاً الى تمخض نتائج الثورة الصناعية وتحولها الى حركات امبريالية ناشطة في العالم ، حركات جرت معها خبرات معرفية ومناهج عدة ، صدرت عن علوم اجتماعية وانسانية نمت في السياق كحاجة ، او كنتيجة أو كأداة تبرير وتفسير .

والى وقت ليس ببعيد ، وربما حتى الآن ، اختلطت الذاكرة التاريخية مع الكتابة التاريخية « العلمية » اختلاطاً صعب تمييز مستوياته بين « الذاتي » و« الموضوعي » ، بين ما جرى فعلاً وبين ما نتخيله انه جرى ، وبتعبير آخر بين « الحقيقة » التاريخية التي تهرب على الدوام من الوعي الراهن وبين الصورة التي تتولد في الذهن عن الماضي انطلاقاً من حوافز وتحديات واحداث راهنة في الحاضر .

ونستدرك ان ليس في هذا « الاختلاط » اي شبهة تحريف (بالمعنى المعياري الاخلاقي) ، لكنها فطرة الانسان الباحثة عن خلاصه كفرد او جماعة ، حيث يندمج في وعيه ابعاد مركبة من المعارف والمشاعر ومن الانجذابات التي تتدافع في لحظة حاضرة بين الماضي والمستقبل لتخلف نوعاً من ذاكرة تجهد ان تستحضر رموزاً من الماضي ، اسطورية او حقيقية منشطة لحركة السعي الهادف لتغيير موقع في الاجتماع السياسي القائم أو لتحقيق خلاص او تحرر من حالة اضطهاد او حرمان معاشة .

ويثور تساؤل امام هذا النوع من التأريخ : هل هذا من علم التاريخ ؟ كثيراً ما نسبت الذاتية الى هذا النوع من التاريخ ، كما نسبت اليه احياناً مسؤولية الاندماج في الصراعات الاجتماعية السياسية الناشبة .

والواقع انه قد يكون في هذا « الاتهام » شيء من الصحة أو كل الصحة ، غير أن « برودة » المؤرخ المعاصر الناقد ينبغي ألاّ تنسيه ايضاً صدقية هذا الخطاب التاريخي في لحظة انتاجه وظروف قيامه وانشائه ، فتلك الظروف هي في كل حال لحظات في السيرورة التاريخية التي تربط ما بين الماضي الحاضر ، وهي تقدم صورة عن الماضي وكما هي متوخاة في المستقبل .

وهذا لا يعني ان التاريخ يعيد نفسه وفق نسخ « طبق الاصل » أو وفقاً لرؤية المستقبل بعيون الماضي ، بل يعني ان الخطاب التاريخي المنتج في ظل سخونة الحدث ووطأته يحمل في طياته عناصر التشجيع والتحضير لتغيير ما هو قيد التشكل او عناصر الرفض والاحتجاج على واقع ما .

ولعله من المفيد أن يقرأ كتاب الباحث الشاب جهاد بنوت حول « حركات النضال في جبل عامل » وفقاً لهذه الرؤية . « فجبل عامل » التسمية التاريخية القديمة لجنوب لبنان الحالي ، تحمل في ذاكرة مستخدميها شحنة قوية من المعايير السياسية « والخاصية الثقافية » التي تؤكد على تمايز مستويات الجغرافية البشرية التي كوّنت الدولة الجديدة الناشئة . ولكن التشديد على هذا التمايز في الخطاب التاريخي ينمّ بدوره عن حرص او هاجس يبحث بدوره عن الاندراج في اجتماع سياسي لبناني جديد .

ولعلّه من اجل هذا يستحضر الابطال ، والرموز والشخصيات من تاريخ جبل

عامل ، من أبي ذر الى الشهيدين الى ناصيف النصار الى ادهم خنجر وصادق حمزة ومحسن الامين وعبد الحسين شرف الدين الى الحلقة الواصلة (وليس الاخيرة) موسى الصدر . . .

يحتشد في كتاب جهاد بنوت ابطال وعلماء ومعارك وانتفاضات ، كما تحتشد اتجاهات ايديولوجية وثقافية اجتماعية تذهب من الاسلامية الى العروبية ، الى لبنانية باحثة عن اوجه من العدالة والتوازن .

لقد أُعدت مخطوطة الكتاب ـ وكما يقول صاحبها ـ في سنوات ما بعد الغزو الاسرائيلي ، أي في ذروة تصاعد النضال ضد الاحتلال الاسرائيلي ، وعبر مقاومة شعبية جسَّدت عند البعض املاً ـ وكما سيكون شأن الانتفاضة الفلسطينية ايضاً في تجاوز الانكفاء الذي اصاب حركة التحرر العربي وتعويضاً سيكولوجياً لدى الانسان العربي حيال ايديولوجياته المهزومة أو المأزومة .

ولعله في ذاك المناخ الثقافي والسياسي والايديولوجي ، وحيث يمكن للمراقب أو « المنتمي » ان يكون داخل هذا المناخ أو خارجه ، كتبت مخطوطه الكتاب فحملت « هموم » المرحلة وآمالها واحلامها ، كما حملت شؤونها وشجونها . فجهاد بنوت هو ابن قرية جنوبية ، هي قرية ادهم خنجر ، الشخصية التي ادخلت « اسطورة » وطنية قومية ، لا سيما في ذاكرة الشباب الوطني والقومي منذ الخمسينات والستينات في هذا القرن . واذكر كم كان حماس الباحثين الناشئين الشباب في الجامعات آنذاك كبيراً للبحث عن سيرة هذا الرجل وتسجيلها .

اما جهاد بنوت فهو من جيل لاحق لذاك الجيل ، استقى من افكار تلك المرحلة وذاكرتها ، ولكنه ايضاً تشبع بافكار المرحلة التي تلتها ، والمرحلة التي تلتها اتسمت باحياء ديني ، كما انها مع صعود المقاومة وتجلي عملياتها الاستشهادية والبطولية الكبيرة ، اتسمت ايضاً بنفحة جهادية ونضالية عالية النبرة والصوت ، تقاطعت وتوجت الذاكرة الوطنية والقومية الخمسينية .

هذه السمات جميعها ينضح بها اسلوب الكتاب كما توحي بها سطوره وكلماته وصياغته . ومن هنا صدقيته « الذاتية » على ما ارى ، وعلى الرغم من اعتراض قد يرفعه مؤرخ محترف ، من وجهة نظر منهجية تنطلق من « الموضوعية » وتتشدد عليها

كنقيض لـ« الذاتية » .

ولكن قد يجيب مؤرخ آخر ، ومن وجهة نظر منهجية ايضاً ، أيمكن في العلوم الاجتماعية ولا سيما في التاريخ ، التمييز القاطع بين الذات والموضوع ؟ في حالة جهاد بنوت « المنتمي » يصعب الفصل بين موضوعه « تاريخ النضال في جبل عامل » و« ذاته » . هنا وكما اشرت تختلط الذاكرة بالتاريخ : تستحضر صور الماضي من المصادر والمراجع كافة لتغذي حالة راهنة (اجتماعية ثقافية سياسية) تتحرك باتجاه المستقبل ، وفي وجهة لا يملك مستحضر الصور الماضية قدرة التحكم في مسارها . فالظروف الاقليمية والدولية والقوى المهيمنة فيها ، كانت دائماً وابداً تمسك بزمام التوجيه والتوظيف والقرار . ومن هنا اضطراب « الخطاب التاريخي » الذي نحن بصدده بين انشداده للذاكرة الممجدة وبين اندراجه في التاريخ ، ومن هنا ايضاً حيِّز الفراغ الذي نلحظه بين ايديولوجية الخطاب التاريخي وبين واقعية الاستراتيجية ووطأة العلاقات السياسية والجيوسياسية من جهة اخرى .

وهذا الفراغ الذي نلحظه في الكثير من الدراسات التاريخية العربية التي تناولت ظواهر كالنضال أو الجهاد أو الثورة أو الانتفاضة في منطقة أو قطر ينبىء عن عدم اكتمال بأدوات المعرفة التاريخية اكثر مما ينبىء عن غياب الموضوعية التاريخية . فأدوات المعرفة التاريخية لا تقتصر على معلومة تاريخية أو نص وثيقة أو خبر مستقى من مصدر وإن كان موثوقاً . فتكامل الدراسة التاريخية مع مناهج علم الاجتماع السياسي والاقتصادي والثقافي والنفسي والعلوم الاستراتيجية والجيوسياسية هو شرط انتاج معرفة تاريخية تواكب الواقع وتستشرف المستقبل .

لم يعد البحث التاريخي سجلاً لذاكرة تاريخية وإن كانت هذه الاخيرة عنصراً من عناصره ، فالذاكرة التي يختلط فيها الذاتي والموضوعي اختلاطاً طبيعياً وكما هو الحال في الكتاب الذي نقدم له ، تظل وثيقة تاريخية لمرحلة من مراحل تاريخ لبنان الحديث .

انه « خطاب » مع كل ما يحمله مفهوم الخطاب من معانٍ ترتبط بموقع المرسل ومضمون الرسالة وموقع المتلقي . انه خطاب ما قبل « الطائف » وما قبل التوازن الجديد في الصيغة اللبنانية ، بل هو خطاب ما قبل التحولات الدولية والاقليمية في

العالم ، صدر من باحث ناشىء استقى ثقافته من منابع جبل عامل ومن ذاكرة النضال القومي وشعاع المقاومة ، وتوقف الباحث عند هذا الحد ربما ليبقي على « صفاء » الذاكرة ، وكي لا يعكرها بمقتضيات السياسة ، و« شوائب » العلاقات الدولية ووطأتها وتحولاتها الجديدة المنتظرة منها وغير المنتظرة .

غير ان ما ينحو نحوه العالم الجديد هو وجهة اعادة التشكل لقوميات وهويات ودول وثقافات وانظمة سياسية ، وربما لحضارات بعينها . وجهاد بنوت الذي اعرف جيداً اتساع نشاطه وكبر طموحه (وهذه الفصول شاهدة على ذلك) قادر على ردم الفراغ بين انشائه لتلك الذاكرة التاريخية المحلية وبين المسار التاريخي الذي واكبها بعوامله الاقتصادية والاستراتيجية والجيوسياسية ، وهي العوامل التي انتجت ظواهر سياسية وثقافية جديدة اضحى معها خطاب ذاكرة المرحلة ، بل اصبح معها كل حديث عن طائفة من الطوائف أو عن منطقة من مناطق لبنان يفقد معانيه السابقة ويكتسب ابعاداً جديدة صريحة او متضمنة تفرضها حاجات الحاضر واسئلة المستقبل .

ووفقاً لتلك الحاجات والاسئلة قد تتعدل صورة التاريخ في اعادة قراءة دائمة ومتجددة للتاريخ نفسه . فالتاريخ الذي يكتب مرة واحدة هو التاريخ الفاشي او الاستبدادي ، وهذا عمره قصير جداً ، قصر عمر الاستبداد . التأريخ المتجدد القراءة هو التاريخ الذي تخدم فيه معرفة الماضي تعيين لحظة التوازن في الحاضر ووجهة استشراف المستقبل ، وعلى هذا الطريق اتمنى لجهاد بنوت تجدداً دائماً في قراءة التاريخ وتجاوزاً لمرحلة الذاكرة ـ بعد هذه اللبنة الطيبة التي وضعها في هذا الكتاب .

وجيه كوثراني
١٥/كانون الثاني/١٩٩٣



مقدمة

الحمد لله . .

التحرر ، المقاومة ، النضال . . . مفردات لا تزال تـدخل قـاموسنـا ، وتتصدر اغلب كتاباتنا التاريخية ، حتى غدا تاريخنا كله احمر . . .

هل كُتب علينا ان نظل في مسلسل دفاعي نتفرغ فيـه فقط لمقاومـة الاحتلالات التي لم نرتح منها منذ قرون ، ام اننا فعـلاً نعاني من مـرض عضال يضعفنـا امام كـل محاولات الغزو والاحتـلال ، فنغدو تحت تسلطه نعـاني من الظلم ، فمـا نكاد ننتهي من القضاء على واحد حتى نبتلي بآخر ، دون ان نتعمق في دراسة الخلل الذي يتأتى منه الخطر . . . ؟

أين يكمن ضعفنا ، أين يقع الـوهن فينا ، هـل سنظل ممـراً ومقراً لمسلسـلات الغزو في التاريخ . . . ؟

« الحيط الـواطي بيعلم الناس الحـرام » ، هكذا يقـول أحد امثلتنـا الشعبيـة ، فكيف اذا لم يكن هناك حائط ابـداً يحمي البلاد ، وكـانت البلاد تلك الخيـرات التي منّها الله تعالى على امتنا . . .

مئات السنين ونحن نعاني من غزو تلو غزو ، واحتلال تلو احتلال ، يكلفنـا كل ما نملك وندفع في النضال ضده اغلى ما عندنا .

نقول هذا الكلام ونحن نؤرخ لحركات النضال في احـدى اهم قلاعنـا العربيـة المقاومة . ذلك انه وإن فرحنا بمقاومة شجاعة تزين تاريخنا ، فان ذلك وان كان يبعث الفخر على الدوام ايضاً، فانـه لا يبعث على الراحـة . ان الصراع تـطور كما تـطورت

مـراحـل الحيـاة ، وقـد غـدا اليـوم افتـك من أي وقت مضى ، فـالغـزو والاحتـلال والاستعمار تخف تكاليفها عند اسيـادها ، بينمـا هي العكس عند الشعـوب التي يسوء حظها وتقع تحت اي صورة من صوره . لقد تطور اسياد الاستعمار وبرعوا في اساليبـه وممارسته ، فيما عجز المستضعفـون عن الاستفادة من تجـارب التاريـخ فازدادوا همـاً وسوءاً .

ان هنـاك قـواسم مشتـركـة بين كـل من الـدول المستعمِـرة على حـدا والـدول المستعمَرة ـ بأي شكـل ـ على حدا آخـر ، وقد استـطاعت الاولى ان تقضي على كل محاولات الجمع التي حـاول الفريق الثـاني تنفيذهـا ، وامتنا كـانت من ذلك الفـريق ومـا تزال منـذ النصف الاول للقرن المـاضي تئن تحت آثـار الغـزو والاحتـلالات من مشرقها الى مغربها . . .

ماذا تعلمنا من تاريخنا ، ما هي الدروس التي وعيناها وماذا استفدنا من تجارب اجدادنا ؟

اننا ونحن نؤرخ لحركات النضال في بقعة من ارضنا ، ليس فقط للحفـاظ على تراث ، انما هي دعوة صريحة للجميع للوقوف بوعي وحكمة عند اسباب أخطر معاناة تطالنا في حريتنا وكرامتنا ومستقبلنا . ما هي اسبـاب وقوعنـا فريسـة سهلة المنال عنـد الطامعين الذين يتربصون بنا في كل حدب وصوب ، وكيف نصون ارضنا في وجه كل من تسوّله نفسه غزونا ؟

هذا الكتاب يأتي ليضع بين ايدي القراء صورة صادقة عن حياة جبـل من جبالنـا المقاومة ، وبقعة من بلادنـا عاشت التـاريخ منـذ الدعـوة الاسلاميـة وحتى يومنـا بكل حقباته المختلفة ، فيعطينا عينة واضحة عن تاريخ أمتنا وما عانتـه من صدامـات محلية وهموم احتلالات واعتداءات خارجية ومقاومة باسلة ضد كل ذلـك . ففي هذه البقعـة العربية مثّل سكانهـا الصورة الحقيقيـة للمواطن الـرافض لكل انـواع الظلم والـطغيان والانحطاط ، فكانت المقاومة عنـواناً رئيسيـا في التصدي للظلم ، وكـانت ثروة العلم والعلماء في مواجهة الجهل والانحطاط . . .

انـا في حاجـة اكثر من اي وقت مضى لاعـادة قـراءة تـاريخنـا بصـدق وامـانـة للوصول الى مبتغانا بوضـع اليد على نقـاط الضعف والوهن في مجتمعنـا الممزق في حدود السلطات والانظمة المتعددة ، حتى نصـل الى تبني مشروع المقـاومة الـواحدة

ضد كل ما يعوق تقدمنا ووحدتنا التي بها وحدها يكمن تحررنـا . . . ان هذا الكتـاب الذي بين ايديكم يأتي في زمن الحلول الاستسلامية التي تفرض نفسها على ساحتنا ، حيث ان المقـاومة اصبحت اعمـالاً فرديـة تخضع لقـدرات معتنقيها دون ان تلقى أي مساعدة تذكر مما يعوق تطورها واستمراريتها .

كتبت هذا البحث في سنوات الاحتلال الاسرائيلي لجبـل عامـل ، حيث كانت الكلمات تتفجر من سحر المقاومـة اليوميـة ، فتستلهم تعابيـرها من الحمـاس والفخر اللذين زرعتهما فينا . وعندما اجبرت تلك المقاومة العدو على الانسحـاب من الجبل عـام ١٩٨٥ كان البحث قـد أشرف على نهـايته . وقـد ترددت كثيـراً في نشـره حينهـا لأسباب قسرية ، الا ان جبل عامل ومقاومته المستمـرة حتى اليوم اجبـراني من جديـد على نشر تاريخه بالحبر بعد ان نال شرف كتابته بالدم الاحمـر بمقاومتـه الشريفـة التي تعتبر الدواء الفعال لكل مشاكلنا وهمومنا التي نتخبط بها . . . انها الأمل الوحيـد لننقذ انفسنا من خطر التبعيـة بكل اشكـالها والتي تتـرسخ في حيـاتنا يـوماً بعـد يوم دون ان ندري .

اننا نعاني اليوم ، اكثر من أي وقت مضى ، من استعمـار حقيقي يتخفى بأقنعـة متنوعة ، يسلبنا حريتنـا التي في امل الحصـول عليها دخلنـا بوابـة القرن العشـرين ، ودفعنا في سبيلها مستقبلنا دون ان نحصل عليها اليوم .

في هذا الكتاب استعرضنا اهم الحركات التي قـادها العـامليون ابتـداء من عهد الرسول (ص) مروراً بحركات التمرد ضد سياسة الاقطاع وانتهاءً بالمقاومة الباسلة ضد الاحتلال الاسرائيلي . حقبـة حقبة في محـطات تاريخيـة خالـدة عاشتهـا بلاد الشـام سوياً ، وكان لجبل عامل مشاركة حقيقية في صنع تاريخها . . .

أملنا ان يقدم هذا الكتاب مبتغاه باعطاء صورة واضحة عن مقاومـة شعب للظلم والقهر والاحتلال ، وان يرسخ الامـل في نفوس ابنـاء امتنا بـان المقاومـة وحدهـا هي التي تـوصـل الى النصـر الحقيقي بعـد أن تهـز في نفـوس الجميـع آفـاق المسؤوليـة بـالمشاركـة الجماعيـة في بناء المستقبـل ؛ مقاومـة أسسها الايمـان والـوحـدة والعلم والقوة .

والله من وراء القصد

جهاد بنوت

جبـــل عامـــل

بقعـة مباركـة من هذا الـوطن العربي الكبيـر ، والاسم التاريخي لجنـوب لبنان احدى محافظات الجمهورية اللبنانية . على ساحـل البحر الابيض المتـوسط الشرقي الذي يحده من الغرب ، يطل جبل عامل بتلاله المنتشرة من شماله الى جنوبه وسهوله الخضراء ، حيث تستريح شمالاً منطقة الشوف وجنوباً بلاد الجليل في فلسطين وشرقاً جبل الشيخ . . . تلال وربوع وسهول وينابيع .

في شماله يصب نهـر الأولي المعروف تـاريخياً بنهـر الفراديس ، ومن الشمـال الشـرقي يخترقـه نهر الليـطاني اكبر نهـر ينبع ويصب في لبنـان ، حيث ينعطف قـرب الخردلي ليصب في وسط « الجبل » بـالبحر المتـوسط عند القـاسمية . وفي الجنـوب الشرقي ينبع نهر الحاصباني احد اهم روافد نهر الاردن ، وبقربه نبـع الوزاني الشهيـر وعشـرات الانهـار واليـنـابيـع الصغيـرة المنتشـرة في انحـاء ربـوعـه وطـول سـاحله الجميل . . .

في سهوله ثروة زراعية هـامة اهمهـا (زراعة الحمضيـات . . .) ، وفي تلالـه جميـع انـواع الاشجـار المثمـرة والحبـوب ، وفي سهـولـه الـداخلية تنتشـر زراعــة الخضروات .

ارض زراعية تحتاج لمشـاريع حيـوية اهمهـا مشروع الليـطاني احد اهم نقـاط الصراع العربي ـ الاسرائيلي حول المياه . . .

في شمـاله تنتصب مـدينة صيـدا ذات التاريـخ العريق امتـداداً من فينيقيا حيث كـانت تعرف بـ(صيـدون) مروراً بـالفتح العـربي والتاريـخ العثماني ، فهي تحتضن العديد من الآثار الهامة التي تحكي رحلتها التاريخية باختصار . . .

وفي جنوبه ترقد مدينة صور احدى اهم مدن المتوسط التـاريخية والمليئـة ايضا بالآثار ، وذات النفوذ البحري الهام .

وفي وسطه مدينة النبطية عقدة تجارية هامة في تاريخ الجبل وموطن العـديد من المفكرين والعلماء خاصة مطلع هذا القرن .

وفي شمـالـه الشـرقي مـدينـة جـزين مـوطن الشهيـد الاول محمـد بن مكي (قدس) ، وصاحبة اول مدرسة دينية في تاريخ الجبل العلمي . . .

وعلى تـلاله تنتصب قـلاع تاريخيـة عريقـة واهمها (قلعـة شقيف ارنون) ذات المـوقـع الاستـراتيجي الهـام ، والتي شهـدت على مـر مئـات السنين اعنف المعـارك والصدامات خصوصا ايام الصليبيين والحروب الاقطاعية واخيرا ايام الغـزو الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ في الحـرب العربيـة ـ الاسرائيليـة الخامسـة ، كل هـذا وهو مـوطن العلم والعلماء الذين يضيق البحث في تعدادهم . . .

من ايام فينيقيا بـرز العالمـان موخـوس الصيدوني وامـورفيس الصوري اول من بحثا في علم الذرة[١] وبعد الفتح الاسلامي برز الشـاعر العـاملي عُدي بن الـرقاع في العصر الاموي ، فـالشاعـر عبد المحسن الصـوري ايام الـدولة الفـاطمية ، فـالشهيد الاول صاحب اللمعة الدمشقية احد اهم المراجع الاساسية لدراسة الاجتهاد في الفقه الاسلامي ، فالشهيد الثاني والموسوعي العربي الشهير بهـاء الدين العـاملي ، واخيراً وليس آخراً المخترع العربي الكبير حسن كامل الصباح . . .

اما اليوم فيفتخر جبل عامل بأنه لم يزل وحده في الـوطن العربي بـوابة الصـراع الدائمة مع العدو الاسـرائيلي . نعم ، فمنذ بـدء هذا الصـراع بقي جنوب لبنـان ممراً ودرعاً للمقاومة العربية ضد اسرائيل . . . عام ١٩٤٨ عبَرَه جيش الانقـاذ وخاض على تلاله معركة المالكية الشهيرة ، وعام ١٩٥٦ تطوع العديد من ابنائه للمشاركـة في صد

---

(١) يوسف مروة، العلوم الطبيعية في القرآن ـ دار ومكتبة الهلال ـ بيروت ١٩٦٨ ص ١٦١ .

العدوان الثلاثي على مصر .

واسمر يشارك في الحروب التي خاضها العرب ضد الكيان الاسرائيلي ، حتى سكون جبهات القتال معه بعد حرب تشرين عام ١٩٧٣ ، اذ اصبح جبل عامل بعد هذا التاريخ ، الرئة الوحيدة لعمليات المقاومة الفلسطينية وبموازرة حقيقية من شعبه مقدماً للقضية الشهداء والامن الذي هددته الطائرات الاسرائيلية يومياً وحتى الغزو الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ ، عندما فتح أهالي الجبل صفحة رائدة من المقاومة الشعبية المسلحة ضد جنود الاحتلال وببسالة افقدت « اسرائيل » توازنها واجبرتها على الانسحاب القسري ، بعد ان دفعت خسائر بشرية ومادية رهيبة .

وما يزال جبل عامل يقدم الشهيد تلو الشهيد في سبيل القضية العربية حاملاً عبء المقاومة عن كاهل الأمة .

أصل التسمية :

أما أصل تسميته بجبل عامل فنسبة الى قبيلة (عاملة) العربية التي هاجرت من اليمن إثر انهيار سد مأرب الشهير ، واستوطنت هذه القبيلة ارض الجبل الذي حمل اسمها بدءاً من ذلك التاريخ واصبح يعرف بـ(جبل عامل) .

وعن اصل النسب العربي يحدد الشاعر العاملي عدي بن الرقاع ، ان عاملة تنتمي الى قحطان جد العرب الاوائل (مشيراً لذلك في ابياته) :

اضلال ليل ساقط اكنافه ... في الناس اعذر ام ضلال نهار
واذا اطعتك يا عبيد كسوتني ... في كل مجمعة رداء صغار
قحطان والدنا الذي ندعى له ... وابو خزيمة خندق بن نزار
أنبيع والدنا الذي ندعى له ... بأبي قبائل غائب متوار
تلك التجارة ما رأينا مثلها ... ذهب يباع بآنك وتبار[٢]

على مر القرون السابقة لازم اسم عامل الجبل ، حيث عرف حتى مطلع القرن الحالي بجبل عامل . . .

---

(٢) خليل مردم، الشعراء الشاميون ـ بيروت دار صادر ص ٥٧ .

وبعد تجسيد التقسيمات الاستعمارية للدولة العثمانية وانشاء دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠ ، شكل جبل عامل احدى محافظات الدولة الجديدة التي اخذت تسمية محافظة لبنان الجنوبي .

ومع بروز مقاومته الباسلة ومشاركته في الصراع العربي الاسرائيلي الدائم غلب عليه اسم (الجنوب) وأصبح يعرف بهذا الاسم المقاوم . . .

البـــاب الاول

اوراق متناثرة من تاريخ ضائع

الفصل الاول

سنوات الفتح

« عجبت لمن لا يجد في بيته قوت يومه ولا يخرج على الظالمين شاهراً سيفه ».

الصحابي الجليل
ابوذر الغفاري

اذا كانت الكتابة التاريخة تبدأ بحدث بارز غيَّر مجرى التاريخ، لتنتهي بحدث هام آخر، فاننا لم نجد افضل من الفتح الاسلامي الذي بزغ فجره في القرن السابع الميلادي ، مفصلاً هاماً نبدأ به . . . هذا الفتح الذي امتدت انواره الى معظم ارجاء الدنيا اشرق ايضا في منطقة البحث جبل عامل . . .

فيما كانت الساحة الحجازية مهبط الدعوة، تشهد تطورات داخلية هامة من وفاة قائد الامة ، والخلافات التي لحقت بذلك الحدث، الى عهد الخلفاء الراشدين، وما سيطر على ذلك من فوضى وصراعات اولية على اولوية خلافة الرسول (ص)، كانت حينذاك جبهة قوية واسعة قوامها رجال اشداء، تقود المسلمين بحماس لبثّ الدعوة الجديدة حيث وصلوا حدود بلاد الشام عام ٦٣٣ م، وخاضوا حينها حروباً وحالات قتال مع القوى البيزنطية التي كانت تحتل بلادنا آنذاك ، حتى اذا ما جاءت سنة ٦٣٦ م حسمت كل الموازين والطروحات بالمعركة البطولية التي جرت على نهر اليرموك والتي حملت اسمه وادت الى تراجع كل القوى البيزنطية باتجاه الشمال ، حيث لحقت بها جماعات موالية عدة كانت تقطن البلاد على امل العودة فور استرجاع

المنطقة من ايدي المنتصرين المتحمسين لشق دربهم الى كل ارجاء الدنيا . . .

ومن «اليرموك» توزع قادة المسلمين الى عدة فرق لفتح كل المناطق الواقعة ضمن حدود البلاد المفتوحة وغرب البحر المتوسط ، ومن بين هؤلاء القادة كان يزيد بن ابي سفيان القائد الذي على يديه فُتِح جبل عامل والذي التقى بعد فتحه المنطقة بالقائدين الكبيرين خالد بن الوليد وعبيدة بن الجراح بعد ان اتما فتح شمالي الشام والساحل الغربي . ومن المحتمل ان يكون شرحبيل بن حسنة وهو قائد فتوحات قد شارك في فتح الجبل لورود اسمه في بعض المصادر على انه فاتح صور ، ولوجود تلة تحمل اسمه حتى اليوم وذات موقع استراتيجي هام شمالي الجبل قرب مدينة صيدا . . .

مهما يكن من امر فإن منطقة جبل عامل استقبلت بعد الفتح الاسلامي مباشرة الدعوة الاسلامية الجديدة على لسان رجاله الذين بدأوا بث تعاليم الدين الجديد في معظم انحاء الجبل والمنطقة . . .

ان ندرة المصادر التاريخية لهذه الحقبة المهمة خصوصا على ارض جبل عامل تضع عائقا امام اي باحث لاستعراض التفاصيل بشكل سليم ، غير اننا سنسير سويا في الرحلة الشيقة لمنطقة من مناطق امتنا ولفترة اربعة عشر قرناً مضت . . .

الفصـــل الثـــاني

العامليون والسيطرة الاموية

اذا شئـت نـازلـت مستقتـلا
ازاحـم كـالجمـل الاجـرب
فمـن يـك منـا يبيـت امنـا
ومـن يـك مـن غيـرنـا يـهـرب
عدي بن الرقاع العاملي

في الوقت الذي كانت فيه الخلافة الاسلامية تنتقل من آخر الخلفاء الراشدين الامام علي بن ابي طالب (ع) اثر استشهاده الى معاوية بن ابي سفيان ، سعى الاخير الى اقامة دولة جديدة ذات اسس مختلفة عن مبادىء الدين الحنيف ـ ملك قائم على العصبية ـ وراثة في الحكم ـ اغداق اموال ـ سياسة دهاء ـ وفعل كل ما بوسعه لتحقيق امانيه .

سياسة الابعاد والنفي :

وازاء هذا الطرح الجديد واجه معاوية معارضة شديدة من عدة اطراف فعمل للقضاء على اغلبها باتباع سياسة الابعاد والنفي ضد خصومه نحو المناطق النائية لتنفيذ معظم مآربه دون معارضة ، على ذلك ، من احد .

وبالفعل نفى معاوية اغلب خصومه ، وكان جبل عامل احدى تلك المناطق التي نفي اليها الابطال « وتروي الاخبار ان معاوية جعل من لبنان الجنوبي منفى لاخصامه ومن ذلك نفيه لابي ذر الغفاري الى الجنوب (جبل عامل) بسبب افكار ابي

ذر الثورية الدينية المتطرفة »[1] .

باديء ذي بدء نفي ابو ذر الغفاري الى الشام من قبل الخليفة الثالث عثمان بن عفان . يخبرنا ابن ابي الحديد عن ذلك فيقول : « اعلم ان الذي عليه اغلب ارباب السيرة وعلماء الاخبار والنقل ان عثمان نفى ابا ذر اولاً الى الشام ثم استقدمه الى المدينة بما شكا منه معاوية ، ثم نفاه من المدينة الى الربذة لما عمل بالمدينة نظير ما كان يعمل بالشام »[2] .

اسباب نفيه الى الشام :

تلقف الصحابي الجليل ابو ذر نواة الدين الجديد من الرسول الاعظم (ص) مباشرة فكان مثالاً لحافظ امانة القائد الذي قال فيه : « ما اظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء من ذي لهجة اصدق من ابي ذر ؛ ومن سره أنه ينظر الى تواضع عيسى ابن مريم فلينظر الى ابي ذر »[3] . وبعد وفاة الرسول (ص) حرص ابو ذر على تنفيذ وصايا النبي له وعمل على تجسيدها عمليا بحيث كان يراقب اوضاع المسلمين عن كثب فيقف منصفاً في النهي عن المنكر والامر بالمعروف واكثر ما ازعجه الاسراف في انفاق الاموال والذي قام به بعض المسيطرين على خلافة الامة . فكان ابو ذر يقابل ذلك بصرخة عفوية يرددها يومياً في الطرقات والاحياء بتلاوة لقول الله تعالى : **﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ﴾**[4] بحيث انه يفضي خلال ذلك عن كل ما في قلبه من أسى على مصالح الامة .

وتبدو لنا حينها وفي هذا الكفاح اليومي بالذات صورة بعيدة قريبة لثائر يعي آفاق الدين ، يرى الشواذ فيثور قدر استطاعته ، أوليس هو القائل : « إني لأرى حقاً

---

(١) محمد علي مكي ، لبنان من الفتح العربي الى الفتح العثماني ـ دار النهار للنشر ١٩٧٢ ص ٣٤ .

(٢) ابن ابي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ـ دار الجيل ١٩٨٧ ـ المجلد الرابع ـ الجزء الثامن ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .

(٣) محمد جواد آل فقيه ـ ابو ذر الغفاري ـ دار الفنون ـ ١٩٨٠ ص ٥ ـ نقلاً عن الاستيعاب لابن عبد البر .

(٤) قرآن كريم ـ سورة التوبة/آية ٣٤ .

يطفأ وباطلاً يحيا وصادقاً مكذباً وإثرة بغير تقى وصالحاً مستأثراً عليه »[٥] .

واذا كان رجال الفتوحات الاسلامية قد نشروا الدين الجديد على ارض الجبل فان الفضل الاكبر لبث الافكار الصحيحة السليمة خرجت على لسان هذا الصحابي الجليل الذي كما رأيناه اعلن الثورة جهراً على الظلم مطالباً بحقوق المعذبين من ابناء الشعب .

تنقل ابو ذر في معظم انحاء الجبل وجعل له فيه مقرين ، الأول شرق الجبل في بلدة ميس الجبل ، والثاني غربه على ساحل البحر في بلدة الصرفند . كان يتنقل بين قرى وبلدات الجبل يبث فيها تعاليمه . وما يزال ، حتى يومنا ، لابي ذر في الجبل ، اضافة الى فكره ، مقامان اثنان في البلدتين المذكورتين ويحملان اسمه .

المشاركة العاملية :

واذا كانت فترة البث الثوري قد دخلت ضمن التسلط الاموي فان جبل عامل في فترة هذا الحكم فتح صفحة رائدة من المشاركة في عدة ميادين . ولعبت مدنه دوراً هاماً في سياسة الفتح الاسلامي ومنها صور التي « كان لها دورها في سياسة معاوية بن ابي سفيان البحرية وما استلزمه من تعزيز لدفاعات الثغور البحرية »[٦] ، والنقطة الاسلامية لانطلاق السفن التي غزت قبرص آنذاك . كما كانت في عهد هشام بن عبد الملك « القاعدة الاولى على الساحل السوري بعد انتقال مركز صناعة السفن اليها من عكا »[٧] .

---

(٥) محسن الامين ـ اعيان الشيعة ـ دار التعارف للمطبوعات ١٩٨٣ ـ م ٤ ص ٢٤٧ .
(٦) دراسات لبنانية ـ آب ١٩٨١ منشورات وزارة الاعلام اللبنانية ـ ص ١٣٥ .
(٧) نفس المرجع السابق .

الفصــل الثـــالث

مع الدولة العباسية

هــي الشمس مسكنــهــا السمــاء
فــعــز الفــؤاد عــزاء جميــلا
فلــن تستطيــع اليــهــا الصــعــود
ولــن تستطيــع اليــك النــزولا
عبد المحسن الصوري

في غضون عام ٧٥٠ م شهدت الساحة الاسلامية حركة انقلابية شاملة ضد التسلط الاموي شاركت فيها مختلف القوى المناهضة للسلطة ، واستطاعت فئة واحدة استلام زمام الحكم بعد نجاح الثورة حيث أسست دولة جديدة شهدت قمة التحضر الاسلامي ، تلك هي الدولة العباسية التي قامت على نظام ارهابي جديد استطاعت ، من خلاله ، بسط سلطتها على معظم مناطق الاسلام . . .

وتحت ظل هذا العنف الشديد الذي عمّ ارجاء الدولة ، كانت تتفجر بين الحين والآخر انتفاضات عدة قامت بها القوى التي لم تنل حظاً في الحكم بعد انتصار الثورة ، بالاضافة الى الجماعات التي بقيت على ولائها للحكم الاموي البائد . واول عمل قام به المنتصرون نقل مركز الحكم الى العراق (بغداد) بدلاً من دمشق (الشام) ، وهي القريبة من جبل عامل مما ابعد بهذا الانتقال السلطة الفعلية عن المنطقة ، سانحة الفرصة للقيام بانتفاضات عدة فيها . وكانت العناصر المناهضة الجديدة تختلف مبدأً وتلتقي ضد خصمٍ مشترك من خلال المبدأ المعروف ـ عدو العدو صديق ـ ففي حين كانت الجماعات الباقية على ولائها للحكم الاموي في

منطقة الشام تقاوم على اساس استعادة الحكم ، كانت فئات اخرى تحارب على اساس استعادة وتسليم الخلافة لآل بيت النبي (ص) وهي التي قدمت التضحيات في سبيل نجاح الثورة .

لقد اثَّر انتقال مركز الحكم من دمشق (الشام) الى بغداد سلباً على الاوضاع العامة في المنطقة ، التي اضحت حدوداً غربية للنظام الجديد ، في وقت انصبت فيه كل الانظار على بغداد مركز النظام وذلك لتأسيس الدعامة الاولى التي تحفظه من اي خطر .

الانتفاضات والجبل :

وكما ذكرنا شهدت منطقة الشام عدة انتفاضات كالحركة السفيانية التي قامت يومها على اساس اعادة الحق الى نصابه ، اي استعادة حكم الامويين وبقيادة رجل من بني سفيان[١] دون ان يكون للعامليين مشاركة بها . فقد قاد عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية الملقب بابي العميطر الحركة خلال حكم الامين ، مدعياً انه « ابن شيخي صفين : الامام علي ومعاوية »[٢] حيث جرت معركة حاسمة بينه وبين محمد بن بيهس الكلابي في منطقة شبعا[٣] انهزم فيها ابو العميطر وانتهت بذلك حركته .

شكلت هذه الحركة مشاركة شعبية من قبل عدة مناطق في البلاد ، التقت خلالها الاهداف المناهضة للحكم العباسي .

وفي سنة ٢٤٦ هـ ٨٤٢ م شارك جبل عامل البلاد في حركة جديدة اندلعت من غور الاردن وامتدت الى كل المنطقة ، قام بها رجل يدعى المبرقع ، وحملت اسمه ، واعتمدت على الفلاحين ؛ فكان ذلك سبباً في تفجرها موسمياً وفق المواسم الزراعية المختلفة .

---

(١) محمد علي مكي ـ لبنان من . . . ص ٧١.

(٢) نفس المرجع .

(٣) شبعا : اسم قرية من اعمال جبل عامل.

بدء ولادة الدويلات :

كانت هذه الحركات الصغيرة شرارات لحركات ولدت فيما بعد، وتشكلت خلالها دويلات انفصالية ضمن الدولة العباسية بشكل متتالٍ وفي المنطقة الغربية .

فقد شهد عام ٨٧٠ م ولادة اولى هذه الدويلات ، عندما اسس احمد بن طولون الدولة الطولونية وجعل مصر مركزاً لها ، واستطاع هذا القائد ضم بلاد الشام له عدة مرات بالاضافة لعدة مناطق اخرى .

بعدها توالى على المسرح انشاء الدويلات فولدت دولة القرامطة وتلتها الاخشيدية في مصر فالحمدانية في حلب .

كانت الدولة العباسية تجهز في كل مرة جيشاً قوياً يزحف من بغداد تستطيع من خلاله اعادة المناطق الى سلطتها . وما كادت سنة ٩٨٨ تطل حتى شهدت المنطقة ولادة دولة جديدة هي الدولة الفاطمية التي تأسست في شمالي افريقيا وامتدت الى مصر حيث اتخذتها مقراً ومركزاً لها ، وذلك لتوسيع نفوذها من هناك وباتجاه بلاد الشام بالذات ، وهذا ما حصل . وعندما بدأت الدولة الجديدة غزو المنطقة بقصد احتلالها ، تعرضت مدن الساحل لغزو بحري مرات متتالية من الفاطميين فالعباسيين وبالعكس . وعلى غرار اي حكم جديد فان المعارضة تولد معه ، فبعد سقوط الشام بأيدي الفاطميين عام ٩٩٩ م شهدت دمشق وحواضرها عدة انتفاضات ضد الحكم الجديد ، في حين استقبل العامليون الحكم الجديد برحابة صدر مما دفع بمدينة صور التي انفصلت عن النفوذ العباسي إبان السيطرة الطولونية ، لان تصبح القاعدة الاساسية للدولة الفاطمية في منطقة الشام .

ومع تكاثر الهجمات البيزنطية على المنطقة الشمالية من الشام عمدت الدولة الى اتخاذ طرابلس قاعدة جديدة لها تستطيع منها صد اي هجوم او خطر قد يحدث من الدولة البيزنطية ، في وقت « حافظت صور وسط هذه المتغيرات (تحول طرابلس الى قاعدة مهمة) على دورها المميز كقاعدة جنوبية ، كان من ابرز مهامها عدا حماية هذا الجزء من الساحل الشامي ، مراقبة تحركات القوى السياسية المناهضة للفاطميين

في الداخل »[٤] .

وقد صعّدت القرى المناهضة من عدائها للدولة الفاطمية إثر توقيع هدنة بين الخليفة الفاطمية « الحاكم بأمر الله » والامبراطور البيزنطي باسليوس الثاني ، « ففي دمشق حدث تمرد ضد الحامية الفاطمية ، قضى على عدد كبير من جندها (المغاربة) ، وفي الرملة ثار بنو الجراح »[٥] .

تمرد صــور :

في هذه الاثناء انفجرت في صور ثورة ضد الفاطميين تساوى توقيتها مع الحملة البيزنطية على حصن أفامية بقيادة دوكاس . فقد اغتنم قائد هذه الانتفاضة ويدعى « علّاقة » وهو بحار من المدينة فرصة التواجد الفاطمي في طرابلس ، وتواجد الاسطول البيزنطي في المنطقة لتأمين نجاح الثورة .

لقد سعى البيزنطيون دوماً لبناء علاقة متينة مع المتمردين ضد الحكم الفاطمي ، وكان « علّاقة » نِعْمَ المثال لذلك . ان هذا التحرك يعتبر بمثابة خيانة اذا علمنا ان المنطقة لم تكن يومها بحاجة لمن يبسط الدرب فيها امام الاحتلال الخارجي خصوصا البيزنطي . واستطاع الفاطميون القضاء على الاسطول البيزنطي الذي حاصر صور لتغطية ثورة علاقة اثر معركة حاسمة جرت في البحر ، اقتحموا بعدها المدينة واخمدوا الانتفاضة بعد ان اعتقلوا مدبرها الذي اخذ الى مصر وقتل هناك . ان القضاء على حركة « علّاقة » قبل تثبيت الامور جاء ضربة أليمة للقوى البيزنطية التي راهنت على تلك المنطقة والمدينة بالذات لتسيطر على البلاد .

إمارة بني عقيل في صور :

ما يلفت للنظر هو ما نراه من ولادة امارة مستقلة في صور اسسها القاضي عين الدولة بن عقيل الذي استقل عن النفوذ الفاطمي ، حيث بادرت القاهرة مباشرة للقضاء على التحرك الجديد عندما امرت قواتها بمحاصرة صور مما دفع القاضي ابن عقيل ان « يستنجد بالاتراك من دمشق وعليهم الامير قرلو ، فارسل اليه احد عشر الفاً

---

(٤) د. ابراهيم بيضون مع عدة مؤلفين - صفحات من تاريخ جبل عامل - دار الفارابي ١٩٧٩ ص ٢١ .

(٥) نفس المرجع ص ٢٣ .

من الجنـود فحاصـروا مدينـة صيدا التي كـانت لا تزال تـابعة للفـاطميين فاضـطر بدر الجمالي(*) الى فك الحصار عن صور »[٦] .

واستمرت بعدها امارة بني عقيل عشرين عـاما ، تسلم فيهـا الامور عين الـدولة ومن بعده اولاده ، ثم سقطت بأيدي الفاطميين حيث عينوا منير الدولة الجيوشي قـائداً عليها والذي حاول الاستقلال عن السلطة الفاطمية الا انـه فشل وقبض عليـه ، وعلى اثرها فرض على المدينة ضريبة مالية كبيرة . ومع تتالي الاحداث بدأت المنطقة تشهد تطوراً خطيراً إثر زحف الوف البشر من الغرب نحو البلاد لاحتلالها في حملات بربرية متتالية وضعتها تحت نيران الحرب على مدى قرنين من الزمن . . .

عبد المحسن الصوري : عَلَمٌ من الجبل (٩٥٠ ـ ١٠٢٨) :

هـو ابو محمـد بن محمد بن احمـد بن غالب بن غلبـون الصوري، شـاعـر من اعلام القرن الحادي عشر الميلادي .

ولد في مدينة صور عام ٩٥٠ م وفيها عاش معظم حيـاته دون ان يفـارقها الا في رحلات قصيرة الى الشام وفلسطين .

يغلب على شعـره طـابـع المـدح الـذي شمـل العـديـد من الامــراء والخلفـاء المشهورين في تلك الحقبة داخل بلاد الشام كالحمدانيين والفاطميين ومنهم الحـاكم بأمر الله .

وله ايضا قصائد عديدة في مدح آل بيت الرسول (ص) مجموعة كلها في ديـوان وحيد ما يزال مخطوطاً . ويعتبر الصوري من الشعراء اللامعين في تلك الحقبة ، وكان على علاقة مع الشاعر ابي العلاء المعري .

اعتزل الشعر قبل عشر سنوات من وفاته عام ١٠٢٨ م في صور .

---

(٦) محمد علي مكي ـ مرجع سابق ص ١٠٢ .

(*) قائد القوة الفاطمية المحاصرة صور.

الباب الثاني

الجبل والاحتلال الصليبي وعهد المماليك

الفصل الاول

الاحتلال الصليبي

مقدمة عامة :

كان من اسباب ضعف العباسيين ان عرفت البلاد على ما رأينا ولادة عدة انتفاضات ودويلات انفصالية عن الدولة . شهدت فيما بينها معارك ضارية على مدى قرنين وربع القرن من الزمن . وخلال تلك الاحداث التي زادت من ضعف المسلمين وحدّت من توسع النفوذ الاسلامي في الغرب ، شهد هذا الاخير حركة جديدة معادية للدولة الاسلامية من اهم مبادئها استعادة المناطق التي احتلها المسلمون . فالمد الاسلامي السريع ارعب اوروبا بأسرها وجعلها تفكر جاهدة في التخلص من الحماس الدامي واندفاع الجيوش الاسلامية الزاحفة

بدء التدخل الاوروبي :

عندما بدأت الدولة الاسلامية بالتقهقر رويداً رويداً ، بدأت اوروبا ترى في ذلك الضعف المتصاعد فرصة سانحة لاستعادة البلاد التي احتلها المسلمون . وفكرت اكثر من ذلك : استعادة العتبات المقدسة في القدس جنوبي بلاد الشام ، كما اضحت اوروبا آنذاك تشهد حركات متطرفة تحمل شعارات عنيفة انطوت بمعظمها تحت شعار الصليبية كطريق مباشر للوصول الى الزحف نحو الشرق.

وقد عبر الاوروبيون عن ذلك الحماس المتطرف في المعارك التي خاضوها مع

المسلمين قبل حملاتهم ، كمعركة الزلافة(*) عام ١٠٦٨ في بلاد الاندلس على سبيل المثال .

ولزيادة الحماس في نفوس شعوبها بدأت معظم مناطق اوروبا تشهد دعوات متتالية دينية تشرح مع كثير من التضخم الواقع المسيحي في الشرق ليس كما هو ، بل في صور مشوهة ، وهي رؤى تتنافى منطقياً مع مبادىء الاسلام المتمثلة بالتسامح ووفاء العهد .

استطاعت تلك الدعوات ان تلهب الغرب بمعظم طبقاته حيث رأت كلٌ على حدا أهدافاً حقيقية لها تنفذها في الحرب ضد الشرق ، بدليل ان المجموعات الاولى التي زحفت نحو بيت المقدس لاسترجاعه كانت تضم شباناً وعجزاً والتي سبقت الحملات المنظمة التي انطلقت بعدها لاحتلال البلاد على اساس عسكري . وكان البابا ايربان الثاني المحرك الاول للشعور الديني حيث اطلق صرخته الشهيرة في مجمع كلير مونت : « فلينطلق المسيحيون بالغرب لنجدة الشرق »[1] .

الحملة الصليبية الاولى :

استطاعت الحملة الصليبية الاولى بكثافة عددها البشري الاستيلاء على انطاكية في الشمال لتزحف عبر الساحل نحو القدس ، فمرت بطرابلس ثم وصلت بيروت وهناك حصل صدام بينها وبين الفاطميين وبعدها تابعوا زحفهم باتجاه الجنوب .

صيدا العاملية تتصدى :

ولما وصلوا صيدا تصدت لهم بوابة الجبل الشمالية رافضة التفاهم مع الغزاة « وعمدت حاميتها الى مهاجمة الصليبيين »[2] وامام هذا التصدي و" رفض اتلف الغزاة قرى ومزارع المنطقة بعد ان اكملوا طريقهم من جانب المدينة باتجاه بيت المقدس .

---

(١) بسام العسلي ـ الايام الحاسمة ـ دار النفائس ـ بيروت ط ٢ سنة ١٩٨٣ ، ص ٧ .

(*) لمزيد من التفاصيل عن هذه المعارك يراجع على سبيل المثال ـ الايام الحاسمة ـ بسام العسلي ـ مرجع سابق .

(٢) محمد علي مكي ـ مرجع سابق ص ١١٣ .

احتلال بيت المقدس وسقوط المدن :

تمكن الصليبيون من الاستيلاء على بيت المقدس بعد حصار ، وقد سقطت في تموز ١٠٩٩ م حيث احدثوا في البلد مجازر عظيمة تشيب لها الرؤوس ، وفق اغلب المصادر ، واسسوا بعد سقوط القدس اول مملكة لهم في المنطقة ليتمكنوا من احتلال باقي المناطق .

ازاء ذلك النصر الذي احرزه الصليبيون عاد كثير من رجال الحملة الاولى الى اوروبا يخبرون الغرب عما شاهدوه في بلاد المشرق ، ويثيرون فيهم الحماس للالتحاق باخوانهم في بيت المقدس ، وبالفعل جهزوا حملة جديدة ثانية لمساندة اخوانهم ومساعدتهم على احتلال المنطقة باسرها .

وبعد سقوط بيت المقدس بدأ الصليبيون عملية احتلال واسعة للمدن والمواقع التي مروا بها اثناء زحفهم الاول ، فسقطت حيفا عام ١١٠١ ، بعدها وجهوا انظارهم نحو الشمال فاحتلوا طرابلس عام ١١٠٩ وسقطت على اثرها إمارة بني عمار بأيديهم ، ومن طرابلس عاودوا زحفهم جنوبا .

اما جبيل فقد سقطت قبل ذلك في الرابع والعشرين من نيسان عام ١١٠٤ ، ولعبت دوراً في سقوط طرابلس . وخلال ذلك الزحف باتجاه الجنوب وصلوا ضواحي بيروت وبدأوا هجوما على المدينة في شباط عام ١١١٠ دافع حينها الفاطميون عن المدينة ، وحصلت بين الطرفين معارك بحرية عديدة ، الا ان المدينة سقطت في ٢٧ نيسان عام ١١١٠ م .

سقـــوط صيـــدا :

خلال الحملة الصليبية الاولى ، تصدت صيدا وحاميتها للغزاة ونالت جزاء ذلك اتلاف مزارع قرى قضائها .

وبعد تأسيس مملكة القدس بقيت صيدا ومنطقتها خارج الغزوات الصليبية حتى عام ١١٠٦ م عندما حاول الملك بودوان احتلال المدينة غير انه تراجع عن ذلك ، ولم يعاود الصليبيون الهجوم عليها الا بعد وصول النجدات اليهم وذلك في آب

١١٠٨ ، حيث حاصروا المدينة بحراً وبراً مما دعا الفاطميين الى الاسراع بارسال اسطول بحري لصد الخطر عن صيدا هذا الاسطول « الذي تمكن من ايقاع الهزيمة بالسفن الصليبية فارتفع بذلك الحصار البحري عن المدينة »(٣) .

في كتابه « الكامل في التاريخ » ، يحدثنا المؤرخ ابن الاثير عن سقوط صيدا بايدي الغزاة الصليبيين فيقول : « كان الاسطول المصري مقيماً على صور ، فلم يقدر على إنجاد صيدا ، فعمل الافرنج برجاً من الخشب واحكموه ، وجعلوا عليه ما يمنع النار عنه والحجارة ، وزحفوا به ، فلما عاين اهل صيدا ذلك ضعفت نفوسهم واشفقوا ان يصيبهم ما اصاب اهل بيروت ، فأرسلوا قاضيها ومعه جماعة من شيوخها الى الفرنج ، وطلبوا من ملكهم الأمان ، فأمنهم على انفسهم واموالهم والعسكر الذي عندهم ، ومن اراد المقام به عندهم أمنوه ، ومن أراد المسير عنهم لم يمنعوه وحلف لهم على ذلك ، فخرج الموالي وجماعة كثيرة من اعيان اهل البلد في العشرين من جمادى الاول الى دمشق واقام بالبلد كثير تحت الامان ، وكانت مدة الحصار سبعة واربعين يوماً ورحل بغدوين عنها الى القدس ثم عاد الى صيدا بعد مدة يسيرة فقرر على المسلمين الذين بها عشرين الف دينار ، فافقرهم واستغرق اموالهم »(٤) .

صمود صور قبل سقوطها :

بعد سقوط صيدا بقيت صور نافذة الجبل الجنوبية على البحر ، الميناء الفاطمي الوحيد على الساحل الشامي ، مما دفع الفاطميين الى تحصينها وجعلها مركزاً بحرياً تغير منه على مواقع الصليبيين . وعمد الصليبيون عام ١١٠٥ الى بناء قلعة محصنة في تبنين احدى بلدات الجبل القريبة من صور ، وذلك بعد عبورهم جبل عامل الى بيت المقدس في طريق داخلية بعيدة عن خط الساحل هذه المرة ، وانشأوا قلعة في هونين عام ١١٠٧ كنقطة عسكرية تساعدهم في تحركهم . ورغم ذلك فان خطاً برياً داخل الجبل بقي خارج الاحتلال، حيث كان « بعد سنة ١١١٠ المنطقة الوحيدة التي تربط دمشق بميناء بحري هو صور ، لذلك كان طغتكين يهتم

---

(٣) المرجع السابق ص ١٢١ .

(٤) ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط ٢ ، ١٩٦٧ ، ج ٨، ص ٢٦٠ .

كثيرا بابقاء المنطقة خارج الحكم الصليبي بينما كان الصليبيون يرون في المنطقة نقطة ضعف مستمرة ، واصبح تاريخها بعد سقوط صيدا مرتبطاً بمعركة ومصير صور »[5] .

وهكذا تحولت كل الانظار نحو مدينة صور آخر المعاقل الاسلامية على الساحل الشامي والميناء الوحيد الذي يربط دمشق بالبحر ، هذا في وقت أكمل فيه الصليبيون عملية الحصار بعد ان بنوا لهذه الغاية حصناً جديداً قرب المدينة في منطقة المعشوق ، وباءت كل محاولاتهم لاحتلال المدينة بالفشل والتي بدأت متتالية منذ عام ١١١١ اي بعد عام واحد على سقوط صيدا ، فقد كان لصور ، اضافة لموقعها الحصين ، مقاومة عنيفة مع جنود الاحتلال الغازي « جعلها تنفرد في التاريخ العربي مثلاً حياً على الصمود والبسالة . . ذلك ان الافرنج لم يتركوا وسيلة ولا حيلة الا مارسوها للاستيلاء على صور ، ولكن دون جدوى »[6] .

ويروي المؤرخ العربي ابن الاثير قصة حصار مدينة صور فيقول:
« لما تفرقت العساكر اجتمعت الفرنج على قصد مدينة صور وحصرها فساروا اليها مع الملك بغدوين صاحب القدس وحشدوا وجمعوا ونازلوها وحصروها في الخامس والعشرين من جمادى الأولى وعملوا عليها ثلاثة أبراج خشب علو البرج سبعون ذراعاً، وفي كل برج ألف رجل ونصبوا عليها المجانيق وألصقوا أحدها إلى سور البلد وأخلوه من الرجال وكانت صور للآمر بأحكام الله العلوى ونائبه بها عز الملك الأعز فأحضر أهل البلد واستشارهم في حيلة يدفعون بها شر الأبراج عنهم فقام شيخ من أهل طرابلس وضمن على نفسه إحراقها وأخذ معه ألف رجل بالسلاح التام ومع كل رجل منهم حزمة حطب فقاتلوا الفرنج إلى أن وصلوا البرج الملتصق بالمدينة فألقى الحطب من جهاته وألقى فيه النار ثم خاف أن يشتغل الفرنج الذين في البرج بإطفاء النار ويتخلصوا فرماهم بجرب كان قد أعدّها مملوءة من العذرة فلما سقطت عليهم اشتغلوا بها وبما نالهم من سوء الرائحة والتلويث فتمكنت النار منه فهلك كل من به الا القليل وأخذ منه المسلمون ما قدر عليه بالكلاليب ثم أخذ سلال العنب

---

(٥) محمد علي مكي ـ مرجع سابق ـ ص ١٢٤ .
(٦) احمد الشقيري ـ معارك العرب ـ دار النهار للنشر ١٩٧٥ ـ ص ٧٧ .

الكبار وترك فيها الحطب الذي قد سقاه بالنفط والزفت والكتان والكبريت ورماهم بسبعين سلة وأحرق البرجين الآخرين ثم إن أهل صور حفروا سراديب تحت الأرض ليسقط فيها الفرنج إذا زحفوا اليهم ولينخسف برج إن عملوه وسيروه إليهم فاستأمن نفر من المسلمين إلى الفرنج وأعلموهم بما عملوه فحذروا منها وأرسل أهل البلد إلى أتابك طغتكين صاحب دمشق يستنجدونه ويطلبونه ليسلموا البلد إليه فسار في عساكره الى نواحي بانياس وسيَّر اليهم نجدة مائتي فارس فدخلوا البلد فامتنع من فيه بهم واشتد قتال الفرنج خوفاً من اتصال النجدات، ففني نشاب الأتراك فقاتلوا بالخشب وفني النفط فظفروا بسرب تحت الأرض فيه نفط لا يعلم من خزنه ثم إن عز الملك صاحب صور أرسل الأموال إلى طغتكين ليكثر من الرجال ويقصدهم ليملك البلد فأرسل طغتكين طائراً فيه رقعة ليعلمه وصول المال ويأمره أن يقيم مركباً بمكان ذكره لتجيء الرجال اليه فسقط الطائر على مركب الفرنج فأخذه رجلان مسلم وإفرنجي فقال الإفرنجي نطلقه لعل فيه فرجاً لهم فلم يمكنه المسلم وحمله إلى الملك بغدوين فلما وقف عليه سيَّر مركباً الى المكان الذي ذكر طغتكين وفيه جماعة من المسلمين الذين استأمنوا اليه من صور فوصل اليهم العسكر فكلموهم بالعربية فلم ينكروهم وركبوا معهم فأخذوهم أسرى وحملوهم الى الفرنج فقتلوهم وطمعوا في أهل صور فكان طغتكين يغير على أعمال الفرنج من جميع حياتها وقصد وقصد حصن الحبيس في السواد من أعمال دمشق وهو للفرنج فحصره وملكه بالسيف وقتل كل من فيه وعاد الى الفرنج الذين على صور وكان يقطع الميرة عنهم في البر فأحضروها في البحر وخندقوا عليهم لم يخرجوا اليه فسار الى صيدا وأغار على ظاهرها فقتل جماعة من البحرية وأحرق نحو عشرين مركباً على الساحل وهو مع ذلك يواصل أهل صور بالكتب يأمرهم بالصبر والفرنج يلازمون قتالهم وقاتل أهل صور قتال من أيس من الحياة فدام القتال الى أوان إدراك الغلات فخاف الفرنج أن طغتكين يستولي على غلات بلادهم فساروا عن البلد عاشر شوال إلى عكا وعاد عسكر طغتكين اليه وأعطاهم أهل صور الأموال وغيرها ثم أصلحوا ما تشعث من سورها وخندقها وكان الفرنج قد طموه »[٧].

---

(٧) ابن الاثير ـ مصدر سابق ـ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

ومقابل استمرار الضربات اليومية من قبل الافرنج ، كانت المساعدات تردها من طغتكين شرقاً ومن الفاطميين غرباً . وكان العامليون يمدون السلاجقة بالمساعدة باتجاه المدينة المحاصرة رغم ان بعض مناطقهم سقطت في ايدي الغزاة . . .

فقد «أتت أهل صور رجالة كثيرة من صور وجبل عاملة رغبوا في ذلك (الدفاع عن المدينة) مع رجالة من دمشق وصلوا اليهم وحصلوا عندهم، وشرع أتابك في انفاذ عدة أخرى»[٨].

وازاء المساعدات المتتالية الواردة الى صور من طغتكين عن طريق الجبل اعلنت المدينة المحاصرة الولاء للسلاجقة الذين عينوا عليها الامير مسعود ، دون ان تنقطع الخطبة فيها للخليفة الفاطمي .

وقام طغتكين بهجوم كاسح على القوات الصليبية بعد ان جهز جيشاً لذلك ، واستطاع من خلاله ضرب قلعة تبنين والتوغل داخل الاراضي الفلسطينية ، وهذا ما دفع بالصليبيين الى طلب التفاوض معه ، فرفض ذلك ، الا ان النصر لم يكتب لهذه الحملة التي لو نجحت لقضت على التواجد الغربي في المنطقة .

وامام تفسخ الوحدة الاسلامية ، عاود الصليبيون هجماتهم على صور وبنوا قلعة جديدة جنوبي المدينة قرب اسكندرونه ، وهي موقع استراتيجي على الساحل وذلك عام ١١١٦ الا انهم لم يستطيعوا التقدم شمالاً باتجاه المدينة .

سقوط صور:

وعام ١١٢٢ وصل اسطول فاطمي الى صور واعاد الولاء للخليفة في مصر بعد ان عيَّن حاكماً فاطمياً عليها ، ما لبث بعيد مغادرة الاسطول الميناء ، ان طلب العون من دمشق فلباه طغتكين . وتوالت بعد ذلك الهجمات على المدينة وعلى مدى سنتين ، الى ان جهز الصليبيون جيشاً واسطولاً من ٣٠٠ سفينة وخمسة عشر الف مقاتل حسب المصادر الصليبية ، فحاصروها بحراً بفضل هذا الاسطول التابع للبنادقة وبراً بواسطة المقاتلين الصليبيين وذلك اواسط شباط عام ١١٢٤ حتى استسلمت في

---

(٨) حسن الامين: العرفان: م ٥٦، ج ٤، ايلول ١٩٦٨، ص ٣٥١ نقلاً عن ابن القلانسي ـ ذيل تاريخ دمشق.

العام ذاته كآخر معقل عربي على الساحل الشامي ، وبسقوطها اتم الصليبيون السيطرة على جبل عامل ، واتبعوه وفق تقسيماتهم الادارية الجديدة للمملكة اللاتينية ببيت المقدس .

وتبدو صُوَرُ الاستبسال والدفاع عند اهالي صور في التصدي لعملية احتلال مدينتهم، من خلال ما رواه الرحالة ابن جبير نقلاً عن احد اهالي صور الذين قابلهم اثناء زيارته للمدينة فيقول: « فأعلمنا به أحد أشياخ أهل صور من المسلمين انها اخذت منهم سنة ثماني عشرة وخمس مئة، وأخذت عكة قبلها باثنتي عشرة سنة بعد محاصرة طويلة وبعد استيلاء المسغبة عليهم؛ ذكر لنا أنهم انتهوا منها لحال نعوذ بالله منها ، وأنهم حملتهم الأنفة على أن هموا بركوب خطة عصمهم الله منها ، وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم وأبناءهم في المسجدالجامع ويحملوا السيف عليهم غيرة من تملك النصارى لهم ثم يخرجوا الى عدوهم بعزمة نافذة ويصدموهم صدمة صادقة حتى يموتوا على دم واحد ويقضي الله قضاءه. فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم وأجمعوا على دفع البلد والخروج منه بسلام»(٩) .

وهنا رواية ابن الاثير عن سقوط المدينة :

«كانت مدينة صور للخلفاء العلويين بمصر ولم تزل كذلك الى سنة ست وخمسمائة فكان بها والٍ من جهة الأفضل أمير الجيوش وزير الآمر بأحكام الله العلوي يلقب عز الملك وكان الفرنج قد حصروها وضيقوا عليها ونهبوا بلدها غير مرة فلما كان سنة ست تجهز ملك الفرنج وجمع عساكره ليسير الى صور فخافهم أهل صور فأرسلوا إلى أتابك طغتكين صاحب دمشق يطلبون منه أن يرسل اليهم أميراً من عنده يتولاهم ويحميهم وتكون البلد له وقالوا له إن أرسلت إلينا والياً وعسكراً وإلاّ سلَّمنا البلد الى الفرنج ، فسيَّر اليهم عسكراً وجعل عندهم والياً اسمه مسعود وكان شهماً شجاعاً عارفاً بالحرب ومكايدها وأمدَّه بعسكر وسيَّر اليهم ميرة ومالاً فرقه فيهم وطابت نفوس أهل البلد ولم تغير الخطبة للآمر صاحب مصر ، ولا السكة وكتب الى الأفضل بمصر يعرفه صورة الحال ويقول متى وصل اليها من مصر من يتولاها ويذب عنها سلمتها اليه ويطلب أن الاسطول لا ينقطع عنها بالرجال والقوة فشكره الأفضل على ذلك وأثنى عليه وصوَّب رأيه فيما فعله وجهَّز أسطولاً وسيَّره الى صور فاستقام أحوال أهلها ولم

(٩) رحلة ابن جبير - دار التراث - بيروت - ١٩٦٨ ص ٢٥٢ .

يزل كذلك الى سنة ست عشرة بعد قتل الأفضل فسيَّر اليها اسطولاً على جاري العادة وأمر المقدم على الأسطول أن يعمل الحيلة على الأمير مسعود الوالي بصور من قبل طغتكين ويقبض عليه ويتسلم البلد منه وكان السبب في ذلك أن أهل صور أكثروا الشكوى منه الى الآمر بأحكام الله صاحب مصر بما يعتمده من مخالفتهم والإضرار بهم فسار الأسطول فأرسى عند صور فخرج مسعود اليه للسلام على المقدم عليه فلما صعد الى المركب الذي فيه المقدم اعتقله ونزل البلد واستولى عليه وعاد الأسطول الى مصر وفيه الأمير مسعود فأكرم وأحسن اليه وأعيد الى دمشق وأما الوالي من قبل المصريين فإنه طيب قلوب الناس وراسل طغتكين يخدمه بالدعاء والاعتضاد وأن سبب ما فعل هو شكوى أهل صور من مسعود فأحسن طغتكين الجواب وبذل من نفسه المساعدة ولما سمع الفرنج بانصراف مسعود عن صور قوى طمعهم فيها وحدثوا نفوسهم بملكها وشرعوا في الجمع والتأهب للنزول عليها وحصرها فسمع الوالي بها للمصريين الخبر فعلم أنه لا قوة له ولا طاقة على دفع الفرنج عنها لقلة من بهاء من الجند والميرة فأرسل الى الآمر بذلك فرأى أن يرد ولاية صور الى طغتكين صاحب دمشق فأرسل اليه بذلك فملك صور ورتب بها من الجند وغيرهم ما ظن فيه كفاية وسار الفرنج اليهم ونازلوهم في ربيع الأول من هذه السنة وضيقوا عليهم ولازموا القتال فقلَّت الأقوات وسئم من بها القتال وضعفت نفوسهم وسار طغتكين الى بانياس ليقرب منهم ويذب عن البلد ولعل الفرنج إذا رأوا قربه منهم رحلوا فلم يتحركوا ولزموا الحصار فأرسل طغتكين الى مصر يستنجدهم فلم ينجدوه وتمادت الايام وأشرف أهلها على الهلاك فراسل حينئذ طغتكين صاحب دمشق وقرر الأمر على ان يسلم المدينة اليهم ويمكنوا من بها من الجند والرعية من الخروج منها بما يقدرون عليه من أموالهم ورحالهم وغيرها فاستقرت القاعدة على ذلك وفتحت ابواب البلد وملكه الفرنج وفارقه أهله وتفرقوا في البلاد وحملوا ما أطاقوا وتركوا ما عجزوا عنه ولم يعرض الفرنج الى احد منهم ولم يبق الا الضعيف عجز عن الحركة وملك الفرنج البلد في الثالث والعشرين من جمادى الاولى من السنة وكان فتحه وهناً عظيماً على المسلمين فانه من احصن البلاد وأمنعها فالله يعيده الى الاسلام ويقر أعين المسلمين بفتحه بمحمد وآله »[١٠].

---

(١٠) ابن الاثير ـ مصدر سابق ـ ص ٣١٥ ـ ٣١٦ .

الفصــل الثانــي

في مواجهة الاحتلال الصليبي

احكم الصليبيون الغزاة سيطرتهم على المنطقة في الوقت نفسه الذي كانت الدولة العباسية تشهد صراعات محلية ضمن دويلات عدة وتحت ظل الخلافة الاسمية في بغداد.

كان جبل عامل تابعاً للدولة الفاطمية عشية الغزو الافرنجي ، باستثناء بعض اجزائه الشرقية التي تبعت حكم الاتابكة في دمشق .

وشعرت الساحة الاسلامية حينها انها بحاجة اكثر من اي وقت مضى لقائد يوحد صفوفها ويجمعها تحت راية واحدة لمقارعة الاحتلال الجاثم على طول الساحل الشامي ، الا ان الخلافات والانقسامات الداخلية حالت دون ذلك .

ورغم ذلك كله ،فان فكرة المقاومة والتصدي لقوات الاحتلال الصليبي راودت نفوس الجميع .

ولادة العمل النضالي :

ويظهر مثل ذلك في التطورات التي حصلت في دمشق والتي قام بها الاتابك طغتكين بعد فشله في التصدي لقوات الغزو اثناء حصارها الاخير لمدينة صور . فقد وطد حكمه داخل دولته التي سماها (الدولة الاتابكية) ليبدأ من داخلها المقاومة ضد قوات الاحتلال الجاثمة على طول الساحل الشامي ، والتي حاولت القيام بهجوم على

دمشق ، فتصدى لها طغتكين ومنعها من تحقيق مطالبها ، الا ان الموت عاجله عام ١١٢٨ وحال دون تحقيق احلامه التوسعية .

ومع تسلم ولده تاج الملك زمام الامور في الاتابكية ، برزت في المنطقة شخصية عسكرية مهمة هي الاتابك عماد الدين الزنكي الذي عينه السلطان السلجوقي اتابكاً على الموصل وكلفه حينها بمحاربة الصليبيين ، فراودته بعد موت طغتكين فكرة الاستيلاء على دمشق في سبيل اخضاع المنطقة لسيطرته والشروع بالتصدي لقوات الافرنج الا انه فشل في احتلال المدينة .

بناء قلعة الشقيف :

باشر الصليبيون بعد سيطرتهم على البلاد في تشييد القلاع والحصون لردع اي خطر قد يهددهم، فقام ملك اورشليم (فولك) عام ١١٣٥ ببناء قلعة ضخمة في منطقة الشقيف على تلة استراتيجية هامة تشرف على تحركات المسلمين في حال تنفيذ أي هجوم ضدهم ، عرفت باسم قلعة الشقيف .

تعتبر قلعة الشقيف أرنون من القلاع التاريخية التي تختصر تاريخ بلاد الشام ، حيث شهدت بعد تلك الحقبة المعارك الحاسمة والعديدة إن بين المسلمين والصليبيين أو بين الدويلات المحلية .

وقد وصفها العديد من الرحالة العرب والاجانب في كتاباتهم . كتب ماشنجي عام ١٦١٤ يصف القلعة : « قلعة الشقيف منتصبة على صخر شاهق ، ومبنية بالحجر الاصم على شكل زاوية ، ارتفاعها ٤٠٠ ذراع ودائرتها ٥٤ ، لها ابراج مربعة تسع خمسمائة جندي ، وفيها من الزاد ما يفيض على ثلاث سنين ، ناهيك عن صهاريج المياه وآبار الزيت . وجدنا من اثاث الامير (فخر الدين المعني) الشيء الكثير ، والشائع انه اخفى فيها كمية كبيرة من المال . وهي في الخارج في غاية المناعة ، وقد حفرت لها خنادق عميقة امام المواقع السهلة المنال . . . »[1] .

اما سانتي فقد وصفها : « قلعة الشقيف تبعد عن الساحل ١٨ ميلاً ، منتصبة

---

(١) ياسين سويد ـ التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الامارتين ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٠ ـ الجزء الأول ـ ص ٢٤٤ .

على جبل صخري مـزحلق من كل جهـاته الا من جهـة واحدة ضيقـة جداً يسهـل صد العدو عنها ، تشبه ببنائها قلعة بـانياس لكنهـا اصغر منهـا ، لا يتطلب تحصينهـا سوى نفقة زهيدة ، حاميتها ثلاثمائة جندي »[٢].

اما عيسى اسكندر المعلوف فقد وصفها قائلاً : « هذه القلعة منحوتة في صخـر شاهق يشرف على نهـر الليطاني وسهـل مرجعيـون وقلعة هـونين وغيرهـا ـ وهي قلعة قديمة ـ ابنيتها من اواخر العهد الروماني وبعضها من عهد العرب ، وعلوهـا عن البحر ٢٣٤٥ قـدماً وعن نهـر الليطاني ١٥٠٠ قـدم ، تحدق بهـا من الغرب والجنـوب هـوة محفورة في الصخر عمقهـا بين ١٥و٣٦ كلم ولكنها من الجنـوب تتصل بـذروة الجبل ومـدخلها من الجنـوب الشرقي وطـولهـا ١٢٠ متـراً وعمقهـا ٣٠ متـراً ، وفي طـرفهـا الشمالي بناء ناتىء يتجه الى الشرق بطول ١٢٠ متـراً وصحنها الشـرقي بعمق ١٥ متراً وعلى حائطها الجنوبي برجان يمثلان نصف دائرة »[٣] .

تتوسط قلعة الشقيف منطقة واسعة تطل على جبال الجليل جنـوباً وجبـل الشيخ شرقا ، وجبل لبنان شمالاً ، وتتربـع وسط جبل عـامل بحصـانتها المنيعـة التي تختزن تاريخه حتى اليوم .

صور رائعة من عمران الجبل:

ونستطيع ان نلتمس خيوطاً عن أحوال الجبل يومذاك، وذلـك من خلال مـا رواه الرحالة العربي ابن جبير خلال رحلته الشهيرة لبلاد المسلمين ، والتي عرج فيهـا على جبل عامـل، اذ يقول: « واجتـزنا في طـريقنا بين هـونين وتبنين بوادٍ ملتف الشجـر ، وأكثـر شجره الـرند ، بعيـد العمق كأنـه الخندق السحيق المهـوى ، تلتقي حافتـاه ، ويتعلق بالسماء أعلاه ، يعرف بالأسطيل لو ولجته العساكـر لغابت فيـه ، لا منجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه ، المهبط اليه والمطلع عنه عقبتان كؤودان ، فعجبنـا من امر ذلك المكان . فأجزناه ومشينـا عنه يسيـراً وانتهينا الى حصن كبيـر من حصون الافـرنج يعـرف بتبنين ، وهو مـوضع تمكيس القـوافـل ، وصـاحبتـه خنـزيـرة تعـرف بالملكة ، وهي ام الملك الخنزير صاحب عكة، دمرها الله ، فكـان مبيتنا اسفـل ذلك

---

(٢) نفس المرجع ص ٢٤٤ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٤٤ .

الحصن ، ومكس الناس تمكيساً غير مستقصى ، والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس ، ولا اعتراض للتجار فيه لانهم يقصدون موضع الملك الملعون ، وهو محل التعشير ، والضريبة فيه قيراط من الدينار ، والدينار اربعة وعشرون قيراطاً »(٤) .

وتظهر حركة العمران في الجبل من خلال ما رواه لنا ابن جبير فيقول: « ورحلنا من تبنين ، دمرها الله ، سحر يوم الاثنين وطريقنا كلها ضياع متصلة وعمائر منتظمة »(٥) « ثم توجهنا الى صور يوم الخميس الثاني عشر لجماد ى المذكورة ، والموفي عشرين «لشتنبر» المذكور على البر ، واجتزنا في طريقنا على حصن كبير يعرف بالزاب ، وهي مطلة على قرى وعمائر متصلة وعلى قرية مسوّرة تعرف باسكندرونة»(٦) .

وعن مدينة صور يقول: « مدينة يضرب بها المثل في الحصانة ، لا تلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة ، قد أعدها الإفرنج مفزعاً لحادثة زمانهم ، وجعلوها مثابة لأمانهم ، هي أنظف من عكة سككاً وشوارع ، وأهلها ألين في الكفر طبائع ، واجرى الى برّ غرباء المسلمين شمائل ومنازع ، فخلائقهم أسجح ، ومنازلهم أوسع وافسح ، وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن، وعكة أكبر وأطغى وأكفر.

وأما حصانتها ومناعتها فأعجب ما يحدث به ، وذلك انها راجعة الى بابين: أحدهما في البر ، والآخر في البحر ، وهو يحيط بها الا من جهة واحدة ، فالذي في البر يفضي اليه بعد ولوج ثلاثة ابواب أو أربعة ، كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب ، واما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين الى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها ، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص . فالسفن تدخل تحت السور وترسو فيها ، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمراكب الا عند ازالتها . وعلى ذلك الباب حُراس وأمناء ، لا

(٤) رحلة ابن جبير ـ مصدر سابق ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .

(٥) نفس المصدر ـ ص ٢٤٧ .

(٦) نفس المصدر ـ ص ٢٤٩ .

يدخل الداخل ولا يخرج الخارج الا على أعينهم ، فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع ، ولعكة مثلها في الوضع والصفة لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك وانما ترسو خارجها والمراكب الصغار تدخل اليها ، فالصورية اكمل وأجمل وأحفل »(٧) .

ثم يتابع : « وهاتان المدينتان ، عكة وصور ، لا بساتين حولهما ، وانما هما في بسيط من الارض أفيح متصل بسيف البحر ، والفواكه تجلب اليهما من بساتينهما التي بالقرب منهما ، ولهما عمالة متسعة ، والجبال التي تقرب منها معمورة بالضياع ، ومنها تجبى الثمار لهما »(٨) .

« ولصور عند بابها البري عين معينة تنحدر اليها على ادراج . والآبار والجباب بها كثيرة لا تخلو دار منها »(٩) .

عماد الدين الزنكي يبدأ باسترجاع البلاد :

بعد فشله في إحكام سيطرته على دمشق وجه عماد الدين الزنكي انظاره نحو الشمال لاسترجاع الرها من ايدي الصليبيين . وفعلاً امام حماسه استطاع استرجاعها الى الحظيرة الاسلامية عام ١١٤٤ ، في الوقت الذي ارسلت فيه اوروبا حملتها الجديدة التي تمكنت مع كثافة عددها البشري من استعادة الرها من ايدي المسلمين بعد الحادثة المفجعة التي ادت الى مقتل عماد الدين الزنكي في عملية اغتيال مدبرة ، وهذا ما يظهر مدى فعالية القائد في ادارة شؤون المعركة . ولم تخل الساحة من قيادييها ، فقد تسلم نور الدين الزنكي الحكم مكان والده واستطاع السيطرة على حلب في سبيل تحقيق مشروع والده الوحدوي .

وجه نور الدين الزنكي انظاره نحو دمشق فحاصرها واحتلها عام ١١٥٤ ، محققاً بذلك حلم والده وسقطت اثر ذلك المملكة الاتابكية التي ولدت عام ١١٠٤ على يد طغتكين . ومقابل تلك الجهود الرامية الى توحيد الصفوف في المنطقة استمر

---

(٧) نفس المصدر ـ ص ٢٥٠ .
(٨) نفس المصدر ـ ص ٢٥٥ .
(٩) نفس المصدر ـ ص ٢٥٥ .

الفاطميون في زيادة ضرباتهم ضد الاسطول الصليبي الممتد على طول الساحل ، كما تمكن الاسطول الفاطمي من احتلال ميناء صور لمدة ثلاثة ايام على التوالي خلال الغزو .

احتلال مصر :

اكمل نور الدين الزنكي بعد انتصاره في دمشق مشروعه الوحدوي فاتجه نحو مصر بعد ورود صرخات الاستغاثة من حكامها هناك ، اثر التهديدات الصليبية المباشرة ومحاولتهم غزو البلاد . فقد كان نور الدين ينتظر اول صرخة ليتدخل مباشرة ، فما ان طلب احد وزراء الخلافة الفاطمية - شاور - التدخل السريع لانقاذ البلاد حتى وجدها فرصة ملائمة لتحقيق مشاريعه التي بدأت تراوده مجددا عام ١١٦٧ ، فجهز جيشاً لذلك وضع على رأسه اسد الدين شيركوه وابن اخيه صلاح الدين لنجدة مصر في حال تعرضت للاعتداء الصليبي . ولما سمحت الظروف بالزحف دخل الجيش مصر واقفل الطريق امام اي غزو صليبي لها .

وعام ١١٦٩ توفي في مصر الوزير شاور ، فخلت الساحة لاسد الدين شيركوه احد قادة جيش نور الدين ، الذي تسلم الامور تحت ظل الخلافة الفاطمية ، الا ان الموت عاجل هذا الرجل ، تاركاً الساحة لصلاح الدين .

ومع وصوله الى الوزارة سعى صلاح الدين ، بادي ذي بدء ، الى القضاء على الحكم الفاطمي فانهاه بطلب من نور الدين عام ١١٧١ م ، بعد ان وضع يده على كل امور البلاد وبدأ نجمه بالصعود ، حتى اخذ يهدد سلطة نور الدين الزنكي الذي حاول القضاء عليه ، الا ان الموت عاجل هذا الاخير ايضا وانفرد صلاح الدين وحده بالساحة كلها .

واخذت بلاد الشام تدخل في اطماعه فجهز جيشاً لاحتلالها وكان له ذلك ووصل دمشق عام ١١٧٣ ثم اكمل احتلال باقي مدن المنطقة كحمص وحماه وغيرهما .

وشعر الصليبيون بفداحة الامر ، فاخذوا يحصنون قلاعهم ويعدون العدة لاي طارىء خصوصا بعدما اصبحت المنطقة في يد صلاح الدين إثر صلحه مع امير حلب .

النضال ضد الصليبيين :

في تلك الاثناء توالت دعوات التعبئة العامة في صفوف المسلمين لبدء معركة التحرير ، وقام المسلمون اثر ذلك بحملاتهم ضد نقاط تواجد الافرنج ، ثم بدأت الحملة الاولى على طبريا التي سقطت في حزيران عام ١١٨٧ اثر معركة ضارية هزم فيها الصليبيون ، تلتها مباشرة معركة حاسمة بين الطرفين قرب حطين كتب النصر فيها للمسلمين محطمين العنفوان الصليبي في المنطقة .

ومن حطين أكمل المسلمون سيرهم لاسترجاع باقي المناطق واسترجعوا القدس الى الحظيرة الاسلامية في تشرين الاول عام ١١٨٧ بعد ثلاث سنوات عام ١١٩٠ . فيما فشلوا في استرجاع مدينة صور امام الصمود الصليبي في آخر معقل لهم جنوباً ، بل والذي منه عاودوا استيلاءهم على المنطقة ، كما استسلمت تبنين وهونين وقلعة ابي الحسن.

وعن سقوط تبنين يروي ابن الاثير ان صلاح الدين أنفذ « تقي الدين ابن أخيه الى تبنين فلما وصلها نازلها وأقام عليها فرأى حصرها لا يتم إلا بوصول عمه صلاح الدين اليه فأرسل اليه يعلمه الحال ويحثه على الوصول اليه فرحل ثامن جمادى الاولى ونزل عليه حادي عشرة فحصرها وضايقها وقاتلها بالزحف وهي من القلاع المنيعة على جبل فلما ضاق عليهم الأمر واشتد الحصر اطلقوا من عندهم من أسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة رجل فلما دخلوا العسكر أحضرهم صلاح الدين وكساهم وأعطاهم نفقة وسيَّرهم الى أهليهم وبقي الفرنج كذلك خمسة أيام ثم أرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم على انفسهم فسلموها اليه ووفى لهم وسيَّرهم إلى مأمنهم »[١٠].

أما صيدا « فان صلاح الدين لما فرغ من تبنين رحل عنها الى صيدا فاجتاز في طريقه بصرفند(*) فأخذها صفواً عفواً بغير قتال وسار عنها الى صيدا وهي من مدن

---

(١٠) ابن الاثير ـ مصدر سابق ـ م ٩ ـ ص ١٨٠ .

(*) « يصفها صاحب الفتح القدسي المرافق للجيوش بانها مدينة لطيفة على الساحل ذات بساتين وأشجار النارنج والأترج » حسن الامين ـ العرفان : م ٥٦ ، ج ٥ ـ تشرين اول ١٩٦٨ ص ٤٥٨ .

الساحل المعروفة فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه سار عنها وتركها فارغة من مانع ومدافع فلما وصلها صلاح الدين تسلمها ساعة وصوله وكان ملكها لتسع بقين من جمادى الاولى »[١١].

وعرف جسر القاسمية معارك عديدة بين الصليبيين الذين حاولوا الخروج من صور باتجاه صيدا وبين الجيوش التي حررت الجبل.

صلاح الدين في جبل عامل:

ويذكر صاحب الفتح القدسي ان صلاح الدين تفقد قلاع جبل عامل وحصونه بعد سقوطها، فقد « سار على طريق جبل عامل ونزل ضحوه بضيعة يقال لها الجش، وسرنا منها وخيَّمنا على مرج تبنين، وفي الصباح تفقد القلعة ووصّى الوالي بعمارتها، ثم رحلنا بكرة السبت وجزنا على قلعة هونين، ونزلنا من الجبل وبتنا على عين الراهب، ورحلنا يوم الاحد وخيَّمنا بمرج عيون ، ورحلنا يوم الاثنين وعبرنا بين عمل صيدا يسرة وعمل وادي التيم يمنة ، على الضياع والقرى وعرسنا على مرج تلفياتا مقابل مرج القنيعة ، ثم اصبحنا يوم الثلاثاء على الرحيل الى البقاع من تلفياتا »[١٢].

وهال الصليبيين الامر ، وشعروا بالرهبة والخطر مما دفعهم لطلب النجدة السريعة من اوروبا التي وصلتهم على دفعات واعادت لهم قوتهم السابقة ، فهاجموا عكا واحتلوها في تموز ١١٩١ ووقعوا في انتصارهم هذا هدنة مع المسلمين لمدة ثلاثين عاما وثمانية اشهر .

ومع رحيل صلاح الدين ، دب الخلاف بين ابنائه مما وضع المنطقة في شلل تام ، وسمح للصليبيين معاودة احتلال المناطق التي انتزعها منهم المسلمون ايام صلاح الدين . ولم ينته نزاع البيت الايوبي الا مع ظهور قوة جديدة احكمت سيطرتها التامة على امور البلاد في مصر ، وتسلمت الخلافة تحت اسم دولة المماليك .

---

(١١) نفس المصدر ـ ص ١٨٠ .

(١٢) حسن الامين ـ العرفان: م ٥٦، ج ٥ ـ تشرين اول ١٩٦٨ ، ص ٤٦٨ نقلاً عن صاحب الفتح القدسي.

تثبيت حكم المماليك :

استطاع المماليك وضع ايديهم على كل مجريات الامور في مصر ، وضبطوها منعاً لأي اختراق يهددهم . وترافق مع ظهورهم على الساحة ، اضافة للاحتلال الصليبي ، بروز عدوان جديد جاء يهدد المنطقة باسرها ، قاده هذه المرة المغول بقيادة (هولاكو) الذي بدأ هجومه على مركز الخلافة في بغداد وانتهى الى مقتل الخليفة العباسي في السابع والعشرين من شهر آب عام ١٢٥٨ ومع هذا النصر المروع للمغول اكملوا زحفهم باتجاه بلاد الشام وتمكنوا من احتلال المنطقة التي اصبحت بين خطرين : المغولي والصليبي .

ولم يبقَ في الساحة الاسلامية من قوى عسكرية الا المماليك الذين سعوا بسرعة الى رص الصفوف لدرء الخطر المغولي الذي اخذ يهدد أمن مصر ، وبفضل وحدتهم وسرعتهم استطاعوا صد الزحف المغولي في معركة فاصلة جرت بين الطرفين في عين جالوت في ١٣ ايلول ١٢٦٠ وانتهت بنصر المماليك مما رفع من شأنهم ودفعهم الى الاستمرار بالزحف باتجاه الشام وتمكنوا من استرجاعها . . .

الفصل الثالث

عصر المماليك

كانت معركة عين جالوت ـ ايلول ١٢٦٠ ـ حدثاً هاماً في تاريخ المسلمين ، حسمت تقدم المغول السريع وابعدتهم باتجاه الدرب الذي سلكوه خلال زحفهم المذهل . ومع انتصار المماليك واحتلالهم لمنطقة الشام ، عاد المسلمون قوة ضاربة في المنطقة ساهمت في الخلاص من الاحتلال الصليبي القابع على رئة العالم الاسلامي .

وبرز في صفوف المماليك السلطان بيبرس ، الذي تفرد في الحكم ونقل مركز الخلافة من بغداد الى مصر

تحركه لاسترجاع البلاد :

بدأ الظاهر بيبرس عملياته العسكرية ضد الصليبيين عام ١٢٦٢ اثر تدميره كنيسة الناصرة في عملية لاحدى مجموعات جيشه ، ثم قام في الخامس عشر من نيسان العام ذاته بغارة على مدينة عكا وقاد الهجوم بنفسه والذي اسفر عن حرق واتلاف المزارع المحيطة بها ، ولما شعر أنه بحاجة لعناصر بشرية من المنطقة وجه دعوة عامة للتعبئة العسكرية ، فكان له ذلك وشكل جيشاً كانت غالبيته من مصر ، وحاصر به قيسارية في الجنوب الشامي فسقطت بعد مضي اسبوع على حصارها وذلك في ١٤ آذار ١٢٦٥ ، وتابع من هناك سيره شمالاً فسقطت ارسوف ، ثم بدأ بالاغارة على حيفا وعتليت وهي مراكز تجمع صليبية مهمة .

مناورة في الشقيف وسقوط صفد :

وتوجه بعد ذلك الظاهر بيبرس الى صفد ، وقبل محاصرتها ارسل مجموعة من جيشه في عملية استطلاع لمنطقة الشقيف حيث قامت بمناورة عسكرية حية ، وكان يريد من خلالها صرف نظر الفرنجة عن قصده الحقيقي ليتسنى له تنفيذ خطته لاحتلال صفد ، التي هاجمها اربع مرات على التوالي حتى سقطت في الرابع من تموز ١٢٦٦ .

تطهير منطقة جبل عامل :

ومن صفد وجه الظاهر بيبرس انظاره نحو جبل عامل وقصد قلاعه وحصونه ففي « ٢٧ شوال ٦٤٤ هـ ١/آب ١٢٦٦ م من العام ذاته سار الى تبنين وهونين من قلاع الفرنجة في جبل عامل ، فاستولى عليهما ودمرهما بالكامل ، بحيث لم يبق لقلعتيهما اثر »[1] وهكذا جاءت معركة صفد حاسمة هذه المرة ، ارعبت الفرنجة من جديد واشعرتهم بقوة المسلمين الذين حاولوا مراراً بدءاً من نور الدين الزنكي وصلاح الدين الى الملك قطز ، جاهدين في التخلص من الكابوس ولكن دون جدوى ، حتى جاء الظاهر بيبرس وغيَّر في انتصاراته الجديدة في قيسارية وصفد مجرى الاحداث حيث هددت قوته أمن الصليبيين واخذت تبشر بقرب نهايتهم .

فتح قلعة الشقيف :

وكانت قلعة الشقيف ومنطقتها ما تزالان تحت الاحتلال الصليبي ، وهي ذات الموقع الهام والتي تشكل عقدة وصل بين منطقة الشام الوسطى وبين الساحل الغربي وما ان اخذ الظاهر بيبرس يافا بالسيف في السابع من آذار ١٢٦٨ ، حتى توجه نحوها لاسترجاعها « فنزل عليها في ١٩ رجب ٦٦٦ هـ/٦ نيسان ١٢٦٨ . وكان قد مر بصفد وحمل منها المجانيق والاسلحة اللازمة لعملية الحصار ، وعلاوة على هذه التجهيزات وهذه الاستعدادات فقد عمد الى استخدام الحيلة ، كوسيلة للاستيلاء

---

(١) طه ثلجة الطراونة ـ مملكة صفد ـ دار الآفاق الجديدة ١٩٨٢ ص ٥٢ نقلاً عن عدة مصادر . ، وكذا كل مرجع اعتمدناه من نفس الكتاب.

على الشقيف . فبينما كان في طريقه اليها وقع بيده بعض البريدية الفرنجة الذين كانوا يحملون كتاباً من الفرنجة في عكا الى اهل الشقيف يخبرونهم فيه بقدوم السلطان عليهم ، ويطلبون اليهم تحصين القلاع والاسراع الى اصلاح الثغرات التي يخشى عليها منها ، وقد رأى السلطان ان يفيد من هذه الفرصة التي لاحت له ، فبعد ان تعرَّف من خلال الكتاب على مواطن الضعف في القلعة ليركز هجومه عليها امر بتزوير كتب اللاتينية أوقع فيها بين قادة الفرنجة في الشقيف ، وبعث بكتاب امان الى عدد من المقدمين فيها ، مما ادى الى نشوب فتنة بين صفوفهم .

ومع اندلاع الفتنة بين صفوف الفرنجة في الشقيف ، اضافة لشدة الحصار الذي ضربه السلطان حولها ، اضطر الفرنجة الى تسليم احدى القلاع بعد ان أخربوها فتسلمها السلطان في ٢٧ رجب ٦٦٦ هـ/ ١٣ نيسان ١٢٦٨ م .

ولم يمضِ يومان على سقوط القلعة الاولى حتى اضطر الفرنجة الى تسليم القلعة الاخرى مقابل منحهم الامان واطلاق سراح النساء والاطفال ، واخذ المقاتلة الاسرى ، فتم لهم ذلك . وتسلم السلطان القلعة الاخرى في ٢٩ رجب ـ ١٥ نيسان ـ وزودها بالعساكر والاسلحة ، وطلب من مجموعة من عساكره ملازمتها واعادة عمارتها ، وعيَّن بها قاضياً وخطيباً ، واصبحت مركز ولاية تتبع المملكة الصفدية »[٢] .

سقـوط الساحـل :

وبسقوط قلعة الشقيف وتطهير منطقتها ، انتهى التواجد الصليبي داخل الجبل فيما بقي الخط الساحلي بايدي الصليبيين ، حتى سقطت طرابلس بايدي المسلمين في نيسان ١٢٨٩ ، ثم هوجمت عكا في الثامن عشر من ايار ١٢٩١ فجرت فيها معركة حاسمة انتصر فيها المسلمون . واثناء حصاره لعكا ، ارسل الاشرف خليل بعضاً من قواته الى منطقة صور الساحلية لحفظ الطرقات هناك ، فما كان من اهلها الا ان طلبوا الامان من جند السلطان فامنوهم ، وتسلموا المدينة في ايار من نفسه واستسلمت من بعدها مدينة صيدا في تموز ثم بيروت واخيراً حيفا وعتليت ، وانهى المسلمون حينها بهذه الانتصارات الاحتلال الصليبي الذي بقي قابعا مدة قرنين على صدر هذه

(٢) نفس المرجع ص ٥٤ ـ ٥٥ نقلاً عن ابن عبد الظاهر وابن كثير وغيرهم .

المنطقة ، والتي فتحت صفحة جديدة من تاريخها تحت حكم المماليك حتى الفتح العثماني .

تحت حكم المماليك :

افاقت المنطقة بعد ظلام دامس عاشته تحت نير الاحتلال الصليبي دام قرنين من الزمن ، فكانت حملة التحرير الشاملة صفحة جديدة فتحتها البلاد مستعيدة سنوات الحكم العربي الاسلامي الذي سقطت قاعدته السابقة في بغداد اثر الزحف المغولي للبلاد عام ١٢٥٨ م ، والذي اتى اليوم تحت راية المماليك . خلال ذلك عاش جبل عامل قرنين وربع القرن من الزمن مشاركاً الامة مجريات الساحة ، خصوصاً الاقتصادية منها ، ولمع فيه أعلام عظام في الدين والعلم ، قاد احدهم الانتفاضة العاملية داخل الجبل وتصدى مع اخوته لانحرافات حكام الدولة وتعدياتهم حتى نال شهادته .

الوضع الاداري لجبل عامل :

فتح المماليك صفد عام ١٢٦٦ م وانشأوا فيها مملكة حملت اسم « مملكة صفد » بدأت تتوسع رويداً رويداً مع الانتصارات والفتوحات التي حققوها في معاركهم مع الصليبيين .

وعندما سقطت منطقة الشقيف عام ١٢٦٨ م ضمها المماليك الى مملكة صفد الجديدة وشكّلت احدى ولاياتها ، بعد ان ضمت اليها ايضا ولايتا هونين وتبنين .

واضحى جبل عامل حدوداً شمالية للملكة باستثناء بعض مناطقه الشمالية التي تبعت مع مدينة صيدا ولاية دمشق ، وشكل الحوض الجنوبي لمجرى نهر الزهراني الذي يصب في البحر الى الجنوب من صيدا ، ثم باتجاه الشرق وبانحراف نحو الجنوب حتى مرجعيون حدوداً شمالية للمملكة ، في حين شكل الخط المبتدىء من طرف مرجعيون الشرقي الى نهر الحاصباني جزءاً من حدودها الشرقية .

مع اكتمال فتح الساحل الشمالي من طرابلس حتى صور ، قُسِمَ جبل عامل الى اربع ولايات داخل المملكة هي التالية :

١ ـ ولاية تبنين وهونين وتضم ٣٢ قرية .

٢ ـ ولاية صور وتضم ٢٧ قرية .

٣ ـ ولاية الشقيف وتضم ٣٤ قرية .

٤ ـ ولاية الاقليم وتضم ١٢ قرية .

وكانت ولاية الشقيف اكبر ولاية في المملكة الصفدية .

المشاركة العاملية في اقتصاديات المملكة :

فتح جبل عامل بعد حملة التحرير الشاملة ، صفحة جديدة تحت ظل المملكة وساهم فعليا في اقتصادياتها وبمستوى جيد . على صعيد الزراعة ساهمت الانهار التي تمر في الجبل واخصبها نهرا « ليطا » الليطاني والحاصباني ، على اخصاب السهول والاراضي العاملية الزراعية ، كالسهل الساحلي وسهل الحولة وسهل مرجعيون ـ الخيام ـ مما دفع الانتاج الزراعي نحو التصاعد كماً ونوعاً .

ومن المزروعات المهمة التي عرفها جبل عامل في تلك الحقبة ، القمح والقطاني والارز الذي وجدت حقوله « بالقرب من صور وحول قناتها بالذات ، بسبب وفرة المياه التي كانت تحملها تلك القناة »[٣] ومن المزروعات الصناعية عرف زراعة القطن وقصب السكر الذي زرع في « السهل الساحلي المحيط بمدينة صور »[٤] .

وبخصوص الاشجار المثمرة ، نشطت في اراضي الجبل زراعة الزيتون وبكثافة بدليل وجود معاصره ؛ حتى اليوم كما « كان العنب والتين يزرعان بشكل كثيف في جبل عامل »[٥] . هذا اضافة للغابات والاحراج التي غرست بالبلوط والسنديان والصنوبر وغطت مساحات واسعة من اراضي الجبل ، دون ان ننسى زراعة اشجار التوت التي ساعدت على تربية دودة القز لانتاج الحرير . اما بالنسبة للثروة الحيوانية فان البقر والجواميس كثرت اعدادها في الجبل « وقد غنم عسكر المماليك عدداً كبيراً منها ، اثناء غارتهم على عكا وصور سنة ٦٦٤ هـ/ ١٢٦٦ م ، وقد جلبوا منها ومن الغنم الى الحد الذي لم يوجد من يشتريها لكثرة ما جلب منها »[٦] كما

---

(٣) نفس المرجع ص ١٦٥ .

(٤) نفس المرجع ص ١٦٦ .

(٥) نفس المرجع ص ١٦٧ .

(٦) نفس المرجع ص ١٦٩ .

عرفت تربية النحل « بدليل انتاجها من العسل الذي اشتهرت به منطقة الشقيف ومنطقة الكرمل »[٧] .

اضف الى ذلك صيد الاسماك الذي نشط في سواحل صور ومستنقعات نهر الليطاني[٨] .

هذا بالنسبة للثروة الزراعية والحيوانية ، اما بخصوص الصناعة فقد نشطت هي الاخرى في العديد من قرى الجبل ومدنه ، اذ ظهرت صناعات مختلفة صدِّر الفائض منها الى خارج ولايات الجبل.

واشتهرت « مدينة صور بصناعة المنسوجات الحريرية منذ العهد البيزنطي ، لاعتناء اهلها بتربية دودة القز منذ ذلك الوقت ، وقد بلغت هذه الصناعة درجة رفيعة ايام الفرنجة ، حيث كانت المنسوجات الحريرية المصبوغة بالارجوان الصوري تصدر الى اوروبا »[٩] . وبهذا الصدد تشير نتائج الاحصاء العثماني الى وجود عشرة دواليب لحياكة الحرير في جبل عامل مقابل احد عشر دولاباً فقط في باقي مملكة صفد وزعت على الشكل التالي :

المزرعة/القرية	الناحية	عدد الدواليب
تبنين	تبنين	٢
ابل	تبنين	١
دبين	تبنين	١
عرمتا	الشقيف	٢
الجرمق	الشقيف	١
وادي ريحان	الشقيف	٣ »[١٠]

وعرفت البلاد من الصناعات الغذائية عصر الزيتون والعنب لاستخراج الزيت والدبس ، وما تزال معاصرهما حتى اليوم ، اضافة الى طحن القمح للحصول على

---

(٧) نفس المرجع ص ١٧٠ .
(٨) نفس المرجع ص ١٧٠ .
(٩) نفس المرجع ص ١٧٠ ـ ١٧١ .
(١٠) نفس المرجع ص ١٧٠ .

الـطحين ، وفي نتائـج المسح العثمـاني الاول اشارة الى وجـود ٧٢ معصرة في جبـل عامل من اصل ١٣٥ معصرة في كل انحاء المملكة ووجود ٢٤ طاحونـة في الجبل من اصل ٩٢ في المملكة موزعة على الشكل التالي :

« الناحية	عدد المعاصر
الشقيف	١٨
تبنين	٥٤
ب ـ الناحية	عدد الطواحين
الشقيف	١٦
تبنين	٨ »[١١]

هذه النسب الجديدة في عدد الدواليب والمعاصـر والطواحين في الجبـل تعطي صورة واضحة عن الحالة الصناعية الناشطة آنذاك في بلاد عاملة .

ومن الصنـاعات الـطبيعية التي عـرفها جبـل عامـل ونشطت في ولايـة الشقيف « صناعة كيـزان الجبير ، التي كـانت تستعمل في تجبيـر كسور النـاس والبهائم لتـوفر تراب الجير هناك ، ولما كانت هذه الكيزان تفيض عن حاجـة السكان هنـاك[*] ، فقد كانت تباع للمناطق المجاورة »[١٢] ، وما تزال هـذه الصناعـة تعرف لليـوم في منطقـة الشقيـف .

اما من الناحية التجاريـة فقد عـرفها الجبـل داخليا وخـارجيا ولعب مـرفأ صـور البحـري دوراً بارزاً في تصـدير الانتـاج الى الخارج ، وعـرفت مملكة صفـد خانـات « ومـراكز للتمكيس في كـل من عكا وصـور والشقيف »[١٣] لتسهيـل حـركـة التجـارة الـداخلية اضـافة الى الاسـواق الداخليـة الشعبية الهـامة في عـدة مدن اهمهـا « سوق النباطية التحتا في الشقيف »[١٤] والذي ما يزال يقام حتى يومنا هذا .

---

(١١) طه ثلجي الطراونة ص ١٧٣ .

(*) منطقة الشقيف .

(١٢) نفس المرجع السابق ص ١٧٤ .

(١٣) نفس المرجع السابق ص ١٧٨ .

(١٤) نفس المرجع السابق ص ١٧٨ .

هذه الصورة لاقتصاديات الجبل تعكس الحالـة الجيدة التي عـاشها تحت حكم المماليك ، والتي ستساهم جدياً في بروز كبار الملاكين الذين سيتصاعـد نفوذهم مـع بداية الفتح العثماني للبلاد .

الحملات الكسروانية :

بعد تقسيم البلاد الى مقاطعات عدة ، سعى المماليك الى تنظيم شؤون البـلاد الادارية ووفق ما تقتضيه مآرب السلطات فكانوا يستخدمون في ادارتهم اساليب القمع في اغلب الاحيان وطالت سـطوتهم بعض اتباع المـذاهب الاسلاميـة اضافـة لمناطق مميزة ، وكان للوشاية والمآرب الخاصة دورهما الرئيسي في ذلك ، وهذا ما جرى في حملة السلطان الاشرف عام ١٢٩٢ التي جردها ضد منطقـة كسروان(*) احـدى مناطق ولايـة دمشق ، باسلوب ارهـابي مميز من القتـل والنهب ، تكرر ثـلاث مـرات عـامي ١٣٠٢ و١٣٠٥ ، العـام الـذي قضي فيـه على معـالم الحيـاة في المنـطقـة ، وهجّـر سكانها الباقين الذين لجأوا الى جبل عامل وقطنوا منطقة جـزين الشماليـة وعاشـوا مع سكانها ، حيث ولدت من هناك بعد فترة انتفاضة الجبل الجديدة .

صعود المماليك البرجيين :

وفي الحلقة الثانية كانت بؤرة الخلافات بين الممـاليك البحـريين في مصر قـد بـدأت بالاتسـاع بظهـور طائفـة جديـدة هي « الشراكسـة » التي بـدأت تنـازعهم على الحكم حتى اذا ما جاءت سنة ١٣٨٢ م قام المماليك البرجيون الشـراكسة بقيـادة احد امرائهم الظاهر برقـوق بالاستيـلاء على الحكم والسيطرة على كـل مرافقـه مع الابقـاء على التقسيمات الادارية السابقة .

ومع ظهور حكم البرجيين ظهرت على الساحة عـدة انتفاضـات وحركـات تمرد كان من بينها الحركة العاملية .

الانتفاضـــــــة :

اثر نزوحهم من منطقة كسروان ، التحم الكسروانيون مع اخوانهم العامليين في منطقة جزين واستعدوا للتصدي لأي حملة ارهابية جديدة ضدهم .

(*) تتبع اليوم محافظة جبل لبنان.

عرف جبل عـامل ابتـداءً من القرن الـرابع عشـر الميلادي والسنـوات التاليـة ، وجـوهاً علميـة لمعت في الجبل كله امثـال الشيخ طحـان بن صالـح العاملي والشيـخ صالح بن مشرف العاملي . وبدأت المدارس الدينية بالظهور مع بداية القرن الخامس عشر وبشكل منـظم فكانت مـدرسة جـزين اضخمها والتي اسسهـا العلامـة محمد بن مكي الجزيني (١٣٣٣ ـ ١٣٨٤) رائد الحركة العاملية ومفجر حركتها الثورية .

محمد بن مكي ـ الشهيد الاول :

هو الشيخ ابو عبد الله شمس الدين محمد بن الشيـخ محمد جمـال الدين مكي ولد عام ٧٣٤ هـ ١٣٣٣ م وتلقى علومه الاولى في جبل عامل « ثم هـاجر الى العـراق سنة ٧٥٠ (١٣٤٩) وعمره ست عشـرة سنة فقـرأ على فخر المحققين ولـد العلامـة . ويحكى عن فخر المحققين انه قال استفدت منه اكثر مما استفاد مني »[١٥] . وحصـل على عدة اجازات في العلم من عدة مراجع وعلماء في العراق ثم عاد الى جبل عامـل وعمـره واحد وعشـرون عامـاً . ويذكـر السيد محسن الامين في اعيـانـه عن زيـارات الشهيد الاول « لبلاد مكة والمدينـة ودار السلام وبغـداد ودمشق وبيت المقدس ومقـام الخليل »[١٦] .

عاد الشهيد الاول الى بلاده حاملاً ذخراً من العلم والمعرفة لينشره بين مواطنيـه ويجسده بفكره الاصلاحي .

جهاد الشهيد الاول :

كانت الساحة العاملية بحاجة ماسة لزعيم ديني يوحِّد آراءها ويجمع شملهـا في ظـل حملات القمـع المتكررة من حكـام المماليـك ، والتي اتخذ على اثـرهـا بعض سكان كسروان النازحين وسكان المـدن الساحليـة مبدأ التقيـة مما سبب اختـلاق بدع خطيرة في بعض انحاء الجبل .

وفور عودته الى البلاد بدأ الشهيد الاول حملة وعي شاملة في صفوف العـامليين ناشراً علم الشريعة ثم قام بمحاربة المعتقدات والبدع التي بدأت تظهر في المنطقة .

---

(١٥) محسن الامين ـ اعيان الشيعة ـ مرجع سابق ـ م ١٠ ـ ص ٥٩.

(١٦) نفس المرجع السابق.

ومن تلك البدع الخطيرة يومذاك في الجبل ، ظهور رجل مشعوذ « ادعى النبوة واسمه محمد اليالوشي من قرية تسمى برج يالوش »[17] تصدى له الشهيد الاول والتقى به حيث « جرت معركة بين الطرفين في النبطية الفوقا (معركة الشهداء) انتصر فيها شمس الدين محمد بن مكي »[18] وشكلت بانتصارها الرائع شرارة اولى للحركة العاملية التي اخذت تقوى متخذة من جزين قاعدة لها . وباشر الشهيد الاول على اثرها إتصالات خارجية فكاتب السلطان علي بن المؤيد في ايران وذلك لشد أزر الانتفاضة وتوسيع عملها ، والتي اخذت الابعاد التالية :

١ ـ القضاء على البدع والشعوذات التي ظهرت في الجبل وأخذت تهدد الامور الشرعية .

٢ ـ التحرك من اجل حماية الجبل والاستعداد تحسباً لاي هجوم أو حملة اجرامية على غرار حملات كسروان قد تهدد المواطنين فيه .

٣ ـ جمع شمل العامليين ، خصوصا بعد ظهور بوادر اقطاعية ترمي الى استغلال الشعب والارض ومعارضة الاصلاح الديني الذي بدأت الحركة بطرحه .

٤ ـ ربط ووصل القضية العاملية بقوى المنطقة والتي شكلت سياسة خارجية جديدة .

ان هذه الطروحات المتعددة التي جاء بها الشهيد الاول كانت جديدة في المنطقة وقد بدأت تهدد عدة سلطات :

١ ـ سلطة الاقطاع الذي يحاول جاداً البروز.

٢ ـ سلطة الامن في المملكة الصفدية .

٣ ـ سلطة الحكم المملوكي في المنطقة بالذات .

وكان هذا سبباً رئيسياً دعا كل هذه الاطراف للعمل من اجل تصفية الانتفاضة باسرع وقت ممكن ، وهذا ما قام به خصوم قائدها المحليون الذين بدأوا سياسة انتقامية لوأد الانتفاضة في مهدها عندما ارسلوا وشايات وتهم مختلقة بحق العلامة محمد بن مكي الى مقر السلطان في دمشق والتي تحدثت عن مخالفة الشهيد الاول

(١٧) محسن الامين ـ مرجع سابق ص ٦٠ .

(١٨) محمد علي مكي ـ مرجع سابق ص ٢٥٣ .

للاحكام الشرعية التي تعترف بها سلطة المماليك ، فتمسك بها السلطان للقبض على العلامة ابن مكي ومحاكمته وتصفيته .

اول عمل قامت به الادارة في دمشق ارسالها بطلب حضور العلامة محمد بن مكي الذي ما ان وصلها حتى سجنه نائبها بيدمر الخوارزمي في قلعتها ، وبالطبع سيؤثر غياب قائد الانتفاضة على استمراريتها اذ انها بدأت بعد تلك الحادثة تشهد انحساراً حيناً بعد حين حتى وُئدت حية .

دخل الشهيد الاول السجن ، وانكب فيه على المطالعة والتأليف ، واخرج اثناء اقامته سجيناً كتابه الشهير (اللمعة الدمشقية) « وذلك بناءً على طلب السلطان علي بن المؤيد في ايران لجعله دستوراً لدولته هناك »[19] ، وقد اعتمد هذا الكتاب وما يزال ، مرجعاً اساسيا للدراسات الاسلامية الفقهية في انحاء العالم الاسلامي كله .

وخلال اقامته في القلعة ، كان الشهيد الاول يتصل بين الحين والآخر بحكام المماليك في دمشق لمناقشة الامر المهم الذي من اجله سُجن ، الا انه لم يلق آذاناً صاغية لذلك . وفي قصيدة من قلب السجن ارسلها الشهيد الاول الى نائب دمشق الخوارزمي عبَّر فيها عن مشاعره تجاه الحكم ، نافياً التهمة الملصقة به ، جاء في القصيدة :

«يا ايها الملك المنصور بيدمر — بكم خوارزم والاقطار تفتخر
إني اراع بكم في كل آونة — وما جنيت لعمري فكيف اعتذر
لا تسمعن في اقوال الوشاة فقد — باؤوا بوزر واقل ليس ينحصر
والله والله ايمانا مؤكدة — اني بريء من الافك الذي ذكروا»[20]

ولم يقبل النائب بصدق العلامة محمد بن مكي ، بل اتخذ من الوشايات ذريعة لمحاكمته . فبعد مرور عام على وجوده في السجن طُلب العلامة ابن مكي الى المحاكمة في حضور قاضيين من مذهبين اثنين وافتى احدهما بوجوب قتله ، فيما برّأه

---

(١٩) محمد علي مكي ـ مرجع سابق ص ٢٥٤ .
(٢٠) محسن الامين ـ اعيان الشيعة ـ م ١٠ ـ ص ٦٩ .

الآخر ، إلا أن النائب وافق على فتوى القتل فالبسوه ثياب الحكم ثم قتلوه بالسيف ، وكان ذلك في التاسع من شهر جمادى الاول عام ٧٧٦/ ١٣٨٤ م .

اعدم الشهيد الاول محمد ابن مكي ، واستحق الشهادة التي حمل لقبها ، بحيث يعرف اليوم في الاوساط الدينية والتاريخية بالشهيد الاول ، ورحل تاركاً وراءه بوادر انتفاضة ومدرسة وفكراً وطلاباً .

بروز الاقطاعيين / النظام الاقطاعي :

مع رحيلها عن البلاد ، تركت الحملات الصليبية وراءها نظاماً اقتصادياً واجتماعياً جديداً في المنطقة ، وجد فيه بعض المتزلفين أملاً في تحقيق رغباته الشخصية ، واحكموا بواسطته سيطرتهم على البلاد .

في المفهوم السياسي عرف النظام الاقطاعي انه « نظام اجتماعي اقتصادي كان شائعاً ابان القرون الوسطى لا سيما في اوروبا وكان يقوم في الدول التي تعتمد اقتصادياتها على الزراعة »[٢١] بحيث تعتبر الاراضي وفق هذا النظام ملكاً للسلطة الاساسية ، متمثلة بالملك في اغلب الاحيان الذي « يوزعها اقطاعات على الامراء ، في نظير التزامات مالية أو عسكرية »[٢٢] . في حين يقوم الامير بذاته بتقسيم الارض المقتطعة له على طبقة من الاقطاعيين في نظير التزامات يتكفلون بها ، ويعيش السادة على عمل الفلاحين الذين يرتبطون بالارض ويعتبرون جزءاً منها ويخضعون لارادة هؤلاء السادة الاقطاعيين[٢٣] .

وعرَّفه آخرون فقالوا: « والاقطاع في عرف الطغاة البغاة ان يستحوذ الاقطاعي على المساحة الكبيرة من الارض دون حق او وجه مشروع ثم يستبد بها وبما فيها وبمن فيها ويتحكم في فلاحيها تحكّم المالك في عبيده . وقد جرَّ هذا النظام الجائر من المظالم والمآثم الشيء الكثير »[٢٤] ومع تواجد المماليك على الساحة ، بدأ هذا

---

(٢١) احمد عطية الله ـ القاموس السياسي ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ١٩٦٨ ـ ص ٩٦.

(٢٢) نفس المرجع السابق ص ٩٦.

(٢٣) نفس المرجع السابق ص ٩٦.

(٢٤) احمد الشرباصي ـ الاسلام والاقتصاد ـ الدار القومية ـ مصر ١٩٦٥ ص ١٨٧ .

النظام الخطير يشهد النور رويداً رويداً ، فكانت الدولة ذاتها تمثل السلطة الرئيسية ، اليها تعود خيرات البلاد بعد ان تلزِّمها الى اسياد محليين يسمون الاقطاعيين .

ونمت هذه السلطة حتى وصلت عشية الفتح العثماني الى تطور مخيف بعد ان ملك الاسياد الاراضي ؛ وعرف هذا النظام اوجهاً مختلفة له كنظام ارض الميري وعملية المرابعة وغيرهما .

ويعتبر الفلاح اسيراً عند سيده الأقطاعي ويتحمل كامل مسؤولياته الملقاة على عاتقه بان يكون مستعداً لتلبية اي امر يتلقاه من سيده ، الذي يعتبر المثال الاعلى للتجبر والظلم والذي لا يهمه سوى جباية الاموال الضرائبية المطلوبة للدولة وتأمين جنود حرب ساعة تطلب منه ذلك .

وعلى غرار الصدامات المعروفة بين الاقطاعيين الاسياد انفسهم حول التزام الارض ، كانت تشهد البلاد بين الحين والآخر تمردات فلاحية ، فردية وجماعية ، تطال صلاحيات السيد الذي يستنجد بالدولة لوأد حركة التمرد .

الا ان من المهم ذكره في هذا السياق ، الفارق الكبير بين النظام الاقطاعي الذي عرفته اوروبا وبين ما يشاع في الكتابات الحديثة عند كتّابنا مستخدمين مفردات الاقطاع كمصطلح في كتاباتهم عن النظم الاجتماعية التي عرفتها بلادنا والتي لا تتعدى حالات الاقتطاع للاراضي الزراعية منذ عهد الرسول (ص) وحتى منتصف القرن التاسع عشر تاريخ بدء العمل بالطابو ، حيث كان نظام التلزيم هو السائد على عكس النظام الاقطاعي الاوروبي الذي ملك من خلاله الاقطاعي الارض والانسان ، وعليه لا تتعدى المصطلحات التي نوردها هنا كالاقطاع والمقاطعات سوى تعابير لغوية عن الملتزم والالتزامات .

ان ما عرفته بلادنا في هذا الخصوص انما هو سياسة تلزيم الاراضي لكبار الملتزمين ، وإن كانت تجربة هؤلاء قد تطورت الى مراحل سيئة في الممارسة قاربت احياناً النظام الاقطاعي الاوروبي .

بروز الاقطاعيين في جبل عامل :

اثرت الحركة العاملية مباشرة على الملتزمين الصغار الذين استغلوا فترة الحكم

المملوكي الاول في سبيل الوصول الى سلطة خاصة معترف بها رسمياً من الحكم .

ومع غياب قائد الانتفاضة ، الشهيد الاول بدأت عائلة عاملية بالبروز على الساحة والمعروفة بآل بشارة ، التي اتخذت منطقة الجبل الجنوبي هدفاً لسيطرتها معتمدة على صور المدينة الرئيسية في المنطقة كنقطة انطلاق نحو توسيع النفوذ باتجاه الاراضي الزراعية الخصبة هناك . ويتحدث احد مؤرخي العصر وهو الاسدي ، في كتابه (ذيل الصبر) عن ذلك فيقول : « سنة ٨٤٢ في رمضان منها وفي هذا الشهر بلغني ان ابن بشارة قد عمَّر صور وجعل لها اسواقاً ونقل اليها خلقاً من الناس وحصنها »[٢٥] .

ويبقى البحث في اصل هذه العائلة المجهول مبهماً في ظل تضارب الاخبار عن بدء تواجدها في المنطقة في حين يورد السيد محسن الامين في خططه حدود المنطقة التي قطنوها « يحدها من الشمال نهر الليطاني المعروف قديما بنهر ليطا - ومنبعه من ارض البقاع ويصب في البحر المتوسط شمالي صور وهو الفاصل بين بلاد بشارة وبلاد الشقيف ، ومن الجنوب نهر القرن الجاري شمالي طير شيحا وجنوبي قرية الزيب ومن الغرب شاطىء البحر المتوسط ومن الشرق الحولة وحاصبيا (وادي التيم) وطرف بلاد البقاع »[٢٦] .

العصيان البشاري :

ومع تمركزها في المنطقة ، بدأت عائلة بشارة تلعب دورها في المنطقة عندما دخلت حلبة الصراع القائم بين الناصر فرج بن برقوق وامراء المملكة ، فاصطفوا مع نائب دمشق الامير شيخ المحمودي اثر هجومه على صفد عام ١٤٠٥ وكان يقودهم الامير احمد بن بشارة الذي اشترك مع العصاة في الهجوم حيث كانت فرصة سنحة للنهب والسلب وكسب الغنائم .

وشارك بنو بشارة ايضا الناصر فرج عام ١٤٠٨ في القتال الذي جرى بين نائب صفد الامير بكتمر شلق وبين نائب دمشق الجديد نوروز ، وفي عام ١٤٠٩ وسعوا سلطتهم في الجبل « وافسدوا فيها (المنطقة الشمالية للجبل) ونهبوا سكانها وقتلوا

---

(٢٥) محسن الامين - خطط جبل عامل - الدار العالمية - بيروت ١٩٨٣ ص ١٣٣ .

(٢٦) نفس المرجع السابق ص ١٣٢ .

جماعة منهم ، كما قتلوا العسكر الذين خرجوا لردهم . واشتدت وطأتهم على الناس مستغلين حالة الفوضى والاضطراب التي كانت تعيشها المنطقة »[٢٧] .

وكانت تظهر على الساحة تلك بين الحين والآخر وجوه جديدة من هذه العائلة ، كبر صيتهم وزادت شهرتهم في المنطقة ومنهم حسن بن بشارة الذي « بلغ درجة من القوة والنفوذ جعلته يتقدم على مشايخ العشير ليس في مملكة صفد فقط وانما في جميع بلاد الشام »[٢٨] .

وحاولوا اكثر من مرة الحصول على الاستقلال الذاتي ، خلال قيامهم بحملات عصيان متكررة على الدولة التي حاولت القضاء عليهم بالقوة واستطاعت مرة بالدهاء القضاء على احدهم دون ان يؤثر ذلك على مجرى احداثهم ، فقد كرروا حملاتهم وعصيانهم اكثر من مرة كان اشهرها الهجوم الكاسح بقيادة علي بن بشارة « والذي حاول الانتقام لاعتقال محمد بن بشارة بهجومه على صفد في صفر سنة ٨٢٤ هـ/ شباط ١٤٢١ م ، وقاتل نائبها الامير قطلوبغا التنمي ، وحاصره بقلعتها حتى ارغمه على الفرار الى دمشق »[٢٩] . هذا الهجوم الكاسح في ظل تواجد الدولة في دمشق يتطلب بلا شك قيادة ومقومات عديدة ، خصوصا انه وجه لمركز اداري هام له تحصيناته الخاصة العسكرية ، مما يوحي بقوة علي بن بشارة ومكانته العسكرية في المنطقة ، خصوصاً اذا ما تأكد لدينا تصاعد نفوذ عائلته ، حتى اصبحوا كما تحدثت بعض المصادر المهمة حراساً للشاطىء من الاخطار الخارجية . ففي سنة « ٨٥٥ هـ/١٤٥١ طرق صور زهاء عشرين مركباً للفرنج ونهبوا من بها فادركهم بجموعه ابن بشارة مقدم العشير بالبلاد الشامية وقاتلهم قتالاً شديداً حتى أزاحهم عن البلد بعد أن قُتل من الفريقين جماعة وامسك من الفرنج جماعة وقطع رؤوسهم »[٣٠] . وفي رواية اخرى عن الحادثة ذاتها تأكيد جديد على صحتها ، حيث تشير الى انه في « ١١ جمادى الآخر ٨٥٥ هـ/ ١٠ تموز ١٤٥١ م صدَّ ابن بشارة

---

(٢٧) طه ثلجي الطراونة ـ مرجع سابق ـ ص ٢١٩ .

(٢٨) نفس المرجع السابق ص ٢٢١ .

(٢٩) نفس المرجع السابق ص ٢٢٢ .

(٣٠) علي الزين ـ للبحث عن تاريخنا في لبنان ـ ١٩٧٣ ص ٢٠٧ .

مقدم العشير بالبلاد الصفدية هجوماً قامت به البحرية الاسبانية على صور ، عندما كانت تقوم بغارات استكشافية لمعرفة مدى تحصينات السواحل والموانىء الشامية »[٣١] .

نهاية بني بشارة :

مع تصاعد نفوذ هذه العائلة بدأت تتلقى الضربات المتكررة من السلطان وباقي زعماء العشير في المنطقة للقضاء عليها ، وكان اقسى هذه الضربات الهجوم الكاسح الذي قام به مقدم البقاع ناصر الدين محمد بن الحنش عام ١٥٠٣ للسيطرة على جبل عامل وطبعاً بمساعدة فعالة من نواب المنطقة ، وقدر عدد جنوده بخمسة آلاف مقاتل تصدى لهم عبد الساتر بن بشارة « فقتل من جماعة ابن حنش نحو مئتين »[٣٢] الا انه انهزم واندثر اسم هذه العائلة الاقطاعية بعد هذه الحملة ولم يتحدث اي مصدر عن اي عمل لهم قاموا به بعد ذلك اليوم .

هجرة العلماء النابغين من الجبل :

في الطرف الآخر بعيداً عن الحكم المملوكي باسره وتسلط الاقطاع في الجبل وحركات العصيان وغيرها شق لفيف من علماء جبل عامل دربهم الفكري خارج الجبل بعد ان سدت الابواب كلها في وجه حركاته الاصلاحية الرامية الى التقدم والازدهار والتي زرعوها في بلاد المهاجر لاحقاً .

المحقق الكركي العاملي (١٤٦٦ ـ ١٥٣٤ م) :

واذا كان جلادو السلطة الجائرة قد ظنوا بمقتل الشهيد الاول نهاية الفكر الاسلامي الساطع فان ما جاء به مواطنوه من بعده يثبت العكس تماماً بحيث انهم كانوا اهلاً لحمل الرسالة وبجدارة عالية ونشرها خارج الجبل .

من اولئك الاشراف ، الشيخ نور الدين علي بن عبد العالي الكركي العاملي الذي تولى مهام شيخ الاسلام في ايران بعد هجرته اليها . في ترجمته يذكر المؤرخون انه ولد عام ١٤٦٤ م وانه قد تجاوز السبعين من عمره ، ولقب الكركي

---

(٣١) طه ثلجي الطراونة ـ مرجع سابق ص ٢٢٣ .
(٣٢) علي الزين ـ مرجع سابق ص ٢٠٨ .

نسبة الى بلده كرك نوح في البقاع ، ويعرف لليوم بالمحقق الثاني مقابل المحقق علي الملقب بالمحقق الاول وهي درجة او لقب فقهي هام .

درس المحقق الثاني في جبل عامل ودرّس فيه[٣٣] وما لبث ان بدأ رحلاته الخارجية فزار ديار الشام واخذ عن علمائها ، وفعل الشيء ذاته في مصر التي انتقل منها الى العراق حيث ذاع صيته فيها وبلغ مسمع الشاه اسماعيل الصفوي الذي اكرمه و« عيّن له وظائف وادارات ببلاد العراق حتى قيل انه كان يصل اليه في كل سنة من الشاه اسماعيل سبعون الف دينار شرعي لينفقها في تحصيل العلم ويفرقها في جماعة العلم والمشتغلين »[٣٤] وفي المقابل كان المحقق الثاني يحضر اصلاحاته المختلفة لتطبيقها في ايران ومباشرة العمل بها فور استدعائه الى هرات بعد ان وصل الى مراتب عالية ليصبح بعد وفاة الشاه اسماعيل عام ١٥٢٤ م الرجل الثاني في الدولة عندما اصدر نجل الشاه طهماسب « فرماناً بتعيين الشيخ حاكماً في الامور الشرعية لجميع بلاد ايران ونص في المرسوم على « ان معزول الشيخ لا يستخدم ومنصوب الشيخ لا يعزل »[٣٥] .

اعماله الاصلاحية :

وهكذا فتحت الابواب للمحقق الكركي العاملي لتنفيذ كل مشاريعه الاصلاحية الرامية الى تقدم البلاد ونشر الفكر فيها وتكمن في نهجين اثنين : الديني والاجتماعي .

الاصلاح الديني :

وقد بدأه المحقق الثاني بالقضاء على الفجرة والفسقة من اهل تلك البلاد وبـ« ازالة الفجور والمنكرات واراقة الخمور والمسكرات واجراء الحدود والتعزيرات واقامة الفروض والواجبات والمحافظة على اوقات الجمعات والجماعات وبيان مسائل الصلوات والعبادات ، وكان يرغّب عامة الناس في تعلم شرائع الدين ومراسم الاسلام

---

(٣٣) حسن الامين ـ ثورة ايران ـ ملحق «النهار» ٢٠/٤/١٩٧٩ ص ٤٣ .
(٣٤) محسن الامين ـ اعيان الشيعة م ٨ ـ ص ٢٠٩ .
(٣٥) حسن الامين ـ مرجع سابق ـ ص ٤٣ .

ويحثهم على ذلك بطريق الالتزام »[٣٦] .

هذا اضافة لقراره بضرورة تواجد عالم دين واحد على الاقل في كل قرية كإمام صلاة ومرشد .

الاصلاح الاجتماعي :

سار المحقق الشيخ باصلاحاته الدينية من اجل هداية المجتمع وتصحيح الاخطاء التي كانت ترتكب سابقا من فجور واعمال ومنكر وغيرها ، فتطلع المحقق الثاني الى المجتمع وامر « بزجر المرتكبين الفجور والعصيان وردع المتبعين لخطوات الشيطان مساع بليغة ومراقبة شديدة »[٣٧] في حين وجه انظاره الى العمال واهالي الحكم في المقاطعات وبعث اليهم برسائل « تتضمن قوانين العدل وكيفية سلوك العمال مع الرعية في اخذ الخراج وكميته »[٣٨] .

هذا العمل الاصلاحي الذي خرج من فكر شيخ عاملي جليل ماذا كان به لو طبق ليس في جبل عامل فقط ، بل في انحاء المملكة كلها ، التي كانت تعاني من سوء الاحوال وهول الملتزمين الذين فقط يحققون احلام المملكة في الانتصارات المخزية فيما بينهم . إن هذا الفكر الاسلامي ، كان له الدور الاساسي في نشر البذور الاولى للحركة التحويلية التي عاشتها ايران في قرون النهضة الماضية كلها .

نكتفي بهذا القدر من حقبة العصر الملوكي لنتابع مسيرة الأحرار في جبل عامل مع سنوات الحكم العثماني المباشر .

---

(٣٦) حسن الامين ـ مرجع سابق ـ محسن الامين ـ اعيان الشيعة ـ م ٨ ـ ص ٢٠٨ .
(٣٧) محسن الامين ـ مرجع سابق ص ٢٠٨
(٣٨) نفس المرجع ص ٢٠٨ .

الباب الثالث

مع الدولة العثمانية

الفصـل الاول

حركـــة العلمـــاء

في الوقت الذي كانت فيه البلاد تخضع للدولة المملوكية كـأعظم قـوة اسلاميـة في المنـطقة ، بـدأت دولة اسـلامية جـديدة تشهـد النور رويـداً رويـداً اثـر تحقيقهـا انتصارات عديدة كان فتح القسطنطينية(١٤٥٣ م) اهمها والذي جاء إضافة للفتوحـات السـابقة حـافزاً في ولادتهـا التي شطرت زحفهـا جنوبـاً في سبيـل تـوسيـع سيـطرتهـا فاشتبكت مع المماليك في سوريا في معركة حاسمة وفاصلة جرت في مـرج دابق عام ١٥١٦ كتب النصـر فيها للدولـة الجـديـدة التي انهت بـذلـك الحكم المملوكي على ارض بلاد الشام .

ولم تقف الحملة عند هذا الحد فقط ، بل تـابعت سيرهـا بقيادة السلطان سليم نحو مصر فتصدى لها المماليك بقيادة طومان باي قـرب الظاهـرة ، والذي لم يستـطع الصمود امام اندفاع القوات الغازية الزاحفة فسجلت انتصاراً حاسماً ودخل على اثرهـا السلطان سليم القاهرة في السادس والعشرين من كانون الثاني عام ١٥١٧ منهياً بذلك حكم المماليك . ومن هناك بدأت الولايات العربية تتساقط الواحـدة تلو الاخرى بيـد السلطان في الـطريق لانشاء الـدولة الاسـلامية الجـديدة والتي حملت على مـرِّ اربعة قرون اسم : الامبراطورية العثمانية .

ولم تقف الدولة العثمانية آنذاك عند الولايات العـربية بـل اكملت زحفها غـرباً باتجاه اوروبا وقرعت عام ١٥٢٩ ابواب فيينا .

الوضع الاداري في الجبل :

وفي خضم هذه الفتوحات المتوالية ، عجزت الدولة الفتية عن تدبر امورها الادارية في ولاياتها الجديدة الساقطة في ايديها ، بسبب غرقها في سياسة التوسع ، فاضطرت للابقاء على تقسيمات المماليك الادارية ، وهذا ما سمح للإقطاع بالمحافظة على صلاحياته التامة مع تبدل وجه الملزِّم من المماليك الى العثمانيين . ففي عهد المماليك كانت عدة عائلات اقطاعية تتقاسم الجبل ابرزها آل بشارة وآل شكر وآل علي الصغير ، ومع الفتح العثماني ظهر على مسرح جبل عامل عائلتان اقطاعيتان جديدتان هما آل صعب حكام الشقيف وآل منكر حكام اقليم التفاح . وأضحت صورة الاقطاع في الجبل على الشكل التالي :

« كان لكل اسرة استقلالها الاداري بالمقاطعة او المقاطعات التي تحكمها ، فالحاكم الاقطاعي حر في ادارة مقاطعته يتصرف بشؤونها ويحمي حدودها دون ان يكون هناك سلطة فوق سلطته ، اما سلطة الدولة فكانت إسمية وتتلخص في حقها باستيفاء الضرائب والرسوم المقطوعة وفقاً لشروط الالتزام دون ان يكون لها الحق بالتدخل في الشؤون الداخلية للبلاد ، وكان لكل حاكم جنده الخاص للدفاع عن مقاطعته ، حتى اذا هوجم واحد منهم هبت باقي المقاطعات تسانده وتؤازره »[1] .

ومطابقة للواقع الذي عاشته مختلف الولايات العثمانية في ذلك العهد والشبيه بوضع جبل عامل ، فان الدولة الجديدة قد وطدت دعائم النظام الاقطاعي بمختلف صوره ولم يكن بهذا لها أي دور سوى جباية الضرائب المطلوبة والمفروضة على كل ولاية من مال ورجال حرب ، دون ان تحتاج في ذلك الى موظفين اداريين ، حيث يقوم الاقطاعي نفسه بهذا الدور واصبح بذلك ممثل الحكومة الوحيد في اقطاعيته[*] .

---

(١) ياسين سويد ـ صفحات من تاريخ جبل عامل ـ عدة مؤلفين ـ دار الفارابي ـ مرجع سابق ص ٨٥ .

(*) لمزيد من التفاصيل حول الوضع الاقطاعي في الجبل آنذاك يراجع على سبيل المثال: علي الزين ـ العادات والتقاليد في العهود الاقطاعية ـ دار الكتاب اللبناني ـ ١٩٧٧ .

حركة العلماء العامليين :

واستمر الجبل في هذه الحقبة بتقديم طلائع العلماء الافاضل والذين لعبوا دوراً اساسياً في حركتي الفقه والعلوم الطبيعية على السواء .

من ابرز هؤلاء العلماء آنذاك العلامة زين الدين علي بن احمد والمعروف بالشهيد الثاني الفقيه الجليل وصاحب المؤلفات المهمة في دراسة الفقه واصوله ـ ولد يوم الثلاثاء ١٣ شوال عام ٩١١ هجرية الموافق لعام ١٥٠٥ ميلادية في بلدة جباع من اعمال التفاح : حفظ القرآن الكريم باكراً وبدأ دراسته على يد والده ، ثم بعد وفاة الاخير تابع دراسته في مدرسة ميس الجبل الشهيرة ومنها رحل الى كرك نوح ودرس فيها ليعود بعدها الى بلدته جباع متفرغا للعلم والمطالعة . بعد استراحة قصيرة في جباع شرع الشهيد الثاني بزياراته ورحلاته الخارجية فزار دمشق واخذ من علمائها وكذلك في مصر ثم زار الحجاز وحج الواجب والعمرة ، عاد بعدها الى جبل عامل لمراجعة العلوم التي حصّلها في رحلاته . وفي عام ٩٤٦ هـ زار العراق وطاف بمقامات الائمة (ع) ثم بيت المقدس فجبل عامل ومنه الى القسطنطينية ليستحصل على براءة تعليم في الشام بعد ان عرج في طريقه اليها على دار السلطان بايزيد في مدينة طوفان . ومع حصوله على البراءة عاد الى البلاد واختار بعلبك ومدرستها « النورية » التي درّس فيها اصول الفقه . وبهذا يقول : « ثم اقمنا ببعلبك ودرسنا فيها مدة المذاهب الخمسة وكثير من الفنون »[٢] وعاد بعد ذلك الى بلدته واصبح مرجعاً للامور والاحكام الشرعية .

ووشى الحاقدون والمنافقون في احد الايام الى قاضي صيدا بتهمة ملفقة بحق العلامة زين الدين ، فما كان من القاضي إلاّ أن أبلغ السلطان بالامر ، والذي أرسل بطلبه لفهم ملابسات التهمة ، وهي حالة مشابهة للتي حصلت مع سلفه الشهيد الاول ، ولما وصله رسول السلطان لبى زين الدين الامر وفي الطريق الى القسطنطينية اغتاله الرسول ظلماً وعدواناً دون فهم ملابسات الجريمة . ولما علم السلطان بذلك

---

(٢) محسن الامين ـ اعيان الشيعة م ٧ ـ ص ١٥٣ .

امر باعـدام القاتـل عقابـاً على الجريمـة وكان ذلـك في العام ٩٦٦ هـ . تـرك الشهيد الثاني مؤلفات عديدة اهمها شرح اللمعة الدمشقية لسلفه الشهيد الاول .

بهاء الدين العاملي :

ومن علمـاء تلك الحقبة العـلامة الحسين بن عبـد الصمد والـذي زار البحـرين واقام فيها ودرس بمدرستها العامرة .

اما ولده فهو العالم الرياضي الشيخ محمد بن عبـد الصمد الشهيـر ببهاء الـدين العاملي « ولد ببعلبك يوم الاربعـاء في ١٧ ذي الحجة سنـة ٩٥٣ هجريـة وانتقل مـع والده الى العجم فسكن قزوين واخذ العلم عن ابيه وغيره من الجهابـذة فنبغ في كثيـر من العلوم . . . وسـاح ثلاثين سنـة في المشرق ثم عـاد الى اصفهـان وتـولى ريـاسـة العلماء ومات هناك سنة ١٠٣٠ هجرية »[٣] .

تجول بهاء الدين العاملي في بلدان عـديدة فـزار ايران ومصـر والقدس ودمشق وصاحب الملوك والامراء والعلماء وكان مثالاً للمفكر والعالم ، وقد تـرك آثاراً عـديدة في الفكـر والعلم والريـاضيات . . . ولـه مؤلفـات عـديـدة اهمهـا كتـابـاه الشهيـران (الكشكول) و(المخلاة) . « أما آثاره في الرياضيات والفلك فقد ظلت زمناً طويـلاً مـرجعاً لكثيـر من علماء الشـرق ، كما انهـا كانت منبعـاً يستقي منه طـلاب المدارس والجـامعات ، من اشهـر مؤلفاتـه العلمية (الهـلاليـة) وكتـاب (تشـريـح الافـلاك) و(الرسالة الاسطرلابية) وكتاب (خلاصة الحساب) »[٤] .

بحث الشيخ البهائي في علم الذرة اذ « تناول في كتابه (الجوهر الفرد) بعض النظريات التي تقول بتجزئة الذرة قبل ظهور النظرية الذرية في الكيمياء على يد العالم الانكليزي جون دالتون (١٨٠٨) باكثر من قرنين »[٥] .

بقي بهاء الدين العاملي في ايران حتى وفاته . واضـافة الى مؤلفـاته العـديدة ، فانه تـرك عبقريتـه في التصاميم التي وضعهـا للمعابـد والمعاهـد والدور التي صممت

---

(٣) ميخائيل الوف البعلبكي ـ تاريخ بعلبك ـ المطبعة الادبية ١٩٢٦ ـ ص ١٢٦ .

(٤) حسن الامين ـ ثورة ايران ـ مرجع سابق ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٥) يوسف مروة ـ العلوم الطبيعية في القرآن ـ مرجع سابق ـ ص١٦٥ .

على اصول هندسية برع فيها ، وبعضها باقٍ الى اليوم كعمارة الشهيد العلوي » ويقال انه صنع الآلات الفلكية التي تحدد المواقيت المذكورة . . وله اكثر من تأليف واحد في صناعة الاسطرلاب وما الى ذلك من الآلات العلمية »(٦) .

بهؤلاء الاعلام العلماء أظهر جبل عامل ثروته الفكرية والحضارية في زمن كان يتلقى فيه اشرس انواع الاضطهادات والمضايقات ، بل في زمن الانحطاط العام الذي عاشته الامة الاسلامية بعد سقوط الدولة العباسية .

---

(٦) محسن الامين ـ أعيان الشيعة ـ م ٩، ص ٢٤٠ .

الفصـل الثـاني

العامليون والاقطاع الخارجي

شرعت الدولة العثمانية في مطلع عهـدها وسيـطرتها على المنـاطق إلزام جبـاية الضرائب والرسوم الى رجال ملتزمين محليين ، ومع استقرارها بدأت تعهد بـذلك الى كل من يستطيع ان يجبِ لها اكثر سواء اكان محلياً او من خـارج المنطقـة . واستمرت سيطرة الاقطاع ونظامه الاجتماعي السيىء في ظل الصلاحيات التـامة التي منحت من قبل الباب العالي ، لا بل زاد الامر سوءاً مع سماح الاخير للوجوه الاقطاعية بـالتوسـع والالتزام اللامحدود ، بالطبع كانت البلاد خاضعة كلها لسيطرة الـدولة وسلطتهـا ، الا ان مجتمعات الدولة كانت تنغلق كل على حدا داخل عاداتهـا وتقاليـدها لا بـل داخل شعائرها الدينية ، خصوصاً اذا كانت البلاد تجمع بين احضانها مـذاهب ومللاً متعددة كما كان حاصلاً في منـطقة بـلاد الشام الغـربية . هـذه الخصوصيـة التي تميزت بهـا المنطقة لم تدخل في اطار السياسة الداخلية للدولة ولم تثر انتباه رجال السلطنة الـذين انحصر همهم في الحصول على الضرائب دون الالتفات الى مجريات الاحداث على ارض الواقع وما قد تسببه سياسة التجاهل خصوصاً مجال التلزيمـات الاقطاعيـة والتي أدت في جبـل عامـل الى صدامـات دمويـة بين اهله والـوجـوه الاقـطاعيـة الجـديـدة المدعومـة من الدولـة وفتحت مرحلة صـراعات بـدأت مع الاميـر فخر الـدين المعني الثاني ولم تنته الا مع رحيل الجزار الذي اصبح يومها الملتزم المباشر للمنطقة كلها .

هكذا خضع جبل عامل كأغلب مناطق بلاد الشـام في مطلع السلطنـة العثمانيـة لسيطرة الاقطاع بشقيه الاجتماعي والاقتصادي ، وازداد الامر حينها سوءاً عندما دخـل الجبل في التزامات امراء آل معن ومن بعدهم امراء آل شهاب في درجة اولى ، تليهـا سيطرة الاقطاع المحلي الوسيط المباشـر بينهم وبين الفلاحين . في ظـل هذا النـظام القـاهر عـانى العامليـون اسـوأ انـواع الـظلم والاضـطهـاد إن في لقمـة عيشهم أو في مجالات عملهم اليومي او في سياسة الدولة الداعمة والمساندة للاقطاع الخـارجي في اغلب الاوقـات ، دون ان ننسى المعارك والصـدامات العـديدة التي دارت على ارض الجبـل بين رجال الاقـطاع الخارجي انفسهم بسبب خـلافاتهم واطمـاعهم والتي دفـع الفلاحون العامليون خلالها عشرات القتلى وخسارات فادحة في المـزروعات والابنيـة دون ان يكون لهم اي علاقة بذلك .

كـل ذلك دفـع العامليين لخـوض صدامـات عديـدة ومتتاليـة ضد تلك الـوجوه الاقـطاعية اتخـذت ، بادىء ذي بـدء ، عمليات دفـاع وصد الاعتـداءات المتكررة ، وتـطورت لتصبح قـوة لا يستهان بهـا تستطيـع حمايـة الجبـل بـل والتمـرد ايضـا على ممارسات ولاة المنطقة والامتناع عن دفع الضرائب الباهظة في بعض الاحيان دون ان تتخذ في يوم من الايام اي نوع من انواع الخروج عن ارادة السلطة المركزية ، هذا ما يؤكد ويشرح هدف كل الانتفاضات في جبل عامل الموجهة مباشرة ضد الـظلم والقهر الذي مارسه الاقطاعيون المحليون او الاغراب .

انتفض العـامليون اكثـر من مرة طيلة مـدة الالتزامـات الاقطاعيـة التي كـانت ، واستمرت من مطلع القرن السابع عشر وحتى نهـاية القـرن الثامن عشـر ضد امـراء آل معن ومن بعـدهم الشهابيين على مـا اردفنا ، بعـد ان ذاقوا كـل انواع الـظلم من جور النظام الاقطاعي عينه . وكان العاملي خلال تلك الفترة مثالاً للفلاح المقهور الـرافض لكل الممارسات القمعية بحقه ، ودفع اغلى ما عنده في سبيل التحرر من قيـود النظام الاقـطاعي ، إلا ان الظروف العـامة شـاركت في معركـة المصير هـذه فكـان المـوت المحتم نصيب الثوار وازدياد الظلم والتسلط على الفلاح الصابر .

فقد كان لزاماً على الفـلاح المشاركـة في الصدامـات الجانبيـة التي نشبت بين رجـال الاقطاع المحليين في كثيـر من المرات ، كمـا كـان عنصـراً بشـريـاً هـامـاً من عطاءات الاقطاعيين للولاة يستخدمونه في أمور المنـطقة العسكـرية . لقـد مثل جبـل

عامل خلال تلك الفترة القاسية صورة مأساوية قاسى فيها الفلاحون سلطة تلو سلطة ، ودفعوا فيها الضريبة تلو الضريبة وسطروا خلالها اسمى آيات الرفض والكفاح في صفحات مشرقة من تاريخ النضال في المشرق العربي .

في هذه الفصول سجل لأهم الانتفاضات والصدامات التي خاضها العامليون ضد النظام الاقطاعي بوجوهه المحلية والغريبة وباشكاله العديدة حيث انحصرت هذه الانتفاضات العاملية في التصدي للاقطاع والتسلط دون ان يكون لها اي بعد سياسي او غيره .

التزم الامير فخر الدين مقاطعات جبل عامل من الدولة العثمانية عام ١٦٠٨ م ، وتوسعت التزاماته لتمتد من شمالي طرابلس حتى جنوبي صفد مسجلاً في ذلك ضربة قاضية لخصومه الاقطاعيين الذين فتح معهم في كثير من المرات معارك ضارية استخدم فيها مئات المقاتلين من ابناء المقاطعات التي التزمها ، والتي قدمت له الضرائب المادية والبشرية بواسطة اقطاعييها المحليين حفاظاً على مراكزهم .

ومع ازدياد خطر الخصوم الاقطاعيين ومنافستهم الشديدة له بدأ فخر الدين مرحلة جديدة من التجهيزات العسكرية المحلية من اعداد مقاتلين بواسل الى تحصين قلاع ومراكز حساسة داخل مقاطعاته استعداداً لرد اي خطر قد يداهمه من قبلهم ، الا ان الامر اخذ يكتنفه الغموض عند الولاة العثمانيين الذين وجدوا في الامر خفايا سياسية مما اضطرهم لفتح صفحة جديدة مع الامير المعني بدأت بمساعدة خصومه لخوض صدامات عسكرية مع جنوده وملاحقته شخصيا وانتهت بالقاء القبض عليه واعدامه على ما سنرى .

في تلك الاثناء لقي جبل عامل اهتماماً شديداً من قبل فخر الدين الذي استفاد من جغرافيته البشرية والطبيعية فأجرى حينها تحصينات هامة في مختلف قلاعه وحصونه المنتشرة في كل انحائه والتي اشار اليها المؤرخون ومنها :

« ١ ـ قلعة صيدا : في الميناء وتتصل باليابسة بجسر من حجر .

٢ ـ قلعة الشقيف ـ ارنون : دعاها الصليبيون (بوفور) .

٣ ـ قلعة الدبية : برج في بلاد بشارة ـ قبض فيها على الامير يونس في السنة ١٦٢٣ .

٤ ـ قلعة جزين : مغارة محصنة في جوار واديها ـ لجأ اليها الامير قرقماز سنة ١٥٨٤ ومات فيها ، وهناك اختبأ الامير فخر الدين سنة ١٦٣٤ وقبض عليه فيها ـ وهي غير قلعة نيحا الواقعة شرق البلدة .

٥ ـ قلعة تبنين : سماها الصليبيون طورون .

٦ ـ قلعة ابو الحسن : من قلاع الصليبيين وهي منتصبة فوق نهر الليطاني .

٧ ـ قلعة مارون : من اعمال الصليبيين بجوار دير كيفا من مقاطعة صور »(١) .

ومن الابراج والحصون :

« في صيدا برجان للمراقبة احدهما يدعى الجلبان وكان يقوم بحراسته اربعة عشر جندياً ، وبرج الخياط وكان يقيم فيه ثمانية جنود . وكان هؤلاء الجنود يتقاضون رواتبهم نقداً ولا تتجاوز المائة اقجة لكل فرد منهم ، وكانوا يستعيضون عن نقص رواتبهم بما تدره عليهم الوقفيات من المزارع والطواحين المائية والحمامات من ريع ، وكانت اسلحتهم مشابهة لتلك الاسلحة التي بحوزة حامية بيروت . وفي سنة ١٠٧١ هـ/ ١٦٦٠ م بلغ عدد حامية البرجين ثلاثين جندياً »(٢) .

اما القلعة البحرية في صيدا فقد زودت بمدفع كبير لحماية الميناء من خطر القراصنة ، ففي « سنة ١٠٣٣ هـ/ ١٦٢٣ م هاجمت قوارب المغاربة الميناء ، فاطلقت المدافع التي فوق القلعة سبعين طلقة »(٣) .

ومن الدور الجميلة في تلك الايام تورد لنا سجلات دمشق الشرعية وصفاً لاحداها في صور حيث جاء في احد السجلات : « . . . الدار الكاينة بقرية صور المشتملة على ساحة سماوية بها بركة ماء تجري اليها من ماء الجنينة ، وإيوان فيه شبابيك مطلة على البحر ، ومستطرق من ذلك الى ساحة ثانية ويصعد من الساحة في سلم حجارة الى قصر كبير به روشن مطل على البحر وشبابيك حديد مطلة على ساحة

---

(١) عزيز الاحدب ـ فخر الدين مؤسس لبنان الحديث ـ دار الكتاب اللبناني ١٩٧٣ ، ص ١٢١ .

(٢) نوفان رجا الحمود ـ العسكر في بلاد الشام ـ دار الآفاق الجديدة ١٩٨١ ص ٣٢ . نقلاً عن عدة مصادر . وكذا كل مرجع اعتمدناه من نفس الكتاب .

(٣) نفس المرجع ص ٧٠ .

الدار . . . وتصعد ايضاً من القصر الى مسكن علوي مربع معلق به ثلاثة شبابيك مطلة على البحر . . . »[٤] .

اما قلعة شقيف ارنون فقد وجدت اهتماماً شديداً من قبل فخر الدين ، ولعبت دوراً بارزاً في صداماته المتتالية مع والي الشام ومنافسيه من رجال الاقطاع حيث جعل منها حصناً منيعاً لقي لسنوات عديدة تحصينات جديدة لاتساع حوالى خمسمائة جندي .

فقبل خروجه من المنطقة هرباً من والي الشام وضع الامير فخر الدين ثلاثمائة سكباني وثمانية عشر من الاسرى الفرنسيين ممن كانوا يجيدون استعمال المدافع ومن المؤن والذخائر ما يكفي مدة ثلاث سنوات ، ولم يكتفِ بذلك بل بنى مقابل القلعة برجاً دعي ببرج الظاهرية لتأمين الحماية لها تحسباً لاي هجوم من قبل جيش والي الشام ووضع عليه « خمسين سكبانياً برئاسة بلوكباشي »[٥] وفوق هذا كله قام « بسحب المدفع الضخم الذي كان في قلعة صيدا الى قلعة شقيف ارنون لاستعمال ضد جيوش الدولة »[٦] وهذا ما لفت انظار والي الشام بعد ان وصلته انباء تلك التحصينات الجديدة فاضطر الى تجهيز قوة عسكرية ضخمة بمشاركة مباشرة من اخصام فخر الدين وعلى رأسهم ابن سيفا لمهاجمة القلعة وذلك عام ١٦١٣ .

ومع خروج الامير فخر الدين بدأ والي الشام الهجوم للاستيلاء على الحصون والقلاع التي جهزها الامير ، فحاصر برج الظاهرية المقابل للقلعة حتى يتسنى له اسقاطها « واستمر القتال بينه وبين حامية هذا البرج من الفجر وحتى العصر دون ان يتمكن منه ، وكانت خسائره في هذا القتال كبيرة اذ بلغ عدد قتلاه نحو ثلاثين جندياً ؛ الا ان خطأ ارتكبه احد المدافعين عن البرج ادى الى تهدم البرج وسقوطه بيد العثمانيين ، ذلك ان احد الفرسان اشعل فتيلاً واقترب خطأ من احد براميل البارود الموجودة في البرج فانفجر البرميل وانفجرت معه باقي براميل البارود فيه مما ادى الى تهدم جدرانه ومقتل عدد من حماته كما قتل نحو سبعين من جنود حسين باشا سيفا

---

(٤) نفس المرجع ص ٧٠.
(٥) نفس المرجع ص ٧١.
(٦) نفس المرجع ص ٩٢.

احد حلفاء حافظ باشا ، وكان هذا قد وصل الى حائط البرج محاولاً تسلقه ، ورغم الخسارة التي مني بها حافظ باشا في هذه الحادثة فقد تمكن من احتلال البرج بعد ان أسر عدداً من المدافعين عنه وفر الباقون نحو القلعة »[٧] . ومع سقوط برج الظاهرية بيد الوالي حافظ باشا ضرب حصاراً شديداً حول القلعة التي واجه المحاصرون بداخلها بكل ما اوتوا من قوة مستخدمين المدافع التي انفجر احدها ، وهو الذي احضر من قلعة صيدا ، إضافة للاغارات المتتالية التي كانوا يقومون بها ضد جيش حافظ باشا الذي دك القلعة بمدفعيته دون ان تسقط ، إلا انه تمكن من اجتياز الخندق المحيط بها والذي ساعده على تشديد الحصار . واستنجد المحاصرون داخل القلعة بسكبانية دير القمر الذين رفضوا انجادهم إلا بعد دفع الاموال مقابل ذلك ، ودارت بينهم وبين جند الوالي فنصبوا كمائن متحركة ودارت اشتباكات بالسلاح الابيض حيث تمكنوا من الانتصار على انصار الوالي والدخول الى القلعة لمساندة المحاصرين بداخلها فازدادوا صموداً داخل القلعة الى ان جاء فصل الشتاء فلم يجد الحافظ بدأ من فك الحصار والعودة دون اسقاط القلعة .

وخاض فخر الدين بعد عودته من ايطاليا معارك جديدة مع حافظ باشا ومنافسيه من الاقطاعيين ، وكان اشهرها معركة عنجر التي سجل فيها الامير انتصاراً على جيش الحافظ وحلفائه ، إلا ان الحافظ استمر بملاحقة الامير حتى قضى عليه عام ١٦٣٣ بعدما لعب دوراً هاماً تحت ظل النظام الاقطاعي الجائر .

ومع غياب الامير عن الساحة خلت الاخيرة لمنافسيه من رجال الاقطاع ومن حلفائه آل معن وازدادت الصدامات بين الجميع طمعاً في الحصول على الامتيازات الاقطاعية الموهوبة من قِبَل والي الشام .

وعلى ارض جبل عامل خاض الاقطاعيون المنافسون عدة صدامات دموية وضعت البلاد في حالة من التسيب والفوضى مع وصول الصدامات الى داخل الاسر الاقطاعية المحلية .

---

(٧) ياسين سويد ـ مرجع سابق ـ ص ٣١٢ .

معركة انصار الاولى (١٦٣٨) :

واهم تلك الصدامات التي عرفتها المقاطعات مع رحيل فخر الدين حصلت بين الحزبين القديمين : اليمنيون آل علم الدين وآل معن القيسيون وأعنفها تلك التي حصلت في بلدة انصار العاملية عندما تسلم الامير علي علم الدين زمام الامور بدعم من والي دمشق وخاض معارك دموية مع الامير ملحم بن يونس الذي لحق بعلم الدين الى انصار ودخلها بعد ان فرَّ منها الاول مستنجداً بوالي دمشق فانجده بفرقة من السكان توجهت لقتال الامير ملحم الذي ما إن علم بتوجهها اليه حتى ترك انصار بعد ان اجرى فيها مجزرة رهيبة سلاحها الغدر حيث « قتل نحو الف وخمسمائة من اهلها اذ اتهمهم بالانحياز الى خصومه اليمنيين »[٨] .

شكلت هذه المجزرة صدمة أليمة داخل المجتمع العاملي وفتحت صفحة جديدة من الصدامات والصراعات ، جهَّز العامليون انفسهم حينها تحسباً لأي تكرار واستعداداً لصد أي اعتداء جديد ينالهم ، خصوصاً ان المنطقة استمرت تعيش في ظل المنازعات الدائمة بين الاقطاعيين وتحت اعين الدولة ، كانت تخف وتضعف حتى عمدت الاخيرة الى انشاء إيالة صيدا عام ١٦٦٠ ممتدة من نهر الكلب شمالاً حتى جبل عامل جنوباً شاملة سناجق صيدا وبيروت وعكا وجبل عامل وبلاد صفد والجليل ووضعت عليها علي باشا الكبرلي الذي عرفت سنواته الاولى صدامات متكررة بينه وبين اقطاعيي الجبل اسفرت عن وقوع خسائر من الطرفين .

تمرد ضد الاقطاع :

واستمر الامراء المعنيون في عمليات التعدي ضد العامليين مما دفعهم للاستعداد الدائم لصد أي اعتداء جديد « ونهض زعماء العشائر من بني عاملة واجتمعت كلمتهم وعزموا على تجديد شباب الطائفة واسترجاع حقها السليب فنظموا صفوفهم »[٩] .

---

(٨) ياسين سويد ـ مرجع سابق ص ٦٠ .

(٩) محمد جابر آل صفا ـ تاريخ جبل عامل ـ دار النهار للنشر ـ بيروت ١٩٨١ ، ص ١١٣ .

وفي تلك الفترة بالذات رفضوا دفع الضرائب المتوجبة عليهم والمفروضة من الاقطاع المعني « فغزاهم الامير احمد سنة ١٠٧٧ هـ في النبطية مقر الصعبية حكامها فارتد عنها بعسكره منهزماً بعد ملحمة كبرى فاستجاش عليها والي صيدا فأتاها هذا العام القابل غازياً وكان نصيبه كنصيب صاحب المعنيين »[١٠] ولحقوا به الى عين المزراب في صيدا وحققوا نصراً رفع من شأنهم في المنطقة .

وهكذا تبدو صورة التسلط الذي كان سائداً في منطقة الشام ، حيث يمارس الاقطاعيون ذوو الصلاحيات الممنوحة من الولاة ابشع انواع الظلم والقهر ، لا يعرفون سوى لغة الصراع والتعديات مما قسم المجتمع حينها الى ظالمين ومظلومين أجبر القسم الأخير الى انتهاز الفرص المناسبة للخروج من اطار السياسة القمعية والمتسلطة والتحرر من قيودها القاهرة .

لقد انحصر همّ الولاة في حينها في جباية الضرائب وضرب كل حركات التحرر مع المحافظة على توازن القوى المحلية لإبعاد خطر التمرد عنها ، وكل ذلك دفع بالملتزمين من رجال الاقطاع لاستخدام مختلف الاساليب القمعية في سبيل الاستمرار بالتزام المقاطعات حيث يدفعون مقابل ذلك الاموال للولاة دون ان يمنع ذلك من صدامات عديدة بين المتنافسين منهم ، خصوصاً اذا كانت المقاطعات ذات امكانيات اقتصادية هامة كما هو الحال في جبل عامل (اموال ـ رجال ـ حصون ـ قلاع ـ مرافىء) . . .

واستمر الوضع على حاله طيلة مدة التزامات آل معن أي حتى عام ١٦٩٧ عندما توفي الامير أحمد منهياً سلالة المعنيين .

الامارة الشهابية :

ومع سقوط الامارة المعنية تصدى الامير بشير الشهابي لتسلم زمام الامور في الشوف وانشأ الامارة الشهابية التي اكملت نهج سابقتها في سياسة الالتزامات .

انتفاضة مشرف بن علي الصغير :

وخلال تلك المرحلة بالذات خاض مشرف بن علي الصغير ، أحد اعيان

---

(١٠) ياسين سويد ـ مرجع سابق ص ٦١ .

الجبل ، حملة تمرد مباشرة ضد الامير الشهابي ومن يمد له يد المساعدة . فقد خرج عن طاعة « ارسلان باشا ، ونبذ أمره ورمى القبض على جماعة من علمائه وقتلهم »[١١] .

ويشير احد مؤرخي الجبل الى واقعة حصلت بين مشرف بن علي الصغير والشهابيين في منطقة القاسمية ، دون ان يذكر نتائجها ، مع الاشارة الى ان الثائر الجديد اتخذ له موقعاً نسب اليه « فوق وادي عاشور بساحل صور وداره فيها باقية الى الآن ، بنى فيها مسجدا كبيرا الى جهة الغرب وهو الآن خراب »[١٢] .

واذا اختلف المؤرخون حول اسم الوالي العثماني يومها الا انهم يتفقون على ان والي صيدا بعد الحادثة مباشرة استدعى « الامير بشيراً الاول امير الشوف وطلب منه ملاحقة الشيخ مشرف والقبض عليه ، فجهز الامير بشير لذلك حملة بلغ عديدها نحو ٨ آلاف مقاتل وداهم الشيخ مشرف في مقره بالمزيرعة (أو المزرعة او مزرعة مشرف من قرى بلاد بشارة) فقبض عليه وقتل كثيراً من رجاله ثم ساقه الى الوالي الذي اقطع الامير بشيراً بعد هذه الحادثة البلاد من صفد الى المعاملتين »[١٣] . وبهذه الحادثة التي سيطر فيها الشهابيون على ما رأينا بدأت صراعات متتالية بينهم وبين العامليين .

اعتراف والي صيدا بالاقطاع العاملي :

ومع رحيل بشير الاول بدَّل والي صيدا سياسته مع العامليين لارضائهم فقام « بفصل مقاطعات صفد وبلاد بشارة والشومر والتفاح والشقيف مباشرة عن امارة الشوف فاعطى التزام صفد وعكا لظاهر العمر الزيداني ومنح التزام اقليمي الشومر والتفاح لآل منكر والتزام اقليم الشقيف لآل صعب »[١٤] .

---

(١١) مسعود ضاهر ـ الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ١٦٩٧ ـ ١٨٦١ معهد الانماء العربي ١٩٨١ ص ٥٢ .

(١٢) محسن الامين ـ اعيان الشيعة ـ مجلد ١٠ ـ ص ١٢٥ .

(١٣) ياسين سويد ـ التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية ـ الجزء الثاني ـ الامارة الشهابية ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٥ ص ٤٨ .

(١٤) مسعود ضاهر ـ مرجع سابق ص ٢٢٦ .

تعديات الامير حيدر الشهابي (معركة النبطية) :

ولم يرضِ هذا التطور الامير الشهابي حيدر الذي قرر الزحف على جبل عامل حيث بدأه بـ« ١٢ الف مقاتل ، وكان آل علي الصغير قد اعتصموا ، مع حلفائهم من آل منكر حكام اقليمي الشومر والتفاح وآل صعب حكام الشقيف في بلدة النبطية فهاجمها الامير حيدر ودارت بين الفريقين معركة انتهت بانتصار الامير الشهابي واحتلاله البلاد حيث نصب عليها متسلماً من قبله هو محمود ابو هرموش ، بينما تشتت آل الصغير وحلفاؤهم تاركين حكم الجبل للامير الشهابي »(١٥) .

ومع تسلم ابو هرموش مقاطعة الجبل اجرى اتصالات مباشرة مع والي صيدا الغاضب من اعمال الامير الشهابي ، اسفرت عن صدامات متتالية بين ابو هرموش والامير الشهابي في غزير وعين داره . وعام ١٧٢٩ تسلم الامارة الشهابية الامير ملحم خلفاً لوالده بادئاً سياسة توسعية باتجاه كل المقاطعات المحيطة بامارته فكان جبل عامل الهدف الاول امامه تحت ظل الصلاحيات الممنوحة له من والي صيدا سعد الدين باشا فاستطاع دخول الجبل « بجيش مقداره خمسة عشر الف مقاتل حيث نشر النار والدماء في كل مكان حلَّ فيه »(١٦) .

وهكذا كان الجبل يدفع ضريبة السياسة التوسعية للامراء الشهابيين المدعومين من سياسة الولاة العثمانيين في المنطقة .

وتوالت آنذاك الصدامات ، ففي عام ١٧٣٤ اظهر العامليون « الخروج عن طاعة سعد الدين باشا والي صيدا . . . وامتنعوا عن اداء الاموال السلطانية . . . وتطاولوا على اقليم التفاح التابع لولاية الامير ملحم . . . فسار بجيشه الى قتالهم . . . فادرك قرية انصار وفيها المناكرة والصعبية فغار عليها الامير وقتل خلقاً منهم ونهب ما في القرية من الامتعة والاموال وبلغ عدد قتلاهم في تلك الموقعة نحو الف وستماية قتيل . . . ثم حرق تلك الديار بعد ان سلبها وقفل راجعاً الى دير

---

(١٥) ياسين سويد ـ مرجع سابق ص ٦٣ .

(١٦) نفس المرجع ص ٦٤ .

القمر »[17] .

ومهما يكن من مبالغة في عملية سرد الحادثة على لسان امراء الشهابيين الا انها تشير بوضوح الى الاعمال الارهابية والقمعية التي مورست ضد جبل عامل في تلك الفترات ولم يجد جبل عامل امامها سوى الرد بكل ما استطاع في سبيل مواجهتها بالمطلوب .

لقد حاول العامليون خلال فترات الحكم المعني التصدي بكل الوسائل للحؤول دون استمرارية تلزيم اراضيهم للاقطاع الخارجي ، الا ان الدولة متمثلة بالوالي في صيدا كانت الحامية والداعية لذلك ، حتى انها كانت تصدر اوامر الزحف على الجبل . ومع تسلم الشهابيين للامارة الجديدة استمر العامليون في المواجهة وامتنعوا في اكثر من مرة عن دفع الضرائب المتزايدة على كواهلهم وقد ظهر ذلك في احدى رسائل قنصل فرنسا في صيدا الى وزير وسكرتير الدولة الفرنسية يومها وما جاء فيها : « ان الصدر الاعظم حانق جداً بسبب رفض مشايخ المتاولة دفع الضريبة وبعض التوجيهات الاخرى لحكامهم ومنهم سليمان باشا (والي صيدا) لذا فقد أمره كما أمر أمير الدروز (الامير ملحم الشهابي) بمحاصرة قلاعهم وتصفية سكان تلك البلاد بحد السيف »[18] .

وقعة يارون ١٧٣٤ :

هذه الصلاحيات المطلقة من قبل الدولة حمَّست الامير ملحم لتسيير حملات قمع ضد الجبل ، فقد زحف الى بلدة يارون مقر آل علي الصغير واصطدم معهم داخل البلدة في معركة دامية هزم فيها آل علي الصغير ودفعوا بذلك خسائر بشرية ومادية .

معركة انصار ١٧٤٣ :

وشهدت بلدة انصار معركة ثانية في تاريخها بعد اكثر من قرن بقليل على المذبحة الاولى فيها ، عندما شنَّ الامير ملحم الشهابي حملة عسكرية قوامها حوالى

---

(١٧) مسعود ضاهر، مرجع سابق ص ٤٩٤ ـ ٤٩٥ .

(١٨) ياسين سويد ـ الامارة الشهابية ـ مرجع سابق ص ٦٥ .

خمسة عشر الف مقاتل حتى اذا ما وصل البلدة اصطدم بمن فيها من عساكر الاقطاعيين العامليين في معركة دموية بضاحية البلدة اسفرت عن انتصار الامير مكبّداً العامليين خسائر بشرية تحدث المؤرخون عن الف وستمائة قتيل سقطوا فيها . ويتحدث بعض المؤرخين عن معركة اخرى حصلت بعد عام من معركة انصار في مرجعيون عام ١٧٤٤ انتصر فيها العامليون على « اليمنيين الشوفيين فاحرقوا القرى وقتلوا من اهالي الشوف ووادي التيم نحو ثلاثماية رجل »[١٩] .

هكذا ذخرت سنوات النصف الاول من القرن الثامن عشر بالصدامات المتتالية بين العامليين ورموز الاقطاع في بلاد الشام في عمليات كرٍّ وفرّ أبقت الجبل في أتون الحروب الصغيرة والمنهكة في آنٍ معاً .

استنتاج عام :

ان العامليين لم يرزحوا فترة البروز الشهابي كلياً لسلطة اقطاعييهم ، بل نجد زعماءهم يحاولون استرجاع البلاد من حظيرة التواجد الاقطاعي الخارجي والامتناع عن دفع الضرائب على نحو ما مرَّ معنا .

لقد رأينا المقاطعات العاملية تخضع للنفوذ الخارجي بعد خوض معركة مع ذلك الطرف الغريب اي تحت القوة إن جاز التعبير ، والاقطاع العاملي نراه يضع يده على مقاطعات الجبل « هذه المقاطعات الجنوبية في جبل عامل تنتسب الى الامارة الشهابية الحديثة العهد عبر الالتزام في فترات القوة ، وتعود الى والي صيدا في فترات الضعف ، وبقيت هذه المقاطعات تابعة مباشرة الى والي صيدا ولم تشكل اي وحدة اندماجية مع الامارة الشهابية »[٢٠] .

لقد كان العاملي يفكر دوماً في الخلاص من النفوذ الاقطاعي الخارجي ، ويسعى بكل ما أوتي من قوة لذلك دون ان يؤدي ابداً لمشاريع استقلالية على الاطلاق ، والمقاطعات العاملية « لم تدخل في امارة الشهابيين الا في فترات كانت تصاب فيها قواها المقاطعجية المحلية بهزائم عسكرية »[٢١] .

---

(١٩) نفس المرجع ص ٦٧ .

(٢٠) مسعود ضاهر ـ مرجع سابق ص ٢٦٦ .

(٢١) نفس المرجع ص ٢٦٦ .

بروز نضالي ـ ناصيف النصار :

كان من نتائج الحملات المتتالية على جبل عامل والتي نكب في معظمها أن وُضع العامليون في مأزق كبير امام الصمت العام ، وجعلهم هذه المرة يفكرون الى البعيد ، وينظرون الى حركات جديدة واتصالات بعيدة عن الدولة واقطاعيي المنطقة .

ومع هذا التطلع والامل ظهر على الساحة رجل استطاع توحيد كلمة العامليين والتصدي للاقطاع الخارجي بكل رموزه ، حتى عام ١٧٨٠ وهي سنة هجوم الجزار على الجبل واحتلاله .

بدأ ناصيف النصار نضاله بجمع شمل العامليين فاتصل برجال الاقطاع « واتخذ قلعة تبنين مقراً لحكومته وكانت عامرة بابراجها الشامخة وحصونها المنيعة ، وفي سنة ١١٦٣ هـ ـ ١٧٥٠ م جدد بناء الحصون في انحاء البلاد وشحنها بالمقاتلة والسلاح واوعز للزعماء والحكام بالانتقال اليها واتخذها مراكز حكومية ، وبسط العدل وأمَّن السبل فدوى اسمه في الآفاق وكانت له هيبة »[٢٢] .

وتأكيداً على ما ورد نرى الوصف الذي اعطاه قنصل فرنسا في صيدا لناصيف النصار في رسالة منه الى (الدوق ديغويون) بتاريخ ٢٨ حزيران ١٧٧٢ بانه « الشيخ الكبير الذي اشتهر بكل سوريا بشجاعته »[٢٣] .

كان جبل عامل شهد خلال النصف الاول من القرن الثامن عشر عدة اعتداءات وهجومات من جميع الجهات « فمن البحر هدده غزو القرصان الاوروبي ، ومن الجنوب محاولة ظاهر العمر وابنائه لمد نفوذهم على الجبل ، ومن الشرق غزو عرب البادية وقبائل شرق الاردن لكسب الاموال ، ومن الشمال غزو الموالين للعثمانيين على ايدي ولاة صيدا وامراء آل شهاب ومحازبيهم »[٢٤] . وامام كل هذه التعديات كان واجباً أن ترص الصفوف في سبيل الحماية والدفاع .

---

(٢٢) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ١١٨ .

(٢٣) ياسين سويد ـ مرجع سابق ص ٦٥ .

(٢٤) حسين سليمان ـ مجلة الباحث ـ السنة الرابعة عدد ٢٠/٢١ ص ٥٦ .

الفصل الثالث

في اطار التحالف الخارجي

في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية مشغولة في اخماد ثورات ولاياتها الاوروبية ، بدأت القوى المحلية في المنطقة تستغل هذا الظرف ساعية قدر الاستطاعة الى التمرد على اوامر الولاة كرفض دفع الضرائب المتوجبة عليها والعمل على ادارة شؤون مناطقها بعيداً عن الاقطاع ومشاكله .

في مصر شهد المسرح هناك بروز المماليك من جديد بقيادة علي بك الكبير الذي بدأت تساوره الاطماع نحو بلاد الشام للسيطرة عليها ، هذا فيما كانت بلاد الشام تشهد حركة استقلالية قادها احد ابناء الزيادنة ظاهر العمر .

تولى ظاهر العمر (المولود عام ١٦٨٦) امور حكومة صفد وطبريا عام ١٧٠٦ خلفاً لوالده ، واتخذ عام ١٧٤١ عكا مركزاً لحكومته بعد ان حسَّنها وبنى عليها الابراج ، وفي سنة ١٧٦٨ منحته الدولة لقب « شيخ عكا وامير الامراء وحاكم الناصرة وطبريا وصفد وسائر الجليل »(١) .

وبانتهاء النصف الاول من القرن الثامن عشر ظهر على الساحة الشامية ثلاث قوى تهدد فعلاً امن وسلطات والي الشام ، هذه القوى هي :

---

(١) محمد جابر آل صفا . مرجع سابق ص ١١٦ .

١ ـ علي بك الكبير : مصر .
٢ ـ ظاهر العمر : فلسطين .
٣ ـ ناصيف النصار : جبل عامل .

اما العداوة التي تكنها الدولة لهذه القوى الثلاث فقد ساهمت في جمعها تحت راية واحدة بهدف واحد هو التخلص من سوء الادارة . وسيشكل هذا التحالف بقيامه خطراً كبيراً على الدولة بالذات ، خصوصاً انها في وقت هي بغنى عن مثل هذه المفاجآت التي ستؤدي حتماً الى صراع يؤثر مباشرة على امنها العام .

ونظرة عابرة على اهداف كل طرف على حدا نرى ما يلي :

في حين يسعى ظاهر العمر الى توسيع سلطته باتجاه جبل عامل على حساب العامليين ، نرى ناصيف النصار يسعى الى تأمين الامن والسلام في جبل عامل للتخلص من نفوذ والي صيدا وحلفائه الشهابيين والتفرد شخصياً في ادارة الجبل ، هذا في وقت يفكر فيه علي بك الكبير ، الاخطر في طموحاته ، الى بسط سلطته على انحاء بلاد الشام . إن مشروعًا وحدوياً لكل هذه القوى سوف يضع المنطقة في خطر لا تعرف نتائجه ، خصوصاً كما رأينا تشابك طروحات كل قوة هذا عدا عن تدخل الدولة ضد كل هذه القوى .

تمرد في جبل عامل :

بدأ ناصيف النصار حركته التمردية برفضه دفع الضرائب المتوجبة على الجبل الى والي صيدا ، وبملاحظة قنصل صيدا الذي ارسل الى حكومته تقريراً عن المنطقة نرى ذلك فقد جاء في التقرير: « طلبت من الحاكم ان ينصفني ، لكنه ابدى استياءه من تصرف هذا الشاب المتمرد (اي ناصيف النصار) الذي يمتنع عن تأدية الميري المتوجبة للسلطان »[٢] واستعمل القوة في أي عمل يتحرك به ، لقناعته بقوة جنده ومدى فاعليتها في الحروب فقد « . . . ارسل الشيخ مائة وخمسين فارساً لمصادرة البضائع وامرهم بمصادمة قوات الباشا اذا حاولت منعهم »[٣] ودفعت هذه المناوشات والتحركات بجيش الدولة التدخل المباشر لانهاء مثل هذه الاعمال ، الا ان خوف

---

(٢) حسين سليمان ـ مرجع سابق ص ٥٥ .
(٣) نفس المرجع ص ٥٥ .

الدولة من توسيع حلقة النزاع ، منعها من اي تدخل ، خصوصاً بعدما بانت على الساحة اضواء التحالفات بين القوى المحلية .

العلاقات العاملية ـ الصفدية :

بعد قبضه على زمام الامور في سوريا الجنوبية (فلسطين) وجه ظاهر العمر انظاره نحو الشمال والى جبل عامل بالذات ، وبدأ تنفيد خطته التوسعية فتحرش بناصيف النصار المقيم في تبنين المحصنة جيداً . « تحرش ظاهر بالعميد الوائلي وكتب اليه أن يتخلى عن قريتي البصة ومارون بدعوى انهما تابعتان لفلسطين ، وادرك العميد الغاية فرد رسوله رداً عنيفاً وقال له : قل لمولاك يتحرش بغيرنا فليس له عندنا الا السيف والنار »(٤) .

جاء هذا الرد حازماً مبشراً بوقوع شيء ما ، وناصيف النصار على ما ورد معنا يعرف قدرته في اي صِدام قد يقع في المنطقة ، هذا اضافة الى التحصينات التي اولاها لقلاع الجبل المنتشرة في كل انحائه . وهكذا « اصدر أمره حالاً بالتأهب للحرب وذهب الصوَّات يجوب انحاء البلاد للنفير العام »(٥) .

اما ظاهر العمر فبعد تبلغه جواب النصار ، جمع جنوده وتوجه نحو القريتين (البصة ومارون) وطرد عمال الجبل منها ، في الوقت الذي كان فيه رجال ناصيف قد وصلوا المنطقة حيث تصدوا لجنود ظاهر العمر ودارت بين الطرفين صدامات تقاسماها نصراً وهزيمة .

ومع هذا الصمود العاملي ، عرف ظاهر العمر مقدرة العامليين في وقت بدأت فيه التدخلات الخارجية تلوح في الافق مما اوجب وقف الصدامات ، وانقلب الموقف الى عقد معاهدة سلم بين ناصيف وظاهر ووقّعت « في عكا يوم الجمعة الواقع في اليوم الثامن من رجب عام ١١٨١ هـ ـ ١٧٦٧ م ، وحلفا اليمين على السيف والمصحف (القرآن الكريم) ان يكونا وشعباهما مناصفين متضامنين ما دامت الارض والسماء »(٦) .

---

(٤) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ١١٨ .

(٥) نفس المرجع .

(٦) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ١٢١ .

اسفرت هذه المعاهدة عن توفير عدة صدامات قد تحصل بين الطرفين هما في غنى عنها ، وشعر العامليون بشيء من الراحة ازاء هذه المعاهدة ، خصوصاً ان لظاهر العمر علاقات خارجية قد تساعد في عدة امور منها علاقته مع والي مصر علي بك الكبير .

ومع هذا التحالف العاملي ـ الزيداني فتحت طريق جديدة امام علي بك الكبير لتحقيق مشروعه التوسعي .

تدخل الدولة العثمانية :

بدأت الدولة العثمانية تشعر بالخطر الذي بات يهددها ، ففعلت كل ما بوسعها لاسقاط التحالف ، فقد اصبحت قوى التحالف العاملي ـ الزيداني الاقوى في المنطقة ، والتحالفات بالطبع تهدد أمن الدولة خصوصاً بين قوتين متمردتين او بالاحرى ذات علاقات سيئة مع ولاة المنطقة ، علاقات لم تعرف خلال العقود السابقة سوى الصدامات والمعارك .

كان علي بك الكبير قد وضع يده على كل المرافق في الدولة المصرية وطرد الوالي العثماني منها « وامتنع عن دفع الجزية للباب العالي ، ثم ضرب النقود باسمه سنة ١٧٦٨ وارسل الى صديقه ظاهر العمر يخبره بكل ذلك »(٧) .

ومع تواجد التحالف الثلاثي وضعت خطة مشتركة بين القوى الثلاث جاءت اهدافها على الشكل التالي :

« ١ ـ توحيد القوى المحلية في بلاد الشام الجنوبية ومصر في جبهة واحدة لمواجهة الاخطار ، مع احتفاظ كل قوة باستقلالها الذاتي ، للتخلص من ظلم الولاة العثمانيين وجورهم ، وصيانة الحرية مع الاستمرار في موالاة سلطان المسلمين .

٢ ـ التخلص من السيطرة العثمانية على جميع المدن السورية ، الممتدة من غزة الى طرابلس وجانب كبير من فلسطين وولاية صيدا .

---

(٧) حسن الامين ـ مجلة العرفان م ٧٠ ـ ع ٥ ـ ص ٥٥ .

٣ ـ ان تمتد سلطة علي بك الكبير الى غزة ، ويخضع لسلطة ظاهر العمر القسم الباقي ، ويقوم كل منهما بالتوسع وحده وبجهوده الشخصية في عمق البلاد الخاضعة له .

٤ ـ انفراد ناصيف النصار بزعامة جبل عامل ، اذ كان ينافسه الشيخ قبلان حاكم هونين الذي كان له دور في الصراع الدائر على النفوذ في سوريا ذلك الحين »[٨] .

جاءت هذه المعاهدة بين التحالف الثلاثي كاستعداد للتصدي ، وكانت سنة ١٧٦٨ مبشرة ببدء الصراع بين القوى المتحالفة والدولة التي بدأت تنتهز اقرب فرصة لضرب هذه القوى وانهاء خطرها .

اما اول عمل قامت به فهو تنصيب درويش باشا الابن الثاني لوالي دمشق والياً على صيدا ، للتأكد من عدم قيام اي صراع بين والي صيدا ووالي دمشق ، اضافة الى تنصيب الابن الاول لوالي دمشق محمد والياً على طرابلس .

وبهذا الوضع اصبح على ارض الشام تحالفان اثنان :

١ ـ الدولة العثمانية : عثمان باشا وولداه والي صيدا ووالي طرابلس .

٢ ـ القوى المناهضة : علي بك الكبير ، ظاهر العمر ، ناصيف النصار .

حملة مصر :

كان علي بك الكبير السبّاق لاشعال نار الصدام بين الطرفين . فبعد اتصالاته بحليفه ظاهر العمر ارسل حملته الشهيرة الى بلاد الشام في تشرين الثاني ١٧٧٠ بقيادة اسماعيل باشا لتحريرها من النفوذ العثماني . بدأت الحملة زحفها جنوباً ، واستسلمت المدن بالتتالي بدءاً من غزة ، واتبعها علي بك الكبير بحملة ثانية بقيادة محمد ابو الذهب لحقت بالاولى والتقت معها حيث انضمت اليها قوات ظاهر العمر في صفد وقوات ناصيف النصار في جبل عامل ، بحيث زاد عدد جنود الحملة على الستين الف مقاتل حسب المصادر.

---

(٨) حسين سليمان ـ مجلة الباحث ـ مرجع سابق ص ٦٠ .

واصلت الحملة سيرها فاشتبكت بجيش والي دمشق عثمان باشا وهزمته وتابعت سيرها فوصلت الى نواحي دمشق « واقامت في الاول من حزيران ١٧٧١ معسكراً لها في سعسع على بعد ساعة من دمشق »[٩] .

ضرب محمد ابو الذهب حصارًا على دمشق « وارسل الى الدمشقيين كتاباً أحضره من علي بك يتضمن ذماً لعثمان باشا واستنصاراً بالدين عليه قائلاً ان المذاهب الاربعة افتت بقتاله »[١٠] .

وبعد يومين ، وفي الثالث من حزيران ١٧٧١ تقدمت قوات التحالف نحو دمشق فتصدت لها قوات عثمان باشا قرب داريا وجرت هناك معركة حسمت لصالح التحالف الثلاثي واستسلمت مدينة دمشق بحيث سجل التحالف نصره الكبير .

ومع هذا النصر حصل تطور مفاجىء في سياسة قائد الحملة المصرية محمد ابو الذهب الذي كان عليه اكمال زحفه باتجاه باقي اراضي الشام ، غير ان القوى فوجئت بقراره الخطير في ١٨ حزيران ١٧٧١ والقاضي بالانسحاب من دمشق وتسليم سلطتها لآغا قلعتها .

جاء هذا القرار ضربة أليمة لكل احلام المنطقة ، وقد بقي سبب هذا القرار سراً لم يكشف منه المؤرخون شيئاً حتى اليوم .

كان من المفروض ان تكمل الحملة زحفها للقضاء التام على التواجد العثماني في المنطقة ، ولكن بهذا الانسحاب عادت هذه القوات (العثمانية) الى ضرب قوى التحالف خصوصاً مع بدء انسحاب الحملة من الشام ، وبدأت مشروعاً جديداً للقضاء على قوى المنطقة كان فاتحته جبل عامل .

---

(٩) حسين سليمان ـ الباحث ص ٦٠ .

(١٠) حسن الامين ـ العرفان ـ مرجع سابق . ص ٥٧ .

الفصـــل الرابـــع

النضال المسلح ضد تعديات الاقطاع

مع انسحاب قوات الحملة المصريـة من دمشق عاد اليهـا واليها عثمـان باشـا ، وقرر بعد استـراحة قصيـرة الانتقام من القـوى التي حالفت علي بـك الكبير في غـزوه للشام ، ووجه انظاره الى الجبل العاملي فجمع قواته وانتقـل بها لمهـاجمة العـامليين من الجهة الشرقية الجنوبية ، وبالتحديد من سهل الحولة .

معركة البحرة (آب ١٧٧١) :

وخـلال سير حملة عثمـان باشـا نحو الجبـل وردت انبـاء الهجـوم الى نـاصيف النصـار حيث استعد للتصـدي واتصل مبـاشرة بحليفـه ظاهـر العمر ليكـون على علم بالهجوم .

ومع وصول الحملة الى سهل الحولة حطت رحالها استعداداً لمباشرة الزحف ، فيما علم العامليون وحلفاؤهم بالامر فداهموا جيش عثمـان باشـا بعد ان حـاصروه من اربع جهات وهجموا على الجنود ضرباً وقتلاً حتى فرَّ من المنطقة .

لقد فرضت هـذه المعركـة على العامليين ، ودافعـوا فيها ببسـالة بحيث جـاءت نتائجها كرد على المأساة الطويلة التي اذاقتهم الامّـرين من ولاة المنطقـة . وبقدر مـا كـان هجوم الحملة ضـارياً كـان التصـدي اقـوى وثبتت مـدى فـاعليـة القيـادة ورص الصفوف .

ومقابل هذه الضربة في صفوف قوات والي دمشق سيعمد هذا الاخير الى تجهيز حملات اخرى لغزو الجبل بمشاركة حلفائه المحليين من شهابيين وغيرهم .

ومن نتائج النصر الذي احرزه العامليون في معركة البحرة ان رفضوا دفع الضرائب المتوجبة عليهم لوالي صيدا واعلنوا حالة التمرد والعصيان في كل انحاء الجبل .

معركة كفر رمان ٢٩ آب ١٧٧١ :

اسباب المعركة :

بقي عثمان باشا ينتظر اقرب فرصة للرد على الانتصار الذي حققه العامليون ضد قواته في منطقة الحولة ، فأخذ يراقب الاوضاع عن كثب فيما اجرى اتصالات بحليفه يوسف الشهابي الذي رفض مساعدته ونجدته في المعركة السابقة .

« وفي ١٨ تشرين الاول ١٧٧١ م حضر الى صيدا مندوب من قبل والي الشام ومعه الامر للأمير يوسف شهاب بمهاجمة بلاد عاملة ، ويعفيه مقابل ذلك من دفع ميري بلاده لمدة سنتين ، فوجد الامير في هذا الامر فرصة لا تعوض لانزال الهزيمة والانتقام من العامليين ، وإخضاع بلادهم لسيطرته ، والتزامها من باشا صيدا ، سوف يساعد على مضاعفة مداخيله وارتفاع مكانته في الجبل ، والتفاف الجميع حوله »[1] ونستدل من المكافأة التي سينالها الامير يوسف مقابل غزوه للجبل على ردة فعل الهزيمة التي لحقت بوالي دمشق . فعدم دفع ميري عن سنتين والبالغ ١٢٦ الف قرش (جبل الدروز ٦٧ الف قرش ومدينة بيروت ٥٩ الف قرش)[2] سيكون هيناً على الوالي في مقابل انزال هزيمة في صفوف العامليين .

القوى المشاركة في المعركة :

١ ـ الفريق المهاجم : أ ـ قوات الامير يوسف الشهابي .
ب ـ قوات مرتزقة .

---

(١) حسين سليمان ـ مرجع سابق ـ ص ٦١ .
(٢) مسعود ضاهر ـ مرجع سابق ص ٤٥٨ .

٢ ـ الفريق المدافع : أ ـ قوات جبل عامل :
١ ـ جنود علي الفارس الصعبي .
٢ ـ جنود ناصيف النصار.
ب ـ قوات ظاهر العمر .

وقائع المعركة :

بدأ الامير يوسف الشهابي زحفه بجيش بلغ مع المرتزقة اربعة آلاف مقاتل واثناء وصوله الى جبل عامل الشمالي (اقليم التفاح) عمل على تسيير حملة ارهابية هدفها نهب وتدمير البيوت وقتل الناس الآمنين في قراهم .

ومع وصول اخبار الهجوم الشرس الى ابناء الشيخ علي الفارس الصعبي عمد الى الاتصال بناصيف النصار يخبره بالامر الذي اتصل مباشرة بحليفه ظاهر العمر طالباً النجدة .

وكالعادة ارسل الصوَّات الى جميع القرى لدب الحماس في نفوس المواطنين منادين للحرب والدفاع .

سارت الحملة في اربع طرق ضمن اربع فرق مجهزة لمحاصرة قوات عاملة ، وعلى الشكل التالي :

١ ـ المقدمة : ضمت الامير يوسف وبعض جنوده .

٢ ـ الجناح الايمن : ضمت جنوداً سلكوا طريق : جباع ـ حومين ـ حبوش ـ النبطية .

٣ ـ الجناح الايسر : سلكت طريق العرقوب ـ الميدنة ـ الجرمق ـ كفر تبنيت ـ النبطية .

٤ ـ القلب : سلكت طريق جرجوع ـ عربصاليم ـ النبطية .

اما المقاتلون العامليون فكانوا يتألفون اول الامر من جنود علي فارس حاكم الشقيف الذي وزَّع قواته ضمن فرقتين :

١ ـ فرقة الفرسان : مؤلفة من ٥٠٠ جندي مجرب تمركزت في قلعة الشقيف في ارنون .

٢ ـ فرقة المشاة : عددها الف مقاتل متمرن .

اضافة الى حرس الشيخ علي .

وصل جيش الامير يوسف الى المنطقة التي يتواجد فيها العامليون (النبطية) وذلك لمحاصرتهم وحط رحاله في سهل كفر رمان .

« وعقد الشيخ علي ديوان مشورة من خواصه وكبار رجاله وخيَّرهم بين التسليم والحرب ، بل بين الموت الذليل والحياة العزيزة ، بين حرب مجزية او سلم مخزية وراءها سبي النساء والاستعباد واخيراً دمار البلاد ، فاختاروا الحرب والدفاع الى آخر نسمة من حياتهم وصلُّوا جميعاً صلاة الموت ودعوا الله ان ينصرهم ويخذل العدو الباغي عليهم ، وبدأ الاستعراض ودب الحماس في النفوس وارتفعت الاصوات بالحداء الحربي »[3] ومع وصولها لساحة المعركة صباحاً استطاعت قوات الامير يوسف احتلال ضاحية النبطية واتخذت من كفر رمان منطقة تجمع للجنود التي وصلتها الفرق الاربع واستعدت لمبارزة العامليين ، حينها اشار علي الفارس الى قواته ببدء الدفاع حيث بشَّر الرصاص باندلاع المعركة .

انكبَّ الفرسان العامليون على موكب الامير يوسف (المقدمة) وبدأوا عملية هجوم مباغتة . واخذت حلقة الصراع تضيق ولم يستطع الامير البقاء في ساحة المعركة مما اجبره على الفرار تاركاً الساحة لجنوده الذين ما ان رأوا قائدهم يفر من المعركة حتى ضعفت نفوسهم ففضلوا الفرار والنجاة .

الى ذلك الوقت كان رجال علي الفارس وحدهم في الساحة ولم يكن قد وصل بعد رجال ناصيف النصار ولا رجال الحليف ظاهر العمر ، ومع الغروب كانت الطلائع العاملية وحلفاؤها قد وصلت الساحة لنجدة اخوانهم غير ان الليل اسدل ستاره ، حتى اذا بزغ الفجر اشتعلت المعركة من جديد وبضراوة وسط انسحاب قوات الامير يوسف الذين اخلوا الساحة تاركين وراءهم قتلى المعركة فيها واستطاع ناصيف النصار اللحاق بالامير يوسف « فادركه في عقبة جرجوع فقنع رأسه بالرمح »[4] .

نتائج المعركة :

اسفرت المعركة عن عدة نتائج نوجزها بما يلي :

---

(٣) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ١٢٨ .

(٤) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ١٣٠ .

اولاً : انهزام الامير يوسف الذي يقابله انهزام لوالي الشام الذي اوكل لاحد الاقطاعيين بأخذ الثأر.

ثانياً : خسارة الامير يوسف الف وخمسماية قتيل (حسب تقديرات احد امراء الشهابيين) في حين يقدر المؤرخون العامليون عدد القتلى بثلاثة آلاف .

حُسِمَت المعركة بنصر العامليين وألهبت حماس الشعراء فانشدوا قصائدهم تعبيراً عن الفرحة . ومع هذا النصر ارتفعت معنويات العامليين وسجلوا انتصاراً جديداً على الوالي العثماني وحلفائه ، ووجد ظاهر العمر الفرصة سانحة للهجوم على صيدا التي هرب واليها اثر الانتصار العاملي ، فزحف العامليون والصفديون اليها وتمكنوا من احتلالها .

وبالطبع لن يسكت والي الشام عن هذه الهزيمة وسوف يقوم بالمستحيل للرد .

معركة الحارة ـ سهل الغازية :

المكان : حارة صيدا ـ سهل الغازية .

الزمان : ١٠ حزيران ١٧٧٢ .

القوى المشاركة في المعركة :

أ ـ القوات الغازية : جيش والي دمشق عثمان باشا .

ب ـ جيش الامير يوسف .

ج ـ جيش والي القدس خليل باشا .

القوى المتصدية :

أ ـ قوات جبل عامل .

ب ـ قوات ظاهر العمر .

سير المعركة :

وصلت قوات والي الشام ووالي القدس والامير يوسف الى صيدا وحاصرتها مدة اسبوع ، الا انها لم تسقط بسبب القصف البحري ببوارج خارجية بايعاز من ظاهر العمر ، حتى فُك الحصار عنها وانسحبت القوات المهاجمة الى سهل الغازية حيث كان الجنود العامليون وحلفاؤهم الصفديون قد وصلوا ساحة المعركة فبدأوا هجوماً

كاسحاً على القوات المهاجمة ببسالة رائعة استطاعوا خلاله صد الغازين الذين فروا مرة اخرى لا يلوون على شيء .

ولم يقف الامر هنا ، فقد أمر ظاهر العمر السفن التي استأجرها بقصف بيروت ، فقصفت قنابلها وانزلت قوات عملت في المدينة سرقاً ونهباً ولم ينسحبوا الا بعد ان قبضوا جزية .

ومع هذا النصر اثبت التحالف العاملي ـ الصفدي مكانته على الساحة امام تعديات الدولة وحلفائها .

استنتاج عام :

لقد استطاع الجبل العاملي التخلص بهذه الانتصارات من الاعتداءات المتكررة التي استمرت تهدد الامن فيه ، وانفرد العامليون آنذاك في ادارة شؤون البلاد حيث تسلم عدة اقطاعيين محليين شؤون المقاطعات ، كما تمكنوا ازاء كل الانتصارات من الامتناع عن دفع الضرائب لوالي صيدا .

وفي تقرير من قنصل فرنسا في صيدا الى دولته اشارة الى مشايخ الجبل الذين اداروا شؤون البلاد بعد هذه الانتصارات مع الاشارة ايضا الى مقدار الضرائب المتوجبة على كل منهم وذلك عام ١٧٧٣ .

ـ « بلاد بشارة ومركزها تبنين وحاكمها الشيخ (ناصيف النصار) ١٨ الف قرش (مدورة) .

ـ بلاد بشارة ومركزها هونين وحاكمها الشيخ (قبلان النصار) ١٨ الف قرش (مدورة) .

ـ صور مركزها مارون وحاكمها الشيخ (احمد العباس) ١٨ الف قرش (مدورة) .

ـ الشومر مركزها ميس وحاكمها الشيخ (عباس علي) ١٠ آلاف قرش (مدورة) .

ـ الشقيف ومركزها الشقيف وحاكمها الشيخ (علي فارس) ١٢ الف قرش (مدورة) .

ـ جباع حاكمها حسين منصور ٧ آلاف قرش (مدورة) .

ـ التفاح حاكمها الشيخ حمزة منصور ٧ آلاف قرش (مدورة) .
هذا بالاضافة الى ضريبة مدينة صيدا والبالغة ٥٠ الف قرش »[٥] .

---

(٥) مسعود ضاهر ـ مرجع سابق ص ٤٥٨ .

الفصل الخامس

حكم الدولة المباشر

امام الانتصارات التي حققها التحالف العاملي الصفدي استمرت الدولة تنتظر الفرص للايقاع بالعامليين وحلفائهم .

سقط التحالف الثلاثي المصري ـ الصفدي ـ العاملي بنهاية علي بك الكبير الذي قضى عليه محمد ابو الذهب قائد الحملة المصرية السابقة ، مما اراح الدولة العثمانية التي امرت ابو الذهب بالزحف الى عكا لانهاء حكم ظاهر العمر فيها ، فقدم بجيش قدره سبعون الف مقاتل حيث فرَّ ظاهر العمر منها امام كثافة الحملة ، فاحتل ابو الذهب عكا إلا ان الموت عاجله فعادت الحملة الى مصر وعاد العمر الى عكا ، واستمرت الدولة بالتفكير جدياً للتخلص من ظاهر العمر حتى ارسلت له سنة ١٧٧٦ حملة « بقيادة الوزير حسن باشا الجزائري فوافى سوريا على صهر الاسطول العثماني والقى مراسيه في ميناء صيدا »[١] .

في ذلك الوقت بقي العمر وحده في ساحة المنطقة ، فقد انفض من حوله قياديوه ومعاونوه ، مما ساعد احد اتباع الدنكزلي على اغتياله عن تسعين عاماً تاركاً الساحة من بعده لأولاده الذين دبَّ بينهم الخلاف فتفرقوا .

ولم يبق من قوى التحالف سوى ناصيف النصار . ومع نهاية ظاهر العمر تسلم

(١) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ١١٦ .

احمد باشا الجزار امور ولاية عكا .

احمد باشا الجزار :

ولد احمد باشا الجزار « في اوائل العقد الرابع من القرن الثامن عشر في احدى قرى البوسنة ، وقد نشأ وترعرع فيها فتىً شرس الاخلاق سيء السلوك »[٢] .

فرَّ الى الاستانة وباع نفسه لتاجر رقيق والذي باعه بدوره في مصر لتاجر من اهل البلاد ، اسلم الجزار على يديه وسمي احمد .

دخل في خدمة علي بك الكبير « ولشدة بطشه وفتكه ببدو اقليم (البحيرة) الذين ايدوا احد خصوم علي بك اطلق عليه لقب (الجزار) »[٣] وبعد مدة فرَّ الى الاستانة ومنها الى كنف الامير يوسف ١٧٧٠ واشترك معه في معركة الحارة - الغازية وعيَّنه بعد الهزيمة التي لحقت بهم والياً على بيروت وحصنها وفصلها عن امارة يوسف الشهابي مما دعا هذا الاخير لطلب العون من ظاهر العمر هذه المرة الذي لبى له ذلك وامر السفن بمحاصرة بيروت مقابل مبلغ من المال فاضطر الجزار للاستسلام وفرَّ الى دمشق حيث بقي هناك حتى مقتل ظاهر العمر فعيَّنه الباب العالي والياً على عكا .

استطاع الجزار بحنكته القضاء على اولاد ظاهر العمر وانفرد في الحكم واتخذ عكا مركزا له فحصنها وسار في سياسة قمعية وحشية تمكن من خلالها بسط نفوذه في منطقة صفد .

وامام الصلاحيات المطلقة التي بدأت تأتيه من الباب العالي وجَّه احمد باشا الجزار انظاره الى جبل عامل ، ليتمكن من بسط سلطته على المنطقة بأسرها .

اما العامليون وبعد سماعهم باعمال الجزار الدموية وبعد مقتل ابناء ظاهر العمر احسوا بقرب الخطر فاستعدوا لاي طارىء من قبل الجزار .

معركة يارون :

كان الجزار على علم بمقدرة العامليين القتالية وبكثرة حصونهم وقلاعهم ولمَّا

---

(٢) قسطنطين خمار - مجلة العربي العدد ٢٨١ - نيسان ١٩٨٢ ص ١٦٦ .
(٣) نفس المرجع - ص ١٦٦ - ١٦٧ .

رأى الفرصة سانحة جهَّز جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل ، ووضع عليه معاونه سليم قائداً وأمره بالزحف نحو جبل عامل .

ومع وصول خبر الهجوم ، جهَّز ناصيف النصار قواته وسارع للتصدي للجيش المهاجم فالتقى الجيشان قبل وصول نجدة العامليين من باقي المقاطعات وجرت بين الطرفين مبارزة في يارون ، وكان في مقدمة المقاتلين العامليين ناصيف النصار الذي تأهَّب لمبارزة جيش الحملة ، الا انه حدث ما ليس بالحسبان . فقد « زلت قدم جواده على بلاطة يارون وعاجله بعض الجنود باطلاق الرصاص فخرَّ قتيلاً وتشتت جنوده »[٤] .

وبمقتل النصار خسر العامليون قائدهم الذي حارب معهم في عدة معارك ، وشكلت هذه الهزيمة ضربة أليمة للجميع ، واتاحت الفرصة للجزار لبسط نفوذه على جبل عامل ليتسنى له احكام سيطرته على المنطقة .

وقد ارَّخ أحد شعراء الجبل ابراهيم يحيى هذه الموقعة فقال :

قتل ابن نصار فيا له من   مولى شهيد بالدماء مضرج
وتداولتنا بعده ايدي العدى   من فاجر او اهرج او اهوج
هي دولتنا عم البلاد الظلم في   تاريخها الله خير مفرج»[٥]
(١١٩٥ هـ)

وفعلاً مع انتصار قوات الجزار بدأت حملة ارهابية في الجبل هدفها السرقة والنهب امام خوف العامليين وفرار اغلبهم . وفي كل مرة يدفع الشعب الثمن ، فقد سرقت مؤن الأهلين واحرقت القرى ودمرت المنازل ، وبدأ رجال الحملة مجزرة بشرية مفجعة عندما اسرفوا في الجبل « قتلاً وذبحاً وقبض (الجزار) على فريق من الوجهاء فاماتهم خنقاً في سجون عكا وفرَّ من بقي منهم الى البلاد المجاورة »[٦] .

ولم توفر الحملة النساء والاطفال بل طالت كل مواطني الجبل كما امتدت

---

(٤) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ١٣٨ .
(٥) نفس المرجع .
(٦) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ١٣٨ .

ايـديهم الى مكتبات جبـل عامـل فنهبت المخطوطـات النفيسة والتي قـدرت بخمسـة آلاف مخطوط واودعت في افران عكا للنيران .

لقـد شكّلت هذه الحملة ارهـابـاً على ايـدي مجـرمين طـاول ارهـابهم علمـاء الجبل ، ففروا الى البلاد الاسلامية البعيدة كـالهند وايـران والعراق والافغـان ولم يبق في الجبل سوى الشعب المعذب الذي يدفع كل مرة حريته ثمناً لظلم الدولة .

« وممن فرَّ من العلماء من ظلم الجزار ، العالم الكبير والشاعـر المبدع الشيـخ ابراهيم يحيى ، قطن دمشق الشـام ، وبلي بها الشيـخ علي الخاتـوني الطبيب الفقيـه والعالم بعدة علوم هاجر في طلبها الى ايران . . . والسيد ابو الحسن ابن السيـد حيدر الامين والشيـخ حسن سليمـان والشيـخ محمـد الحـر »[٧] وكثيـر من اهـل العلم والمعرفة .

سقوط قلعة الشقيف :

في تلك الاثنـاء كانت قلعـة الشقيف ما تـزال بيد الشيـخ حيدر الفـارس الـذي اعتصم بها رافضاً الاستسلام فتعرضت آنـذاك لقصف مدفعي مبـاشر من جنـود الجزار ولم تسقط امام حصانتها واستمرت صامدة . وبعد عدة مفـاوضات تقـرر تسليم القلعة للجزار بشرط عـدم اصابـة اي عنصر من المحـاصرين بضـرر ، وفعلاً سلمت القلعـة وانسحب منها العامليون .

المقاومة العاملية ضد جيش الجزار :

شهد جبل عامل على ما رأينا هجـرة جماعيـة امام حمـلات القمع التي قـام بها جنود الجزار ضد الاهالي الآمنين ، ومـع تصاعـد عمليات العنف كـان لا بد من ولادة حركة التصدي لوضع المعتدين عند حدهم .

ففي سنة ١٧٨٣ لبَّى اعيان الجبل ممن بقي فيه دعوة لحضور مؤتمر سري تقـرر عقـده في بلدة شحور من اجـل التدارس في احـوال البلاد امـام شناعـة اعمال رجـال الجزار .

---

(٧) محمد حسين المظفر ـ تاريخ الشيعة ـ دار الزهراء ط ٣ ـ ١٩٨٣ ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

وعقد المؤتمر بحضور عدة رجالات تدارسوا اوضاع الجبل « فاجمع رأيهم على الكفاح وانقاذ البقية الباقية من وطنهم من الدمار »[٨] وانتهى المؤتمر الى اعلان حمزة بن محمد النصار على رأس الحركة التي تقرر انشاؤها والشيخ علي الزين مديراً لشؤونها .

« الطيّـــاح » :

وتجسيداً لمقررات المؤتمر تشكلت فرق من المقاومة بدأت اعمالها ضد رجال الجزار من هجومات الى كمائن وعرفت هذه الفرق بالطياحة او « الطياح » واخذت شهرة واسعة آنذاك من جراء اعمالها البطولية وطالت نضالاتها تزلف رجال الاقطاع وقتذاك ، الذين ابلوا الجماهير بضرائبهم الفادحة .

وامام الاعمال البطولية التي نفذها « الطياح » قامت عساكر الجزار بعمليات مضادة لاستهداف رجال المقاومة ، الا ان معظم هذه العمليات باء بالفشل ، وبدأ الطياح بحركة مطابقة لحرب العصابات حيث بدأت اعمالها تتسع مع انتماء الشعب اليها امام فجور رجال الاقطاع من جهة وظلم الجزار من جهة اخرى . . وقد ساعدت طبيعة البلاد الجبلية على قيام مثل هذه العمليات والتي كانت تتطلب احياناً اعمالاً استشهادية . وأثناء انشغال الجزار في امور ولايته وجد رجال عاملة الفرصة سانحة لتوسيع العمليات العسكرية لانهاء تواجد عماله من الجبل ، خصوصاً بعد عودة الفارين من خارج البلاد .

الهجوم على تبنين :

ومع تزايد عدد رجال الطياح شكلوا قوة تستطيع مهاجمة مراكز الجزار في البلاد وكانت قلعة تبنين آنذاك مركزاً يقيم فيها الحاكم العام التابع له ، فشكلت هدفاً رئيسياً لاعمال الثوار وقرروا الهجوم عليها . فبعد تجميع القوى وتهيئة الخطة ، انطلق الثوار نحو القلعة التي كان يحرسها عدد من الجنود المغاربة المرتزقة ، فحاصروها وانكبوا على الحرس قتلاً ثم دخلوا الى مركز القلعة والقوا القبض على الحاكم العام « فذبحوه ذبح النعاج واثخنوا باعوانه وجنده ، ونهبوا الخزينة الاميرية »[٩] .

---

(٨) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ١٣٨ .

(٩) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ١٣٩ .

يشكل هذا الهجوم الجريء قمة اعمال الطياح النضالية ، بحيث جاء تجسيداً لمؤتمر شحور ، ووقع كالصاعقة على الجزار عند ابلاغه الامر فتريث قليلاً ثم « اصدر امراً الى القوات التي كان قد سيَّرها في ذلك اليوم لاجتياح جبل الدروز ، بالانسحاب وارسلها من جديد الى جبل عامل . . . وقصف الباشا اربع قرى عاملية ودمرها تدميراً كاملاً »(١٠) .

ثم هاجمت قوات الجزار بلدة شحور (قلب الثورة) حيث كانت تضم قواد الثورة ومناضليها وجرت بين الطرفين « حرب دامية قتل فيها الشيخ حمزة النصار وفرَّ اعوانه وسار الشيخ علي الزين واخوانه الى العراق »(١١) وتفرق شمل المتمردين ، لتخضع البلاد للجزار تحت ظل الاضطهاد والقهر .

لقد مثلت سنوات الجزار عصراً للظلم وصلت الى اقصى درجة من التسلط ، كل هذا امام الصلاحيات المشروعة من الباب العالي .

نهاية الجزار ومعاودة الكفاح :

استمر القهر ضد العامليين واخوانهم في المنطقة حتى نهاية الطاغية الجزار عام ١٨٠٤ ومع رحيله رأى العامليون الفرصة سانحة لمعاودة الكفاح فنشطت عمليات الفرق المقاومة من جديد ورفض العامليون آنذاك دفع الضرائب . وعندما تسلم الوالي الجديد سليمان باشا امور ولاية صيدا بدأ سياسة سلمية مع العامليين فسعى للتقرب منهم وارسل لهم ممثلين عنه للتفاوض في شؤون البلاد .

معاهدة صلح :

رفض العامليون التفاوض مع رسل الوالي الجديد فما كان منه إلا ان اتصل بالامير بشير الثاني للتوسط معهم .

وبعد عدة اتصالات توصل الطرفان الى وضع عدة بنود للاتفاق بعد ان ادار كل من الحاج حسن الشيت عن جبل عامل وجرجس باز عن الامير بشير الشهابي

---

(١٠) حسين سليمان ـ مجلة تاريخ العرب والعالم ـ العدد ٥٥ ـ ايار ١٩٨٣ ص ٥٤ ـ ٥٥ .

(١١) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ١٣٩ .

المفـاوضـات بين والي صيـدا واعيـان الجبـل وجـاءت شـروط الصلح على الشكـل التالي :

« **اولاً** : العفو العام عن عموم الثائرين .

ثانياً : يعطى اقليم الشومر ملكاً لهم (الثوار) ولذريتهم مقسوماً بالتساوي بدلاً عن املاكهم التي ضبطتها الدولـة (على ان يستثنى منه قـرى الصرفنـد وانصار وقلعـة ميس) مرفوعة القدم ممنوعة القلم (أي معفـاة من الضرائب والامـوال الاميريـة) من دون معارض ولا منازع كما ذكر في (البيولريدي ـ المنشور الرسمي) .

ثالثاً : ان لا يكون دخل في حكم البـلاد ولا سلطة لموظفي الـدولة منهم وانمـا يرجعون في امورهم وفصل الخلاف الذي يقع بينهم الى شيخ المشايخ الشيـخ فارس النـاصيف ، فهـو يمثلهم تجاه الحكـومـة وبـه تنحصـر المخـابـرات ، وعليـه تعـود المسؤولية »[١٢] .

وارسل إذ ذاك الاتفاق الى الباب العالي للمصادقة عليه ، في حين اخذت بنوده تتجسد على الارض ،وعليه اتخذ حينها الشيخ فارس الناصيف بلدة الزراريـة مقراً لـه حيث بنى فيها داراً لرئاسة العشائر .

صحيح ان هذه المعـاهدة وشـروط الصلح قد اعـادت بعض المكانـة والارتياح للجبل ، الا ان الظلم سيبقى جاثماً على ارضه ، فحكم البلاد انتقـل من ظلم (جنود الجـزار) الى ظلم (حكام الاقـطاع) فاستمـر هذا الفـلاح يـدفـع ثمن الانتفـاضـات والمعاهدات والزعامات للعشائر التي صودرت املاكها بعد معركة يارون .

وبقيت هذه الاتفاقية على حالها حتى عام ١٨٢١ عندما تولى عبد الله بـاشا امـر ولاية عكا حيث عـدَّل في الاتفاقيـة ، فزاد من صـلاحيات زعمـاء الاقطاع في الجبـل معيداً لهم مقاطعاتهم السابقة ، فلم ينسوا خدمته بل شاركـوه في عدة معـارك خاضهـا هذا الوالي ضد والي دمشق ، واستمر الوضع على حاله حتى عام ١٨٣٢ سنة احتـلال ابراهيم باشا لمنطقة الشام .

---

(١٢) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ١٤١ .

الفصل السادس

حملة ابراهيم باشا ونضال العامليين

وراء الاحداث الآنفة الذكر كانت الساحة المصرية تشهد حدثاً تاريخياً بارزاً إثر ظهور شخصية جديدة على ساحتها ، قُيِّدَ لها لعب دور تاريخي على ساحة العرب باسرها .

قد يكون علي بك الكبير قد سبق محمد علي باشا في اطماعه التوسعية ، الا ان طروحات هذا الاخير جاءت على مستوى تحرير للولايات العربية .

ذلك هو محمد علي باشا الالباني الاصل المكدوني مولداً عام ١٧٦٩ الذي « استقل بالحكم في القاهرة وقوي مركزه عندما صدر الامر من الاستانة بتعيينه والياً على مصر عام ١٨٠٥ »[١] . بعد تسلمه زمام الامور سار محمد علي باشا في سياسة جديدة انمائية رأت مصر على يديه أولى بذور النهضة الحديثة ، حيث شهدت البلاد انتشار المدارس الحديثة والصحف لاول مرة ، هذا فضلاً عن القضايا العسكرية والسياسية .

حملة ابراهيم باشا :

امام التقدم المذهل الذي أخذت تراه مصر في عهد محمد علي باشا بدأ هذا

(١) مؤلف مجهول ـ مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا ـ تحقيق أحمد غسان سبانو ـ دار قتيبة دمشق ـ دون تاريخ ص ١٠ـ سيشار لهذا المرجع : سبانو.

الأخير سياسة توسعية ، فوضع نصب عينيه احتلال بلاد الشام والسيطرة عليهـا وتحقيق احلامه ببناء امبراطورية قوية على انقاض الدولة العثمانيـة عندمـا تنهزم امـام جيشه ، وجهَّز لهذه الغاية قوة عسكرية بلغت « ثلاثين الف رجل واربعين مدفعـاً ميدانيـاً وعدداً آخر من مدافع الحصار تساندهم قوة بحرية قوامها ثلاث وعشرون سفينة حربية وسبـع عشرة سفينة نقل »[٢] .

« وفي نـوفمبر تشـرين الثاني سنـة ١٨٣١ تحرك الجيش والاسـطول الجديـدان بقيادة ابراهيم (الابن الاكبر لمحمد علي) فظفر بانتصارات باهرة ، ودخل المصريون يافا ثم احتلوا حيفا ، وصور ، وصيدا ، وبيروت ، ثم سقطت عكا وأسر واليها بعد ان ظلت محاصرة ستة اشهر »[٣] .

بعدها اكمل الجيش سيره باتجاه دمشق فسقطت دون مقاومـة في حين استمرت الحملة في زحفها شمالاً محققة انتصارات عـدة و « في ٢٨ نوفمبـر (تشرين الثـاني) ١٨٣٢ احتل الجيش المصري قونية ووقع الصدر الاعظم اسيراً في أيدي البدو الـذين ألحقهم ابـراهيم باشـا بجيشه »[٤] . وامـام هذه الانتصـارات المروعـة ذُهلت الدولـة العثمانية مما دعاها لطلب العون السريع من الدول الخارجية خصـوصاً من روسيـا بعد انتصار الجيش المصري في كوتاهية في ٢ شباط ١٨٣٣ اذ « سارعت بارسال اسطولها الى مياه البوسفـور وقامت بـانزال عشـرين الف عسكري على الشـاطىء الآسيوي من البوسفور في هنكاراسكلسي قرب قصر السلطان الصيفي ، وارسلت روسيا ايضا فيلقاً روسياً آخر من جهة الدانوب ليصل الى استامبول (القسطنطينيـة) بطريق البـر »[٥] . وامام التدخل الروسي المباشر سعت بـريطانيـا وفرنسـا لانهاء الاحـداث بالتـوسط بين محمـد علي والدولـة العثمانيـة واسفرت الاتصـالات عن توقيـع معاهـدة بين الطرفين عرفت بصلح كوتاهية (٤ أيار ١٨٣٣) ، وكان من بنـود هذا الصلح ابقـاء بلاد الشـام تحت حكم ابراهيم باشا لمدة اربع سنوات والانسحاب الفوري من بلاد الاناضول

---

(٢) نفس المصدر ص ١٥ .

(٣) مجلة الهلال م ٥٦ ـ ج ١١ ـ نوفمبر ١٩٤٨ ـ ص ١٩ .

(٤) نفس المرجع ص ١٩ .

(٥) سبانو ـ مصدر سابق ص ١٦ .

بموجب هذه الاتفـاقية بـدأ ابراهيم بـاشا سيـاسة اصـلاحية جـديدة في منـطقة الشـام ، حيث اعلن « المساواة بين جميـع الـطوائف واصـلاح جهـاز الحكم وفـرض النظام والامن »[٦] .

ولتسهيل ادارته في البـلاد اعتمد ابـراهيم باشـا على عدة قـوى من بينها الاميـر بشير الشهابي الثاني امير جبـل لبنان الـذي التزم عـدة مقاطعـات في المنطقـة ، وامام الصلاحيات المطلقة من قبل ابراهيم باشا عيَّن أحد مقربيه جابياً في جبل عامل .

جبل عامل والحكم المصري :

مع التزام الامير بشير بلاد عاملة عمد الى تعيين « الامير بشير قاسم حـاكماً على صيدا والامير حسن الاسعد حاكمـاً على صور »[٧] في حين ولى ابن اخيـه مجيد على باقي مقاطعات جبل عامل .

وبالاضافة الى السياسة المصرية العامة والتي تمثلت بالقمع والقوانين الجـديدة على الساحة عمد الامير مجيد الى اتباع سياسة عنف واضطهاد في جبل عامـل . ومن واقـع الخلافـات السابقـة بين العامليين وامـراء جبل لبنـان كان لا بـد لهؤلاء من إتباع سياسة القهر في الجبل خصوصاً امام الصلاحيات المطلقـة من قبل المصـريين ، وقد تمثلت سياسة مجيد القمعية من خـلال ارهاق المـواطنين بالضـرائب الفادحـة وسجن المئات من اهالي الجبل ، « فكان في سجنه في صور زهاء الألف رجل »[٨] .

اندلاع الثـــورة :

امام هذا القمع والاضطهاد جنَّد بعض اعيـان العامليين رجـالاً وفتيانـاً استعداداً لبدء حرب عصابات على غرار حركات النضال السابقة ضـد عناصـر الحكم المصري واعوانه في الجبل .

---

(٦) سليمان موسى ـ الحركة العربية ـ دار النهار للنشر ـ ط ٣، ١٩٧٧، ص ١٧ .
(٧) عباس ابو صالح ـ تاريخ الموحدين الـدروز السياسي في المشـرق العربي ـ منشـورات المجلس الدرزي للبحوث والانماء دون تاريخ ص ٢٠٧ .
(٨) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ١٤٧ .

انتفاضة حسين ومحمد علي الشبيب :

قـاد الثورة في جبـل عامـل على مـر ثـلاث سنـوات متتـاليـة (١٨٣٦ ـ ١٨٣٩) المناضلان حسين الشبيب واخوه محمد علي .

بدأ العامليون بتركيـز هجماتهم على مـراكز الحكـومة حيث كـانوا يحتلون هـذه المـراكز ويـطردون عمالهـا بعد ان تنصبّ ضـرباتهم على حـراس المراكـز ، وامتدت اعمالهم النضاليـة الى الجباة الـذين ارهقوا الشعب بضـرائبهم الفادحـة عندمـا اخذوا يقبضون تلك الاموال المرسلة الى الخزينة .

وقد انخرط في صفوف المقاومـة جموع غفيـرة من الشباب المتحمس ، بحيث ضمت الحركة الجديدة المئات منهم . ففي رسالة موجهـة الى شريف بـاشا من مـدير ايالة صيدا الشيخ محمود عبد الهادي اشارة الى عدد افراد الثـوار ومؤرخة في رمضـان ١٢٥٥ هـ/ ١٨٣٩ ويقـول فيها عن الثـوار ان عـددهـم « ستمـائـة نفـر منهم اربعمـائـة وخمسين نفراً بالبندق ومقدار مائة وخمسين نفـراً من غير سـلاح فقط مع الـواحد منهم فرد طبنجة وخنجر ويطقان ، والبعض بالعصي »[٩] .

هـذه الحركـة الشعبية في الجبـل تعطينـا صورتين واضحتين : الاولى عن روح الثورة في نفوس المواطنين ، والثانية عن مدى الـظلم اللاحق بهم من جـراء الضرائب والقوانين التعسفية .

وقد سبقت هذه الحركة ، الثورة العامـة التي انفجرت في المنـطقة عـام ١٨٤٠ وكان لها اتصـالات مباشـرة مع الثـوار فيها ، ومنهم الاميـر خنجر حـرفوش أحـد ثوار المنطقة ضد قمع ابراهيم باشا ، اذ ورد في رسالة مدير ايالة صيدا السابقة اشارة لمثل تلك الاتصـالات « حضـر لعنـده (حسين الشبيب) سبعـة عشـر مسلحين من نـواحي بعلبـك ومعهم مكتوب لـه من الامير خنجـر (الحرفـوش) من تعلقـات الشقي الاميـر جهجاه يخبره انه مسك شبلي العريان بـاطراف حمـاه وعلقه على عـود ، وانه ان كـان لازم له معونة من الرجال ليرسل له . . . وحضـر لعنده (حسين الشبيب) واحـد شقي

---

(٩) علي الزين ـ فصول من تاريخ الشيعة في لبنان ـ دار الكلمة للنشر ١٩٧٩ ص ١٥٣ .

يسمى درويش بعلبكي من بعلبك ومعهم كام نفر . . . »[١٠] .

هذه الوثيقة التاريخية تعطينا لمحة هامة عن فاعلية رجال المقاومة العاملية آنذاك ضد ارهاب حملة ابراهيم باشا عدداً وفعلاً ، اما الإشارة الى الاتصالات المباشرة بين ثوار جبل عامل وثوار المنطقة فهي تعطينا صورة عن الاستياء الشعبي العام في معظم البلاد من جراء تصاعد حملات القمع والاضطهاد التي مارستها حملة ابراهيم باشا . ومع ضخامة عدد الشباب المنخرطين في صفوف الانتفاضة العاملية أصدر ابراهيم باشا امراً الى الامير بشير الشهابي بالتصدي لثوار جبل عامل حيث قام الاخير بارسال ابن اخيه مجيد مع « خمسمائة نفر ومقدار ستون خيال باشبوزق اكراد واتراك لضرب الشقي المذكور »[١١] والشقي هنا هو المناضل حسين الشبيب وهذا اللقب كان يطلق على كل ثائر واتخذ لقباً للثوار ايضا فيما بعد من قبل قوات الاحتلال الغربي للوطن العربي .

ونرى هنا ان عدد الجنود المرسلين الى جبل عامل خمسمائة جندي مما يدل على فاعلية الثوار وشمولية اعمالهم . ويكمل التقرير بطلب سريع الى شريف باشا لارسال الجنود وذلك كتأكيد على ضرورة ضرب الثورة . واستمر الثوار آنذاك في اعمالهم النضالية خصوصاً ضد الجباة بحيث منعوا من اداء خدمتها بشكل مريح كما كانوا يتربصون بهم اثناء نقلهم الاموال فينقضون عليهم ، مما حدا بهم الى التريث وطلب فرص الامان لارسال الاموال الى الايالة . ففي تقرير من محمد منيب افندي مرسل الى ابراهيم باشا اشارة الى مثل ذلك، اذ يفيد التقرير انه استوفى اموال مقاطعة الشقيف وبلغت ٢٠٤٠٠٠ كيس « وانه اغتنم فرصة قيام سليمان باشا من صيدا الى بلاد بشارة لتأديب (حسين شبيب) فارسل هذه المبالغ مع سليمان باشا الى خزينة عكا نظراً لتسلط حسين المذكور على المارة والمسافرين في ١١ رمضان »[١٢] .

وامام توسيع عمليات الثوار بدأ الامير مجيد تسيير الحملة ضد المناضلين لكبح أعمالهم وضرب حركتهم الكفاحية ، وشارك في الحملة والي صيدا سليمان باشا .

---

(١٠) علي الزين ـ نفس المرجع السابق ص ١٥٣ .
(١١) نفس المرجع السابق ص ١٥٣ .
(١٢) علي الزين ـ نفس المرجع السابق ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

وخلال عملياتها التعسفية طالت الحملة المواطنين الآمنين ، وبدأت تنكِّل بهم لتعمل على ايجاد شق خلاف بين الثوار والاهلين . وامام فظاعة الاعمال التعسفية بدأ اعيان الجبل اتصالات فورية مع قيادة الثورة خصوصاً مع حسين الشبيب واخيه محمد علي وعرضوا « عليهما التسليم تحت شرط حفظ حياتهما فأبيا ، وبارحا البلاد بانصارهما الى حوران وارباض دمشق حتى تخف وطأة جنود الحكومة على الاهلين »[١٣] .

انها سياسة القمع . . . المناضل وحده يحمل هم اهله . . . لقد فضَّل الثوار مغادرة البلاد خصوصاً زعيماها ورفاقهما امام الاعمال الاجرامية التي ارتكبتها حملة مجيد الشهابي . . . تركوا الجبل لمواصلة النضال من الخارج . . وخلال تسيير الحملة القمعية ضد جبل عامل ارسل قائدها رسالة الى محمد شريف باشا والي الشام يسرد فيها اخبارها ونتائجها . جاء في الرسالة المؤرخة في ١٠ رمضان ١٢٥٥ :

« المعروض لاعتاب دولتكم انه بحسب الامر العالي قد وصل عبدكم الى بلاد بشارة وبوصولنا الى قرية ميس تحققنا زيادة الشقاوة الحاصلة من حسين شبيب ومن معه وجميع مشايخ قرايا هذه الجهة تقدم له مهما طلب وقد بلغ جمهوره مائتين نفر ، وانه تلك الليلة موجود بمن معه في قرية تدعى يارون ، مسافة ثلاث ساعات من قرية ميس المذكورة لزم توجهنا قبل الضو بثلاث ساعات كبسنا محل وجوده فلم نجده وكان قد توجه الى قرية يارون . . . فالبحاضر لحقنا خبره وعند وصولنا الى القرية المرقومة وجدناه توعر بجبال هذه الجهات التي لم ننظر مثلها فدخلنا الجبال بالعسكر وبقينا مجدين السير بطلبه الى ان حصلناه واوقعنا عليهم القتال وبحوله تعالى وبسيف سطوة دولتكم قد وقع بهم النكال وشتتنا جمعهم وبقيوا مهزومين قدامنا مسافة ساعتين، فقتل منهم من قتل وانهزم منهم من انهزم ولم يبق سوى الشقي ومعه خمسة انفار اوقاهم ظلام الليل ، والذين بقيوا ولا نعرف اسماءهم رجعوا ولا نعلم لمحلاتهم ام لا ، ثم ومن الجملة اخذ منهم مربوط وهو واصل والامر به لدولتكم واما من نحو الشقي ربما ما عاد يقر له القرار وعبدكم ما زلنا نفحص عنه بالجد والجهد وان شاء الله تعالى وبتوجهات عواطف دولتكم نظفر به . هذا ما وجب اعرضه لدولتكم افندم ، واما من نحو عبيدكم العسكرية الذين بمعيتنا مع اشراح خاطر دولتكم ما حصل عليهم تنغيص

---

(١٣) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص١٤٨ .

سوى بعض مجاريح بالسالم »[١٤] .

لقد بالغ الامير بشير في هذا التقرير من اجل تبيان مدى عمله في خدمة والي دمشق وقدرته على صد الثوار ، ولم يشر التقرير الى اعمال الحملة التعسفية والتي كانت سبباً لرحيل الثوار عن الجبل .

نهاية الثورة :

فر الثائران ورجالهما تاركين الجبل العاملي بعد حملة القمع والارهاب التي طالت نواحيه . واثناء تواجدهما في احدى قرى دمشق وشي بهما لوالي الشام محمد شريف باشا الذي ارسل فرقة للقبض على الثوار حيث احاطت بالمنزل ، « وكان حسين بك الشبيب مريضا مدنفاً فاوعز لاخيه محمد علي بك ان ينجو بنفسه فخرج من الدار وبيده (القرابينة وهي نوع من السلاح الناري واسع الفم قصير الانبوب) مهدداً بالموت كل من يدنو منه ، فاخترق صفوف الجند وهم لا يعرفونه ، يتبعه جماعة من رجاله فيهم نصر الله نعنوع من المروانية وايوب عليق ونصر الله زهنون من يحمر ، ودخل الجند البيت فكان من السهل القبض على حسين بك لشدة مرضه ، وبقي معه جماعة من رجال وبينهم شاب وافر المروءة يدعى موسى قليط من قرية (ياطر) جنوبي جبل عامل ، وسأل قائد الجند عن محمد علي بك بعد ان قبض على حسين بك وخشي موسى قليط ان يتعقبوه فقال : انا هو وكان يشابهه شكلاً فقبضوا عليه وساروا بهما الى دمشق فامر شريف باشا بشنقهما »[١٥] .

اما محمد علي الشبيب فانه نجا بمروءة المناضل موسى قليط وعاد الى جبل عامل بعد انسحاب المصريين من البلاد واقام في بلدة المروانية من اعمال الزهراني وبنى فيها داراً قائمة للآن واثناء احداث ١٨٦٠ لعب دوراً بارزاً في ايواء الجماعات المسيحية الفارة من بطش الحرب[١٦] وبقي في المروانية حتى وفاته حيث دفن فيها[١٧] .

---

(١٤) علي الزين ـ فصول من تاريخ الشيعة ص ١٥٤ .
(١٥) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ١٤٨ .
(١٦) محسن الامين ـ اعيان الشيعة، م ٩، ص ٤٢٧ .
(١٧) محسن الامين ـ خطط جبل عامل، ص ٣٥٥ .

وعلى طريق المصيلح ـ النبطية ما تزال بعض آثار خان بناه محمد علي ويعرف حتى الآن بخان محمد علي وتحمل المنطقة اسمه ايضاً .

الثورة العامة :

في اطار حملات القمع والارهاب التي استمر الجيش بتنفيذها على ارض البلاد اندلعت الثورة العامة وامتدت من منطقة الى اخرى بحيث شاركت فيها كل القوى في معظم الساحة الشامية .

اسباب عدة ادت الى اندلاع تلك الثورة لكن اهمها الاحكام الجديدة التي فرضها المصريون على اهل البلاد ، فقد عمد ابراهيم باشا الى فرض قانون التجنيد الاجباري على المواطنين بشكل لم تألفه من قبل . في القرون السابقة انخرط الشعب في صفوف الجيش العثماني لكن بطريقة مختلفة ولأوقات معينة ، وطبعا سيلاقي مشروع ابراهيم باشا رفضاً شاملاً في المنطقة .

ولم يقف الامر عند التجنيد الاجباري ، بل ان احد اهم اسباب الثورة المباشر يكمن في فرض الضرائب التي ارهقت الشعب والتي كانت تزداد فصلاً بعد فصل ، فقد « كان للضرائب الباهظة ولا سيما ضريبة (الفرضة) ايام الحكم المصري دوراً اساسياً في تفجير الوضع في وجه هذا الحكم عام ١٨٤٠ »(١٨) . وهكذا نرى القوانين الجديدة تلعب دوراً بارزاً في تفجير الوضع فتفرض البندقية قسراً على الفرد ولم يعد باستطاعته سوى مباشرة النضال خصوصاً مع انفجار عام اثر التدخلات الخارجية في مصير المنطقة ، ووصل الامر الى حد لم يعد يطاق فيه التواجد المصري على ارض البلاد . وامام شدة الضغط والقهر انفجرت الثورة وعمت كل البلاد . . . شملت دمشق وحوران وجبل لبنان وطرابلس وامتدت الى جبل عامل ، وبدأت تتوسع مع المشاركة العثمانية المباشرة التي بدأت اعمالاً عسكرية ضد الجنود المصريين بالزحف عبر جبهة دمشق ، وما لبثت الدول الخارجية ان تدخلت في الامر الذي وجدته فرصة سانحة لتمرير مشاريعها ، بحيث بدأت المراهنة على التمييز المللي في المنطقة ، وهكذا اجتمعت كل الظروف لتجبر ابراهيم باشا على الخروج من المنطقة .

---

(١٨) مسعود ضاهر ـ مرجع سابق ص ٤٦٩ .

ثورة حمد المحمود :

حمل لواء الثورة هذه المرة في جبل عامل عدة ثوار كان من ابرزهم "المناضل حمد المحمود بمشاركة شعبية شاملة في معظم الاعمال النضالية . فقد أرهقت القوانين الجديدة المواطنين ووجدوا الفرصة سانحة للرد على وأد الانتفاضة السابقة .

تلقى حمد المحمود علومه الاولى في مدرسة الكوثرية من امهات المدارس في جبل عامل ، انتظر مع الوقت حتى اندلاع الثورة في البلاد فاعلن حركته الشعبية التي ضمت مئات الشباب العامليين ، واصطدمت حركته مع جنود ابراهيم باشا واعوانه من جيش بشير الثاني وأهمها صدام وقع عند جسر القعقعية انتصر فيه المقاتلون العامليون وأكملوا سيرهم شمالاً .

اضحت عاملة آنذاك مسرحاً لعدة عمليات ضد جيش ابراهيم باشا ، وشهدت عدة صدامات بين الدروز وجيش ابراهيم باشا ، فقد حضر مدير ايالة صيدا « بجمهور من العساكر الظافرة الى بلاد بشارة وحطّ بقرية يقال لها ميس وارسلماية خيال لاطراف مرج عيون لبلد يقال لها المطلة فتصادفوهم حسين ابو عساف ومعه شرذمة من الدروز وتضاربوا مع بعضهم وانكسر حسين ابو عساف وجماعته وضلوا هاربين الى راشيا الفخار قرب حاصبيا وقتل من جماعته خمسة عشر نفر »[١٩] .

كان حسين ابو عساف قد جال في مناطق الجبل يدب الحماس في نفوس المواطنين[٢٠] لاعلان حالة التمرد ضد الجيش المصري ، ومع اتساع حركة التمرد في الجبل العاملي أخذت تستوعب الجماهير الفارة من باقي المناطق ممن تصدى لهم اعوان ابراهيم باشا ، ومنهم اقارب الشيخ حمود احد رجال الثورة في جبل عامل اذ ارسلهم « الى عند العصاة الذين كانوا مجمهرين بساحل صيدا وبقوا مع العصاة لنهاية الحركة »[٢١] على ما ورد في المحفوظات الملكية ج ٤ ـ ص ٤٢١ .

---

(١٩) سبانو ـ مصدر سابق ص ١٩٥ .

(٢٠) نفس المصدر السابق ص ٩٧.

(٢١) عباس ابو صالح ـ مرجع سابق ص ٢٣٢ .

كما تفجرت الثورة شمالي الجبل في بكاسين ضد الجيش المصري وقادها ابو سمرا غانم الذي وسع عملياته باتجاه الشمال .

ومع تتالي عمليات الجيش العثماني في منطقة دمشق اخذ يستوعب رجال الحركات الثورية في المنطقة فانضم المناضل حمد المحمود مع رجاله الى الجيش في منطقة حمص « واظهر ضروباً من البسالة والتدبير لفتت نظر عزت باشا قائد الجيش التركي العام ، فاستدعاه واثنى عليه وعيَّنه حاكماً على جبل عامل بلقب شيخ مشايخ بلاد بشارة ، وعهد اليه بمطاردة الجيش المصري في الجنوب »(٢٢) عندها عاد حمد المحمود الى جبل عامل لقتال الجيش المصري الزاحف جنوباً ، فجرت بين الطرفين عدة صدامات في « رميش ووادي الحبيس وشفا عمرو فكان النصر حليفه »(٢٣) .

ولأجل كل هذا عقد ، في لندن ، معاهدة وقعتها دول من اوروبا هي : انكلترا والنمسا وروسيا وبروسيا ، فيما بقيت فرنسا بجانب محمد علي باشا ، إذ كانت المعاهدة تنص على ضرورة الانسحاب المصري من بلاد الشام وجزيرة كريت وأضنة مع اعادة الاسطول العثماني لحكومة الاستانة في مدة اقصاها عشرة ايام ، ورفض محمد علي قبول مثل هذه الشروط وفضل القتال خصوصاً ان فرنسا بجانبه .

ازاء الرفض المصري عمدت البحرية الانكليزية الى التدخل مباشرة عندما اقتربت من سواحل الشام وبدأت عملياتها في بيروت « بضرب المدافع والقنابر ثلاثة ايام حتى خربوا اغلبها وتوجهت المراكب على صيدا وضربوا كم مدفع فهرب المتسلم وباقي اهل البلد وسلمت وطلعت عساكر العثملي اليها ونادوا باسم السلطان عبد المجيد وملكوا صور وضبطوا كل ذخايرها وفرقوها على الفقراء »(٢٤) . وامام هذه الضربات الجديدة بدأ الجيش المصري عملية الانسحاب من المنطقة بحيث ينادى من كل منطقة ينسحب منها المصريون باسم السلطان عبد المجيد .

اما في جبل عامل ، فاثناء عملية انسحاب الجيش المصري وردت الى الثائر

---

(٢٢) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ١٥١ .
(٢٣) نفس المرجع ص ١٥١ .
(٢٤) سبانو ـ مصدر سابق ص ١٢٥ .

حمد المحمود رسالة من احد قادة الجيش العثماني جوقموش باشا يشير فيها الى ضرورة تهيئة النفس للتصدي لجنود ابراهيم باشا التي ستمر اثناء انسحابها في منطقة جسر بنات يعقوب او من جسر المجامع وهذه المناطق تقع جنوبي شرقي الجبل .

وعند خروجها من الجبل تابعت القوات المصرية زحفها جنوبا فلحق حمد المحمود بها « واستولى على صفد ، وعيَّن الشيخ حمد الغزي وكان من اخصائه حاكماً لها ، كما انه استولى على طبريا والناصرة واجلى عمال المصريين منها ، وتولى اخراج الاسارى والسجناء الذين حشرهم المصريون في سجون عكا »[٢٥] . وهكذا تجمعت الانتفاضة الشاملة مع التدخلات الخارجية واجبرت الدولة العثمانية جيش ابراهيم باشا على الانسحاب والخروج من المنطقة .

ومع انسحاب الجيش المصري من المنطقة واستلام الجيش العثماني حكم البلاد ، بدأت سياسة جديدة بينهم وبين العامليين لانخراطهم في الثورة العامة فيما ارسل الى جبل عامل رسائل من قبل السلطات العثمانية وهي اشبه بعرائض بحق الشهابيين ليوقع عليها المواطنون وذلك للاحتجاج عليهم امام سلطات الباب العالي .

ولشعراء الجبل عدة قصائد تمدح المناضل حمد المحمود ، وتشرح صداماته مع الجيش المصري وتفوقه فيها . استمر حمد المحمود حاكماً في تبنين حتى عام ١٨٥٢ حيث خلفه احد انسبائه في حين أرَّخ وفاته احد الشعراء العامليين فقال :

لقد عميت عين المفاخر اذ رأت   من الافق ارخ بدرها حمداً غابا[٢٦]

١٢٦٩ هـ

انفرد ممن جاء من بعد المناضل المحمود للجاه والعز على حساب المواطنين ووصل بهم الحد الى ارهاق الشعب لاجل ملذاتهم الخاصة ، فكانت تلك اسباباً لحركات ستظهر على ساحة الجبل .

جبل عامل وحوادث جبل لبنان ١٨٦٠ :

شهد جبل لبنان عام ١٨٦٠ حرباً طائفية بين سكانه ، هلك فيها الحرث والنسل

---

(٢٥) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ١٥١ .

(٢٦) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ٥٥ .

وهدمت القرى واتلفت المزراع مسجلة ارقاماً عالية في الخراب والدمار في الحروب الطائفية آنذاك .

ومع اتساع حلقة الحرب والصدامات شهد جبل لبنان حركة تهجير واسعة باتجاه المناطق الآمنة واستقبل وقتها الجبل العاملي مئات الافراد من النصارى الفارين من بطش الحرب ونزلوا على اهله بالسعة والرحاب ، واعطيت الاوامر للاهلين بايواء النازحين فشرعوا لهم الابواب ، خصوصاً في منطقتي اقليم التفاح والشقيف ، ومدينة صور[٢٧] .

نهاية التسلط الاقطاعي :

عرف الجبل في النصف الثاني من القرن الماضي خلافات عدة بين اقطاعيين تسابقوا على ايقاع المتاعب والمشاكل بين ابنائه .

ومع اشتداد هذه الخلافات ، استدعى وزير خارجية الدولة فؤاد باشا اقطاعيي البلاد ولما وصلوا الى دمشق منعهم من العودة الى الجبل فقضوا بامراض فتكت بهم هناك .

وقد عبر احد الشعراء العامليين في احدى قصائده عن الحالة السيئة التي يعيشها الجبل حينذاك تحت حكم الاقطاعيين ، يقول الشاعر عباس البلاغي :

طغت سفهاء عامل في البلاد ... وفيها اظهروا كل الفساد
لقد ظلموا العباد ولم يخافوا ... من الرحمان في ظلم العباد
اذا (العشار) وافى نحو قوم ... تراهم هائمين بكل وادي
(وعاملة) بها عاثوا فسادا ... كأنهم بقايا قوم عاد
كانهم باموال السرايا ... رياح عاصفات في رماد
من التقدير اهل الملك اضحت ... تحيى بالسلام على الجراد
وان بكا الارامل واليتامى ... له الاذن الاصم من الجماد

---

(٢٧) يذكر الدكتور شاكر الخوري وهو من معاصري تلك الحقبة ما لقيه مع اخوانه الفارين من ترحاب عند العامليين وقتذاك ويعدد اسماء الاعيان الذين استقبلوا النازحين ـ راجع كتاب المسرات لشاكر الخوري . وعلي الزين : فصول من تاريخ الشيعة في لبنان ـ ص ٢٢١ وما بعدها .

فـكـم نــادت بــذل واســتــجــارت (ولـكن لا حـيــاة لـمـن تـنــادي)[٢٨]

لقد عبَّر الشاعر البلاغي في قصيدته عن الظلم والقهر اللذين لحقا بالاهالي والجبل من جراء التسلط والظلم . انها صرخة مناضل ، باسم المواطنين المعذبين ، تصور الوضع المأساوي ليس في جبل عامل وحده فحسب بل في كل منطقة الشام التي عاشت تحت ظل القهر والاضطهاد .

---

(٢٨) قيصر مصطفى ـ الشعر العاملي الحديث ـ دار الاندلس ـ ١٩٨١ ص ١٣٦ .

الفصل السابع

في ظل سلطنة عبد الحميد

الحكم العثماني المباشر :

بعد القضاء على التسلط الاقطاعي في جبل عامل والمنطقة ، عمدت الدولة الى تغيير خارطة المنطقة الادارية ، واصدرت في الثامن من تشرين الثاني عام ١٨٦٤ قانون الولايات الذي الغى ايالة صيدا واصبحت بموجبه سورية ولاية ، وأعلن جبل لبنان متصرفية بعد اتفاق عقدته الدولة مع خمس دول اوروبية تدخلت مباشرة في الوضع الداخلي للمنطقة . ضمت ولاية سورية الجديدة ثمانية سناجق هي التالية :

بيروت ، الشام ، طرابلس ، اللاذقية ، عكا ، حماه ، البلقاء وحوران ، وضم سنجق بيروت اربعة اقضية هي : بيروت ، صيدا ، صور ، مرجعيون وهكذا اصبح جبل عامل تابعاً لسنجق بيروت الذي يتبع بدوره لولاية سوريا ، ومع هذه التعديلات الادارية الجديدة ، بدأت الدولة العثمانية حكماً مباشرًا في تلك المناطق فارضة قوانين جديدة في وقت بدأت شمسها تقرب من المغيب .

النظام الضرائبي الجديد :

ومن تلك القوانين الجديدة النظام الضرائبي الجديد الذي اخذ كثيرا عن نظام الضرائب الذي شهدته المنطقة إبان حملة ابراهيم باشا ، حيث تعددت وشملت قطاعات عديدة من اهمها :

١ ـ الاعشار : رسم على الانتاج الزراعي ويفرض على الملتزمين .
٢ ـ رسوم على الاراضي بعد مسحها وتمليكها .
٣ ـ الويركو وهو رسم على الاراضي الهينة .
٤ ـ ضريبة المسقفات : رسم عن البيوت .
٥ ـ بدلات الطرق وهي عبارة عن عمل اربعة ايام في طرق تشقها الدولة وهي واجبة على الذكور من سن السادسة عشرة الى الستين او بدلاً عنها ستة عشر قرشاً .
٦ ـ ويركو شخصي (رسم تجاري) خاص بالباعة .

وطلبت الدولة من رجالها تحصيل هذه الضرائب ، الذين اخذوا يضايقون العمال الفلاحين فينالون منهم ما استطاعوا . فالاعشار وهي ضريبة الانتاج الزراعي وقيمتها عشرة بالمائة من الانتاج كانت تؤخذ من الفلاحين مضاعفة وتتصاعد احيانا لتصل الى نسبة ٣٠ بالمائة واحياناً تتعدى الاربعين بالمائة فيما شملت المسقفات « الاملاك المبنية سواء اعدت للسكن او للايجار ، وسواء كانت منازل او محلات تجارية او مؤسسات صناعية او حرفية »[1] اضافة لعدة ضرائب اخرى كرسوم المدارس وبدل العسكرية وغيرها .

احتكـــار التبـــغ :

وامام العجز المادي الذي بدأت خزينة الدولة تعاني منه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأت سياسة جديدة من نوعها ، تمحورت في تلزيم قضايا انتاجية مهمة لمؤسسات اجنبية والسماح لها باحتكار بعض المصنوعات ذات الانتاج المحلي كما حصل مع زراعة التبغ المعروفة قديماً في جبل عامل حيث تعتبر اراضيه في طليعة مناطق الولاية التي تهتم بزراعة وانتاج التبغ ، والتي تعود لقرون عدة حيث لقيت رواجاً كبيراً عند المزارع العاملي لتصبح اهم المزروعات في النصف الاول من القرن العشرين داخل الجبل .

تختلف المصادر في تحديد السنوات الاولى لدخول هذه الزراعة الى المنطقة ، فهناك من يحدد سنة ١٦٢٥ بداية لذلك ومنهم من يضيف نصف قرن على ذلك .

---

(١) طلال المجذوب ـ تاريخ صيدا الاجتماعي ـ المكتبة العصرية ـ ١٩٨٣ ص ١٢٧ .

ما يهمنا من الامر أن هذه الزراعة ازدهرت داخل الجبل لقرون خلت حيث تشير مصادر عدة لذلك وكانت احدى اهم صادرات الجبل الرئيسية خصوصاً في الربع الاخير من القرن الثامن عشر[٢] . ورغم ما تحتاجه الى مقومات من زرعها الى قطافها الى تصديرها استمرت حتى هذا اليوم .

في مراحلها الاولى ، كان الاقطاعي المحلي وحده المسؤول عن زراعة وتصدير التبغ ومثله في باقي مناطق الولاية ، وعندما لمست الدولة تقدماً ملحوظاً في هذه الزراعة عمدت الى فرض قوانين خاصة عليها تطورت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما اصدرت في « ٢٨ ذي الحجة ١٢٧٨ (١٨٦٢) نظام ادارة الدخان المنتج في الدولة العثمانية »[٣] وارفقته في عام ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م) بنظام رسم بيع الدخان الذي « عدل عام ١٨٦٧ ونظمت تصديره للخارج بموجب مرسوم في ١٦ اول ١٢٨٦ (١٨٦٩) »[٤] وبعد عام سمحت بمرور الدخان ونقله « داخل الاراضي العثمانية شريطة .فع الرسم عليه وكان مقدار الرسم نصف المحصول عيناً او ٢٠٦ قرشاً على كل أقة حسب نوع التبغ »[٥] .

ومع تزايد ديون الدولة على ما اردفنا كان التبغ احد اهم المزروعات الصناعية التي اعطت امتيازها لشركات اجنبية . ففي عام ١٨٨٣ منحت الدولة « حق احتكار انتاج وبيع التبغ الى شركة اجنبية تشمل كافة الاراضي العثمانية . . . وعرفت اختصاراً باسم (الريجي) وكان مركزها اسطنبول ، وانشأت لها فروعاً في انحاء البلاد ، وكان الاسلوب الذي احتكرت به الشركة التبغ مرهقاً للفلاحين »[٦] ، حيث بدأت الشركة حركة اضطهادية مباشرة ضد المزارعين ، بفرضها قوانين عديدة على هذه الزراعة من تحديد مساحاتها الى وجوب الحصول على رخصة من الشركة تسمح بزراعتها محددة الكمية المنتجة لتضع لها السعر المناسب ، حسب ما تقتضيه ظروف الشركة الخاصة .

---

(٢) راجع محلة تاريخ العرب والعالم ـ نيسان ١٩٨٢ ص٦٤ .
(٣) طلال المجذوب ـ مرجع سابق ص ١٢٧ .
(٤) المرجع السابق ص ١٢٧ .
(٥) نفس المرجع السابق ص ١٢٧ .
(٦) نفس المرجع السابق ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .

وكل هذه القوانين روجت لعمليات تهريب واسعة من الجبل باتجاه جبل لبنان المعفى من كل هذه الاجراءات لخضوعه لنظام المتصرفية الخاص به .

التجنيد الاجباري :

إثر انسحاب القوات المصرية من منطقة الشام ، عمدت الدولة العثمانية الى إتباع عدة انظمة كانت سارية زمن الحملة فجددت سياسة التجنيد الاجباري في البلاد مما خلف آثاراً سلبية في نفوس المواطنين . فقد وضعت « قانون التجنيد الاجباري واسمته القرعة المحمدية (كذا) وفرضته على الطوائف الاسلامية واعفت منه الطوائف غير المسلمة ، وكانت تتقاضى من هؤلاء ضريبة سنوية تسمى (العسكرية) لا قاعدة ولا اصول لها ومدة التجنيد عشرون سنة : ست منها تدعى عسكرية او احتياط وثمان رديف ، وست مستحفظ ؛ وقلّما كانوا يتقيدون بهذا القانون . فربما قضى العسكري المجند في الدرجة الاولى مدة تزيد عما نص عليه القانون ، وتتراوح بين عشرين سنة وخمس عشرة سنة بالرغم عنه »[٧] ، ومع الايام كانوا يغيرون من هذه القوانين وفق ما تقتضيه ظروف الدولة حتى وصلت سنوات الخدمة الى اربع وعشرين سنة موزعة على اربع مراحل : فعلية مدتها ثلاث سنوات واحتياطية ومدتها ست سنوات ورديف مدته عشر سنوات ، واخيراً مستحفظ مدته خمس سنوات .

اما الآثار السلبية لمثل هذا المشروع الخطير فقد ظهر جلياً في انعدام الحياة اليومية وحركتها داخل القرى والمدن لخلوها من عنصر الذكور ، مما شكل انهياراً واضحاً لمعظم مواطني الجبل من الناحية الاقتصادية .

الوضع السياسي داخل المملكة :

مع بداية الربع الاخير من القرن التاسع عشر بدأت الدولة العثمانية تشهد تغيرات على ساحتها الداخلية والخارجية ، فالدول الاجنبية بدأت توسع اطماعها داخل جسم الدولة وعمدت كل على حدا الى الاستيلاء على بعض اجزاء المملكة التي اطلق عليها تسمية جديدة عرفت بالرجل المريض الذي بدأ يحتضر .

---

(٧) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ـ ص ١٦٧ .

عبد الحميد الثاني : سلطان البلاد :

في الحادي والثلاثين من شهر آب ١٨٧٦ امام القصر الامبراطوري في استامبول « اطلقت مئة طلقة معلنة خلع السلطان مراد وتنصيب اخيه عبد الحميد »(٨) .

ومع وصوله الى الحكم بدأ السلطان الجديد عبد الحميد الثاني سياسة جديدة في مسار الدولة تجلت باديء ذي بدء باعلانه في الثالث والعشرين من كانون الاول من نفس العام قيام الدستور لاول مرة في تاريخ الدولة ، كانطلاقة سياسية رائدة داخل النظام السياسي للدولة ، هذا الدستور الذي حد من سلطات السلطان المطلقة وسمح بتشكيل مجلس تمثيلي سمي « مجلس المبعوثان » انتخب اعضاؤه من كافة مواطني الولايات الخاضعة للسلطنة العثمانية ليشارك السلطان في شؤون الحكم والدولة .

اما رائد هذا الدستور فهو المصلح الاجتماعي مدحت باشا ابو الاصلاح ، الذي حمل الدستور اسمه واخذ يعرف بـ« دستور مدحت باشا » .

وبالفعل سارت الدولة تحت ظل الدستور الجديد وجرت الانتخابات لاول مرة في كل ولايات السلطنة تشكل بأثرها « مجلس المبعوثان » الذي اجتمع مباشرة في التاسع عشر من شهر آذار عام ١٨٧٧ حيث مثل العرب فيه ستة عشر نائباً « ٥ عن ولاية سورية ، ٢ عن الحجاز ، ٤ عن ولاية حلب ، ٣ عن ولاية بغداد ، ٢ عن ولاية طرابلس من مجموع ١١٨ نائبا »(٩) .

ترك اعلان الدستور وتشكيل « مجلس المبعوثان » ارتياحاً عارماً في نفوس مختلف مواطني الدولة ، وشعر العرب للمرة الاولى بمشاركتهم الجدية في شؤون الحكم ، حيث اعتبروا ممثليهم داخل المجلس ناطقين رسميين باسمهم ، الا ان الامر لم يرق للسلطان عبد الحميد ، الذي احتج بوجود حركات غريبة تمر وراء الستار وتستهدف الدولة ، فعمد الى حل المجلس التمثيلي وتعليق الدستور في الرابع

(٨) زين زين ـ نشوء القومية العربية ـ دار النهار للنشر ط ٣ ـ ١٩٧٩ ص ٥٥ .
(٩) سليمان موسى ـ الحركة العربية ـ مرجع سابق ـ ص ١٩ .

عشر من شهر شباط ١٨٧٨ ولأجل غير مسمى ، فشكل ذلك ضربة اليمة في نفوس كل مواطني الدولة الذين رأوا بالدستور رئة سليمة يطلون من خلالها على الحكم والدولة .

مؤتمر سري في دمشق :

وتتحدث المراجع التاريخية عن مؤتمر سري عقد في منطقة الشام ولاول مرة في تاريخ المنطقة وبعد الانتصار الروسي على الدولة مباشرة عام ١٨٧٧ .

فبعد عدة اتصالات سرية بين بعض اعيان المنطقة وعلى رأسهم احمد الصلح في بيروت وابراهيم الجوهري في صيدا ، والسيد محمد الامين والشيخ علي الحر والحاج علي عسيران وشبيب الاسعد في جبل عامل توصل الجميع الى تشكيل وفد منهم للسفر الى دمشق للتباحث مع اقطابها وعلى رأسهم الامير عبد القادر الجزائري في شؤون المنطقة ووضعها « وكذلك ارسلت رسل ووفود الى حماه وحمص وحلب واللاذقية وحوران وتم الاتفاق على اجراء اجتماعات سرية في بيروت لوضع الخطط اللازمة »[١٠] .

وكان السيد محمد الامين احد اعضاء الوفد العاملي من المجاهرين بعروبته ، حيث كانت رسائله الى الامير عبد القادر الجزائري مدعومة بعبارة « دمشق : دار الامارة »[١١] وعندما احست الدولة بمثل هذا التحرك فرضت اجراءات قمعية بحق رجالات المؤتمر ، تمثلت بالاقامة الجبرية والنفي كما حصل مع السيد محمد الامين الذي نفي الى طرابلس .

ومع تعليق الدستور ابعد السلطان عبد الحميد مدحت باشا رائد الدستور عن منصبه في الصدارة العظمى ونفاه الى اوروبا وعاد ونصبه والياً على سورية لمدة سنتين (١٨٧٨ ـ ١٨٨٠)، حيث استمر يطرح فيها افكاره الاصلاحية بانياً علاقات طيبة مع رجالات الولاية حتى اذا ما وصلت اخباره الى العاصمة الاستانة ، خلعته من منصبه

---

(١٠) وجيه كوثراني ـ الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ـ معهد الانماء العربي ـ ط ٣ ـ ١٩٨٢ ص ١٣٦ .

(١١) محسن الامين ـ اعيان الشيعة م ٩ ـ ص ١٢٦ .

ونفته الى ازمير فالطائف حيث مات فيها شنقاً .

ومع رحيل مدحت باشا عام ١٨٨٠ بدأت تظهر في مدن الولاية منشورات سرية تتحدث لاول مرة عن قضايا مختلفة حول شؤون السياسة في المنطقة وعلاقة العرب بالدولة « واستمر ظهورها حتى اواخر سنة ١٨٨٠ في سوريا . . . وقد ظهر منشور منها في صيدا »[١٢] وبقي ظهور مثل هذه المناشير لغزاً من الغاز الحركة العربية الاولى ، دفع بالدولة للالتفاف على الامر بجدية ، وتأكدت بذلك من ان مشروعاً ما يحاك في الخفاء ، فمهما يكن من امر ، يعتبر ظهور مثل هذه المناشير تعبيراً جديداً عن مشاعر بعض المواطنين تجاه الدولة .

جبل عامل بعد مدحت باشا :

بعد نفيها للرائد المصلح مدحت باشا نصبت الدولة حمدي باشا والياً جديداً على ولاية سوريا الذي عرفت سنوات ولايته أمنًا وراحة عند المواطنين .

خلال احدى زياراته لبيروت من دمشق مرَّ حمدي باشا في الجبل وزار بلدة النبطية عام ١٨٨٣ ، وجرى له استقبال رسمي اعجب خلال ذلك بالبلدة خصوصاً ان الزيارة كانت يوم الاثنين وهو موعد السوق الشعبي الاسبوعي فيها ، فوعد ابناءها باصلاحات داخل البلدة .

وفعلاً امر الوالي حمدي باشا بنقل مركز الحاكم الى مدينة مرجعيون واختار رضا الصلح وهو من الرجالات المرموقة في الجبل للاقامة في النبطية ، فقام الاخير بعدة مشاريع حيوية داخل مدينة النبطية منها « بناء دار الحكومة وتشكيل المجلس البلدي وتعيين موظفين في المالية والعدلية والعقارية والشرفة »[١٣] كما بنى الصلح اول مدرسة للتعليم بالاسلوب الحديث عام ١٨٨٤ فكانت له مكانة عالية في نفوس العامليين .

---

(١٢) زين زين ـ نشوء القومية العربية ـ مرجع سابق ص ٦٣ .

(١٣) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ١٧٤ .

الفصــل الثامـن

نظرة عابرة في القرون السابقة

« ان ايـة محـاولـة تقـويـة واشـاعـة لسـوء الفهم والتعصب لا يمكن ان تنتـج سـوى تعميق الخـلافـات القومية وابقـاء وتغذيـة لروح العـداوة والفرقـة بين الامم وطوائف الجنس البشري ».

حسن كامل الصباح

ان نظرة لماضي قروننا السـابقة ، ونحن احفـاد لمواطني الـدولة العثمـانية التي هي امتداد لخلافة المسلمين ، تتطلب منا القاء الضوء على هذه الخلافة ومـا توصلت اليه .

من اليـوم الاول لوفـاة قائـد الامة الـرسول (ص) شهـدت الخلافـة الاسـلاميـة خـلافات جـذريـة في امـور الخـلافـة والـدولـة ، تعـاقب على اثـرهـا ولايـات ودول ومماليك .

الدول التي لبست ثوب الاسلام متعاقبة كل منهـا على حكم الامة لم تكن مـرآة للدين الاسـلامي ، فقد عـرفت اخطاء عـدة يتعذر علينـا استعراضهـا هنـا . ولتـأكيـد اهدافها الخاصة نرى ان هذه الدولة حملت كل على حدا اسم حكامها وامرائها بتمييـز خاص (الاموية ـ العباسية ـ الفاطمية ـ العثمانية) . . . الخ وان كانت هذه التسميـات قد اطلقت في عصور لاحقة ولكن لو لم تكن سلطة اولئك الرجال الحكام تفوق مسيرة الدولة الاسلامية لما حملت اسم مؤسسيها .

صحيح ان اجدادنا العرب المسلمين قد وصلوا الى درجة راقية من الحضارة وقتذاك ، لكن هذا لا يعني ان رحلة العصر التي كانوا فيها صحيحة المسار لانه لو كانت تلك الطريق مستقيمة لما وصلنا الى ما نحن عليه اليوم ، فليست حياتنا سوى امتداد لحياتهم .

ما يؤخذ بعين الاعتبار انه لا نستطيع وضع اللوم فيما نراه اليوم على شخص معين او اشخاص محددين ولكن من الطبيعي ان هناك مسؤولين عن سوء الوضع الذي وصلنا اليه في القرن العشرين وتحديداً كل من رضي عن تلك الايام التي سارت من وفاة الرسول (ص) الى عصرنا هذا ، دون ان ننسى اصوات المناضلين التي ارتفعت من ذاك اليوم حتى عصرنا هذا .

لقد شهدت هذه الامة خلافات ونزاعات اقليمية فعلية كانت السبب في تحطيمنا نحن وسنحطم احفادنا اذا لم نتدارك امورنا ونوقفها عند حدها .

كيف يمكن لنا ان نفتخر بمقاومة اسلامية ضد التواجد الصليبي في المشرق (القرنان الثاني عشر والثالث عشر) ، ونسكت تجاهلاً امام اسباب ذلك التواجد آنذاك ؟

لقد عمدت كل دولة تعاقبت على خلافة المسلمين فقط من اجل استمرارية ملكها وراثياً كما حصل .

ونظرة اخرى لمسيرة حياتنا الآن التي نعيشها ترينا بصورة واحدة اننا فعلاً تبعيون اقتصادياً ، سياسياً وحياتياً لدول خارج اقليمنا .

هذا ما حاولت حركات التبشير التي غزت فضاء العالم الاسلامي فعله في القرون الغابرة والتي جاءت كغطاء أول لمحاولات السيطرة الاستعمارية على بلاد الاسلام والتي نعيش نحن آثارها يومياً .

ولدت هذه الحركة مع الاطماع الاستعمارية في معظم بلاد العالم الضعيف وسبقت هذه الحركة في الدولة العثمانية امتيازات اجنبية .

لقد عمدت الدولة العثمانية مطلع ولادتها الى اعطاء امتيازات لدول اجنبية داخل امبراطوريتها . فقد « قبِل السلطان سليمان القانوني عام ١٥٣٦ م ان يمنح فرنسوا الاول ملك فرنسا شيئاً من الامتيازات التجارية ومن الاعتراف لرعاياه ، اذا

سكنوا في الامبراطورية العثمانية او مروا فيها ، ببعض الامتيازات القانـونية والتجـارية ايضا »[1] .

ان مثل هذا الامتياز لدولـة خارجيـة ، فتح امـامها مجـالاً للوقوف على اوضـاع السلطنة ، توصل لحد تمرير المخططات المشبوهة . ومع توالي الايام بـدأت الدولـة تمنح الامتيازات لدول خارجية اخرى كانكلترا وهولندا وايطاليا واسبانيا وغيـرها بحيث تـوصل افـراد تلك الدول الى نيـل حقوق تفـوق حقوق المـواطنين ضمن دولتهم حتى « اصبحت الشعـوب والجماعـات غير المسلمـة تتمتـع في الامبـراطـوريـة العثمـانيـة باستقلال طائفي فيما يتعلق بالاحوال الشخصية (من زواج وإرث وغيرهمـا) وباعفـاء من الخدمة العسكرية ومن كثير من الضرائب والملاحقات القانونية »[2] .

وصل قطار الدولة العثمانية آخر عقد من القرن التاسع عشر خالي الوقـود بقالب مفكـك ، ولصوص تنتشـر حولـه ، تنظر بـطمع الى مقـطوراته ، لانتـزاعهـا وضمهـا لقطاراتها المتسابقة .

عشية القرن العشرين كانت الدولة العثمانية تلفظ انفـاسها الاخيـرة ، واصحاب الامتيازات يلتفون حول الرجل المريض ينتظرون رحيله لاقتسام (الميراث) ، يومهـا كانت الحركات التبشيرية والاستعمارية قد وسعت من نفوذها داخـل الدولـة وباعتمـاد مباشر على بعض الجماعات المحلية ، واجتمعت هذه الحـركات مـع التمرد الشعبي ضـد الاستبداد ليسـاعدا سـوياً على تحـطيم هذه الـدولة والغـاء الخلافـة الاسـلاميـة بالذات . الدولة تحتضر والعرب بين فكين : رحيـل الدولـة وأنياب الاستعمـار وحري بهم ان يبحثوا عن الدرب التي توصلهم الى الحرية والاستقرار .

بهذه الصورة القـاتمة فتـح العرب مـواطنو الـدولة العثمـانية اعينهم على القـرن الجديد حيث بدت لهم صورة المـريض الذي يحتضـر ومن حولـه الجزارون في ظـل الممارسات المبهمة التي بدأت تتجسد على ارض الواقع من فبل رجـال الدولـة والتي اوقعت البلاد كلها في مأزق تتخبط فيه لليوم .

---

(١) مصطفى خالدي وعمر فروخ ـ التبشير والاستعمار ـ المكتبة العصرية صيدا ١٩٧٣ ص ١٣٣ .
(٢) نفس المرجع ص ١٣٣ ـ ١٣٤ .

الفصل التاسع

رواد الاصلاح في الجبل

كان لمجرد انتهاء قرن وولادة آخر ، دلالة نفسية واحدة عند معظم مواطني الدولة بلا استثناء ، بحيث بدأت مطالب التغيير تشمل وتخترق صفوف المثقفين الذين رأوا باعلان الدستور تطوراً مهماً على صعيد الادارة والحكم ، وخصوصاً المواطنين العرب الذين بدأوا يشعرون بالنقص الواضح لحقوقهم المشروعة في المشاركة بادارة انفسهم تحت ظل الخلافة العثمانية دون ان تتعدى مطالبهم حدود الاصلاح الضروري في كل ذلك .

وجاءت هذه التغيرات في وقت كانت تمر فيه الدولة بمرحلة مصيرية حاسمة تحت ظل امبراطورية عبد الحميد الثاني امام التدهور الاقتصادي الذي بدأ يفتح الطريق يوماً بعد يوم للنفوذ الاجنبي المراقب انفاس الدولة الاخيرة .

أمّا آمال معظم رجالات العرب فلم تتعد المطالب الاصلاحية داخل الدولة حيث تضمن لهم الحقوق وتشعرهم حقاً انهم ابناؤها ، وكل ذلك لمواجهة النفوذ الاجنبي الرهيب ومخططاته المخيفة آنذاك ، وهذا ما دفع بالعشرات من الشباب العرب خصوصاً في منطقة الشام ومصر الى حمل لواء هذه المطالب الاصلاحية ودخول القرن الجديد لاكمال المسيرة التي بدأها في الربع الاخير من القرن الماضي رواد الاصلاح وعلى رأسهم المجاهد جمال الدين الافغاني وتلميذه محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وغيرهم .

وتلاقت هذه الطروحات مطلع القرن مع حركة التغيير التي بدأت في اوساط المواطنين الاتراك انفسهم وكلها نحو هدف واحد : الاصلاح والتغيير .

وكما شهدت معظم الاراضي والولايات العربية رواداً لتلك المرحلة ، عرف جبل عامل العديد من هؤلاء الذين شاركوا في صناعة احداثها .

من هؤلاء يبرز رضا الصلح الذي تحدثنا عن بعض نشاطاته كواحد ممن بذروا افكار الاصلاح في اكثر من محاضرة القاها في مدارس الجبل ، خصوصاً النبطية التي رأى النور فيها العديد من رجالات الاصلاح في الجبل وعلى رأسهم المفكر المصلح احمد رضا المولود في النبطية عام ١٨٧٢ ، والمؤرخ محمد جابر آل صفا ، والشيخ العالم سليمان ظاهر والذين شكلوا ثالوثاً مهمًا واكب مختلف محطات النصف الاول من هذا القرن ومواجهين كل مصاعبه .

ولا ننسى الشيخ أحمد عارف الزين المناضل العربي وصاحب مجلة العرفان اول مجلة في تاريخ الجبل ، والسيد محسن الامين المرجع والمجتهد وصاحب العديد من المؤلفات المهمة ، والسيد المجاهد عبد الحسين شرف الدين والشيخ عبد الحسين صادق .

وقبل هؤلاء جميعاً تبرز الاديبة العربية الشهيرة زينب فواز كأول صوت عربي نادى بحقوق المرأة داخل الدولة العثمانية منبهة لمخاطر الاحتلالات الاجنبية داعية لمقاومتها بمختلف الوسائل وهذا ما يدفعنا للوقوف عند هذه الاديبة العاملية الرائدة .

ولدت زينب فواز في بلدة تبنين العاملية حوالي عام ١٨٦٠ وفيها نشأت وترعرعت مفتحة عينيها على العلم والمعرفة . . وبشوق كبير دفعها الى السفر نحو مصر كأغلب رواد النهضة الادبية آنذاك والذين وفدوا اليها من مختلف ولايات الدولة المشرقية . وفي مصر بدأت الاديبة فواز مسيرتها الادبية بكتاباتها الهامة على صفحات الجرائد الشهيرة آنذاك ، ثم بدأت نشر مؤلفاتها واهم ما وصل الينا : الهوى والشباب (مسرحية) عام ١٨٩٣ ، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور (١٨٩٣) حسن العواقب (١٨٩٩) والملك قورش (١٩٠٥) وغيرها العديد من المخطوطات التي اندثرت في معالم النسيان دون ان تلقى من يهتم بها . ولا بد ونحن نتحدث عن هذه الاديبة الرائدة من الوقوف عند ندائها الشهير الى ابناء امتها خصوصاً مصر التي كانت

تتخبط بهموم الاحتلال البريطاني لها ، معبرة بذلك عن الروح النضالية التي يتمتع بها العامليون ، تقول زينب في ندائها :

« لماذا تصبرون ولأي شيء تنتظرون ؟

اني ليحزنني ما أراه في حالة ابناء الوطن من الذل والامتهان . . . ويذيب المهج أسفاً وحسرة على امة تقطعت بها الاسباب وحُرمت ظلماً وعدواناً من منافع بلادها وقد تمتع الاجانب بتلك المنافع دون ابناء الوطن ، حتى ان الوطني يطرد من محل خدمته ويخوض في بحار الفقر ، وقد يلهون برتبة او نيشان ليفتخر بها على اقرانه . . . هذا وحكومتنا ساهية غافلة لاهية وقد ضلت منها الافهام وغلبت عليها الاوهام ، وهي خاضعة لعوامل الاحتلال متناسية مصالح الامة ، متمسكة بمنافع رجالها الشخصية .

هل تحسون ايها الرجال ان تسلب منكم المناصب لو انصفتم هذه الامة التعيسة التي توليتم شؤونها ويتولاها غيركم من الاجانب ، الم تنظروا الى الامة البويرية وما فعلت في سبيل استقلالها وكيف انها اختارت الموت او تعيش حرة لا تقبل السلطة البريطانية ؟ . . .

لم اسمع بان حكومتنا عارضت رجال الاحتلال في شيء ما ، ولو عارضت في امر يعود نفعه على ابناء الوطن لنجحت ، ولكن وجدكم رجال الاحتلال لقمة لينة هينة المأكل فابتلعوكم . واني ليسرني ان ارى من ابناء وطني روح الحياة ، فيؤلفون الاحزاب ويدافعون عن حقوقهم المهضومة . فلتقوَ فيكم العزائم ايها الرجال فاقدموا على العظائم وقد علمتكم كيف يقترن العلم بالعمل واني لأرى من خلال الحجاب ان فيكم الكفاءة لأن تقفوا امام العالم الدولي وتدافعوا عما لكم من الحقوق ، فهبوا من رقادكم ايها المسلمون واعلموا ان الحكومة لا تسعى الى ترقيتكم فالاجدر لكم ان تسعوا بانفسكم ، والله المستعان »[1] .

انه صوت واضح يدعو للاصلاح اولاً ومقاومة الاحتلال ثانياً ودليل على الروح الثورية التي تلقتها هذه الاديبة العربية من الجبل قبل رحلتها الى مصر والتي نمَّتها

(١) الرسائل الزينبية ـ نقلاً عن زينب فواز ـ حسن العواقب والهوى والوفاء ـ منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ـ ١٩٨٤ ص ١٠٦ .

هناك في المحافل الادبية وكانت احد اهم روادها .

وبرز في تلك الحقبة المناضل عبد الكريم الخليل كواحد من المع الرجال العرب الذين عملوا في صلب القضية العربية وكان نصيبه حبل المشنقة على يد جمال باشا .

« ولد سنة ١٨٨٤ في الشياح (احدى صواحي بيروت) وتعلم العلوم الابتدائية اولاً في المدرسة القرآنية ثم في المكتب الاعدادي في بيروت حيث نال شهادته الثانوية ثم ذهب الى الاستانة ودخل في مكتب الملكية وبالوقت نفسه سجل اسمه مع طلاب مكتب الحقوق سنة ١٩٠٥ »[٢] .

« ونال شهادة الحقوق من مدرسة الحقوق بالاستانة عام ١٩١٠ بدرجة التفوق »[٣] .

بدأ المناضل عبد الكريم الخليل عمله الاصلاحي اثر وصوله الى الاستانة حيث باشر اتصالاته مع الشباب العربي الذين يؤمون العاصمة لمتابعة دراساتهم العليا وفي عام ١٩٠٦ اسس مع محب الدين الخطيب وعارف الشهابي وشكري الجندي جمعية النهضة العربية التي جعلوا مقرها الثابت في دمشق .

وقد بدأت النشاطات على نموذج الحفلات بحيث يتخللها الخطب التي تعبر عن مطالب العرب الاصلاحية . مع اعلان الدستور عام ١٩٠٨ بدأت الحركة العربية تشهد مساراً جديداً واكب عبد الكريم الخليل دربها حتى يوم اعدامه ، ايد جمعية الاخاء العربي واسس مع رفاقه (المنتدى العربي) وترأسه ولعب دوراً بارزاً في مؤتمر باريس حيث مثل فيه الجالية العربية في الاستانة وانتدب لتوقيع الاتفاق بين اعضاء المؤتمر والدولة ، وحاز على مقربة جدية من الزعماء الاتراك في الاستانة .

---

(٢) محسن الامين ـ أعيان الشيعة ـ م ٨، ص ٣٤.

(٣) توفيق برّو ـ العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ ـ ١٩١٤ ـ دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ـ دمشق، ط ١، ١٩٩١، ص ٢٦٥.

الفصل العاشر

جبل عامل واعلان الدستور

دولتنا سنت قانون
باطلاق الحرية
هيكي بدنا رجال تكون
بالدولة العثمانية

الشاعر الزجلي
محمود حداثا

ازاء حركة العرب الرامية الى نيل الحقوق المهضومة من قبل الاتراك داخل الدولة العثمانية ، كان فوج من هؤلاء الاتراك يحضرمسرحية جديدة يكون الطورانيون ابطالها والامبراطورية مسرحاً لها .

في بدء مسارهم سعى الاحرار العثمانيون الى بث فكرهم بحركة اصلاحية داخل الدولة والسير بها نحو العدالة والتقدم والحضارة ، دون التفرقة بين مواطنيها . وقد تجلى ذلك في المؤتمرات التي عقدها هؤلاء خارج الدولة في مدن مختلفة من العالم العربي ، وبالمقابل كان العرب يعملون من اجل نيل مطالب تشعرهم حقاً انهم مواطنون لهذه الدولة .

من منطلق المشاركة الفعالة في الخلافة الاسلامية ، كان العرب يعملون ضمن حركتهم الجديدة ببعد شاسع عن التعاون مع دول الخارج لتحقيق ذلك ، وعلى هذا الاساس ابتهجوا لانقلاب ١٩٠٨ .

فبعد عدة نشاطات استطاعت جمعية الاتحاد والترقي (جمعية الاحرار

العثمانيين اتراكاً وعرباً) استطاعت مع قطاعات الجيش ان تجبر عبد الحميد على اعلان الدستور المعلق منذ عام ١٨٧٨ ، وفعلاً وافق في ٢٣ تموز ١٩٠٨ على اعلانه ، هذا الدستور الذي جاء مرتدياً شعارات الحرية ، العدالة والمساواة ، فيما يسير الاتحاديون الاتراك في مشاريع خطيرة تجاه كل مواطني السلطنة .

استقبل العرب اعلان الدستور بالراحة التامة ، وتفجرت اثرها قرائح الشعراء فاخذوا يمدحون ويهللون . . . لقد شعر العرب وقتها ان الحكم الحميدي قد ولى ورحلت الاحكام المطلقة دون رجعة . واستقبل العامليون هذا الامر بالارتياح وبلغ ذلك على لسان شعرائهم الذين عبروا عن ارتياحهم بالكلمة والقافية .

الشاعر محمد حسين شمس الدين يهتف آنذاك بقصيدة جاء في مطلعها :

حدث بما شئت الحديث واصدق ... فقد جلى لك سرب المنطق
واصبح الشمل جميعاً ومضى ... غير حميد زمن التفرق
تصرم الجرم فقم منتجعاً ... صفو الهنا لوردك المرتق(1)

نمر الفاعور : مناضل عاملي :

وشهدت تلك الحقبة حركة تمردية نضالية قادها احد ابناء الجبل المناضل نمر الفاعور حيث تمرد على قوانين الدولة ومسارها في الجبل العاملي ، غير ان حركته الكفاحية لم يسمح لها اقطاعيو الجبل بالبقاء عندما غدر به احدهم « وسلمه للسلطات العثمانية حيث قتلته بالسم »(2).

مجلس المبعوثان :

عاد الدستور الى واجهة الاحداث ، وفتح مجلس المبعوثان ابوابه ، وبدأت انتخابات لاختيار اعضائه حيث جرت في كل البلاد عندما ترشح اعيان الشعب ، كل في منطقته .

واجريت الانتخابات في جبل عامل التابع لولاية بيروت لاختيار ممثلين عن الولاية وفي المرحلة الاولى فاز كل من :

---

(١) قيصر مصطفى ـ الشعر العاملي ـ مرجع سابق ـ ص ١٣٥ .

(٢) نفس المرجع ص ١٣٤ .

شبيب الاسعد (٣٥ صوتاً) .
رضا الصلح (٣١ صوتاً) .
كامل الاسعد (٣١ صوتاً) .
جان التويني (٢٣ صوتاً) .
سليمان البستاني (١٥ صوتاً) .

وانتخب هؤلاء عن اقضية صيدا وصور ومرجعيون ضمن الولاية « وبضم اصوات مندوبي بيروت وعددها ٣٥ صوتاً (٢٣ منها للمسلمين و١٢ للمسيحيين) ، كانت النتيجة فوز رضا الصلح (٤٠ صوتاً) وسليمان البستاني (٣٩ صوتاً) ليمثلا لواء بيروت في المجلس النيابي الجديد »[٣] .

في سلك الحركات العربية :

ومع عودة الدستور ايضاً لمع نجم جمعية الاتحاد والترقي وشاع صيتها في البلاد ، حيث باشرت فتح فروع لها والتي ضمت تركاً وعربًا . « وكان في مقدمتها فرع النبطية الذي تولى تشكيله في سنة ١٣٢٦ هـ/ ١٩٠٨ م وتحليف على السيف والمصحف ووضع عصبة على العيون مندوب الهيئة المركزية في بيروت نظام الدين بك مفتش الصحة في الولاية يرافقه الصنابد نظمي افندي والسيد عبد الباسط غندور من اعضاء جمعية بيروت »[٤] اثر ذلك انخرط الشباب العاملي في هذه الجمعية وضمت عناصر من النبطية والجوار ومثّل رواد النبطية الشيخان احمد رضا وسليمان ظاهر والمؤرخ محمد جابر في الهيئة المركزية للجمعية الذين بدأوا يسيرون في البلاد بحركة اصلاحية ، فكان اوج عملهم انشاؤهم نادياً لالقاء المحاضرات والمواعظ والخطب .

لقد سار العامليون مع جمعية الاتحاد والترقي على اساس المبادىء الثلاثة : الحرية ، العدالة والمساواة ، هذه المبادىء التي كان الاتحاديون يوهمون العرب بها على انهم يسيرون بها في حين كانوا يعملون وفق عنصرية جديدة عرفت (بالطورانية) وذلك عندما « اخذت الفكرة القومية تسيطر على الشبان الاتراك فعادوا لا ينظرون الى

(٣) طلال مجذوب ـ مرجع سابق ص ٣٨.
(٤) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ١٨٣ .

العرب كأخوان في الدين بل كمستعبدين مستعمَرين »[٥] .

وعرفت هذه العنصرية الجديدة إثر خلع عبد الحميد وتنصيب محمد باشا الملقب بمحمد الخامس خليفة للمسلمين في ٢٧ نيسان ١٩٠٩ . اثر ذلك الانقلاب ظهر الاتراك بسياستهم الجديدة ناسين وعودهم التي قطعوها على انفسهم وفق مبادىء الدستور .

ومع انكشاف امرهم ونواياهم بدأ الشباب العربي عملية انسحاب شاملة من جمعية الاتحاد والترقي ، واقفل النادي في النبطية وابرق « الى المركز الرئيسي في سلونيك والى الاستانة والى مركز بيروت والصحف العربية باسم جبل عامل يعلن انسحاب العامليين من الجمعية ويحتج على الاعمال التي ظهرت بوادرها من الاتحاديين »[٦] من هنا واكب العامليون الحركة العربية من اساسها ولم تتعارض يوماً اهدافهم مع قضايا العرب التحررية . اثر الانسحاب العربي من جمعية الاتحاد والترقي ، عمد المثقفون في الاستانة الى تأسيس جمعية الاخاء العربي التي بدأت بث افكار قومية في نفوس العرب ، ولاقت هذه الجمعية ترحيباً جماهيرياً لا مثيل له ، وكان عبد الكريم الخليل « من الذين نشطوا في الدعاية لها فكان يبث فكرة التآخي بين شبان العرب ويدعوهم بين آونة واخرى الى بناية الجمعية فيعرف بعضهم ببعض ويشرح لهم فوائد الاتحاد والوفاق ويذكرهم بماضي اجدادهم وتاريخهم المجيد »[٧] .

مع رحيل عبد الحميد واستلام الاتحاديين زمام الامور عمد هؤلاء الى اصدار قانون الجمعيات الذي يحظِّر قيام جمعيات واحزاب ذات اهداف سياسية مما ادى الى ظهور جمعيات سرية في كل انحاء البلاد . « اما اول جمعية سرية عربية معروفة في تلك الفترة فهي (الجمعية القحطانية) التي تأسست في اواخر ١٩٠٩ وكان من بين اعضائها الاوائل عبد الكريم الخليل والامير عادل ارسلان والدكتور عزت الجندي ومحمد كرد علي والامير عارف الشهابي وعلي النشاشيبي وكلهم من بلاد الشام

---

(٥) سليمان موسى ـ مرجع سابق ص ٣١.
(٦) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سباق ص ١٨٤ .
(٧) توفيق برو ـ مرجع سابق ص ٢٦١ ـ نقلاً عن أحمد عزت الأعظمي ـ القضية العربية ـ بغداد.

وكثيرون من الضباط »[٨] .

المنتدى الادبي :

وقام الشباب العربي بتأسيس نوادٍ ثقافية ادبية ترمي الى بث الروح القومية في نفوس المواطنين العرب ، فقد رأى « شباب العرب النبهاء في الاستانة وفي مقدمتهم طالب الحقوق عبد الكريم قاسم الخليل من ابناء جبل عامل في لبنان ، ضرورة تشكيل نادٍ علمي يجمع شبان العرب »[٩] .

فقد « اسس احد اعضاء الجمعية القحطانية اللامعين عبد الكريم قاسم الخليل مع بعض رفاقه الوطنيين (المنتدى الادبي) »[١٠] وذلك « في صيف سنة ١٩٠٩ لتكون مقراً يلتقي فيه العرب سواء منهم الوافدون على العاصمة أو المقيمون فيها »[١١] .

تنوعت نشاطات المنتدى الأدبي الثقافية والاجتماعية ، وقد هدفت جميعها الى بث روح التعاون والاخاء بين صفوف المواطنين العرب المتواجدين في عاصمة الامبراطورية ، وعليه ارتسم للمنتدى الوجه القومي ، ولكن دون ان يأخذ اتجاهاً معاكساً لسياسة الدولة العامة ، وان كانت حقوق المواطنين العرب على ارض الدولة ، قد شكلت هماً اساسياً للمنتدى . لقد هدف المنتدى في برنامجه السياسي الى وحدة الموقف العربي ولكن بقي ولاءه التام للرابطة العثمانية . وقد ضم بين صفوفه نخبة من الرجال الذين كانت لهم خدمات حلّى للقضية العربية في شتى الحقول والميادين .

« وأما أبقى هذه الجمعيات واخلدها ذكراً واعظمها اثراً وفائدة للعنصر العربي فكان المنتدى الادبي »[١٢] .

---

(٨) مصطفى طلاس ـ الثورة العربية الكبرى ـ الطبعة الثالثة ـ ص ٦٥ سيشار لهذا المرجع بـ: طلاس الثورة الكبرى.

(٩) برو ـ مرجع سابق ص ٢٦١ .

(١٠) طلاس ـ الثورة الكبرى ـ مرجع سابق ص ٦٦ .

(١١) جورج انطونيوس ـ يقظة العرب ـ دار العلم للملايين ط ٧ ـ ١٩٨٢ ص ١٨٤ .

(١٢) برو ـ مرجع سابق ص ٢٦٠ .

تألفت أول هيئة ادارية من أحمد جميل الحسيني رئيساً ، عبد الكريم الخليل ، يوسف حيدر ، سيف الدين الخطيب ، عزت الجندي ، سامي الصلح ، احمد قدري وعبد القادر الجزائري اعضاءً .

الخليل والمنتدى :

ومع نشاطات المناضل عبد الكريم الخليل تصدر واجهة النادي واصبح رئيسا له في العام الثاني وحتى يوم اعدامه .

منذ بدء رئاسته للنادي قدم عبد الكريم اسمى خدماته وعطاءاته وطمح ان « تكون قواعد المنتدى الادبي مبنية على التربية الاساسية ورفع المستوى العلمي والادبي والاجتماعي لخدمة الفكرة القومية العربية »[١٣] ، وفعلاً وضع منهاجاً جديداً للنادي حيث اطلع عليه رشيد رضا اثناء زيارته للاستانة ، كما عرضه على وزير الاوقاف خليل حمادة باشا لتنقيح بنوده« فرحّب الوزير بهذا العمل الجليل وشجع القائمين به »[١٤] كما وعد بتخصيص مبلغ خمسماية ليرة عثمانية من الاوقاف كتكاليف لنشاطات النادي (محاضرات ، كتب) واندفع المثقفون العرب إذ ذاك بدعم النادي مادياً ومعنوياً ليكمل مسيرته . ومن خلال تلك الاجواء الثقافية التقدمية اصبح النادي مقراً وموئلاً لكبار مثقفي العرب الوافدين على العاصمة بحيث « كان الطلاب الجدد يتلقون ممن تقدموهم في الدراسة مبادىء القومية ومراميها ، وفيه كانت تدرس وتناقش خطط الاتراك الاتحاديين الرامية الى تسييد القومية التركية والقضاء على القوميات السائرة في الدولة »[١٥] . وانطلاقاً من مبادئه القومية فتح النادي فروعاً عدة في مدن عربية عديدة وانتمى الى عضويته الآلاف من العرب .

واعطى الخليل كل نشاطه لخدمة النادي فكان « لولب المنتدى الادبي وألمع شخصية فيه ، كان شعلة من النشاط والذكاء »[١٦] .

---

(١٣) طلاس ـ الثورة الكبرى ـ مرجع سابق ص ٦٦ .
(١٤) برو ـ مرجع سابق ص ٢٦٢ .
(١٥) سليمان موسى ـ الحركة العربية ـ مرجع سابق ص ٣٢ .
(١٦) برو ـ مرجع سابق ص ٢٦٥ .

في احدى خطبه أمام النواب العرب الذين اقاموا حفلة في الاستانة حدد المناضل عبد الكريم الخليل مبادىء النادي ، مجسداً الفكرة القومية العربية بكلماته الخالدة ، ان اركان القومية « وحدة اللسان ووحدة التاريخ ووحدة الوطن ووحدة المنفعة »[١٧] تتوافر كلها للامة العربية . واستطرد قائلاً : « ان هذه الروابط غير كافية ما لم ترتكز على اساس متين من الثقافة الموحدة والعلم الراسخ »[١٨] .

لقد شغلت الثقافة والتعليم بال هذا المناضل ، ودفعته انظاره البعيدة الى وضع خطط وبرامج عن هذا المشروع الهام الذي بدأه عندما تباحث « مع النواب العرب حول خطة مثلى تتعلق باصلاح المدارس الابتدائية في دوائرهم »[١٩] فدعاهم الى حفلة اقامها لهم في حزيران (يونيه) سنة ١٩١١ لاطلاعهم على مشروع تقدمي لحقل التربية والتعليم نشرته جريدة الاهرام في عددها (١٠١٠٤) تاريخ ١٩١١/٧/١٣ . بحيث يرمي هذا المشروع الى « انهاض البلاد العربية على دعامتين :

١ ـ توثيق عرى الاخاء بين العرب على اختلاف اجناسهم واديانهم وعناصرهم وطوائفهم ، حتى لا يذكر الواحد منهم في السياسة الوطنية غير عربيته الشريفة .

٢ ـ توحيد طرق التعليم في البلاد العربية حتى تتربى النفوس تربية واحدة ليسير جميع العرب في طريق واحدة الى غرض واحد »[٢٠] .

وامام الحماس والترحيب الذي لاقاه الخليل في مشروعه قرر طرحه على رجالات العرب خارج الاستانة فسافر الى مصر واجتمع برجالاتها عارضاً عليهم المشروع التقدمي ، واجرى عدة اتصالات مباشرة مع رواد هذا الحقل ، وفي عددها (١٠١٣٤) الصادر في ١٩١١/٨/١٣ لخصت جريدة الاهرام المشروع كما يلي :

« ان يقسم كل نائب دائرة انتخابية الى اقسام تؤلف في كل منها لجنة لتعميم

---

(١٧) برو ـ مرجع سابق ص ٢٦٧ .
(١٨) برو ـ مرجع سابق ص ٢٦٧ .
(١٩) برو ـ مرجع سابق ص ٢٦٥ .
(٢٠) برو ـ مرجع سابق ص ٢٦٦ .

التعليم الابتدائي واخرى اختصاصية لترتيب برنـامج لاصـلاح هذه المـدارس على ان تسلك خطة التوحيد ، وان يعقد النواب مؤتمراً عاماً يحددون زمانـه خلال السنـة ذاتها ١٩١١ يحضـره منـدوبـون عن هـذه اللجـان لـدراسـة جميـع البـرامـج المـوضـوعـة واستخلاص برنامج واحد منها يكون دستوراً للعمل في سائر البلاد العـربية وأن يبحث المؤتمر مسألة توحيد الكتب والتربية لايجاد شعور واحد في نفوس طلاب جميع البلاد العربية وانشـاء مدرسـة لتخريـج المعلمين ـ دار للمعلمين ـ بطريق الاعـانات . وقـد تعهـد المنتدى بتضحيـات ماديـة وادبية في سبيـل تهيئة المعلمين لهـذه الدار ويتـطوع اعضـاء المنتدى المثقفـون للتدريس في المـدارس علاوة على وظـائفهم او اعمـالهم العادية »[٢١] .

وبـالفعل لاقى هـذا المشروع تـرحيباً من معـظم الرجـالات الثقافيـة والتربـوية والسياسية في البلاد العربية ، وفي مصر « تألفت لجنة فيها ضمت سبع عشرة شخصية كبرى من ابرزهم : احمد تيمور بـاشا ، محمـد باشـا الشريعي ، رفيق بـك العظم ، الدكتور شبلي شميل . . . الخ للقيام به والعمل بموجبه »[٢٢] .

هكذا كان عبد الكريم الخليـل ، وهكذا كـان المنتدى الادبي « الجمعيـة التي احيت الروح القومي وبث المبادىء السامية بين طبقات الشبيبـة العربيـة في الاستانـة وخارجها وكانت خطته الوحيدة نشر الدعوة للقضية القومية الوطنية »[٢٣] .

لم يفكـر عبد الكـريم في يوم من الايـام ، ان يكون معـارضـاً لـوحـدة الـدولـة العثمانية ، فالمنتدى الادبي ضم في اغلب حفلاته زعماء العرب والتـرك ، حيث كان الخليل يسعى ليكون مقرباً من الثالوث طلعت وانور وجمال على ما سنراه .

مجلة «العرفان» ـ ثورة فكر في الجبل :

وشهد جبل عامل في شباط ١٩٠٩ مولد اول مجلة على ارضه انشأها المجـاهد احمد عارف الزين وهي مجلة العرفان التي واكبت مسيرة جبل عامل النضالية ، بحيث كانت تُعطل عن الصدور مقابل حملات القمع والارهاب التي طالت رجالاتـه . وهذا

---

(٢١) برو ـ مرجع سابق ص ٢٦٦ .

(٢٢) برو ـ مرجع سابق ص ٢٦٦ .

(٢٣) احمد عزت الاعظمي ـ راجع سليمان موسى ـ مرجع سابق ص ٣٢ .

مـا حصل عنـدما عمـدت سلطات الانتداب الى تعـطيلها عـدة مرات ، فشكلت منبـر العامليين الذي تخرج من عليه اجيال ورواد . بعد ذلك التاريخ توالى انشاء المجلات والجرائد في الجبل فظهرت جريدة « جبل عـامل » للزين ١٩١١ ، ومجلة « المـرج » لاسعـد رحال ١٩٠٩ ، و« القـوة » جريـدة محسن دبوق ١٩١٢ وغيـرهـا من مجـلات وجرائد .

المؤتمر العربي الاول ـ مؤتمر باريس :

مع استمرار السياسة الاضـطهاديـة التي مارسهـا الاتحاديـون ضد العـرب وأمام تفاقم الاحداث على الساحة العامة من هزيمة في حـرب البلقان الى غيـرها . تـداعى الشباب العربي للتباحث في امورهم ، فكان لا بد من عقـد مؤتمر يضم رواد الحـركة العربية .

كـان اول الـداعين لهـذا المؤتمـر ، شبـاب من المثقفين العـرب المقيمين في باريس امثال (عبد الغني العريسي ، عوني عبد الهادي ، محمد الحمصاني ، جميل مـردم وغيرهم) فقـد اجروا اتصـالات ، وشكلوا من بينهم اعضاء تنـوب عن الجاليـة العربية في باريس تمثل العرب في حال قيام مثل هذا المؤتمر .

ومع تواجد الظروف المؤاتية وجهوا دعوة الى « كل من يخفق قلبـه لامة العـرب صغيراً وكبيراً ان يلبي داعي الـوطن لا سيما اربـاب الزعـامات في مقـاعد الجمعيـات فعليهم نعتمـد وإليهم نتجه ، فـاما ان يتضـاموا الى وفـود المؤتمر وامـا ان يبعثوا اليـه بالرسائل البرقية او الكتابية يظهرون فيها ارتياحهم لنيـل الغايـة واشتراكهم في شـريف المقصد حتى يدلي المؤتمر لدى الامم بحجته وتستوثق قوته بقوة امته ، وهنالك ينشق اليقين فيـطل على هذه الامـة فجر الحيـاة من بين اتسـاق الغسق وركـام الـظلمـات ، وسلام على من تلقى هذا النور فما اغشاه ، ومن عرف واجبه فأداه .

(لجنة المؤتمر العربي)

(اسماء اعضاء اللجنة ـ

عنوان المرسلات)»[٢٤]

---

(٢٤) المؤتمر العربي الاول ـ اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر القـاهرة ـ ١٩١٣ ص ١٠ ـ ١١ ، فصـل من كتاب وثـائق المؤتمر العـربي الاول ـ تقديم ودراسـة وجيـه كـوثـراني ـ دار الحـداثـة ١٩٨٠ ـ سيشار للمرجع : كوثراني ـ المؤتمر العربي .

هـذه الرسـالة المـوجهة الى كـل ابناء العـرب ليست الا ليتأكـد القائمـون على المؤتمـر وحتى كل رجـالات العرب مـدى قبـولهم بحـركـة الاصـلاح ونيـل الحقـوق المهضـومة . اثـر ذلك بـدأت الوفـود العربيـة تصل الى بـاريس ممثلة على التوالي : حـزب اللامـركزيـة الجمعية الاصـلاحية العمـومية في بيـروت ، العراق ، بعلبـك ، المهاجرون في الولايات المتحدة ، المهاجرون في المكسيك ، جالية باريس وجاليـة العرب في القسطنطينية ممثلة بعد الكريم الخليـل « رئيس المنتدى الادبي ، متخـرج المدرسة الملكية ومدرسة الحقوق في القسطنطينية »[٢٥] .

في ١٨ حـزيران ١٩١٣ افتتـح المؤتمر عبـد الحميد الـزهراوي جلسته الاولى بصفته رئيس المؤتمر وكان موضوع كلمته (تـربيتنا السيـاسية) ، تحـدث خلالهـا عن اسباب عقد المؤتمر وحقوق البشر والعلاقات العامة والعلاقات العربيـة ـ التركيـة وعن اللامركزية وغيرها .

وتلبيـة لدعـوة المؤتمر السـابقة ، وجـه اعيان ومـواطنـون من مختلف المنـاطق العـربية بـرقيات دعم وتـأييد لاعضـاء المؤتمر فيمـا عبر آخـرون عن دعمهم بواسـطة التلغراف ، وهذا ما فعله جبل عامل حيث عبَّر عن تأييده للمؤتمر برسالتين اثنتين :

الاولى من افـاضل صيـدا وقضائهـا والثانيـة من المجاهـد احمد عـارف الـزين صاحب مجلة العرفان .

الرسالة الاولى الرقم (٩) من صيدا :

« صيدا في ٢١ جمادى الثانية سنة ١٣٣١ .

حضرات اعضاء العمدة الادارية للمؤتمر العربي في باريس .

ان الشبيبة العربيـة التي يتجاوز عـددها الخمسمـائة في هـذا القضاء بين تجـار وصنَّاع وادباء ومـلاكين تبدي لكم عـظيم امتنانهـا من المشروع الـذي اخذتمـوه على عاتقكم ليحق الحق ويزهق البـاطل ، وهي تشـارككم في آرائكم واعمالكم . وتسـأل الله ان يكلل مشروعكم بأكاليل الفوز حتى تحيا هـذه البلاد حيـاة طيبة سعيـدة في ظل الهلال العثماني وفي الختام اقبلوا فائق احترامنا .

(٢٥) نفس المرجع السابق ص ١٦ .

راشد بكار	محمود الزين	احمد عمر الحلاق
مصطفى الجوهري	عز الدين زنتوت	يوسف ابو ظهر
توفيق المجذوب	علي الجبيلي	توفيق الجوهري
احمد اسماعيل القطب	محمد سعيد ابو ظهر	سعد الدين عيساوي
ابراهيم سكري	شكري زهار	محي الدين النعماني
احمد حمدي الصلح		مصطفى حسن الكشتبان
عبد الغني الزين		عبد البديع الزين»[٢٦]

الرسالة الثانية ـ الرقم ١٠ :

« صيدا : في ٢١ جمادى الثانية سنة ١٣٣١ و٢٧ ايار سنة ١٩١٣ .

حضرات الاخوان الافاضل المجاهدين اعضاء لجنة المؤتمر العربي . ان بلاداً كبلادنا ، ووطناً كوطننا ، وامة كأمتنا ضرب الجهل فينا بجرانه واناخ علينا صرف الزمان بكلكله ، وحرق الظلم منا الاخضر واليابس ، لهي جديرة بكل اصلاح ، وحرية بالسعي وراء الرقي والنجاح خصوصاً داخلية البلاد وبواديها التي وصلت الى حالة لا يمكن ان يصورها اليراع ، وتأنف من سماع الاحداث التي تحدث بنا الاسماع لذلك نحبذ ما قمتم به أتم تحبيذ ونناصركم في مشروعكم بما نستطيع لان حركتكم المباركة ترمي الى حفظ استقلال البلاد تحت العلم العثماني المظفر ، وها نحن نمد اليكم يد المصافحة آسفين لعدم استطاعتنا حضور مؤتمركم بالذات ، راجين لكم كل نجاح منتظرين كل ما يلزم من الخدم .

والسلام في البدء والختام » .

احمد عارف الزين »[٢٧]

ووردت الى المؤتمر رسالة تأييد من الجالية العربية في وينوكا (اوكلاهوما) احدى ولايات امريكا ارسلها احد اهالي جبل عامل المقيمين هناك فوزي عيد غلمية من مرج عيون تحدث خلالها بإسم الجالية العربية من مرجعيون والبقاع وطرابلس والشام أيد فيها فكرة المؤتمر ، وعرض خلالها عدة رغبات لهيئة المؤتمر من طلب

(٢٦) كوثراني ـ نفس المرجع السابق ص ١٦٢ .

(٢٧) كوثراني ـ نفس المرجع السابق ص ١٦٢ .

الحكم الذاتي الى اعتماد اللغة العربية إضافة لعدة مطالب[٢٨].

استمر المؤتمر حتى الثالث والعشرين من حزيران حيث اختتم اعماله بالجلسة الرابعة وجاءت قراراته على الشكل التالي :

« ١ ـ ان الاصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للمملكة العثمانية فيجب ان تنفذ بوجه السرعة .

٢ ـ من المهم ان يكون مضموناً للعرب التمتع بحقوقهم السياسية وذلك بان يشتركوا في الادارة المركزية للمملكة اشتراكاً فعلياً .

٣ ـ يجب ان تنشأ في كل ولاية عربية ادارة لا مركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها .

٤ ـ يطلب المؤتمر تنفيذ وتطبيق مطالب ولاية بيروت التي صُوِّتَ عليها في ٣١ كانون الثاني ١٩١٣ وهي المطالب القائمة على مبدأين اساسيين :

توسيع سلطة المجالس العمومية وتعيين مستشارين اجانب .

٥ ـ اللغة العربية يجب ان تكون معتبرة في مجلس النواب العثماني ، ويجب ان يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية .

٦ ـ تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية الا في الظروف والاحيان التي تدعو للاستثناء الاقصى »[٢٩] .

هذا اضافة لعدة قرارات تتعلق كلها بالاصلاح .

لكن الاتراك لم يكونوا راضين عن هذا المؤتمر ، لقد عملوا جادين لافشاله ، ولما لم يكن لهم ما ارادوا ارسلوا مدحت شكري سكرتير اللجنة المركزية لحزب الاتحاد والترقي ، للتفاوض مع رجال المؤتمر . وبعد عدة اتصالات مع اعضاء المؤتمر اعلنت الحكومة العثمانية انها افلحت في الوصول الى اتفاق مع الشبيبة العرب من خلال تلك المفاوضات بحيث جاءت الاتفاقية الجديدة في ثلاثة عشر مبدأ :

---

(٢٨) نفس المرجع صفحات ٢٠٧ ـ ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ـ ٢١٠ .

(٢٩) سليمان موسى ـ مرجع سابق ص ٣٧ ـ ٣٨ .

١ ـ « التعليم في جميع البلاد العربية يكون في اللسان العربي في القسم الابتدائي والاعدادي ويكون بلسان الاكثرية في القسم العالي .

٢ ـ « يشترط ان يكون جميع رؤساء المأمورين ما عدا الولاة عارفين اللغة العربية . . .

٥ ـ العسكر يخدمون في البلاد العربية منهم ، لكن العسكر الذي يلزم ارساله الى اليمن او الحجاز او عسير يرسل ضمن نسبة عادلة من جميع المملكة العثمانية .

٧ ـ يقبل مبدئياً ان يكون في هئية الوزارة ثلاثة على الاقل من اولاد العرب ، ومثل ذلك يؤخذ منهم عدد بصفة مستشار او معاون في النظارات .

٨ ـ يعين خمسة ولاة على الاقل من ابناء العرب وعشرة متصرفين . . .

١٠ ـ « يستخدم مفتشون اختصاصيون من الاجانب في الدوائر المقتضية في كل ولاية . . .

١٢ ـ « يقبل مبدئياً ان تكون المعاملات الرسمية في البلاد العربية باللسان العربي .

١٣ ـ توسع سلطة المجالس العمومية ويكون نصف المجلس العمومي في بيروت من المسلمين ونصفه من غير المسلمين »[٣٠] .

اثر ذلك انتدبت الشبيبة العربية عبد الكريم الخليل للنيابة عنها في استامبول الذي عاد مع مدحت شكري الى العاصمة « حيث تم التوقيع على الشروط النهائية من قبل طلعت بك وزير الداخلية عن الحكومة وعبد الكريم الخليل عن الشبيبة العربية »[٣١] .

« وبعد هذا الاتفاق أولم معتمد الشبيبة العربية عبد الكريم الخليل مأدبة عشاء باسم هيئة الشبيبة العربية ـ على شرف وزير الداخلية طلعت بك وسائر اعضاء المركز العام لحزب الاتحاد والترقي وألقيت خلال هذه المأدبة خطب عديدة »[٣٢] .

---

(٣٠) سليمان موسى ـ مرجع سابق ص ٣٩ .

(٣١) علي الزين ـ العرفان ـ م ٤٩ ـ ج ١٩٦١/٤ ص ٣٨٩ .

(٣٢) زين زين ـ نشوء القومية العربية ـ مرجع سابق ص ١٠٢ .

وتوطدت العلاقات بين ممثلي الشبيبة العربية والموظفين الاتراك ، وبدأت تقام الحفلات على شرف الطرفين « حيث كانت تلقى الخطب الرنانة المنمقة تمجيداً للوحدة الاخوية بين العرب والاتراك »[٣٣] والقى السلطان محمد الخامس كلمة في الوفد العربي الذي زاره برئاسة شريف علي حيدر في الخامس من شهر آب ، وعبّر خلال كلمته « عن سروره بازالة سوء التفاهم الذي كان يسود العلاقات بين العرب والاتراك »[٣٤] « وتكلم بلسان الوفد العربي (الشبيبة العربية) السيد عبد الكريم الخليل فذكر الصدر الاعظم على وعده بالاستجابة لمطالب العرب ، والتمس منه الاسراع في تحقيقها » ومساء ذلك اليوم « اقام الوفد العربي مأدبة عشاء في فندق توقتليان دعي اليها خمسون من كبار الاتراك ومن بينهم طلعت باشا وجمال باشا وانور باشا »[٣٥] .

ووصل استامبول بعد عدة ايام كل من سليم علي سلام ، الشيخ احمد طبارة واحمد مختار بيهم اعضاء المؤتمر العربي ، وبدأوا فور وصولهم الاطلاع على سير الاتصالات الجارية بين الشبيبة العربية والدولة .

وقاموا برفقة بعض الشبيبة العربية في العاصمة بزيارة السلطان محمد الخامس في ٢٣ آب ، وفي نفس الليلة اولمت جمعية الاتحاد والترقي مأدبة حضرها الاعيان من العرب والترك تكلم خلالها عدة رجال ومنهم عبد الكريم الخليل والشيخ احمد طبارة اللذان « اعربا عن اخلاصهما ومحبتهما (للهلال العثماني) وتكلما عن ضرورة توثيق عرى الاخوّة بين العرب والاتراك ، وعن وجوب تحقيق الوعود بالاصلاح التي قطعها الاتراك على انفسهم »[٣٦] .

ثم قاموا في ٢٧ آب بزيارة ولي العهد حيث تكلم هناك كل من سليم سلام وعبد الكريم الخليل والشيخ احمد طبارة ، ومساء ذلك اليوم اقامت جمعية الاتحاد والترقي حفلة عشاء على شرف الوفد تخللها كلمات لفتحي بك باسم الجمعية وعبد

(٣٣) نفس المرجع السابق ص ١٠٣ .
(٣٤) نفس المرجع السابق ص ١٠٣ .
(٣٥) نفس المرجع السابق ص ١٠٣ .
(٣٦) نفس المرجع السابق ص ١٠٣ .

الكريم الخليل والشيخ احمد طبارة باسم الوفد العربي .

بهذا استمرت الاتصالات بين العرب والاتراك لقاءات وخطب وتصاريح ، اما على ارض الواقع فلم ينفذ بنذ من الاتفاقية .

بعد غروب ذيول المؤتمر العربي الاول بدأت سماء المنطقة تتلبد بالغيوم ، فالساحة العالمية تنبىء بنشوب حرب عامة تهدد أمن العالم بما فيها الدولة العثماينة .

لقد أثرت هذه الاجواء بشكل غير مباشر على مقررات المؤتمر العربي وعلى كثير من القضايا وسوف تضطر الجماهير العربية الى ايقاف صرختها التي طالبت بها الدولة بحقوق مشروعة وسوف تعيش البلاد اربعة اعوام من اهوال الحرب التي عرفت بالحرب العالمية الاولى .

الفصل الحادي عشر

الحــــــرب

« لنكن يداً واحدة لانقاذ الدولـة من عواقب الحـرب الاوروبية واظهار الـوحدة العثمـانية بـاتم مظاهـرها لنتمكن من منع اعتداء الدول الغربية علينا والخـروج من هذه الازمة الحرجة ارفع شاناً واعلى مقاماً ».

عبد الكريم الخليل

اقبل صيف ١٩١٤ يبشر باندلاع حرب عالمية تشمل مساحات عـدة على سطح الكرة الارضية . في ٢٨ حزيران اغتيل ولي عهد النمسا برصاصات من البـوسنة حيث اشعل هذا الحادث جواً من التوتر دفع بالنمسا لتعلن الحرب على بلاد الصرب في ٢٨ تموز ، ومن يومها بدأت الاحـداث والمفاجـآت تتوالى على السـاحة العـالمية ، فقـد اعلنت المانيا الحـرب على روسيا في الاول من آب ثم فتحت جبهـة ثانيـة في الثالث منه ضد فرنسا مما دفع بريطانيـا للدخول في الحـرب (٤ آب) ضد المـانيا ؛ وهكـذا انقسمت اوروبا الى حلفين اثنين اشعلا حرباً عالمية دامت حوالى اربع سنوات .

ضم الحلف الاول كلاً من فرنسا وبريطانيا وروسيا وبلاد الصرب .

فيما ضم الثاني الآخر المانيا والنمسا .

ووقعت الدولة العثمانية آنـذاك بالحيـرة بين دخول الحـرب او الحياد ، غيـر ان تفكك هيكلها الاساسي وضعفها شكّلا الحافز الاول في دفعها لدخول الحـرب بحيث كانت تعتبر اي انتصار للحلفاء دون تدخلها سيؤدي حتماً الى تقسيمها بينما اذا ربحت

المانيا الحرب سوف تبقي البلاد بايديها . فالافضل دخول الحرب بجانب المانيا[1] .

« وفي اليوم الثاني من شهر آب (اغسطس) صدر قرار الحكومة التركية بالتعبئة العامة »[2] وبدأت عدة اتصالات مع القياديين العرب من ضباط وزعماء ورؤساء جمعيات وغيرهم .

وجاء اعلان التعبئة العامة في صفوف مواطني المملكة مبشراً بدخول الدولة للحرب مما سيؤدي حتماً الى تجميد المطالب العربية . فقد طغى موضوع الحرب على مجمل القضايا السياسية والاصلاحية « وهكذا اندفع شبان العرب للخدمة في الجيش واوقفوا نشاطاتهم السياسية التي تتعارض مع التعاون المطلق في ظروف الحرب وتوقفوا عن المطالبة بالاصلاحات »[3] .

ان مثل هذا التأييد المطلق لقرارات الدولة يثبت مدى حرص اغلب زعماء العرب على مبدأ الترابط المتين داخل الدولة ، رغم انه عندما بدأت الدولة سياسة التجنيد الاجباري (سفر برلك) رأيت البلاد ، قراها ومدنها تخلو من الشباب والرجال ، كل المواطنون نحو الحرب . . .

اما رجال الحركة العربية فقد بدأوا اتصالات عدة فيما بينهم ومع الدولة واعربوا عن دعمهم المطلق لجهود الدولة .

في رسالة بعث بها المناضل عبد الكريم الخليل بتاريخ ٦ آب ١٩١٤ الى احد اصدقائه في مصر (بعد اربعة ايام من اعلان التجنيد الاجباري) اكد وقوف القضية العربية مع الدولة في حربها ضد الاطماع الغربية جاء في الرسالة (مرسلة من العاصمة) :

« أنا على وشك السفر الى سوريا لان التدابير التي اضطرت حكومتنا السنية الى اتخاذها درءاً لخطر الحرب العظمى تقضي على كل عثماني مخلص لدولته وأمته ان يبذل جهده في سبيل تنفيذها على احسن ما يرام وستكون مهمتي في سورية جمع

---

(١) زين زين ـ الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ـ دار النهار للنشر ـ ط ٢ ـ ١٩٧٧ ص ٥٨ سيشار للمرجع بـ: زين ـ الصراع .

(٢) جورج انطونيوس ـ مرجع سابق ص ٢١٦ .

(٣) سليمان موسى ـ مرجع سابق ص ٩٧ .

كلمة الامة على شد أزر الحكومة والسعي لمنع كل ما يحتمل وقوعه من اسباب النفور بين العناصر العثمانية ، وقد وعدتني الحكومة بان تشد ازري في هذه المهمة وتجيبني الى كل المطالب العادلة التي أطلبها منها باسم الامة العربية أو باسم الافراد من ابنائها ، فلنكن كلنا يداً واحدة لانقاذ الدولة من عواقب الحرب الاوروبية واظهار الوحدة العثمانية بأتم مظاهرها لنتمكن من منع اعتداء الدول الغربية علينا والخروج من هذه الازمة الحرجة ارفع شأناً وأعلى مقاماً »(٤) .

فيما اعلن احمد مختار بيهم عضو مؤتمر باريس عن الغاء الاحزاب العربية السياسية والى تناسي الخلافات والاستعداد المباشر لمشاركة الدولة في الحرب .

ان ما رأيناه من عدة آراء لزعماء القضية العربية ومن اتصالات بين شبيبة العرب وزعماء الدولة في العاصمة ، ومن مواقف الزعماء العرب تجاه اعلان الدولة دخول الحرب وما سنشاهده من اتصالات بين جمال باشا وزعماء القضية العربية في سورية ، كل هذا يثبت ان العرب لم يفكروا يوماً بنوع من الانفصال عن جسم الدولة خصوصاً بعد ظهور اطماع الغرب على الساحة العثمانية .

دخلت الدولة العثمانية الحرب في الخامس من شهر تشرين الثاني عندما كان يتسلم زمام امورها ويسيطر على سياستها الثالوث انور وجمال وطلعت ، الذي انتدب جمال باشا لقيادة الجيش الرابع من اجل الزحف نحو قناة السويس الخاضعة آنذاك لسيطرة الحلفاء .

ضم الجيش الرابع « فيلقين في كل منهما ثلاث او اربع فرق عسكرية يبلغ مجموعها في الاحوال العادية ما بين ستين وسبعين الف رجل »(٥) .

وفور وصوله لدمشق وطّد جمال باشا علاقته بزعماء البلاد واجرى عدة اتصالات مع اعيانها ومع زعماء الحركة العربية فيها ومنهم عبد الكريم الخليل الذي اصبح قريباً جداً منه عندما بدأ جمع المتطوعين « في جهات صور وصيدا للدفاع عن السواحل

(٤) سليمان موسى ـ مرجع سابق ص ٩٧ ـ ٩٨ .
(٥) جورج انطونيوس ـ يقظة العرب ـ مرجع سابق ص ٢١٧ .
(٦) سليمان موسى ـ مرجع سابق ص ١٠٢ .

السورية ضد كل غزو يحتمل ان يقوم به الاعداء »[٦] هذا فيما بدأت الصحف العربية حملة توعية في صفوف مواطني الامة تؤازر خلالها الدولة في كل مشاريعها .

جهَّز جمال باشا الرجال والعتاد لخوض المعركة في السويس « وفي فجر ٢ شباط ١٩١٥ وقع الهجوم على القناة واستمر القتال طوال النهار ، ولكن لم يكن هناك بصيص من الامل في النجاح ، فأصدر جمال باشا امره بالانسحاب الى بير السبع »[٧] .

في المقابل كان الاصلاحيون العرب (زعماء الحركة العربية) يعلمون مدى قدرة الدولة وضعفها امام الحلفاء ، مما اوجب لهم ساعة تفكير في وضعهم وان يبحثوا في شؤون بلادهم واضعين نصب اعينهم الهزيمة والنصر ، وهذا ما جعلهم يقومون بعدة اتصالات فيما بينهم ثم مع زعماء وشبيبة البلاد .

لقد كان ضرورياً إعادة الحسابات أمام أصداء الحرب التي كانت أقوى من ان تواجه في امبراطورية تعيش أيامها الأخيرة . وكخطوة أولى اتحدت جمعيتا الثورة العربية واللامركزية في جمعية واحدة انتشرت فروعها في أغلب الولايات العربية ، وتم انشاء فرعين للجمعية في، صيدا والنبطية « وتألف فرع جمعية الثورة العربية في النبطية من الشيخ احمد رضا والشيخ سليمان ظاهر ومحمد جابر في ٢٦ تشرين الاول سنة ١٩١٤ »[٨] .

وفي ٢٦ آذار ١٩١٥ وصل الامير فيصل دمشق فاستقبله فيها جمال باشا ، وبعد استراحة قصيرة باشر فيصل اتصالات عدة مع زعماء الحركة العربية في دمشق بحيث تعرف على رجالاتها .

وبعد اربعة اسابيع غادر فيصل الى استامبول ، ومكث فيها حتى آخر أيار وعاد بعدها الى دمشق واجتمع مع اعضاء جمعية الفتاة الذين اطلعوه على ميثاق كانوا قد وضعوه وطلبوا منه عرضه على والده . كان للقاء الذي تم بين فيصل وزعماء الحركة العربية في دمشق ، اثر مباشر وعميق في دفع الشريف حسين الى التفكير جدياً بأمور

---

(٧) نفس المرجع ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

(٨) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص٢١٢

انتفاضته وساعده على اقامة عدة اتصالات مع بريطانيا حيث جرت بين الطرفين عدة مراسلات .

وبعد ان قام فيصل بزيارة ثانية لدمشق ، حيث لمس فيها تأكيدات مباشرة من الزعماء بمساندة اي انتفاضة قد تنطلق من الحجاز ، عاود الشريف اتصاله مع انكلترا ، وجاءت على شكل مراسلات دولية تعرف تاريخياً بمراسلات حسين ـ مكماهون ـ وتعتبر من اهم الوثائق الدولية في التاريخ العربي الحديث.

في ربيع ١٩١٥ اخفق جمال باشا في حملة السويس وعاد خائبا حاملاً معه اذيال الهزيمة ، وبدأ فور عودته الى منطقة الشام حملة اعتقالات واسعة في صفوف زعماء الحركة العربية لتغطية هزيمته والانتقام من كل مطلب اصلاحي داخل الدولة .

وبهذه الاعتقالات المفاجئة قطع جمال باشا جميع الجسور التي توصل الاصلاحيون العرب الى اقامتها مع الدولة خصوصاً في شهور الحرب الاولى ، والتي فتحوا فيها صفحة جديدة من العلاقات الطيبة بين رموز الحركة العربية ورجال الدولة .

ومع ان الدولة كانت قد قابلت مطالب العرب الاصلاحية بالاهمال والنسيان ، الا ان كل ذلك لم يدفعهم يوماً من الايام الى التفكير بالانفصال عن جسم الدولة الأم وان كانوا في كل مرة يعيدون حساباتهم التي لا تلاقي الا الطريق المسدود من قبل الدولة .

ورغم كل ماقيل وصدور شائعات حول مشروع انفصالي بدأه زعماء الحركة العربية ، الا ان احداً لم يثبت ذلك ولا حتى استطاع احد الحصول على أية وثيقة تثبت الامر إذ « ان كثيراً من الوثائق المنشورة في (الكتاب الاحمر) والتي اذا امعن القارىء النظر فيها لا تبرز الاتهامات الخطيرة التي وجهها جمال باشا ضد الزعماء العرب ويصح ذلك على بعض ما ذكره جمال في مذكراته بشأن خيانة الزعماء العرب وعدم ولائهم لتركيا ، فان قسماً من هذه الرسائل يناقض بعضها البعض الآخر ، وقسماً يدل دلالة واضحة على ان اصحابها لم يطالبوا بالاستقلال الداخلي »(٩) .

---

(٩) زين زين ـ نشوء القومية العربية ـ مرجع سابق ص ١٢١ .

حملة الاعتقالات :

مهما يكن من امر فـان جمال بـاشا بـدأ بعد عـودته من السـويس على ما ذكـرنا حملة اعتقالات واسعة في صفوف رجال الحـركة العـربية ومثقفيهـا طالت العـديد من الوجوه المعروفة يومذاك ، وقـدمها الى محكمـة أنشأهـا لهذه الغـاية في مـدينة عـاليه (جبل لبنان) واصدر بحقها العديد من الاحكام بين السجن والنفي والاعدام .

وطالت هذه الاعتقالات العديد من رجالات جبل عامل والمنطقـة وعلى رأسهم عبد الكريم الخليل الذي ربطت قضيته مع معتقلي جبل عامل .

وممن استدعوا للمحاكمة متهمين وشهـوداً في جبل عـامل اضـافة لعبـد الكريم الخليـل ، رضا الصلح ، مفتي صيـدا بهاء الـدين الـزين ، الحـاج عبـد الله يحيى ، محمـود زنتوت ، الحـاج محي الدين الجـوهري ، الحـاج اسماعيـل خليـل ، حسن رشيـد ، حسين الجـوهـري ، الحـاج حسن زنتــوت ، حسن المجـذوب ، تحسين الخياط ، بديع الزين ، محمود الزين ، محمد جابـر آل صفا ، الشيـخ احمد رضـا ، الشيخ سليمان ظاهر ، الشيخ عبد الكريم الزين ، محمد الحاج علي ، يوسف الحاج علي ، محمد سعيد بزي ، الحاج نجيب البكـار ، حسن اليوسف ، تـوفيق شاتيـلا ، بهيـج الجوهـري ، توفيق الجـوهري ، مـراد غلمية ، اسكنـدر نمـر شـديـد ، رشيـد القطب ، عبد المنعم عاصي ، السيد محمـد ابراهيم ، نصـر عوده ، حسن الصلح ، عمـر لطفي ، مصبـاح البـزري ، سعيـد البـزري ، يـوسف الحنـاوي ، الشيـخ منيـر عسيران ، توفيق عسيران ، راشد عسيران وحسن الاسير وربما غيرهم . . .

وفي العـاشر من شهـر حـزيـران ١٩١٥ بـدأت المحـاكمـة ودار التحقيق حـول تحركات عبد الكريم الخليل ورضا الصلح في صيدا والجبل واستمرت حتى ٢٨ تموز عندما اصدر الديوان العرفي حكم الاعدام بحق عبد الكريم الخليل ، والنفي لكل من رضا الصلح ومفتي صيدا بهاء الدين الزين الى ازمير وأعلن براءة الباقين .

قراءة في مواقف عبد الكريم الخليل تجاه الدولة :

حتى آخر لحظة من حياته كان عبد الكريم الخليل يعتبر نفسه مواطناً عثمـانياً ، انحصـرت اهـدافـه كـاخـوانـه بـالمـطالبـة بحقـوق العــرب الـذين يشكلون قلب

الامبراطورية . في قراءة لمواقف هذا الرجل تبرز تلك الاهداف الصريحة وتضع الجميع في دهشة تجاه الاحكام التي صدرت بحق الخليل ورفاقه . ان تحركات الخليل على ما تذكر المصادر لم تبرز يوماً نية سيئة تجاه الدولة بل لم يعرف عنه من كل اهدافه الا المطالبة الاصلاحية التي تشعر العرب انهم ابناء دولة هم مواطنون فيها .

بعد مؤتمر باريس ١٩١٣ لعب الخليل دوراً بارزاً في وضع اسس التقارب بين العرب والاتراك حيث جرت عدة مفاوضات بين الطرفين .

وتجلت افكار الخليل الوحدوية خلال الخطب التي القاها امام السلطان محمد رشاد واعضاء الاتحاد والتي دعا خلالها الى الترابط المتين بين العرب والاتراك مع الاسراع في تجسيد بنود الاصلاح الجديدة .

خلال تلك الاتصالات وبعد « ان تم الاتفاق السري على مواد التسوية اعتبرها عبد الكريم الخليل ومن شد ازره كافية لتوحيد صفوف العرب والاتراك تأييداً للدولة ومناصراً لكفاحها ضد اعدائها في الخارج »[١٠] .

« وبعد اعلان الحكومة التركية قبولها للمطالب العربية الاصلاحية وقف المنتدى الادبي ورئيسه موقفاً مؤيداً للحكومة . . . اذ اوفد رئيس المنتدى العربي الى سوريا في اغسطس ١٩١٤ ليجمع كلمة العرب حول الحكومة »[١١] .

« وقد وفق الخليل الى اقناع المؤتمرين بوضع الشروط المعروفة للتقريب بين العنصرين الرئيسين بتعيين الاكفياء من العرب في المناصب في السلطنة وهي تنحصر في الادارية العالية وتدريس اللغة العربية في الولايات العربية . . . »[١٢] .

الخليل في سوريا :

ومع هبوب رياح الحرب باتجاه المملكة ، بدأت البلاد تشهد ملامح هذه الحرب حيث بدأت الاستعدادات التامة في كل انحاء البلاد تحسباً لاي طارىء .

(١٠) مصطفى طلاس ـ الثورة العربية الكبرى ـ مرجع سابق ص ٨٢ ـ ٨٣.
(١١) احمد عطية الله ـ القاموس السياسي ـ مرجع سابق ص ١٢٢٧ .
(١٢) محسن الامين ـ اعيان الشيعة ـ م ٨ ـ ص ٣٣.

وقد ساعد هذا الجو على طمس القضايا والمطالب العربية حيث وضعت جانباً امام شبح الحرب الرهيب ، واهتم رجال العرب بقضية الحرب ووضعوا مطالبهم جانباً عندما بدأت اتصالات فيما بينهم بهذا الشأن .

في رسالة ارسلها عبد الكريم الخليل الى احد اصدقائه(*) في مصر اشار الى سفره من الاستانة الى سوريا لجمع كلمة العرب ولاءً للدولة التي اعلنت او لمحت بدخول الحرب . وهذا ما يؤكد حرص الخليل ورفاقه على تنفيذ اوامر الدولة والسير معها في احلك الظروف .

وعندما وصل جمال باشا الى سوريا كقائد عام للفيلق الرابع امام صلاحيات مطلقة من الحزب الحاكم ، سعى كل ما بوسعه للتقرب من زعماء البلاد ، مشيراً لذلك في مذكراته خصوصاً مع المناضل عبد الكريم الخليل اذ يقول : « . . . وإذ كنت شخصياً موافقاً في المبدأ على استعمال اللغة العربية ومنح العرب بعض امتيازات في الشؤون الادارية ارسلت في طلب عبد الكريم الخليل زعيم الحركة الثورية العربية الذي ورد ذكره في الفصل الاول من هذه المذكرات فغمرته بالبشاشة والاحسان . واجتمعت بواسطته ببعض زعماء الثورة ، وبسطت لهم خطة الحكومة وأكدت لهم ان تحرير العالم الاسلامي من النير الاجنبي ممكن تحقيقه لو عقد النصر بألويتنا فأمنوا جميعاً بلا استثناء على اقوالي ، وأقسموا بالله جهد ايمانهم وبشرفهم ان يظل عرب سوريا وفلسطين موالين للحكومة ما دامت الحرب وان لا يقيموا العراقيل في طريقها وان ينفذوا اقوالهم هذه بالفعل »[١٣] .

ومع هذا التقارب بين جمال باشا والخليل ورفاقه ، سادت علاقة وطيدة بينهم خصوصاً مع نشاطات الخليل في انحاء سوريا ، يقول جمال باشا في مذكراته : « لم اتردد في الذهاب لرؤية مظاهرة وطنية بالقرب من رأس بعلبك وهي محطة منعزلة مع انني لم اكن مصطحباً الا حارسي الخاص وخلوصي بك والي سوريا ، وقد رأيت من الضروري الاشتراك في ذاك الاحتفال لأظهر مقدار ما اودعته من الثقة في عبد الكريم

(*) راجع ص ١٧٢ من هذا الكتاب.

(١٣) محسن الامين ـ اعيان الشيعة ـ م ٨ ـ ص ٣٣ نقلاً عن مذكرات جمال باشا.

الخليل منظم تلك الحفلة »[١٤] .

واستمرت العلاقة الطيبة بين جمال باشا وزعماء البلاد ، ويكمل في مذكراته قائلاً : « ولم يقع بعد عودتي من القناة الاولى ما يزعزع ثقتي بالاصلاحيين وكانت خطتي معهم خطة الصراحة حتى اني طلبت الى عبد الكريم الخليل والدكتور عبد الرحمن شهبندر ان يزورا الجنود التركية العربية العائدة من القناة ليشهدا بنفسهما حسن حالتها المعنوية . . . »[١٥] .

ولم تكن علاقة عبد الكريم الخليل فقط مع جمال باشا ، فكما رأينا سابقاً مواقفه في الاستانة ، كانت له عدة اتصالات مباشرة مع الزعماء الاتراك حتى انه توسط كثيراً في عدة قضايا لصالح اشخاص اتراك وعرب منها انقاذ محي الدين باشا من السجن مرتين الذي سيصبح لاحقاً مديراً للبوليس وسيشهد اعدام الخليل . هكذا كان الخليل ، لقد عمل كل ما بوسعه لتضييق الخلافات العربية التركية ولشد الترابط بين الطرفين، فقد صبر وتحمل كل حملات الانتقاد التي رماها الاصلاحيون في مصر ضده واستمر في حركته ونضاله حتى اعدامه .

نحـــو المشنقـــة :

وتنفيذاً لحكم الاعدام ، اقتيد الخليل ورفاقه الى ساحة البرج في بيروت (تعرف اليوم بساحة الشهداء) .

وبقدر ما كانت حرارة آب مرتفعة كان الحماس الذي دب في نفوس المحكومين عالياً ايضاً .

أما هؤلاء المحكومون فكانوا : عبد الكريم الخليل ، صالح حيدر ، مسلم عابدين ، نايف تللو ، محمود المحمصاني ، عبد القادر الخرسا ، محمود العجم ، سليم عبد الهادي ، نور الدين القاضي ، وعلي الارمنازي .

بعد ابلاغهم الحكم ، وضعوهم في غرف مستقلة في دائرة البوليس ، التي يحيط بها عشرات الجنود ، عندها اطلّ المناضل عبد الكريم الخليل من النافذة

(١٤) نفس المرجع السابق ص ٣٣.

(١٥) نفس المرجع السابق ص ٣٣.

المطلة على الشارع ، رأى الجند فصرخ عالياً :

وداعاً يا ابناء الوطن ، لا تحزنوا علينا ونحن نموت من اجلكم بل احزنوا على انفسكم وإبكوا لما سيصيبكم في المستقبل من ظلم الاتراك .

وبعد ان دعي المحكومون الى الوضوء تقدم الشهيد الخليل من مفوض الشرطة الذي كان واقفاً امامه ودار بينهما هذا الحديث :

« ـ الا يحضر الوالي اعدامنا ؟

ـ كلا ، فمدير البوليس ورضا باشا كافيان .

ـ اتريد ان تدعو لي مدير البوليس ؟

ـ حباً وكرامة .

وذهب المفوض الى مدير البوليس فدعاه وشدَّ ما اسرع ذلك اللعين محي الدين بك الى مقابلته .

وكان عبد الكريم اثناء اقامته في الاستانة قد انقذ محي الدين من السجن مرتين ، فلما تقابلا سأله عبد الكريم وهو شامخ الرأس :

ـ أتذكر اني انقذتك من الموت مرتين يا محي الدين ؟

قطب مدير البوليس حاجبيه واجاب :

ـ اذكر ذلك ، ولكني عاجز الآن عن مكافأتك . . . فقد حكم عليك من هو يده فوق يدي .

ـ انا لا اطلب منك ان تنقذني ، لاني اعرف الحد الذي يبلغ اليه عرفان الجميل عند الاتراك . . . ولو كلفوك ان تضع بيدك الحبل في عنقي لما تأخرت ، وفاخرت اقرانك بعملك .

فغضب الشرير وقال للشهيد : والآن ماذا تطلب ؟

ـ اطلب ان تقابلني بالوالي عزمي .

ـ يستحيل ذلك .

ـ اتمنعون من محكوم بالموت رغبة يرجوها قبل موته ؟

ـ قل ما تريد ان يعرفه الوالي منك ، وانا ابلغه كلامك حرفاً حرفاً .

ـ اذا كان الوالي لا يجسر ان يقابلني وجهاً لوجه ، فانا لا اريد ان اكلمه . . . ولكني ارجو ان تمنع كل تركي من الدخول عليَّ . . . وهذه ارادتي الاخيرة .

وكأن مدير البوليس احب ان يرضي الشهيد في آخر ساعاته فمنع جميع مأموري البوليس الاتراك من الدخول الى غرفته . . . » .

بعد ان كتب المحكومون آخر وصاياهم على اوراق خاصة ، بدأ رجال البوليس يخرجونهم اثنين اثنين بعد ان كبلوهم وساقوهم الى ساحة الاعدام . .

وبعد ان يوصلا المحكومين الى الساحة الخالية تماماً من البشر باستثناء الجنود واعضاء الديوان العرفي يفكون ايديهما ويلبسانهما قميصاً ابيض بعد تكبيل الايادي بالحديد .

بعد تعليق اربعة محكومين على اعواد المشانق ، جاء دور عبد الكريم الخليل وصالح حيدر ، وصلا الى الساحة ، منظر رهيب . . . اربعة من رفاقهما سبقوهما . . نظر صالح حيدر بوجه رفيقه الخليل وقال :

« انظر يا أخي كيف يريد الاتراك ان يرفعونا . .

فأجابه عبد الكريم باسماً : ان الاتراك يرفعوننا اليوم للموت ، واما الامة فسترفعنا ايضاً في الغد ، ولكن للحياة الخالدة وللذكر الأبي »[١٦] .

هذا ما أمله الخليل من امته التي اعدم لاجلها على المشنقة .

« حلَّ البوليس قيد الرفيقين وحاول تكبيل كل منهما على حدا ، ترامى الشهيدان احدهما على الآخر وتعانقا طويلاً . . . وقال عبد الكريم : الى اللقاء يا صالح »[١٧] .

جاء دور الخليل ، رفع رأسه ، خاطب رضا باشا ، وقال :

« ان قوانين العالم المتمدن تجيز للمحكوم عليه بالاعدام ان يقول ارادته الاخيرة ، قبل موته ، فهل يجيز لي قانونكم ان اتكلم قبل وضع الحبل في عنقي ؟

وحار رضا باشا بضع ثوانٍ ، وهو مطرق الرأس ، لا يعرف جواباً ، ثم رفع رأسه ، حياءً وخجلاً ، وقال لعبد الكريم : لا بأس تكلم . . . »[١٨] .

---

(١٦) يوسف ابراهيم يزبك ـ اوراق لبنانية ـ دار الرائد العربي ١٩٨٣ ، م ١ ، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ .
(١٧) نفس المصدر السابق ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ .
(١٨) نفس المصدر السابق ص ٣٥١ .

صعد المنصة بجرأة ، هتف ، صرخ وتكلم نداءه الاخير وقال :

« اشهدكم ايها القوم اننا لم نأتِ امراً فرياً يوجب وقفتنا هـذه ، واني آسف على ما اظهرته من الاخلاص للدولة منذ نشوب الحرب ولكن الاتحاديين ابوا الا ان يعلنـوا عداءهم لهذا العنصر الكريم الذي لا يملك من امره شيئاً ، فاذا كان جمال باشا يتهمنا باضرام الثـورة لاستقلال العـرب فلا بـد من ضحايـا لهذا الاستقـلال ولنكن نحن اول الضحايا ، انني اعرف السبب الذي شنقني جمال باشا لاجله وسيعرفه التاريخ »[19].

« يـا ابناء امتي واهـل بلادي ، يـريد الاتـراك ان يخنقـوا اصـوات حـريتنـا في صدورنا يريدون ان يمنعـونا من الكـلام ، ولكننا سنتكلم . . . سنعلن للمـلأ اننا امـة تريد الاستقلال . . . واننا امة تسعى للخلاص من نير الاتراك . . .

انت يـا ارض الوطن احفـظي تذكـارنا ، وانت يـا سماء بـلادي احملي الى كل عربي سلام هؤلاء الشهداء . . . ورددي على قومنا مأساتنا وكلامنا . . . قولي لهم اننا عشنا لاجل الاستقلال وها نحن نموت في سبيل الاستقلال . . . »[20] .

---

(١٩) سليمان موسى ـ الحركة العربية ـ مرجع سابق ص ١١٢ .

(٢٠) يزبك ـ مصدر سابق ـ م ١ـ ص ٣٥١.

الفصل الثاني عشر

الثورة العربية الكبرى

نفذ جمال باشا حكم الاعدام بحق احد عشر مواطناً عربياً في ساحة البرج ، واستمر بتسيير حملة اعتقالات واسعة في صفوف الجماهير . في الطرف الآخر كانت الصحراء العربية (الجزيرة) تشهد بوادر انتفاضة لتعلن انطلاقة الثورة العربية التي هيأ لها الشريف حسين امير مكة ، بعد ان حرَّك اولاده لزيارة الولايات العربية للوقوف على الواقع فيها .

زار فيصل ، احد ابناء الشريف ، دمشق عدة مرات وتباحث مع قياديي الحركة العربية في عدة امور مصارحاً بعضهم بقضايا الثورة ، وقد انتسب الى جمعية عربية بارزة .

واتصالات الزعماء العرب بين بعضهم البعض كانت تشهد تصاعداً وتدانياً وفق العلاقات العربية التركية كانت تقوى مع تأزم العلاقة مع الاتراك وتصاعدت ايام الحرب ، وظهور بوادر الهزيمة .

وقد « روى بعض المؤرخين ان الازمة المستعصية بين العرب والاتراك حملت بعض النواب العرب ، وفي طليعتهم طالب النقيب مبعوث بصرى ، وعبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الادبي ، الى الاتصال ببعض امراء الجزيرة العربية لطلب العون ، وقد رأوا فيهم البديل الوحيد للسيطرة العنصرية التركية »[1] وتطرق آخرون

(١) طلاس ـ الثورة الكبرى ـ ص ٦٨ .

للتأكيد على ان « الشباب العربي المناضل تحت ستار (المنتدى الادبي) اتصل حينئذٍ بالامام يحيى امير اليمن ، والامير سعود في نجد »[٢] .

فعلاً كان قياديو الحركة العربية في بلاد الشام يوسعون انظارهم باتجاه كل زعماء العرب في اي بقعة . فالدولة العثمانية لن تعمل ابداً على تنفيذ بنود مؤتمر باريس ، والتحالف العربي الخارجي خطير للغاية بل محرم امام مبادىء الامة .

ومع تطور الاحداث على الساحة الدولية من حرب عالمية وعلى الساحة المحلية من حملات القمع استمرت الاتصالات وتداخلت فيها وجوه جديدة بالاخص مع الشريف حسين .

وقد اثرت حملة الاعدام التي طالت كوادر عربية وعملية في نفوس معظم المواطنين وساعدت مباشرة في شد الروابط العربية ، خصوصاً ان حملة اعتقالات اخرى واسعة بدأت في صفوف المواطنين اسفرت عن صدور احكام الاعدام من جديد .

توفيق البساط : شهيد عاملي ثانٍ :

وشهدت ساحة المرجة بدمشق وساحة البرج في بيروت تنفيذ حكم الاعدام بحق المتهمين في السادس من شهر أيار ١٩١٦ أي بعد حوالى تسعة أشهر من تنفيذ الاعدام بالقافلة الاولى .

وضمت هذه القافلة الجديدة ضباطاً وادباء ورؤساء تحرير صحف وغيرهم ، وكان بينهم الضابط العاملي توفيق البساط .

درس توفيق البساط (١٨٩١ ـ ١٩١٦) في المقاصد الاسلامية في مدينة صيدا بوابة الجبل الشمالية ، ثم اكمل علومه واصبح ضابطاً ، وانتمى لاحقاً الى (جمعية العربية الفتاة) عام ١٩١١ وشارك في العام ١٩١٢ في تأسيس (جمعية نشر العلم) .

اقتيد المرحوم توفيق البساط مع الشباب العربي الى الديوان العرفي في عاليه ونفذ به حكم الاعدام في ٦ أيار ١٩١٦ في ساحة البرج بتهمة الانتماء لجمعية العربية الفتاة .

---

(٢) نفس المرجع السابق.

كمـا صـدر حكم بـالنفي الى بعلبـك بحق محمـد علي حشيشـو (١٨٨٢ - ١٩١٦) ، ثم نفى الى حمص حيث توفي هناك في ريعان شبابه .

لقد ساعدت عمليات الاعدام التي شهدتها دمشق وبيروت في التعجيل باندلاع شرارات الثورة ، فأثناء ورود خبر اعدام الشباب العربي اليه ، نزع الامير فيصل كوفيته عن رأسه وطرحها ارضاً وصاح : « طاب الموت يا عرب » .

مراسلات العرب - انكلترا :

مقابل كل هذا ، استمرت الاتصالات والمراسلات العربية - البـريطانيـة بعد ان كانت هذه المراسلات قد تطورت بين الشريف حسين وبريـطانيا بـواسطة منـدوبها في القاهرة السيد هنري مكمـاهون واستمـرت من ١٤ تموز ١٩١٥ الى ١٠ آذار ١٩١٦ ، حيث انهى مكماهون الاتصالات برسالته الاخيرة المؤرخة بذلك التاريخ وبالتأكيـد لم تسفـر هذه المـراسلات عن شيء ولم تفصـح عن النوايـا تجاه العـرب - كل مـا ارادته بريطانيا ، ان تقف الجماهير العربية بجانبها ، واعلان الحرب ضد الدولة العثمانية .

يضيق بنا المجال على هذه الصفحات في قراءة ونقد تلك المـراسلات ، هـذه الرسائل التي تبدي لقارئها ابعـاد الاطماع الاستعمـارية بـالولايـات العربيـة خصوصـاً بمنطقة الشام والتي تمثلت اخيراً بالاتصالات بين بريطانيا وفرنسا لاقتسام البـلاد والتي اسفرت عن توقيع معاهدة سايكس - بيكو التي قسمت الولايا العربية على اساسها .

الثـــورة العربية :

اجتمعت كل الظروف المؤاتية وبدأت تنبىء بقرب اندلاع الثـورة ، وكان شهـر حزيران وما رافقه من احداث هامـة على الساحـة ، قد بشّـر بهذه الانتفـاضة ، بحيث كانت الجزيرة العربية الارض الخصبة لاندلاعها .

فبعد عدة مناوشات حصلت متقطعة ، انفجرت الثورة في مكـة والطائف وجـدة في العاشر من حزيران ١٩١٦ الذي اعتبر يوم الثورة وانطلاقتها .

ومن البديهي ان تفاجأ الدولة العثمانيـة بمثل هـذا الحدث ، في وقت هي بغنى تام عن مثله ، خصوصاً مع تقدم العمليات العسكرية شمـالاً . وازاء الانتصارات التي حققتها الثورة مبدئياً ، اعلن تنصيب الشريف حسين ملكاً على العرب ، هذا الاعـلان

الذي اغاظ الدول الاستعمارية التي تراهن على هذه البلاد ، فاعترضت بريطانيا لذلك ، معترفة به فقط ملكاً على بلاد الحجاز . . .

رغم الرد البريطاني ، استمرت الثورة بسيرها بعد ان وقعت في مأزق النوايا الاستعمارية ، وبدأت تشهد مواضع ضعف وقوة وفق المساعدات البريطانية لها ، هذا في حين كان الشباب العربي في منطقة الشام يقاتل في صفوف الجيش العثماني منذ دخول تركيا الحرب ، وفي وقت كانت فيه البلاد تشهد موجة من الهلاك - جوع - فقر - امراض حتى اضحت القرى مسارح للموت ، لا اثر للحياة فيها . وتواصلت الى ذلك عمليات الثورة ، وفي تموز ١٩١٧ احتل ميناء العقبة ، فتوزع الثوار في عدة اتجاهات وفق فرق عسكرية . وفي التاسع من شهر كانون اول ١٩١٧ تمكنت الحملة البريطانية من احتلال القدس فيما تواصلت العمليات العسكرية للثوار شمالاً .

دخول دمشق وانتهاء القتال :

وفي صيف ١٩١٨ بدأت العمليات تشهد تغيراً ملموساً إثر التقدم الذي احرزه الثوار ، وايضاً امام الحملة البريطانية التي احتلت حيفا في ٢٣ ايلول ١٩١٨ وتابعت سيرها باتجاه دمشق فالتقى الجيش البريطاني والثوار العرب على تلالها عشية ٣٠ ايلول وفجر الاول من تشرين اول دخلت القوات العربية والبريطانية دمشق مع تراجع القوات العثمانية عنها باتجاه الشمال ، واكملت الحملة البريطانية سيرها شمالاً حتى آخر الشهر عندما وقعت هدنة بين الحلفاء والاتراك . وفتح العرب اثر ذلك صفحة جديدة من تاريخهم الحديث .

الباب الرابع

تحت لواء الحكومة العربية في دمشق

الفصل الاول

دخول دمشق

شكلت دمشق النقطة الاهم في مسيرة الثورة العربية ، حيث رأى الامير فيصل في احتلالها الهدف الرئيسي الواجب تحقيقه كثمرة ناضجة يحلو قطافها لتكون نقطة انطلاق للصفحة العربية الجديدة التي حلموا بكتابة سطورها .

وبجلاء القوات التركية عن المدينة ، بدأت شرارات الحركة العربية ، النتائج الايجابية للثورة ، تنطلق نحو باقي المدن الشامية الهامة واضحى الثلاثون من ايلول اليوم الحاسم في تاريخ تلك الحركة لتحقيق احلام الثورة الممتدة جذورها لتحركات القرن التاسع عشر . عشية ذلك اليوم كانت آخر قافلة من الجيش العثماني ترحل عن مدينة دمشق ، تاركة وراءها اصداء اربعمائة سنة خلت ومسطرة الخط الاخير للدولة العثمانية . وإذا كان هذا اليوم قد انهى الحكم العثماني في البلاد ، فقد أوجد على الساحة ولادة اول حكومة عربية في العصر الحديث . اما الحلم الذي راود الأمير فيصل لاعلان ولادة تلك الحكومة بصوته من دمشق فور دخوله اليها ، فقد سبقه اليه احد احفاد الامير عبد القادر الجزائري ، سعيد الجزائري وسيط العلاقات العربية التركية لآخر لحظة من الحرب ، الذي اعلن قيام مثل تلك الحكومة باسم فيصل المتواجد آنذاك بالقرب من المدينة .

ارسل الجزائري برقيات باسم الحكومة الى معظم المدن العربية في المنطقة يحث من خلالها قادة المدن على تشكيل ادارات محلية فيها باسم الحكومة العربية في

دمشق ، وذلك لادارة شؤون البلاد ريثما تنجلي الامور العامة .

هذا فيما واصلت القوات البريطانية (الحلفاء) زحفها ساحلاً باتجاه الشمال .

برقيات وتشكيل ادارة حكومية في الجبل :

ووردت إذ ذاك برقية من الامير سعيد الجزائري الى محمود الفضل في النبطية فيها تفويض بادارة الامور في المدينة وقضائها وهذا نصها : « بناءً على انسحاب الحكومة التركية قد تأسست الحكومة العربية الهاشمية على دعائم الشرف ، طمنوا العموم ، وعليكم ان تعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية .

في ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٣٦ هـ

الامير محمد سعيد رئيس الحكومة العربية»[1]

وتلبية لهذه البرقية شكل المواطنون في النبطية حكومة عربية رئيسها محمود الفضل وبدأت اعمالها مباشرة « وفي صيدا ألَّف الأهلون ادارة مؤقتة ورفعوا العلم العربي ، ثم وصل مندوب الحكومة العربية قادماً من دمشق على رأس ٥٠ رجلاً ، وحدث الامر ذاته في اللاذقية وفي طرابلس وصور وبقية المدن الساحلية »[2] . وانتخب رياض الصلح رئيساً لحكومة صيدا في حين « تشكلت حكومة صور برياسة الحاج عبد الله يحيى خليل »[3] . اما في بلدة مرجعيون فقد « دعا مراد غلمية اعيان البلاد وذوي الكلمة المسموعة لاجتماع في دار البلدية حيث تألفت حكومة مؤقتة من ١٢ عضواً وتم تعيين ٥٠ دركياً و٥٠ شرطياً امروا بتفريق الجموع والمحافظة على الامن »[4] . واثناء مروره في النبطية استقبل شكري الايوبي ومرافقوه بحفاوة وتظاهرة حماسية ثم اكمل طريقه الى بيروت بأمر من فيصل لاستلام زمام الامور فيها .

وهكذا عمَّت الفرحة معظم المدن السورية التي استقبلت نجاح الثورة ان جاز التعبير بالحماس والارتياح .

---

(١) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ٢٢١ .

(٢) سليمان موسى ـ الحركة العربية ـ مرجع سابق ص ٣٩٨ .

(٣) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ـ ص ٢٢٣ .

(٤) عدة كتّاب ـ من دفتر الذكريات الجنوبية ـ دار الكتاب اللبناني ـ ١٩٨١ ص ٩٣ . الفرد ابو سمرا .

كان الامير قد دخل دمشق في الثالث من تشرين الاول وسط ترحيب جماهيري لا مثيل له وقتها ، وتسلم زمام الامور وبدأ اتصالات مباشرة مع زعماء البلاد ، « وفي الخامس من تشرين الاول شكّل الامير فيصل (حكومة عسكرية عربية) في دمشق »[٥] .

وأمام هذه التحركات الطبيعية بالنسبة للمواطنين ، نظرت العيون الفرنسية بقلق واضطراب ازاء كل ما جرى في سوريا خصوصاً ما يجري في بيروت ، فالاتفاقيات السرية المعقودة بين فرنسا وبريطانيا والتي كشفت الثورة الروسية عن احداها ـ معاهدة سايكس بيكو ـ تمنح السلطات الفرنسية السيطرة على المنطقة السورية باستثناء فلسطين ، هذه العيون الفرنسية لم تكن الا السفن الراسية في ميناء بيروت والتي تنتظر قدوم الحملة البريطانية للمدينة ، حتى اذا ما وصلت هذه الاخيرة مارّة بصور وصيدا في الثامن من الشهر ذاته نزلت القوات الفرنسية في الميناء واجرت بالتعاون مع الجنود البريطانيين تعديلات هامة ومفاجئة ، عندما طلب قائد القوات البريطانية من الايوبي انزال العلم العربي والانسحاب من بيروت إلّا أن الايوبي رفض الطلب بشدة واستمر يعمل وفق صلاحيات الحكومة العربية في دمشق .

وفي ذات الوقت عيّن الجنرال اللنبي الكولونيل الفرنسي دوبياباب حاكماً عسكرياً للمنطقة الغربية والتي حملت هذا الاسم وفقاً للتقسيمات الادارية الواردة في اتفاقية سايكس بيكو السرية .

شكّل هذا العمل المفاجىء صدمة عنيفة للامير فيصل ولكل الجماهير ، فقدم اثرها احتجاجات عدة للسلطات البريطانية ، دون ان يلمس رداً صريحاً ، بل كان الجواب على ذلك : انتظار مؤتمر الصلح الذي سيبحث في قضايا ونتائج الحرب .

كان الجواب على ما رأينا ، اما في الواقع فالأمر لم يكن إلّا تجسيداً لمبادىء الاتفاقات والعهود بين فرنسا وبريطانيا ، اللتين عملتا من اليوم الاول لانسحاب الاتراك على البدء بتقسيم البلاد واقتطاعها وفق عهودهما ، فلا مؤتمر الصلح ولا الاحتجاجات ستغير مجرى الاحداث ، كل شيء مضى ، والكرة في ملعب الحلفاء .

---

(٥) زين زين ـ الصراع الدولي ـ مرجع سابق ص ٨٢ .

تظاهرة عاملية الى دمشق :

وإضـافة لتشكيـل ادارات محلية في مـدن جبل عـامل صيـدا وصـور والنبـطيـة ومرجعيون عبرت الجماهير العاملية عن تأييدها المطلق لقرارات الحكومة العـربية في دمشق في التظاهرة الوطنية التي عمل على قيامها السيد محسن الامين .

يـومهـا « تشكـل مـوكب وطني يضم مئـات الفـرسـان العـامليين في طليعتهم علماؤهم وزعماؤهم ، وسارت هذه المظاهرة الفريدة ، مظاهرة الفرسان تخترق البلاد يتقـدمها علم عـربي بالـوانه الاربعـة ، ويهزج رجـالهـا اهـازيـج الفـروسيـة العـربيـة الاستقلالية منتخين على ظهور الجياد ، جـادين في الفلوات ملفتين انظار الـدنيا كلهـا اليهم حتى وصلوا دمشق ، وكـان السيد محسن الامين قـد استغـل مـا لـه من أثـر في دمشق فأوحى بأن تكون الحفاوة بالركب العـاملي حفاوة تليق بـالمناسبـة التي جاء من اجلها ، فهبت دمشق تستقبل العامليين استقبالاً لا نظير له وتكرمهم اجمـل التكريم ، وعـرف العامليـون انهم يحلون بين اخوانهم واحبـائهم فازدادوا حمـاسة »[٦] وان دلّت هذه التظاهرة على شيء فانها تدل على الثقة المطلقة التي منحها العـامليون للحكـومة العربية بتعبير حي عن الشعور الواحد مع ابناء البلاد الواحدة .

---

(٦) حسن الامين ـ من دفتر الذكريات الجنوبية ـ مصدر سابق ص ١٣ .

الفصـــل الثـانـــي

الاحتلال الغربي لمدن الساحل

أرادت فرنسا في احتلالها لبيروت وطرد ممثل الحكومة العربية فيها وانزال العلم العربي ، الرمز الأول للثورة ، اثبـات حكمها على الارض وكشف نـواياهـا التوسعيـة الاستعمارية في المنطقة تجسيداً لمبادىء سايكس بيكو .

شكلت بيروت آنذاك النقطة الاساسية لانتشار الغزو الفرنسي على معـظم البلاد السورية بدءاً من الساحـل . فقد ارسلت القـوات الفرنسيـة عقب احتلالهـا لبيروت ، ضبـاطاً وعسكـريين عناصـر لها ، لاستـلام باقي مـدن الساحـل السوري ، هـذا أمام السكوت البريطاني الراضي عن كل الاجراءات والتصرفات الغربية بـالنسبة للجمـاهير العربية وعلى رأسهم فيصل الذي لن يستطيع الاقـدام على اي عمل سـوى الاحتجاج الفارغ . وتلبية لمـطامع الاحتـلال ، أرسل الفـرنسيون عنـاصر الى مـدن جبل عـامل لاستلام زمام الامور ، والقضاء على الرموز المؤيدة للحكومة العربية بدمشق ، وعينوا الضابط « فيجل » حاكماً لصيدا ومديراً لحكومتها .

ولادة النضال العاملي :

اعطى العامليون ولاءهم التام للحكومة العربية في دمشق ، وعبَّروا عن ذلك في اكثر من موقف على ما رأينا من تأسيس حكومات محلية وارسال برقيات تأييد ومظاهـرة شعبية الى دمشق .

فاجأ التصرف الفرنسي العدواني في بيروت الجماهير العاملية ، التي استعدت امام ظهور الاطماع الاستعمارية لاي طارىء قد يحدث في البلاد ، هذا امام السكوت البريطاني والضعف العربي العام .

لم تكن الساحة العربية تسمح بأي عمل عسكري في البلاد ، فالمنطقة خارجة من ركام حرب عالمية ، والمفاجآت الفرنسية (الاحتلال) والانكليزية (السكوت) جاءت سريعة بحيث لا يمكن القيام بأي دور ازاءها ، خصوصاً ان الحكومة العربية في دمشق وعلى رأسها فيصل بن الحسين بالذات لا تملك أي امكانية بالتصدي لمشروع كبير كالذي فاجأ الساحة ، وهذا ما اجبر كل منطقة على الانفراد وحدها بالتصرف ووفق امكانياتها المحدودة .

وللتأكيد على مساندة الوحدة العربية والحقوق المشتركة مع الجماهير العربية كان لا بدَّ من ان يجسد العامليون تمسكهم بالقضية من خلال التصدي المباشر وقدر المستطاع لمشاريع الاحتلال الفرنسي .

ظهر التمرد العاملي ، كأول تصدٍ للمشروع الفرنسي الانكليزي القاضي ببسط السيطرة الفرنسية على سوريا في المناوشات التي قام بها الشباب الثائر اثناء ارسال الجنود الفرنسيين لاحتلال مدن الساحل العاملية .

فقد « رافق وصول الضباط الفرنسيين الى صور وصيدا واماكن اخرى لتولي مناصب الحكام العسكريين او قادة المدن اضطرابات صغيرة اثارتها العناصر القومية العربية »[1] .

ووفق هذه الشهادة لموظف وباحث بريطاني في المنطقة ، يسجل جبل عامل السطر الاول لحركات المقاومة في وجه الطروحات الاستعمارية التي ظهرت في المشرق العربي ، بحيث اصبحت هذه الانتفاضة الشرارة الاولى للثورة داخل الجبل .

---

(١) ستيفن هامسلي لونغريغ ـ تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ـ دار الحقيقة ـ بيروت ـ ١٩٧٨ ـ ص ٨٨.

تدابير فرنسية سريعة :

ومن المدهش وقتها ، ما بدأت به العناصر الفرنسية التي وصلت مدن الجبل من تحرك قمعي ضد الجماهير الشعبية وممثلي الحكومة العربية ، كما حصل سابقاً في بيروت ، وسعت من وراء هذه السياسة ، الى بسط سيطرتها بأسرع ما يمكن ، في ظل الوهن والضعف العربيين .

فور وصوله الى مدينة صيدا مع القوات الفرنسية ، بدأ الكولونيل (فيجل) الحاكم العسكري ممارسة سلطاته بسرعة مدهشة ، عندما ابعد عناصر واعضاء الحكومة في المدينة عن مناصبهم .

وفي مدينة النبطية التي عقد فيها اعيان المنطقة اجتماعاً موسعاً للتباحث في عدة قضايا وامور محلية فوجىء المجتمعون والأهالي بوصول فرقة عسكرية فرنسية بأمر من فيجل ، نشرت اعلاناً في الساحة العامة ونصه : « باسم القائد العام لجيوش الحلفاء الثلاثة انكلترا وفرنسا والشرفاء يمنع الاجتماع العام والمظاهرات السياسية من أي نوع كانت ومن خالف ذلك عدَّ مسؤولاً ومستهدفاً للجزاء .

١١ تشرين الاول ١٩١٨ باسم الحلفاء الثلاثة

حاكم صيدا العسكري ـ فيجل »(٢)

ونشروا مثله في صور ومرجعيون وقبلها في صيدا .

ان مثل هذا العمل المفاجىء الذي اذهل العامليين الذين رأوا بانتهاء الحرب ، تحقيقاً لأهدافهم وطموحات الثورة العربية ، سيؤدي حتماً لمضاعفات غامضة ، لن توضح صورته الا مع مشاريع التجزئة للمنطقة .

وامام التحركات العاملية المستمرة ، اتبعت السلطات الفرنسية بيانها الاول ببيان ثانٍ ، نشر في الرابع والعشرين من تشرين الاول في كل من النبطية والطيبة بنص :

---

(٢) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ٢٢٤ .

« يمنـع الاجتماع والمـداولة في صيـرورة البلاد العـائد حـل قضيتهـا للحلفـاء الثلاثة .

حاكم صيدا العسكري ـ فيجل »[٣]

كان الحلفاء يعملون وفق مخططاتهم الاستعمارية ومواثيقهم ومعـاهداتهم وهي ليست بحاجة لأخذ رأي لا فيصل ولا جماهير العرب في أي حل لقضيتهم .

قبل انتهاء الحـرب ، وبالتحـديد يـوم بدأت الثـورة العربيـة تقطف ثمـار النصر وتضعه في سلة الحلفاء سعى هؤلاء لاعـطاء الوعـود الكاذبـة لدفـع العرب تحت ظـل القيادة المغبونة بمواصلة الحرب حينها ، خصوصاً مـع ورود انباء عن امكـانية معـاودة اللحمة بين العرب والترك ظهرت بـوادرها في الشمـال ، وهذا مـا عجل على اطـلاق وعـود الحلفاء الكـاذبة للعـرب ، ففي كانـون الثاني عـام ١٩١٨ اصدرت الحكـومـة البريطانية وعداً تقول فيه :

« ان القـوة المتحالفـة مصممة على ان تعـطي الجنس العـربي جميـع الفـرص الكاملة لكي يكون امة واحدة في العالم ، وان هذا الهدف سوف لا يتحقق الا بـاتحاد العرب فيما بينهم ، وان بريطانيا وحلفاءها سوف يتبعون سياسـة هدفهـا الاخير تحقيق هذه الوحدة »[٤] .

هذا قبل الانتصار العام للحلفـاء في الوطن العـربي ، وبالتحـديد في سـوريا ، ولكن نراهم نكثوا العهود بعد الهزيمة التركية ، مع بقاء العـرب وحدهم على السـاحة يتخبطون في المشاريع الخطيرة والممارسات الغريبة منتظرين الامل الضائع في اروقة مؤتمر الصلح في فرساي .

---

(٣) محمد جابر آل صفا ـ نفس المرجع ص ٢٢٤ .

(٤) احمد سعيد ـ القومية العربية ـ ثورة وبناء ـ القاهرة ١٩٥٩ ص ٤١ .

الفصـــل الثالـث

القضية العربية على الساحة الدولية

أمام معظم الاحتجاجات التي قدمها فيصل تجاه التصرفات الفـرنسية المفـاجئة وطبعاً بموافقة بريطانيا كان الرد الاخير والوحيد انتظار مؤتمر الصلح العام الذي سيعقد في فرنسا ، للنظر في امور البلاد التي سقطت بايدي الحلفـاء وهي اراضي العدو على حد تعبير السياسة التحالفية آنذاك .

وأمام الانتظار الفيصلي لهذا المؤتمر المعـروفة نتـائجه ، بـدأت قيادات عـربية اتصالات ناشطة لبحث القضايا المصيرية في البلاد .

وحتى مجيء موعد السفر الى اوروبا ، استغل الامير فيصل الوقت بزيارات قام بها الى المدن العربية المنتشرة في المنطقة ، فزار حلب وطرابلس وبيروت ، ثم عـاد الى دمشق فبيروت عندما حان موعد السفـر الى اوروبا بحيث سيكـون الممثل لـوالده الشريف حسين في المؤتمر .

كـانت مرسيليـا المحطة الاولى في زيـارة فيصل لاوروبـا ، وامام انـزعـاج السلطات الفرنسية لهـذه الزيـارة ترددت في استقبـاله رسميـاً حتى السابـع من كانـون الاول ، عندما استقبله الرئيس الفرنسي بوانكريه في قصر الايليـزيه ومكث فيهـا حتى التاسع من الشهر حيث غادر العاصمة الفرنسية متـوجهاً الى لنـدن . وخلف تحركـات فيصل البروتوكوليـة بين فرنسـا وبريـطانيا ، كـانت الاخيرتـان تجتمعان لتـدارس امور

البـلاد التي احتلت ، وتعديـل بعض بنـود الاتفـاقـات المعقـودة بينهمـا ، خصـوصـاً اجتماعات كليمنصو ولويد جورج .

لم يشكل تواجد فيصل اي جديد او ثقـل على مجرى الاحـداث وأهمها وضـع البلاد السورية والقضية العـربية ، فكـل الامور متفق عليهـا ، ومؤتمر الصلح لن يـأتِ بـأي جديـد ، بل كـل ما في الامـر تصديق الاتفـاقات وإعـلام ممثلي الـدول بمصيـر بلادها .

في مؤتمر الصلح :

مكث فيصـل في بريـطانيا حتى السـابع من شهـر كانـون الثاني ١٩١٩ ثم عـاد بعدها الى فرنسا لحضور مؤتمر الصلح في فـرساي ـ كشـاهد طبعـاً ـ الذي افتتـح في الثامن عشر من الشهر ذاته .

وفي مجمل ما قدم من طروحـات للمؤتمر ، قـدم فيصل مـذكرة العـرب الاولى شرح فيها امـاني العرب من انشـاء دولة عـربية واحـدة ملقياً الضـوء على سوريـا التي « بلغت مـرتبة حسنـة من النضج السيـاسي بحيث انهـا تستـطيـع ان تصـرف شؤونهـا الداخلية »[1] ثم أرفقها بمذكرة ثانية في التاسع والعشرين من الشهر ذاته .

وفي اليـوم السادس من شهـر شباط سمـح لفيصل بعـرض القضية العـربيـة في المؤتمر ، فأشار الى الدولة العربية التي حلم بانشـائها العـرب ، وفي مذكـرته الثـانية طـالب الحلفاء الاعتـراف « بان تكـون الشعوب النـاطقة بـالعـربيـة في آسيـا من خط الاسكندرونة ـ ديار بكر حتى المحيط الهندي جنوباً معترفاً باستقلالها وسيادتها بضمان من عصبة الامم »[2] .

في الثالث عشر من شباط فُتح ملف سوريا ، وتطورت وتشعبت القضية العـربية عندما سمح لشخصيات عديدة وطبعاً وفق لعبة فرنسية انكليـزية مـدروسة ، بـالتحدث عن الوضع العربي العام والخاص مما أضعف القضية العربية وعقّدهـا ، فتكلم رئيس الجامعة السورية (الاميركية) الدكتور هوارد بلس عن الوضع العام في سوريا وحسب

---

(١) زين زين ـ الصراع الدولي ـ مرجع سابق ص ١٠٢ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٠٣ .

ما عاصره ، واهم ما جاء في خطابه دعوته لارسال « لجنة حيادية مختلطة تمثل الحلفاء الى سوريا لتفسح المجال امام الاهلين في سوريا ، وفي لبنان ايضاً ، للتعبير وبحرية ودون أي عائق عن وجهات نظرهم السياسية وعن امانيهم بالنسبة الى نوع الحكم الذي يرغبون فيه ، وبالنسبة الى الدولة الحامية المنتدبة اذا شاؤوا ذلك »(٣) .

ان هذا الطرح انما هو انعكاس لطموحات الولايات المتحدة الاميركية التي افصحت عنه على لسان احد مواطنيها ، ممن لهم خبرة وعلاقة مع أهالي البلاد ، لتمرير مشروع استعماري وفق سياستها الحيادية . وسوف نرى لاحقاً نتائج مثل هذا الخداع ، ما سيؤول اليه الموقف العربي عندما سيحاول فيصل اصلاح غلطة ابيه من تبعية لانكلترا الى تبعية للولايات المتحدة ، هذا امام فكي انكلترا ذاتها وفرنسا القابضتين على المنطقة العربية بالفخ المهيىء الا وهو الانتداب .

ثم سُمح لاحد مواطني جبل لبنان ، ممن قضوا معظم حياتهم في فرنسا بابداء رأيه فتحدث شكري غانم في كلمته عن جبل لبنان معتبراً الامير فيصل مسؤولاً عن الجزيرة ، ولا يحق له التحدث باسم كل العرب . اما في الخامس عشر من الشهر فقد سمح للوفد اللبناني الذي زار باريس بعرض مذكرة تتضمن الطلب بانشاء دولة لجبل لبنان بحيث تضم اليه مناطق جديدة بما فيها جبل عامل .

هكذا عمل الاستعمار على تمزيق القضية العربية فعرف من خلال تعدد الكلمات والطروحات المتفرقة كيف يستغل الظروف ضد كل مشاريع الوحدة التي ستطرح على الساحة .

وهكذا اسفرت تعددية الآراء الى تعقيد القضية العربية ، وخلق جو من الملل ولم تسفر الاتصالات التي اجراها فيصل مع الوفد العربي عن أي تصحيح في مسار القضية ، رغم انه بقي في اوروبا حتى نيسان . وشهدت سوريا في غياب الامير فيصل تطورات هامة ، امام تحركات العدو المشبوهة .

ومع عودته في نيسان ١٩١٩ وجد فيصل نفسه عاجزاً في التوفيق بين مطالب العرب القومية واطماع الاستعمار الغربي الذي لمس مقدماته في اوروبا .

---

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٠٤ .

وكإفراز للواقع المرير الذي لمسه المواطنون ، ولدت حركات التمرد على اشكال عصابات مسلحة في المناطق المحتلة الغربية ، ساعد على دعمها المواطنون في البلاد ، هذا فيما استمر الوضع الاداري على حاله حتى عودة فيصل ، الذي اجرى فور وصوله اتصالات عدة مع القيادات عندما شجع حملة صحفية التطوع والتجنيد الاختياري . ويذكر تقرير ضابط الاتصال البريطاني في دمشق في ١٦ مايو (أيار) « ان فيصلاً قد طلب الموافقة من القائد العام على تجهيز جيش قوامه (١٤٠٠٠) جندي يتمكن به من محاربة فرنسا عند الضرورة . . . فالشعور ضد فرنسا قوي بين الناس »[٤] .

ويبدو ان فيصل من خلال تصرفاته كان على علم وافٍ بالضعف العام في صفوف العرب ، هذا مع تحمله الغلطة الكبرى التي رمته في احضان الاستعمار بلا شعور ، وهو غير قادر على الاتيان بأي عمل طالما له ارتباطات مع اي دولة من الحلفاء خصوصاً بريطانيا التي تحاول المراوغة بالامور لتمرير مشاريعها الاستعمارية .

بدا على الساحة ، ان الكفاح المسلح هو الرد الطبيعي والبديل عن كل ألاعيب الغرب التي بدأ بممارستها خصوصاً مع فرنسا .

اما انكلترا فانها لم ولن تدافع عن بعض الحقوق العربية تجاه الاطماع الفرنسية ، الا لتحطيم نفوذ الأخيرة وكسب ارباح اكثر امام التضحيات التي قدمها البريطانيون والتي حسب رأيهم تفوق تضحيات فرنسا في الحرب .

وهكذا اضحى فيصل حائراً بين اطماع حلفاء والده وبين حقوق العرب المشروعة .

التحضير للمؤتمر السوري العام :

وامام التناقضات التي ظهرت على الساحة السورية وجد الامير فيصل الحل في عقد مؤتمر عام ، تدرس فيه شؤون البلاد ، كأفضل حل يجمع آراء الرجالات

---

(٤) خيرية قاسمية ـ الحكومة العربية في دمشق ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ ط ٢ ـ ١٩٨٢ ص ١٠٤.

والجماهير العربية والخروج بمشروع وحدوي يعرض بنوده كوثيقة على اللجنة الدولية التي تقرر تشكيلها من دول الحلفاء هذا في حال مجيئها للبلاد .

في خطاب القاه في الرابع عشر من شهر ايار ١٩١٩ اشار فيصل الى ان « تأسيس مجلس منتخب من كافة المناطق السورية يكون الوسيلة الوحيدة لاقناع اللجنة الدولية بشرعية المطالب العربية »(٥) .

وبعد عدة اتصالات اجراها مع اعيان البلاد ، تقرر عقد مؤتمر وطني عام تشارك فيه معظم رجالات البلاد السورية الخاضعة لادارة الحكومة العربية والمناطق المحتلة .

ولتدارك الوقت ، ولبحث الامور والاجماع على رأي واحد امام اللجنة الدولية التي اقترب موعد وصولها ، اجريت في البلاد انتخابات سريعة للتمثيل في المؤتمر السوري العام ، واكتفت المناطق المحتلة بارسال وفود تمثل المواطنين للمشاركة باسمها .

المشاركة العاملية في المؤتمر :

وفي المنطقة الغربية ، تشكّل وفد مشترك من جبل عامل وبيروت وأقضيتها ، حيث ضم سبعة ممثلين :

« رضا الصلح ، جورج حرفوش ، عبد المحسن صادق(٦) ، فريد كساب ، رياض الصلح ، عفيف الصلح ، مراد غلمية »(٧) .

مع حضور ممثلي المناطق السورية ، التأم المجلس ، وعقد اول جلسة له في الثالث من حزيران ١٩١٩ بحضور ٦٩ مندوباً من اصل ٨٥ .

شكلت المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الامم ، القاضية بالانتداب ، المحور الرئيسي في محادثات المؤتمر حيث رفض المؤتمرون بالاجماع هذه الفكرة ، فيما اقر المؤتمر افضلية طلب المساعدة من الولايات المتحدة في حال الحاجة اليها ، واجمع

---

(٥) نفس المرجع السابق ص ١٠٨ .

(٦) هو الشيخ عبد الحسين صادق.

(٧) يوسف الحكيم ـ سوريا والعهد الفيصلي ـ دار النهار للنشر ـ بيروت ١٩٨٠ ص ٩٣.

المؤتمرون على رفض التواجد الفرنسي المطلق على الساحة ورفض أي مساعدة من طرفها ، مع نصب العداء التام لهذه الدولة « كما أصروا على أن يكون فيصل ملكاً على البلاد السورية باجمعها لانه يحوز ثقتهم ويجاهرون بالاعتماد عليه »[8] .

وسوف يظهر جلياً في مقررات المؤتمر ، انحياز فيصل عن مبادىء الثورة العربية الكبرى التي كانت تهدف الى بناء الدولة العربية الموحدة بعكس ما اقره من خصوصيات تجاه سوريا .

مبايعة عاملة لفيصل :

واثناء سير أعمال المؤتمر ونقاشاته عبر احد ممثلي جبل عامل الشيخ عبد الحسين صادق عن التأييد الواضح لقرارات المؤتمر ومواقف اعضائه عندما هتف امام فيصل قائلاً : « اني باسم جبل عامل ابايعك على الموت، فرد فيصل: لم يحن زمن المبايعة »[9] .

لجنة كنج ـ كراين :

رفضت بريطانيا وفرنسا المشاركة في اللجنة الدولية التي قرر مؤتمر الصلح ارسالها الى سوريا للوقوف عند آراء مواطنيها تجاه قضية الانتداب وشكل الحكم الذي يفضلونه .

وعرفت فرنسا آنذاك النقمة الجماهيرية على سياستها ، فيما اضطرت بريطانيا الوقوف بجانب حليفتها طبقاً للاتفاقية المعقودة بينهما .

وامام الرفض الفرنسي ـ البريطاني ، بقي على الولايات المتحدة وحدها تشكيل هذه اللجنة ، خصوصاً ان اطماعاً جديدة بدأت تراود رجالها في المنطقة .

وفعلاً تشكلت لجنة اميركية عرفت بلجنة كنج ـ كراين ، التي وصلت يافا في العاشر من شهر حزيران واجرت هناك تحقيقات مع المواطنين ، ثم جاءت جبل عامل واجرت الاستفتاء نفسه انما بطريقة مختلفة نظراً لخضوعه للاحتلال الفرنسي . بعدها

---

(٨) خيرية قاسمية ـ مرجع سابق ص ١١١ .

(٩) قدري قلعجي ـ جيل الفداء ـ قصة الثورة الكبرى ونهضة العرب ـ دار الكاتب العربي ـ دون تاريخ ص ٣٠٠.

وصلت دمشق في ٢ تموز ١٩١٩ وباشرت مهمتها ، ثم قدم لها المؤتمر السوري العام عريضة من عشرة مبادىء تلخصت بطلب الاستقلال التام لسوريا مع اعلان الحكم الملكي فيها تحت لواء فيصل والاحتجاج على مبدأ الانتداب ، وفي حال فرض الانتداب على البلاد تُفضل اميركا ثم بريطانيا مع الرفض المطلق لانتداب فرنسا ، ورفض الهجرة الصهيونية الى فلسطين وانشاء وطن قومي لهم ، وطلب استقلال القطر العراقي واخيراً السماح لسوريا بالمشاركة بمؤتمر الصلح .

جبل عامل واللجنة الاميركية :

اتخذت فرنسا اجراءات عدة قمعية وسياسية ، للحؤول دون وصول اللجنة الاميركية للبلاد ، خصوصاً لقاء العاملين بها مع زعماء المنطقة الغربية المحتلة ، وحاولت « الحصول على مظاهر التأييد للانتداب الفرنسي بالدعاية المباشرة او عن طريق الموظفين او بنشر مقالات موجهة في الصحف او القيام بمظاهرات منظمة او بالتهديد والرشوة والسجن والتسريح ، ومنع الافراد المناوئة من الوصول الى اللجنة »[١٠] .

اثر انتهائها من استفتائها في فلسطين ، وصلت اللجنة الاميركية الى صيدا واتخذت البلدية مقراً لها وبدأت الوفود ترد صيدا لتقديم عرائض ووجهات نظر للجنة .

ضم الوفد العاملي حوالي المئة شخصية « وقد صرحوا كلهم بلسان واحد برفض الانتداب الفرنسي والانضمام للوحدة السورية ، وطلب الاستقلال التام الناجز تحت لواء جلالة الملك فيصل الاول ملك سوريا »[١١] .

وانتدب الوفد العاملي الشيخ حسين مغنية والسيد عبد الحسين شرف الدين للتكلم باسم العامليين امام اللجنة ، فبعد المقابلة مع مندوبها دار حديث بينه وبين السيد عبد الحسين شرف الدين الذي يقول بشأنه : « افضيت خلاله بتصوير رغبات الامة وامانيها في الوحدة السورية بحكومتها الدستورية ، وان يكون على رأسها الامير

---

(١٠) خيرية قاسمية ـ مرجع سابق ص ١١٧ .

(١١) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ٢٣٠ .

فيصل ملكاً ، رفضت ان يكون لاية دولـة اجنبية حكم »[١٢] . بعـد ذلك قـدمت وثيقة باسم جبل عامل موقعة من قبـل رجالاتـه جسدت آمـال ومبادىء الثـورة العامليـة تجاه القضية العربية الواحدة .

والمذكرة العاملية هي التالية :

« سعـادة المستـر كـراين رئيس لجنـة الاستفتـاء الاميـركيـة المحتـرم ، ســلام عليكم ، شعباً صدع رئيسه بمبادىء الحرية ، وتحية لكم تقرنون الفعل بالقول ورحمة الله .

امـا بعد ، فـاني اؤكد الحـديث الذي ادرتـه واخي الامام الشيـخ حسين مغنيـة واسجل في هذه الوثيقة خلاصة الرأي الذي ادلينا به عشية الاجتماع ، منعـاً لكل لبس لدى المترجم ودفعاً لأي دس من الذين يحرفون الكلام عن مواضعه ، واليكم ذكراً في هذه البنود :

ـ **أولاً** : لا نرضى بغير استقلال سوريا الناجـز بحدودهـا الطبيعيـة ، التي تضم قسميها الجنوبي (فلسطين) والغربي (لبنان) وكل ما يعرف ببر الشام دون حمـاية أو وصاية .

ـ **ثـانياً** : تكـون الحكومـة ملكية ، ذات عـدالة ومسـاواة ، يستوي فيهـا جميع الناس كافة في الحقوق والواجبات .

ـ **ثالثاً** : الامير فيصل هو مرشح العرب الطبيعي لملك سوريا ، لما له من جهاد في سبيل القضية العربية ، ومن عبقرية سياسية وخلقية تؤهلانه لتسلم هذا العرش .

ـ **رابعاً** : لا حقَّ لما تدعيه فرنسا في اي بقعة من سوريا ، ولا نقبل اي مساعدة منها .

ـ **خامساً** : اذا كان لا بد لسوريا من مساعدة ، فـان الرئيس (ولسن) فتـح بابـاً معقولاً لطلب المساعدة من امريكا ، وذلـك باعـلانه ان القصـد من دخول الحـرب ، انما كان للقضاء على فكرة الفتح والاستعمار .

هذا وان المبادىء الكريمة التي اعلنها رئيس بلادكم ، تحملنا على الثقة في ان

---

(١٢) عبد الحسين شرف الدين ـ مجلة الالواح ع ١٤ ـ ص ٦ .

مـطالبنا المشـروعة هـذه ، ستكون هي المعتمـدة لتقريـر مصيـرنـا ، لانهـا من ضمن المبادىء التي نصَّت عليها مبادئه السامية . .

وتفضلوا بقبول الاحترام
٥ شوال ١٣٣٧ »(١٣) .

وهنا يلاحظ التقارب الكبير بين مذكرة المؤتمر السوري التي قـدمت للجنة وبين المذكرة العاملية مما يؤكد وحدة الموقف في وجه مخططات فرنسا وانكلترا وحلفائهمـا في المنطقة .

واثبتت المذكرة العاملية ، الوثيقة التاريخية الهامة في تـاريخ النضـال العربي ، ولاء جبل عامل التام للوحدة العربية وإن كانت على شكـل الوحـدة السوريـة آنذاك ، وأيدت ترشيح فيصل بن الحسين ملكاً على سوريا ، ولهذا التـرشيح ابعـاد كثيرة . . . فالاطماع الاستعمارية الغربية بدأت تحدق مسرعة ، مهرولة نحـو الاراضي العربيـة ، فجـاءت المذكـرة ضربـة طاعنـة لقوات الاحتـلال التي راهنت على عـدة شخصيـات اقطاعية وباءت احلامها بالفشل ، وجاءت تحـدياً ورداً على سيـاستها الاستعمـارية ، خصوصاً انها حاولت منع الوفد العاملي من مقابلة اللجنة ، وفشلت بذلك .

وفي المنطقة لم تكن آراء ومبادىء جبل عامل وحدها الـرامية والـداعية للوحـدة بل جاءت كل آراء المواطنين امام اللجنة مطابقة لمبادىء المؤتمر السوري .

وبعد رحيل اللجنة الدولية ، بدأ الجو العام يتلبـد بالغيـوم امام الاشـاعات التي بدأت تظهر على صفحات الجرائد والمجلات ، والتي ستتجسد واقعياً بعد اشهر على ارض المنطقة وكلها تنبىء بحدوث امر هام .

وشهـد الوضـع في صيف ١٩١٩ ، اضافـة لقرارات المؤتمـر السوري العـام ، اعمال مقاومة ومظاهـرات شعبية ومنـاوشات وتحـركات ثـورية خصـوصاً في المنـطقة الغربية المحتلة التي بدأت تشهد ولادة حركات تصدٍ ومقاومة . كما بدأت حملة تطوع شاملة في انحاء البلاد ، تحسباً لأي طـارىء ، وفي تقريـر ارسله الكولـونيل Meinert Zhagan الذي خلف كلايتـون ، ومرسـل الى لندن بتـاريخ ٣ سبتمبـر (ايلول) ١٩١٩

(١٣) حسن محمـد سعد ـ جبـل عامـل بين الاتـراك والفـرنسيين ـ دار الكـاتب بيـروت ١٩٨٠ . ص ٥٥ ـ ٥٦ سيشار للمرجع بـ: سعد ـ جبل عامل .

اشـارة الى ذلك « ان فيصـلاً يشجع على حـركة التـطوع لتقويـة قضيته امـام حكـومـة جلالته . . . وان القائد العام قد ابرق اليه يعلن عدم موافقته على الحركـة لانها تخلق تأثيراً غير مستحب في اوروبة . . . وتضر بقضية الحلفاء . . . وهو يأمل من فيصل ألاّ يعتمد عليها وان يستخدم نفوذه ضدها »(١٤) . وامام كل هذه التطورات التي لم تسفـر عن اي نصر في جانب القضية العربية ، قدمت بـريطانيـا حليفة الشـريف حسين دعوة الى ولده فيصل لـزيارة اوروبـا للبحث في شؤون البلاد المحتلة ، والتي لن تكـون إلاّ مماطلة بالمطالب المشروعة للعرب . ونـظراً لأطماع فـرنسا ، فقـد عمدت بـريطانيـا بالذات الى اصـدار قرار يقضي بسحب قـواتها من سـوريا ، تسهيـلاً لدخـول الجيش الفرنسي ، مبديـة سياستهـا الخداعيـة التي لعبتها مـع العرب حتى مـررت مشاريعهـا الاستعمارية . وهكذا صار العرب وحدهم منفردين امام تعديات فـرنسا ، التي بـدأت مشروعها الاستعماري .

فيصل في اوروبا :

وصل فيصل خريف ١٩١٩ اوروبا في وقت انهى مؤتمر فرساي مناقشته للقضية العربية سرياً ، وزيارة فيصل لاوروبـا لن تؤثر ابـداً على قرارات المؤتمـر ، بل كـل ما ارادوه من وراء زيارته تصديقه على مقررات المؤتمر .

وحـاول فيصل في اوروبـا ابداء رأيـه تجـاه مشـاريـع الـدولتين الاستعمـاريتين معارضاً المقررات الخطيرة محتجاً بوثائق ثبوتية ، الا ان كل محاولاته باءت بالفشل .

امام تحركاته البائسة في لندن قرر فيصل زيارة باريس للتباحث مع كليمنصو في الشؤون السورية ، وشكلت فرنسا محطته الاخيرة ، ولربمـا توهم فيهـا حلولاً لقضايـا محسومة من قبلهم ، ولكن اذ وجـد بريـطانيا تنكس بعهـودها ومـواثيقها ، وهـو الذي حارب الى جانبها ، فكيف بفرنسـا التي حاربهـا مواطنـوا حكومتـه في دمشق ، وفعلاً وصلت المحادثات الفيصلية ـ الفرنسية الى طريق مسـدود ، وبدأت فـرنسا مشـروعها العدائي على ارض العرب .

وهكـذا منع العـرب من ابداء رأيهم امـام المؤتمر لتبيـان قضيتهم ، بـل جسَّـد

---

(١٤) خيرية قاسمية ـ مرجع سابق ص ١٢٥ .

المستعمرون نواياهم حسب مصالحهم وحدهم .

لقد ضربت بريطانيا بعهودها عرض الحائط فيما استعدت فرنسا لبسط سيطرتها على سوريا ، هذا في وقت كانت الصهيونية العالمية تهيىء نفسها لاحتلال جنوب سوريا (فلسطين) . واصبحت الولايات العربية وقلبها النابض ـ آنذاك ـ محط انظار واطماع الغرب الاستعماري في ظل الوهن العربي العام . كانت البلاد اثر وصول اخبار المفاوضات العربية ـ الانكليزية ، الفرنسية وما آلت اليه من فشل ، شهدت تطورات عسكرية هامة عندما صعدت المقاومة الشعبية من ضرباتها البطولية ضد جنود الاحتلال الفرنسي في المنطقة الغربية ، وضد الجنود البريطانيين في فلسطين والعراق . ومع الانسحاب البريطاني من سوريا ، وجد الشباب العربي انفسهم وحيدين في ساحة المعركة ، مما ادى الى مواجهة المصير بشكل فرق مقاومة اصبحت نواة الثورة العربية ضد الاحتلال الغربي .

وبدأت تلك المقاومة تتخذ تصعيداً جديداً عندما بدأت تظهر على صفحات الجرائد والمجلات دعوات عامة للتطوع والتدريب ، استعدادًا لأي طارىء ومساندة لاعمال الثوار البطولية في المنطقة الغربية .

الوضع الثوري العام :

مع تتالي الايام بدأت رياح الثورة تهب في معظم ارجاء المنطقة بعد انفجار حركات النضال في العراق وفلسطين والمنطقة الغربية ، وكلها تتصدى لمشروع واحد : الاحتلال الاوروبي . في دمشق اتخذت منطلقات الثورة والجوار (المنطقة الواقعة خارج السيطرة الفرنسية) تنظيمات شعبية للتطوع ، وجمع التبرعات لسد حاجات المقاومة والدفاع ، فيما بدأت اللقاءات والاجتماعات تظهر في معظم احياء المركز والنواة دمشق والتي تحث الجماهير على الثورة والنضال .

ومع تطور الاوضاع ، بدأ المؤتمر السوري يعقد جلسات استثنائية ، برعاية زيد شقيق فيصل المتواجد في اوروبا ، واصدر المؤتمر السوري في احد اجتماعاته (٢٤ تشرين الاول) قراراً يقضي بوجوب الدفاع عن وحدة البلاد « المعرضة للتقسيم والاستقلال المعرض للضياع » واقترحوا اعلان استقلال القطر السوري استقلالاً تاماً بحدوده التي عيَّنها المؤتمر في القرار الذي قدمه الى اللجنة الاميركية ، « ومع تعيين

شكل الحكومة بانها ملكية شورية مسؤولة امام الامة »[١٥] .

هـذا كله في المنطقـة الخاضعـة للحكومـة العـربيـة امـا في المنـطقـة المحتلة (الغـربية) فـان الثورة انـدلعت في انحائهـا ، وشكل جبـل عامـل ، منطقـة رئيسيـة للعمليات العسكرية نستعرضها لاحقاً .

هكذا بدأت الثورة ، والوضع العام يشهد تطورات بانتظار سـاعة الصفـر ، هذا في ظل التهديدات التي بدأت تظهر ، اثر الاخبار الواردة من المنطقة الغربيـة ، والتي تتحدث عن احتمال قيام الجيش الفرنسي بغـزو دمشق . ومقابـل هذا وردت انبـاء من الشمال تتحدث عن اتصالات تجرى هناك بين الشباب العـربي ، والشباب التـركي ، مع دعوة تركية للجماهير العربية للاتحاد والتصـدي لمشاريـع الاستعمار ، ورغم انهـا بعثت الحنين في نفـوس بعض المسؤولين ، الا انها لاقت معـارضـة من قبـل اعضـاء المؤتمر ، وبالاخص من فيصل الذي ابدى ذلك خلال مناقشته الموضوع في اوروبا .

وشكّل وصول المفوض السامي الفرنسي الجنرال غـورو في ١٨ تشرين الثـاني الى بيروت جواً من الاضطراب في صفوف الجمـاهير ، في وقت واصلت فيـه القوات البـريطانيـة انسحابهـا جنوبـاً . واكد غـورو في خطاب لـه عن بدء تجسيـد الاتفـاقيـة الفرنسية ، الانكليزية سايكس ـ بيكو وفعلاً بدأت القوات الفرنسية عملية التقدم شرقـاً باتجاه البقاع ، ووصلت في الاول من شهر كانون الاول الى رياق .

اضحى الجـو العام ملبـداً بـالغيـوم والهمـوم العـربيـة ، ولم يبق من كلمـة إلا للرصاصة القاتلة التي بدأت تخرج من فوهة البندقية التي تبحث عن الزنود توجهها الى صدور جنود الاحتلال .

---

(١٥) خيرية قاسمية ـ مرجع سابق ص ١٤٦ .

الباب الخامس

النضال العاملي ضد الاحتلال الغربي

الفصـــل الاول

الكفــاح السياســي

ان الـحـيـاة تـنـازع وخـصـام ... هيهـات مـا سـوى السيـوف سـلام
والعـدل كـالعنقـاء فينـا فـالـذي ... لـم ينـف عنـه الـضيـم فهـو يـضـام
قـالـوا الـسـلام نـريـده بفعـالنـا ... والأمـن تـدركـه بـنـا الاقـوام
ان كـان هـذا منكـم وسـلامكـم ... فـعـلى الـسـلام تـحـيـة وسـلام
قـالـوا الشعـوب نفكهـا من رقهـا ... كـلا بـل استعبـادهـا قـد رامـوا
هـبـوا بني قحـطان طـال رقـادكـم ... فـالـى مـا انـتـم غـافـلون نـيـام
بـاسم الحمـايـة والـوصـايـة يحتـوى ... حـق لـكـم وتـدوسـكـم اقـدام

السيد محسن الامين

بهذه التفعيلات الشعرية ، كشف الامام السيد محسن الامين ، احد رجالات جبل عامل وعلمائه عن اطماع ونوايا الغرب الاستعمارية ، مبيناً اللغو الذي راوغ الاستعمار به مع العرب وعلى رأسهم مرشحهم فيصل ، داعياً عرب بني قحطان الى الثورة والتمرد ضد مخططات الاستعمار .

ويؤكد حسن الامين نجل السيد محسن « ان هذه القطعة الشعرية العاملية كانت اول صوت شعري عربي بعد الحرب العالمية الاولى يندد بالمستعمرين ويستصرخ العرب »[1] . واذا القينا نظرة على الوضع العام ايام الانسحاب العثماني الكلي من

---

(١) حسن الامين ـ من دفتر الذكريات الجنوبية ـ مصدز سابق ص ١٤ .

البـلاد ، وانشغال الجمـاهير في همـوم المرحلة ، مـع توجيـه الانـظار الى فيصـل بن الحسين ، وما سيلاقيه الوضع من غض نظر عن اطماع الغرب ، تأكد لـدينا مصـداقية هذا الكلام . واذا كانت فكرة الدعوة للنضـال قد عبَّـر عنها بـأبيات شعـرية ، فهي لن تكون إلَّا موقفاً سياسياً مباشراً عبَّر عنه الامين باسم العامليين والعرب .

الولاء العاملي للوحدة العربية :

عبَّر انشاء الادارة الحكومية العربية في مدن الجبل في صيدا وصور والنبطية عن ولاء سياسي مباشر للحكومة العربية في دمشق ، كتمسك وحدوي بالسيادة العربية .

ومع التدخل الاستعماري السريع لقوات الغزو الفرنسي ، عندما عمدت ، بعد الجلاء العثماني عن البلاد بثمانية ايام فقط ، على احتلال الساحل السوري ، نشطت الاتصالات السياسية بين جبل عامل ومركز الوحدة دمشق ، وقاد النشاط السياسي على ارض الجبـل عدد من الـرجالات العـامليين على رأسهم علمـاء الـدين امثـال السيـد محسن الامين ، والسيد عبد الحسين شرف الدين وعضو المؤتمر السوري الشيخ عبد الحسين صادق والسيد عبد الحسين نور الدين وغيرهم .

كما لعب آل الصلح دوراً طليعياً بـادىء ذي بدء في النشـاط السياسي العـاملي المـوالي للحكومـة العربيـة ، وانتخب عدد من افـرادها اعضـاء في المؤتمر السـوري اضافة الى عضو آخر من مرجعيون هو السيد مراد غلمية .

اما رجال الاقطاع في الجبل فقد حاولوا البروز مجدداً على اكتاف المـواطنين ، وعمـدوا الى لعب ادوار عدة ، مـوالية للحكـومة العـربية ثم للسلطات الفـرنسية ، الا انهم لم يفلحـوا في تمثيل الجبـل . وكانت التـظاهرة الشعبيـة التي دعـا اليهـا السيـد محسن الامين حسمت كل المواقف المتأرجحة وجسـدت طموحـات وتأييـد العامليين لمقررات الحكومة العربية في دمشق كما مرَّ معنا .

كما جاءت المشاركة العاملية في عضـوية المؤتمـر السوري العـام كممثلين عن ولايـة بيروت تؤكـد على تأييـد مشاريـع الحكومـة الادارية ، ومـا صرخـة احد ممثلي الجبل الشيخ عبد الحسين صادق التي بـايع فيهـا فيصل ملكـاً على سوريـا الا مبايعـة لمبادىء الوحدة العربية ، وضربة للمراهنين على التـواجد الغـربي . اما الـوثيقة التي قدمها العامليون للجنة الدولية ، والتي استعرضناها سابقاً ، فقد عادت تؤكد تطلعـات

العامليين نحو الوحدة العربية .

في المؤتمر السوري ومبايعة فيصل :

مع عودته من اوروبا اجرى فيصل عدة اتصالات مع زعماء البلاد ، واطلع على تطورات الامور اثناء غيابه عن المنطقة . وفي خطابات القاها امام اعضاء المؤتمر السوري ، تحدث فيصل عن عدة مشاريع جديدة في البلاد ، شارحاً ما لقيه خلال رحلته في اوروبا . . .

ولسباق التطورات السريعة على ارض البلاد بدأ المؤتمر السوري العام اعماله في السادس من شهر آذار ١٩٢٠ مفتتحاً دورة جديدة .

مثّل جبل عامل في تلك الجلسات من المؤتمر الهام كل من رضا الصلح ورياض الصلح والحاج عبد الله يحيى . وعشية المبايعة اعطيت الاوامر لرضا الركابي بتشكيل حكومة معجّلة ، فتشكلت برئاسته واعطيت وزارة الداخلية لرضا الصلح .

وفي اليوم التالي خرج المؤتمر بعدة قرارات جديدة مهمة ، عندما اعلن الوحدة السورية ورشح فيصل بن الحسين ملكاً على سورية ، وفي اليوم التالي ، الثامن من آذار نصّب فيصل ملكاً على سوريا وعمت الفرحة معظم ارجاء المنطقة التي رفعت اعلام الثورة تعبيراً عن الابتهاج .

وكان الاحتفال « شائقاً رائعاً والابتهاج عاماً ، وكان المنتدب لاعلان ذلك صادق الحمزة الزعيم الثائر ، فقد دخل ناحية جبل هونين واستقبله الناس بالبشرى »[٢] .

ومع الحديث الجديد والهام عن اعلان فيصل ملكاً على سوريا نشطت اعمال الثوار ضد جنود الاحتلال وتصدوا لهم في اكثر من موقع .

اثناء عودة الوفد العاملي من دمشق اجرت سلطات الاحتلال الفرنسي معه تحقيقاً حول مشروعية تمثيلهم لبيروت ومدن الساحل ، وهددت بالوعيد تكرار مثل هذه المشاركة في دمشق .

---

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٤ .

اما اهم حدث سياسي عرفه جبل عـامل بعـد ذلك فكـان اللقاء العـاملي لعلماء ومفكـري وسياسيي الجبـل والذي اكـد سياسـة الجبل الصـريحـة المتمثلة بـالـوحـدة والمقاومة .

الفصـــل الثانـــي

مؤتمـر وادي الحجيـــر

«ان المؤتمرين قرروا بالاجماع انضمـامهم للوحـدة السـورية، والمنـاداة بجلالـة الملك فيصـل ملكـاً على سـوريـة ، ورفض الـدخـول تحت حمـايـة او انتـداب الفرنسيين .. ».

مؤتمر وادي الحجير
جبل عامل

جاءت احداث شهـري آذار ونيسان ١٩٢٠ بمفـاجآت على السـاحة وبمـواقف جديدة بشّرت باحداث خطيرة للغاية . لقد شهد هذان الشهـران تصاعـداً في عمليات المقـاومة في جبـل عامـل مع سـوء في الاحوال العـامة خصـوصاً اثنـاء مبـادرة قـوات الاحتـلال بتسليح ميليشيـا محلية تـابعة لهـا لصـد اعمـال الثـوار ، الا انهـا اتت على العكس عندما تفجر نزاع اهلي بين الثوار والموالين لقـوات الاحتلال لم يسفـر إلا عن سفك دماء وطنية في حين دفعت القرى الموالية ثمن الـرد على الثوار دمـاءً وامناً بـدلاً من الفرنسيين .

مقابل هذا شهد الجبل ضغوطات ضد مواطنيه ، قمعيـة وارهابيـة خصوصـاً انه اصبح بشكل محاصر بحراً وجنوباً وشمالاً ، هذا في ظل الضعف الاقتصـادي العربي مما يدخل الجبل في ازمـة اقتصاديـة كانت قـاسية لـولا اعتماد السكـان على الزراعـة كمورد اساسي ، وامام كل هذه التغيرات وجد العامليون انفسهم في موقف حـرج كان لا بد من حسمه باعلان الولاء التام للحكومة العربية .

كانت السلطات العربيـة في دمشق قد وسَّعت من اتصـالاتها مـع زعماء الجبـل واجرت لذلك حوارات مختلفة ، مرسلة شخصيات عدة للتباحث في قضايا مصيرية ، وللتأكد من التأييد العاملي للحكومة العربيـة بعد اعـلان فيصل بن الحسين ملكـاً على سورية .

وقد وردت آنذاك عدة برقيات الى جبل عامل ترمي الى اجراء استفتـاء لصانعي القرار فيه لتكون ورقة ضغط بيد الملك وحكومته . وكان لا بد من عقد مؤتمـر عام في جبل عامل يقرر ويبحث في كـل امور السـاحة . وهكـذا وُجِّهت دعوات الى العلمـاء والمثقفين ورجالات جبل عامل لعقـد المؤتمر وللتشـاور في امور الجبـل ، حيث تقرر عقده على نبع وادي الحجير وهو وادٍ يتوسط الجبل ، وذلـك في الرابـع والعشرين من شهر نيسان ١٩٢٠ .

وفود المؤتمر :

وفي اليـوم المحدد الـرابع والعشـرين من نيسـان ، لبَّت الـدعـوة الشخصيـات المدعوة ووفود شعبية والتي بدأت الوصـول الى الوادي من الصبـاح الباكـر . اما ابـرز الذين حضروا المؤتمر :

من العلمـاء ورجال الـدين : السيد عبـد الحسين شـرف الـدين ، السيـد عبـد الحسين نور الدين ، الشيخ عز الدين عز الدين ، السيد عبد الحسين محمود ، الشيخ موسى قبلان ، الشيخ حبيب مغنية ، الشيخ حسين سليمان ، الشيخ يوسف آل فقيه .

من زعماء الثورة : صادق الحمزة ، ادهم خنجر ، محمود الاحمد البزي .

من الزعماء السيـاسيين : الحاج اسمـاعيل الخليـل ، الحاج خليـل عبد الله ، محمود الفضل ، محمد التامر ، الحاج عبد الحسين بزي ، عبد الحميد بزي ، كامل الاسعـد ، سعـد الـدين فـرحـات ، عبـد اللطيف اسعـد ، محمـد الفضـل ، تـوفيق حلاوي ، حسن مهنا ومحمود مراد .

ومن المفكـرين والمثقفين : الشيـخ احمـد رضـا ، الشيـخ سليمـان ظـاهـر ، المؤرخ محمد جابر آل صفا والشاعر محمد علي الحوماني .

كما حضر المؤتمر العديد من الوفود الشعبية التي وصلت من كل حدب وصوب

فكان مؤتمراً عاماً للجبل بكل فئاته .

على هامش المؤتمر :

ـ فور وصول الثوار الابطال صادق حمزة وادهم خنجر ومحمود البزي التف المواطنون حولهم وعلت الهتافات تحيي الابطال .

ـ ومما رددته الجماهير فور وصول المناضل صادق حمزة :

« يهنيك يا بك الخليل صادق ابو محمد لفا »[1]

ـ كما استقبلت المناضل ادهم خنجر بهذا الهتاف :

« ورد على بير الضحى حمر الشلا في غربت »[2]

ـ عندما وصل صادق حمزة كان « يحيط به نحو الخمسين من رجاله ، كلهم في عدتهم مع بنادق حربية ومسدسات وقنابل يدوية »[3] .

اعمال المؤتمر :

بعد حضور كل المدعوين افتتح المؤتمر اعماله بكلمة القاها السيد عبد الحسين شرف الدين . جاء في كلمة الافتتاح سرد وتعليق للمشاكل التي تقع بين الحين والآخر بين الثوار والموالين لقوات الاحتلال والتي كان آخرها حادثة في صور وقعت في الثامن عشر من نيسان ، اي قبل انعقاد المؤتمر بأقل من اسبوع ، بين متطوعين موالين للاحتلال وبعض الشباب من مدينة صور بحيث اخذت ابعاداً طائفية ، تضر بسمعة المقاومة والمقاومين .

دخل المجتمعون الى سرادق داخلي وشرعوا بالمحادثات .

بدأ كامل الاسعد كلمة شرح من خلالها اسباب الدعوة للمؤتمر وما وصل اليه من دعوات بهذا الخصوص وعرض على المؤتمر عدة آراء .

ثم بدأ المجتمعون التداول في قضايا عديدة ، فبحثوا قضية الوحدة السورية

---

(١) قيصر مصطفى ـ مرجع سابق ـ ص ١٤٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٤٨ .

(٣) احمد رضا ـ العرفان ـ م ٣٣ ـ ج ٩ ص ٩٨٨ .

وتنصيب فيصل ملكاً عليها والولاء العاملي للوحدة .

وفتح الملف الامني ، فسردت مواقف المؤتمر تجاه ما يجري على الساحة من اعمال عنف ، وما اتخذته من لباس طائفي ، وتداولوا مع زعماء الثورة شؤون المقاومة وما آلت اليه الاوضاع في الأيام الاخيرة .

« واستدعي الشيخ صادق الحمزة فدخل السرادق ، حيث انعقدت جلسة المؤتمر ، يحف به رجاله شاهري بنادقهم حوله ، فجلس امام العلماء والقرآن بين ايديهم ، فأخذوا عليه وعلى رجاله الايمان المغلظة ان لا يتعرض لأحد من المواطنين ، ابناء جبل عامل ، مسلمين كانوا أو مسيحيين ، بسوء أو أذية ، فأقسم بذلك واستثنى من كان منهم البأ للفرنسيين على الوطن واستقلاله مجاهراً بذلك للغاصبين المحتلين ، مسلماً كان أو مسيحياً أو من أي مذهب كان ، لان جهادنا سياسي لا ديني »[٤] .

ومما لا شك فيه ان القضايا التي تخص المقاومة المسلحة كانت بأيدي الثوار ذاتهم ، خصوصاً اذا علمنا أن هؤلاء الابطال ينفذون رغباتهم ومبادئهم ، دون أن يأخذوا أي اذن من رجالات الجبل ، ولذا حرص المؤتمرون على عدم الخوض في موضوع النضال العسكري على شكل موسّع كباقي القضايا كي لا تثير جدالاً ، بل دعوا الى تشجيع المقاومة وتنظيم امورها .

مقررات المؤتمر :

كان المحور السائد خلال محادثات المؤتمر قضية الولاء العربي مع الرفض المطلق للانتداب الفرنسي ، الا ان المجتمعين تطرقوا كما رأينا الى عدة قضايا وقرروا فيها آراءهم .

بعد الانتهاء من المباحثات دعي كل من الشيخ احمد رضا والشيخ سليمان ظاهر ومحمد جابر والحاج اسماعيل الخليل والشيخ عز الدين عز الدين ، لوضع المقررات وكتابتها .

---

(٤) احمد رضا ـ نفس المصدر السابق ـ م ٣٣ ـ ج ٩ ـ ص ٩٩٠.

وجاءت هذه المقررات على الشكل التالي وبالاجماع :

١ ـ طلب الانضمام للوحدة السورية .

٢ ـ المناداة بفيصل بن الحسين ملكاً على سورية وفق ما قرره المؤتمر السوري العام في السابع من شهر آذار على « ان يقدم باسم المؤتمرين وجبل عامل عامة ، التهنئة لملك سوريا بما قرره المؤتمر السوري من اعلان الاستقلال وملكية فيصل ، ويحمل الوفد هذا القرار للملك »[٥] .

٣ ـ الرفض المطلق لكل ما تدعيه فرنسا من اطماع في المنطقة « ورفض الدخول تحت حماية او انتداب الفرنسيين »[٦] .

٤ ـ « لزوم الطاعة والابتعاد عن الشرور ، والمحافظة على اموال واملاك المواطنين المسيحيين وارواحهم ودفع الاذى عنهم ، وانذار المعتدين والمخالفين شر الجزاء »[٧] .

٥ ـ تفويض السيدين عبد الحسين شرف الدين وعبد الحسين نور الدين للسفر الى دمشق والاجتماع بالسيد محسن الامين ، نزيل دمشق ، لمقابلة الملك فيصل وابلاغه قرارات المؤتمر .

هذا اضافة لقرارات سرية تجاه زعماء الثورة في الجبل .

سفر الوفد الى دمشق :

حمل الوفد العاملي مقررات مؤتمر « وادي الحجير » وسافر السيدان شرف الدين ونور الدين الى دمشق ، وهناك نزلا عند السيد محسن الامين وأطلعاه على الامر والتفويض من جبل عامل لمقابلة الملك فيصل .

كان السيد محسن الامين قد هنأ الملك فيصل اثناء تتويجه في آذار ، ولما وصل الوفد اليه توجهوا جميعاً لمقابلة فيصل وفي هذا الخصوص يقول السيد الامين : « ودخلنا على الملك فيصل فقال لي : كيف الحالة عندكم ؟ فقلت : انا

---

(٥) احمد رضا ـ نفس المصدر السابق ـ م ٣٣ ـ ج ٩ ص ٩٨٩ .

(٦) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ـ ص ٢٢٦ .

(٧) نفس المرجع السابق.

قاطن هنا والجماعة عنـدهم الخبر وهم مـوفدون من قبـل أهل جبـل عامـل لأخذ رأي جلالتكم فيما يصنعونه ، لأن أهل المنطقة الشرقية يقولـون لهم إما أن تكـونوا معنـا أو علينا . فقال : بعد الغداء سيأتيكم رأيي ، وكان قد دعانا الى الغداء عنده فلما تغـدينا خرج ثم دعانا اليه فقال انكم سألتمـوني عن رأيي فاقـول إن أهل جبـل عامـل يعزُّون عليَّ ولا أريد أن يصيبهم بسببي سوء فليلزموا السكون »[٨] .

ومن خـلال هذا الـرد تبدو صـورة واضحة عن علم فيصـل الاكيـد لمخـططات الاستعمار ، ولربما راهن على المنطقـة التي تسيطر عليهـا قوات الحكـومة العـربية ، على أن لا ننسى علمه بقدرة جنود العرب القتالية والتي ينقصهـا المعدات الكثيـرة مما يؤكد هزيمته امام الآلة الحربية الفرنسية .

وهكذا ستنفرد كل منطقـة في مواجهـة قوى الاحتـلال التي ستعمل على تـطهير المنطقة السورية منطقة وراء منطقة من الثـوار لبسط نفوذهـا الاستعماري عليهـا واحدة بعد اخرى ، وتعمل وفق معاهدة سايكس ـ بيكـو على تقسيم البلاد الى دويـلات عدة تستطيع من خلالها تنفيذ سياسة الانتداب .

اذاً ستشهد البلاد حمـلات ارهابيـة تطال المنـطقة الغـربية الخـاضعة للسيـطرة الفرنسية كعمليـة « تطهيـر » كما أشـرنا لتـواصل من بعـدها عمليـة السيطرة على كـل سوريا .

وكونه منطقة ثورية اساسية في البلاد ، سيشهد جبل عامـل ، حملة ارهابيـة من هذا النوع تقضي على نواة الثورة في الجبل التي ستعود وتفرخ في المنطقة الشرقية .

(٨) محسن الامين ـ اعيان الشيعة ـ م ١٠ ـ ص ٣٦٩ .

الفصل الثالث

النضال العاملي المسلح

كان ساحل جبل عامل ، احدى المناطق الاولى التي احتلتها فرنسا إثر انتشار جيشها في بيروت يوم ٨ تشرين اول ١٩١٨ وبدئها عملية احتلال الساحل السوري .

ثم بدأت قوات الاحتلال الفرنسي توسع نفوذها شرقي الساحل ، الا انها كانت تصطدم بعمليات المقاومة والنضال التي حدَّت من تقدمها . « وظلت المناطق الداخلية من جبال العلويين ولبنان الجنوبي خارج السيطرة الفرنسية ، وكانت محاولتهم لفرض سلطتهم تواجه بأعمال مقاومة وصلت حد القتال المسلح »[١] .

وفي غياب فيصل بن الحسين عن البلاد لإنشغاله في مفاوضات مؤتمر الصلح في فرساي ، شهدت البلاد حملات تنظيم تدعو للانخراط في صفوف الثورة للتصدي لكل مشاريع الاستعمار ، خصوصاً اثناء الافصاح عن مقررات المؤتمر .

بدء تشكيل المجموعات المسلحة :

ونشرت صحف تلك الايام على صفحاتها الرئيسية دعوات حماسية للتطوع والتصدي ، وافصح احد الضباط عن تنظيم الكفاح على شكل عصابات مسلحة عندما صرّح قائلاً : « بما اننا لا نستطيع أن نعلن الحرب رسمياً ضد فرنسا ، فلنغمر

---

(١) خيرية قاسمية ـ مرجع سابق ص ٧٥ ـ ٧٦ .

البلاد بعصابات ستبيدهم عن بكرة ابيهم »[٢] .

اذاً ، فالموقف الايجابي للثورة لن يستطع ان يتمثل إلاّ بمجموعات ثورية ، على اشكال مقاومة فردية ، توقد في البلاد شرارة حرب العصابات . فالحكومة العربية لا تملك جيشاً يتصدى لأطماع الغرب ، انما ستعتمد هذه الحكومة حتماً على نشاطات مواطنيها كل حسب حماسه وقوته . وبالفعل « قام فريق من الزعماء والقادة الوطنيين بالجهاد الحربي على رأس عصابات وطنية ، بهجمات متعددة على المنطقة الغربية حيث تتمركز مفرزات من الجيش الفرنسي »[٣] .

اما في المناطق التابعة للحكومة العربية فان جواً من الحماس العام كان يعم المنطقة هناك، واكتفى المواطنون بالجهاد السلمي في هذا السبيل بمختلف الطرق السياسية والتظاهرات، تأييداً لاحتجاج ممثلي الأمة السورية وحكومتها. وهذا ليس دليلاً على عدم تقديم المساعدات لافراد المقاومة، فإثر بدء النضال على الحدود الغربية « استقال كثير من الضباط السوريين من الجيش وانضموا الى الثوار المناضلين في جبل عامل وجبال العلويين وانطاكية »[٤].

هكذا بدأت قضية الثوار تتبلور ، فرق منظمة ، عصابات مسلحة . فمثل هذه الحرب معروفة ، في كل الارض ، تشهدها المناطق المحتلة في حال عدم وجود جيش منظم ، وسوف نرى في الحرب العالمية الثانية كيف سيضطر الحلفاء الى اعلان مثل هذه الحرب ضد الجيش الالماني خلال الحرب العالمية الثانية . ففي احد الاجتماعات الهامة التي عقدها الحلفاء في الايام الحاسمة التي شهدتها فرنسا من انهيار عسكري ، سأل الزعيم البريطاني تشرشل « اذا كان في وسع المسلحين القيام بحرب عصابات منظمة في فرنسا اذا حدث ان انهارت القوات النظامية »[٥] .

إن حرب العصابات ، نموذج للمقاومة الشعبية اعتمدتها معظم الشعوب في

---

(٢) خيرية قاسمية ـ مرجع سابق ص ١٥٢ .
(٣) يوسف الحكيم ـ سورية والعهد الفيصلي ـ مرجع سابق ص ١٦٧ .
(٤) خيرية قاسمية ـ مرجع سابق ص ١٩٠ ـ ١٩١ .
(٥) رمضان لاوند ـ الحرب العالمية الثانية ـ دار العلم للملايين ـ ط ٨ ـ ١٩٨١ ص ٧٠ .

حروبها عندما تنهار المجموعات المنظمة ، والعصابات المسلحة التي ولدت على الأراضي السورية كتصدٍ لمشروع الهيمنة الفرنسية ، لم تكن إلاَّ كمثيلاتها في معظم بقاع الارض .

النضال العسكري في جبل عامل :

شهد جبل عامل قبل وصول الحلفاء جموداً في علاقاته المحلية عندما كان معظم مواطنيه شباناً وشيوخاً يشاركون في الحرب العالمية الى جانب الاتراك الذين نظموا صفوف الجيش من ابناء البلاد ، وما عدا ذلك استمر بعض الاقطاعيين في سياستهم الاضطهادية ، محاربين حركة التحرير والتقدم داخل الجبل .

شهدت الاسابيع الاولى للاحتلال الفرنسي جواً من الفوضى عمَّ معظم انحاء الجبل . ولتمرير مخططاتهم الفاشية ، بدأ الفرنسيون يمارسون سياسة الترغيب بحيث يقربون اليهم زعامات محلية للوظائف الصغيرة إضافة لمواطنين آخرين ، متبعين سياسة فرِّق تسد ، هذا في ظل التطلع الشعبي نحو قلب العاصمة العربية دمشق التي صبَّ العامليون عليها كل آمالهم .

ومع توالي الايام اصبح كل شيء مؤاتياً لانطلاقة الثورة والتمرد « واستاء الناس واشتد سخطهم لانفراد الحكام الفرنسيين بادارة البلاد »[٦] مما دفع في تزايد عملية الانتقام ، وازداد الامر سوءاً عندما « راجت سوق الجواسيس وكثرت تقاريرهم بحق الاحرار الوطنيين »[٧] .

اما المثقفون في الجبل فقد اعلنوا مراراً معارضتهم لأي سياسة تنطلق من جانب جيش الاحتلال ، غير ان الفرصة لم تكن لتسمح بان يتسلم هؤلاء زمام الامور على الساحة ولا حتى رجال الدين ، فالبلاد تحت نير احتلال ، إضافة لوضع خاص متمثل بخروجها من حرب عامة ومن سلطة الدولة العثمانية ، إذ ان المرحلة الانتقالية قصيرة الامد هذا اذا لم نغفل عن السياسة الوحدوية والمرتبطة مصيرياً مع الحكومة العربية بدمشق .

---

(٦) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ٢٢٥ .
(٧) نفس المرجع ص ٢٢٥ .

اما المواطنون فقد كانوا يعيشون تحت ظل نظام اقطاعي رهيب تمثل في حملات القمع التي مارسها رجال الاقطاع ضدهم ، كل هذا في غياب الوعي الاجتماعي .

ولم يبقَ من عناصر الثورة سوى بعض الزعماء وابنائهم وبعض العناصر المتمردة « قبضايات القرى » اضافة للفلاحين الهاربين من بطش الاقطاع . ومع الوقت تطورت هذه المجموعات على اشكال مجموعات منظّمة على رأسها قياديون ابطال ، نسّقوا فيما بينهم واتصلوا مع زعماء الحركة العربية في دمشق ، فيما عمل بعض الثوار تحت لواء الامير محمود الفاعور في الحولة .

وعلى رأس المقاومة المسلحة برز المناضلان صادق الحمزة وادهم خنجر ، هذا اضافة لعدد من الثوار الذين جمعوا حولهم عشرات الشباب ، وساهموا في عمليات التصدي لقوات الاحتلال الفرنسية .

فمن هما هذان البطلان وكيف قادا المقاومة في جبل عامل ؟

صادق الحمزة :

احد قياديي الثورة في جبل عامل .

ولد المناضل صادق الحمزة في قرية دبعال من اعمال صور وفيها عاش سنواته الاولى ، والده شيخ البلدة واستاذها .

البيئة التي عاش فيها صادق الحمزة من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية بيئة فلاحين بسطاء ورعاة فقراء ، نالهم من مظالم العهد التركي اضعاف ما نال غيرهم من ابناء السلطنة(*) اذ ساعدت البيئة المحلية في زرع بذور الثورة في نفس هذا الثائر العربي ، ودفعته للانخراط في حركات التمرد ضد التسلط الاقطاعي بادىء الأمر . ومع التواجد الفرنسي على أرض الوطن أكمل صادق الحمزة عمله النضالي بالتصدي المباشر لسلطات الاحتلال وعملائها في الداخل ، ومع توالي الايام استطاع المناضل حمزة قيادة مجموعة ثورية شملت اعمالها معظم اراضي الجبل .

(*) فضل الامين ـ جريدة النهار ٥/١٠/١٩٨٤ .

يوم انطلقت حركة المناضل الحمزة باعمالها الثورية ، وصفته الصحف الموالية للاحتلال بقاطع طريق ، وأشارت احدى هذه الصحف لذلك بقولها : « اصبح الأمن مفقوداً في نواحينا ، فان رجلاً اسمه صادق من دبعال ألَّف عصابة من الاشقياء ، عددها نحو « العشرين » تطوف القرى للسلب والنهب . . اجل هكذا كانت تريد سلطات الاحتلال ان تصف الاعمال البطولية ، لتضعف نفوس الثوار وتوجد الخلاف بينهم وبين المواطنين .

استقطبت مجموعة صادق الحمزة العشرات من المواطنين الكادحين في صفوفها ممن اعتمدوا في تأمين قوتهم اليومي على المساعدات التي تردهم من الفلاحين .

بدأت مجموعة صادق الحمزة ، بعد تنظيم صفوفها ، حرباً مباشرة ضد جنود الاحتلال ، وتمثلت اعمالها بحرب عصابات ، اخذت تنتقل من قرية الى اخرى وتطارد الجنود الفرنسيين حيثما وجدوا على ارض الجبل . اتصل المناضل الحمزة بمعظم ثوار الجبل ، واجرى محادثات عدة مع المناضل ادهم خنجر للتنسيق فيما بينهما .

ومع تصاعد عمليات مجموعته البطولية ، نجح صادق الحمزة في تطهير منطقتي صور وبنت جبيل عندما بدأ بتسلم قراهما واحدة تلو الاخرى ، ومما كان يفعله رفع العلم الشريفي في كل بلدة يحررها ، كتعبير عن تطهير الجبل واخضاعه للسلطة العربية الشرعية ، وهذا ما فعله عندما دخل « الى عديسة ورفع عليها العلم السوري ، ثم فعل ذلك بقرية بليدا بعد ان مرَّ بقرية الطيبة ومعه مائة وخمسون من رجاله ما بين راكب وراجل »[8] .

ووفق هذه الترتيبات ، استطاع صادق الحمزة تأمين منطقة آمنة ينطلق منها الثوار ، بعيدة عن تسلط السلطات الاجنبية وعملائها ، وهذا ما شجع على تصاعد عمليات المقاومة ، مع تأمين حماية تامة لأي ثائر قد يضطر للفرار من منطقته (وسط وشمالي الجبل) فيأمن بدخوله جنوبي الجبل حيث « أن الحكومة (سلطات

---

(٨) احمد رضا ـ مذكرات للتاريخ ـ مجلة العرفان م ٣٣ ج ٧ ص ٧٣٣ .

الاحتـلال) لم يبقَ لهـا ادنى أثـر ولا سلطة حتى أن مـأمـوري الضـرائب والـدرك لا يقدرون على التجول فيها ، وهي اشبه بحالة العصيان التام »[٩] .

وفي المنطقة التي طهَّـرها الثـوار ، أمل المنـاضل حمـزة تجسيد احـلام الثورة مبـاشـرة على ارضهـا ، إلّا أن اسبـابـاً عـدَّة حـالت دون ذلـك وعلى رأسهـا ضعف الامكانيات المادية ، والعسكرية مع نقص في الكوادر المطلوبة ، اضافة لسبب مباشر اول وهـو عدم استـطاعة الحكـومـة العـربيـة دعم الثـوار العـامليين ، وهي التي كـان المناضلون يضعون آمـالهم عليها . ان اعـداداً مهمة في صفـوف الثورة كـانت تتطلب دعماً مادياً مباشراً لسدّ حاجات عائلاتها لتستمر الانتفاضة .

وخـلال تسلمه الأمن في منـطقته المحـررة حرص صـادق الحمـزة على حفـظه بـاقصى درجة ، حتى لا تـلاقي حـركتـه اي عـداء او كـره من المـواطنين . ذات يـوم « خـرج عبد الغني الـدح مع اثنين من الجنـدرمة الى تبنين لتحصيـل أموال الحكـومة الفرنسية ، فقابلهم صادق وقبض على الخيل والمال والدفتر ، فـأخذ الخيـل لنفسه ، أما المال فعاد فوزعه على كل من كان جُمع منـه ، طبقاً لمـا هو مـذكور في الـدفتر ، وتهدد الاهلين بالويل اذا ما عادوا الى دفع الدراهم للحكومة الفـرنسية »[١٠] وفي هـذا العمـل النـاجـح انهى الحمـزة عمليـة تحصيـل الضـرائب التي تستفيـد منهـا قـوات الاحتلال ، هذه القوات المعتدية التي لا يعرف صـادق الحمزة التفـاهم معها إلّا بلغـة البندقية ، وما تهديده للمواطنين الفلاحين بعدم دفـع الضرائب إلّا حـرص على هؤلاء الكادحين الذين تضيع اموالهم بين طلبات الاقطاع والضرائب .

وفي مؤتمر الحجير الذي عقده العامليون على ارض الجبل اقسم البطل صـادق الحمزة على استمراريـة عمله الكفاحي ضـد جيش الاحتلال ، مشـدداً على النيل من المتعـاونين معه مـع التأكيـد على عـدم مس حـريـة أي مـواطن لأي طـائفـة انتمى . وتجسيداً لقسمه بعدم الاضرار بـأي مواطن حـر ، رفض ذات يوم دخـول مدينـة صور التي يتواجد بها جنود فرنسيون كي لا يزعج اهلها من جراء تصديه للجنود ، فقد « ابى معتذراً بأنه إنما جاء لمحاربة القوات الفرنسية لا ليـذعر الأهـالي الآمنين . فاذا دخـل

---

(٩) احمد رضا ـ المصدر السابق.

(١٠) حسن محمد سعد ـ مرجع سابق ـ نقلاً عن جريدة البشير ـ تاريخ ٣ نيسان ١٩٢٠ ص ٣.

البلد ادخل الذعر اليهم بدخوله »[11] .

لقد حمل العامليون اضافة لاخوانهم في الكفاح بالمنطقة ، هموم القضية العربية ودفعوا ثمن الخطابات التي القاها رجال الحركة في دمشق ، من حياتهم وحريتهم واستمروا .

يوم اعلن فيصل بن الحسين ملكاً على سوريا ، جسَّد الابطال العامليون الحدث الهام على ارض الواقع ، وزادوا من عملياتهم البطولية وابتهجوا « وكان المنتدب لاعلان ذلك صادق الحمزة الزعيم الثائر ، فقد دخل ناحية جبل هونين ، واستقبله الناس بالبشرى »[12] .

لقد عبَّر الحمزة عن كل احداث المنطقة بالرصاصة والتصدي المباشر للاحتلال . وحاولت سلطات الاحتلال التقرب من زعماء الثورة « فكتبوا الى صادق الحمزة ورفاقه للكف عن الثورة فكان أن أرسل كتاباً سخر فيه من منطقهم بمنطق النورة »[13] .

كل هذه الضربات العدوانية ، لم تؤثر على سير حركة المناضل صادق الحمزة بل أدت الى دفعه لاكمال المسيرة .

وأكمل الطريق إلى أن فوجىء الجبل ، بالحملة الارهابية التي سيَّرها الفرنسيون ضد جبل عامل والتي أمعنت بالارض قتلاً وهدماً وافقاراً .

فأمام ضخامة عدد افراد الحملة (٤٠٠٠ مقاتل) اضافة لميليشيا محلية من المتعاملين مع الاحتلال تصدى صادق الحمزة لجنودها بقدر المستطاع مع رجاله الثوار « فصدوها عن التقدم بما كان مع الثائرين من الذخيرة مدة سبع ساعات ، حتى اذا نفدت ذخيرتهم ولم يمدهم احد تراجعوا ولم يفقد منهم احد »[14] .

وامام الارهاب الذي مارسته الحملة ضد مواطني جبل عامل فرَّ العديد من

---

(١١) احمد رضا ـ مذكرات للتاريخ ـ مجلة العرفان م ٣٣ ج ١٠ ص ١١١٤ .
(١٢) احمد رضا ـ مجلة العرفان م ٣٣ ج ٧ ص ٧٣٣ .
(١٣) فضل الامين ـ جريدة النهار ٥/١٠/١٩٨٤ .
(١٤) احمد رضا ـ مذكرات للتاريخ ـ العرفان م ٣٤ ج ٢ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

رجالاته الى خارج الجبل ، فيما فرضت غرامات باهظة ضد ابنائه ، بينما الثوار واصلوا هناك حركاتهم النضالية وكانوا يعودون للجبل لضرب جنود الاحتلال فيه .

وهناك وجد صادق الحمزة نفسه مضطراً للرحيل الى خارج الجبل أي الى المنطقة التي لا زالت غير خاضعة للحكومة الفرنسية ، ووصل الى الحولة ثم انتشرت اعماله في سوريا والاردن .

ادهم خنجر :

زعيم الحركة الوطنية المسلحة في جبل عامل سنة ١٩٢٠ والتي عرفت حيناً باسم « ادهم وصادق »[١٥] .

هو ادهم بن خنجر بن محمد بن علي الشبيب .

ولد أواخر القرن التاسع عشر في بلدة المروانية احدى قرى الزهراني ، وفيها عاش سنوات الطفولة والشباب . جده لابيه الثائر محمد بن علي الشبيب الذي قاد مع أخيه حسين الشبيب حركات التمرد ضد تصرفات جنود ابراهيم باشا القمعية (١٨٣٦ - ١٨٣٩) . ينتمي ادهم خنجر لاسرة آل صعب حكام الشقيف في التاريخ العاملي والتي اقطعتها الدولة اراضي في اقليم الشومر مكافأة لتمردها على قوانين ابراهيم باشا .

اذاً تربى ادهم في بيت اقطاعي سمحت فيه الظروف المعيشية بممارسة هواية الصيد التي أخذ بها واتقنها ببراعة .

تلقى ادهم خنجر علومه الاولى في المنطقة على أيدي مشايخ القرى ، ثم اكمل دروسه في صيدا حتى اندلاع الحرب العالمية العامة ، اتقن خلال دراسته (العربية - الانكليزية - والفرنسية) وعاد الى قريته مع اندلاع الحرب ، واثناءها فُجع باغتيال والده الذي تركه مسؤولاً عن العائلة « وعمل ادهم على اسراف ورثته من ابيه دون عمل »[١٦] .

أكمل ادهم خنجر سنوات شبابه في المنطقة حتى رحيل الاتراك عن البلاد ،

---

(١٥) سلام الراسي - لئلا تضيع - مؤسسة نوفل - ط ٤ - ١٩٨٥ ص ٨٣.

(١٦) حديث خاص لاحد معاصريه - الحاج سرحان حلال.

وتريّث حتى جلاء الغموض العام الذي اعقب الحدث التاريخي إلاّ أنه تلبـد اكثر ممـا دفعه ، كأغلب شباب الجبل ، للكفاح المسلح .

وكان قد اشترك مع المناضل أحمد مريود «في حمل ما استطاع حمله من القمح على الخيول الى القرى اللبنـانية في الجنـوب (جبل عـامل) عنـدما منعت الحكـومة العثمانية اصدار الحبوب (الحنطة واشباهها) من ولاية سـوريا الى لبنـان. وكانت تبـاع الحنطة بالثمن الـذي نقلت من ارضها . فـانقذ بهـذا العمل الـوطني الجليل عـائلات لبنانية كثيرة كانت معرَّضة للموت جوعاً »(*) .

ومع براعته في اصابة الهدف ونجـاحه في عـدة كمائن نصبهـا لجنود الاحتـلال شاع خبر حركته واستقطبت المواطنين من كل الطبقات ، واصبح قائداً لمجموعة ثـوار بدأت توسع عملياتها في انحاء المنطقة .

انخـرط عشرات الشبـاب في صفوف مجمـوعة ادهم خنجـر الذي اتخـذ قلعـة الشقيف مـركزاً لانـطلاقة عمليـاته ، وسـاعده مـركـزهـا الاستـراتيجي المشـرف على مساحات واسعة من اراضي الجبل على ربط الطرق ومراقبة تحركـات جنود الاحتـلال للنيل منها ومنعها من اكمال مهماتها .

أما السلاح الذي عرف بحـوزة هذه المجمـوعة فكـان بادىء الأمـر موروثـاً عن الاتـراك ، وازداد مع الـوقت كغنائم من جيش الاحتـلال الذي يفـرّ معظم الـوقت من ساحة المعركة تاركاً وراءه السلاح والعتاد .

استطاع ادهم خنجر خلال اعماله العسكرية انزال الهزيمة بجيش الاحتلال وفي مناطق مختلفة .

معركـــــة المصـــــيلح :

المكان : طريق عام الزهـراني ـ النبطيـة قرب مفـرق قريـة « الحجة » . عـرف ادهم خنجر بمسير قافلة من الجيش الفرنسي بـاتجاه منـطقة النبـطية . استعـد بعد أن جمع رجالـه وهيَّأ سـلاحه ، وسلك دربـاً وعرة بين منـطقة « الـظهور » و « الـداودية » القريبة من بلدة المروانية ، ونزل قرب شجرة (جمّيز) مشهـورة في المنطقـة ثم صعد

(*) محمد اديب غالب ـ العرفان، م ٦١، ج ٣، ١٩٧٣ .

الى التـلال المواجهـة للطريق العام ، وربض هنـاك كامنـاً منتظراً قـدوم القافلة . وفق اخبار معظم معاصري المناضل خنجر ، استعمل في هذا الكمين (تكتيكاً) عسكـرياً عندما قسم مجموعته ، واحدة لمقدمـة القافلة الفـرنسية واخـرى لمؤخرة الجنود ولما انحصرت القافلة بين المجموعتين ، اطلق الرصاص باتجاه المقدمة حيث قائد القافلة ثم باتجاه المؤخرة وبدأ الرصاص في كل الاتجاهات يحصد جنـود القافلة الفـرنسية ، ومن بقي على قيد الحياة فر من ساحة المعركـة تاركـاً وراءه السلاح والعتـاد . « وبقي السلاح مرميـاً في ساحـة المعركـة ، وعاد ادهم الى قـريتي زفتا والمـروانية وطلب من شبابهما الذهاب للساحة وجلب السلاح »[١٧] هذه المعركة يسـردها معـظم معاصـري تلك الحقبة من ابناء المنطقة ، ويشهدون على براعة المناضل ادهم خنجر في اصـابة الاهـداف . معارك عـدة خاضهـا مناضلو جبـل عامـل وعلى ضخامـة اكبر من معـركة المصيلح ، انما هذا ما بقي في ذاكرة معاصري تلك الاحـداث في ظل التعتيم العـام على اعمال الثوار .

وعلى جسر الخردلي في منطقة الشقيف ، حصل صدام بالاسلحة الرشاشة بينه ورفاقه من جهة وبين جنود الاحتلال من جهة اخرى عندمـا نصب لهم كميناً مسلحـاً ، انـزل خـلالـه هـزيمـة بجيش الاحتـلال وانسحب بعـدهـا الى قلعـة الشقيف مـركــز العمليـات ، عندهـا عمدت قـوات الاحتلال الفـرنسي الى قصف القلعة مبـاشـرة من احدى تلال النبطية كرد على نجاح الكمين الا « ان ادهم خنجر لم يبال بـل دعا رفـاقه الى حلقة الدبكة واخذوا يدبكون على دوي القنابل »[١٨] تعبيراً عن فرحة النصر .

ولم تنحصر اعمال الثوار بجنود الاحتـلال بل تعـدتها الى العمـلاء والمتعاملين معهم . وقد شهدت الساحة ، آنذاك عدة صدامات بين اهالي القرى الموالية ورجـال الثورة .

وامام اذى أزلام الاحتلال نفَّذ ادهم خنجر حكم الاعـدام بحق احد المتعـاملين معهم المدعو يوسف شداد ، عنـدما قتله في منـطقة جسـر القاعقعيـة « واستولى على

---

(١٧) من المقابلة مع معاصري ادهم ـ الحاج سعيد قلقاس : زفتا ، الحاج حسن كوثراني المروانية .
(١٨) حسن الامين ـ من دفتر الذكريات الجنوبية ـ مصدر سابق .

سيارته فورد ابو دعسة »[١٩] وبين الحين والآخر كان يزور قريته المروانية ، ينام في منزله الذي ما يزال قائماً فيها ، يحث مواطنيه على النضال « ولطالما كان الشعب النائم على السياسة الاقطاعية التي كانت سائدة داخل البلدة يلتف حوله يشكون له سوء حالهم وكأنهم يجدون به مخلصهم من الظلم »[٢٠] .

كما طالت اعماله النضالية مرافق اجتماعية مهمة . ففي المدرسة الرسمية في قريته اصرَّ المدرِّس الحكومي على فرض برنامج للطلاب يزيد خلاله من ساعات اللغة الفرنسية ويقدمها على حساب دروس القرآن الكريم التي يدرِّسها شيخ القرية . علم الثائر ادهم بالأمر ، زار المدرسة « وطلب من المدرِّس الحكومي تقديم دروس القرآن الكريم على دروس اللغة الفرنسية مع زيادتها وهدده بمسدس حربي ، أي بالقتل اذا ما عاود الكرَّة وزوَّر البرنامج »[٢١] .

استمر ادهم خنجر يناضل داخل الجبل متنقلاً من منطقة الى اخرى واثناء حملة « نيجر » الارهابية خرج ورجاله الى الحدود ونزح الى شرق الاردن واتصل هناك بزعماء الثورة في المنطقة وبالأمير عبد الله ، وأكمل من هناك عمله العسكري . . .

---

(١٩) من حديث خاص مع ابراهيم الصعبي ـ انصار .
(٢٠) من حديث خاص مع الحاج حسن كوثراني .
(٢١) حديث خاص للشيخ زين كوثراني ـ شيخ البلدة ومدرسها آنذاك .

الفصل الرابع

في مسار المقاومة المسلحة

« فليبع من لم تكن لديه بندقية ثوره أو حماره ويشتريها ».

ثوار جبل عامل
٢٢ تشرين الاول ١٩١٩

شاركت معظم فصائل المقاومة المسلحة « قياديين وعناصر » في صفوف الثورة العاملية ضد الاحتلال الفرنسي ، واستطاعت انزال هزائم مباشرة في قوافل جيش الاحتلال .

كانت الصحف آنذاك تنقل اخبار هؤلاء الثوار مشاركين اخوتهم في المنطقة السورية والمجاهدين في الاراضي العربية العراقية هموم الثورة التي قادوا غمارها .

مع انطلاقة الثورة العاملية التي عمَّت معظم انحاء الجبل ، ظهرت صرخة الثورة على ارض الجهاد ، داعية المواطنين لحمل السلاح « فليبع من لم تكن لديه بندقية ثوره أو حماره ويشتريها »[1] . وكشفت هذه الكلمات عن تفضيل العامليين للحرية على لقمة العيش .

لقد نجحت المقاومة العاملية مطلع القرن العشرين ، خصوصاً سنوات الانتداب الاولى باستقطاب المواطنين في صفوفها ، وقاتلت وفق مبادىء الثورة

---

(١) جريدة (البشير) ٢٢ تشرين الاول ١٩١٩ .

العربية ، ووفق مقررات المؤتمر السوري العام وقضايا المنطقة المصيرية ، ولاقت هذه المقاومة صعوبات جمة من نقص في المال والعتاد الى عداء مباشر من رجال الاقطاع المتسلطين على الجماهير الكادحة .

والبيئة الحياتية المؤمنة للقمة العيش مرَّت في مرحلة مصيرية بين الموت والحياة ، اذ كان الفلاَّح ، يعمل بقوت يومه عند الاقطاعي الذي يزيد في تسلطه بصلاحيات مباشرة من قوات الاحتلال .

وهكذا واجهت المقاومة العاملية هموماً كثيرة ، من جنود الاستعمار الى تسلط رجال الاقطاع الى العوز والفقر . . .

اما الاعلام العربي فلم يغطِ اخبار الثورة العاملية ، في حين كانت الصحف الموالية لقوات الاحتلال تنقل اخباراً مغايرة للحقيقة ملبسة الثوار القاباً مختلفة ليست إلَّا لتحجيم اعمالهم ونضالاتهم . اما المجلات العاملية المحلية امثال « العرفان » لسان حال الجبل فانها كانت تعطل من قبل سلطات الاحتلال في حال سردها او كتابتها موضوعاً يتناول الثورة او رجالها .

مسيـــرة الثـــورة :

لم تنحصر اعمال البطلين ادهم خنجر وصادق الحمزة فيما ذكرناه بل كانت جوهر الثورة التي انطلقت وعمَّت الجبل كله والتي استقطبت العديد من الثوار .

وساهمت الاساليب الهمجية والقمعية التي مارستها سلطات الاحتلال ضد مواطني جبل عامل من فرض الضرائب الى اعمال تنكيل في اشعال فتيل الثورة وامتدادها لتشمل الجبل كله « فتألفت عصابات ثورية في داخلية جبل عامل لمقاومة موظفي الحكومة ومنع الأهالي من دفع الضرائب »[٢] .

إذاً طالت الثورة رجال وجنود الاحتلال وموظفيه وجباته والمتعاملين معه لأي فئة انتموا . لقد اجتمعت الظروف كلها لتساهم في انطلاقة المقاومة التي بدأ رجالها ينشرون اعمالهم النضالية على كل بقعة يتواجد عليها عنصر من الاحتلال وتفاقم الأمر واشتد التذمر فانفجرت . . . « في مرجعيون ، الخيام ، الحولة ، الخالصة ، كفر

---

(٢) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ٢٢٦ .

كلا ، العديسة ، الطيبة ، هونين ، النبطية ، قام مسلحون يغيرون على تحركات الجيش الفرنسي ومراكزه ويهاجمون القرى الموالية لفرنسا هناك »[٣] . وعرفت إذاك اماكن مميزة يغير منها الثوار كقلعة الشقيف في ارنون ، وتوسعت اعمال الثوار عندما « اصاب اذى عساكر المحتلين الذين كانوا ينقلون الذخائر والمؤن من صيدا وبيروت الى القوى العسكرية المرابطة في النبطية ومرجعيون وحاصبيا حيث هاجموهم بالقرب من مزرعة (مصيلح) بين صيدا والنبطية (ذكرناها سابقاً) وأثخنوا بشرذمة كانت تحرس جسر الخردلة بين النبطية ومرجعيون وحاولوا نسف الجسر بالديناميت وتغلبوا على العساكر في جبل رياق في جهة المطلة جنوبي مرجعيون ثم هاجموا في ٨ كانون الثاني ١٩٢٠ عساكر المحتلين في جديدة مرجعيون »[٤] .

وتشير احدى الصحف الموالية لسلطات الاحتلال الى صدامات عدة وقعت بين الثوار وجنود الاحتلال مستعملة الفاظاً مغالطة للحقيقة وناظرة من زاوية العمالة فقط ومسيئة لحركة الثورة . تقول الصحيفة :

« في اواخر شهر كانون الماضي تكررت حوادث النهب والسلب في سنجق صيدا فاضطرت الحكومة الى ارسال فرقة لتأديب العابثين بالأمن فتمكنت من توطيده في ضواحي الغجر والخيام والطيبة وكفر كلا وبعد ان اطمأن الأهالي وأمنوا شرّ العصابات عادت في (٥ الجاري) الى السلب فعادت الفرقة الى المفتنين فنكلت بهم تنكيلاً واقرّت الامن في النبطية وضواحيها ثم غادرت مرجعيون وخلال دورتها جرت لها مناوشة مع بعض العصابات التي كانت تحاول ان تقطع خط الرجعة عليها . . . وكانت هذه العصابات مسلحة بالبنادق والرشاشات فألحقت الفرقة بها خسائر فادحة وضربتها ضربة موجعة ، ويسؤونا أن نقول ان الفرقة الفرنسوية اصيبت بخسائر بلغت الخمسين من الجرحى ، وانها اضطرت الى ترك ثلاثة مدافع رشاشة في مستنقعات الليطاني . . . »[٥] .

اما اضطرار الفرقة الفرنسية ترك ثلاثة مدافع رشاشة في موقع الصدام كما ورد

---

(٣) وجيه كوثراني ـ الاتجاهات . . . مرجع سابق ص ٣٣١ نقلاً عن صحيفة لسان الحال .
(٤) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ٢٢٧ .
(٥) جريدة لسان الحال ـ تاريخ ١٢ كانون الثاني ١٩٢٠ .

على لسان الصحيفة فيؤكد دون أي شك استبسال الثوار في المعركة واستيلاءهم على المنطقة مع فرار قوات الاحتلال ، لانه في حال انتصار الفرقة المعادية لطهرت المنطقة من رجال الثورة ولما تركت ثلاثة رشاشات في ساحة المعركة . في الجانب الآخر كان مواطنو المنطقة الغربية في سنجق طرابلس وسنجق اللاذقية يشاطرون العامليين الثورة والنضال وشهدت مناطقهم عمليات وحركات اربكت قوات الاحتلال .

ومع تصاعد النضال وتحقيق الانتصارات مباشرة ضد جنود الاحتلال ، بدأت قوات الاحتلال سياسة جديدة ، تقرِّب من خلالها بعض المنحطين اليها عندما عمدت الى انشاء ميليشيا محلية لضرب الثوار دون ان يمس رجالها أي أذى .

فقد صدر قرار عن الجنرال غورو في الرابع عشر من شباط ١٩٢٠ يشرح ذلك . يقول التقرير : « لما كان هناك ضرورة لمنع اعمال الشقاوة التي تنتشر حالياً في بعض نواحي « المنطقة الغربية » ولمَّا كان مهماً أن تكون البلاد بنفسها مسؤولة عن ذلك عبر شرطتها الخاصة ، ولماً كان معروفاً أن قوى الشرطة والجندرمة الحالية غير كافية فانه بناء على اقتراح المفوضية التي اجتمعت لهذا الشأن في (٢٦ كانون الثاني) و(١٠ شباط) يقرر الجنرال غورو . . . ما يلي :

ـ مادة (١) : ينشأ في « المنطقة الغربية » تحت اسم (الميليشيا السورية) فرق عسكرية مختلطة ، تتألف من متطوعين فقط .

ـ مادة (٢) : ان العدد الفعلي لهذه الميليشيا يتحدد في كل سنجق كما يلي :

سنجق اللاذقية ٥٥٠ عنصراً .

سنجق طرابلس ٥٥٠ عنصراً .

سنجق صيدا ٢٠٠ عنصر »[٦] .

وهذه السياسة المتبعة عند الدول الاستعمارية بالاعتماد على الفروقات الدينية أو القومية تؤدي حتماً لحرب أهلية .

لم يؤثر مثل هذا القرار على سير اعمال الثوار ، بل على العكس ازدادت

---

(٦) وجيه كوثراني ـ الاتجاهات ـ مرجع سابق ص ٣٣٧ .

اعمالهم وطالت مرافق عدة ووصل الحد لمهاجمة القرى الموالية للاحتلال « وتجمع الثوار في جهات مرجعيون والحولة ، وبث الدعوة في جبل عامل وطالب زعماء الحركة برجوع الفرنسيين الى ما وراء الليطاني »[7] أما في منطقة بنت جبيل وصور فتمكن الثائر صادق الحمزة من تطهير المنطقة من جنود الاحتلال ومنع جباة الضرائب من دخول المنطقة فيما طلب من الأهلين دفع الضرائب .

وأمام نجاح الثورة في الهجمات والاشتباكات بدأت قوات الاحتلال سياسة قمعية ضد المواطنين الآمنين ، في حين طالت اشد العقوبات كل من اتهم بمساندة الثوار ، وانزلت عقوبة الاعدام بحق احد ابناء الثورة الشهيد يوسف طاهر في منطقة وادي جيلو في صور .

والثوار بدورهم لم يوفروا احداً من المتعاملين مع قوات الاحتلال ، بل كانوا ينزلون بهم اشد العقوبات في حال سمحت الظروف ، حتى ان الصدامات المحلية تطورت ووصلت الى حد هجومات للثوار ضد القرى الموالية ، كما حصل في كل من دير ميماس والقليعة ، وفي الخربة حصل صدام بين الثوار وقوات الاحتلال « كانت القتلى من الفريقين كثيرة ، وقيل ان خسارة العسكر (قوات الاحتلال) كانت تفوق العشرين قتيلاً وقال بعض القادمين ان ارض الخربة كانت ملطخة بالدم »[8] .

كانت عيون الثوار تراقب مسار الحركة العربية في دمشق فتبدل اعمالها وفق ما يتطلبه الموقف . واشتدت اعمال المقاومة اثناء اعلان فيصل ملكاً على سوريا وتوسعت عمليات الثوار وشهد شهرا آذار ونيسان ١٩٢٠ قمة الأعمال وتبلورت المواقف مما دعا العلماء ورجالات الجبل للتفكير بالأمر جلياً فرأوا الافضل عقد مؤتمر عاملي عام قرروا خلاله ولاء الجبل للوحدة العربية ، فكان مؤتمر الحجير . وكان الجنود الفرنسيون ينزلون قرب القرى الموالية حتى اذا ما هوجموا نشروا إعلامهم ان الثوار هاجموا قرى محلية .

ومع انتهاء اعمال مؤتمر الحجير كثَّف الثوار عملياتهم البطولية خصوصاً بعد تصاعد العداء العربي لفرنسا وغليان دمشق ازاء الاخبار الخطيرة القادمة عن نية

---

(٧) خيرية قاسمية ـ مرجع سابق ص ١٩١ .

(٨) احمد رضا ـ مجلة العرفان م ٣٣ ـ ج ٧ ص ٧٣٤ .

سلطات الاحتلال بالزحف عليها .

وفي سبيل ايجاد الجو المناسب لـذلك الـزحف بدأت سلطات الاحتـلال تجرد حملات عسكرية في المنطقة الغربية للقضاء على المقـاومة وتثبيت إحتـلالها فكـانت حملة نيجر .

الفصـل الخامـس

حملـة نيجر .. واستمرار النضـال

أنهى مؤتمر « وادي الحجير » أعماله فيما كان الثوار يستعدون لتصعيد عملياتهم العسكرية ضد جنود الاحتلال وعملائه في الجبل .

وأسفرت سياسـة انشاء الميليشيـا المحلية داخـل جبل عـامل من قبـل مواطنين محليين عن وقـوع صدامـات بين المواطنين الثـوار من جهة والميليشيـا تلك من جهـة اخرى .

وشهدت عدة قرى صدامات كبيرة بين الطرفين وهوجمت مواقع جنـود الاحتلال التي تتمركز قـرب تلك القرى ، وجـاءت هذه الاحـداث متتاليـة في ظرف تسعى فيـه سلطات الاحتلال لتمرير مخططها القاضي ببسط سيطرتها على معظم انحاء الجبل .

ولتغـطية اعمـالها البـربريـة عمدت السلطات الفـرنسية الى بث حملة اعـلامية ضخمـة عن الاحداث الأليمـة ، ملبسة الـوضع ثـوباً طـائفياً يسـاعدهـا على التدخـل المباشر .

الحملة الفرنسية الارهابية « حملة نيجر » :

ولمَّا وجدت السلطات الفرنسية الوضع مناسباً لتجسيد مخططهـا ، بدأت حملة ارهابية قوامها اربعة آلاف (٤٠٠٠) مقاتل فرنسي بالزحف الى جبـل عامـل ، اضافـة للميليشيا المحلية التي انشأتها .

ففي الثامن عشر من شهر ايار ١٩٢٠ فوجئت الجماهير العاملية بالحملة البربرية التي قادها احد الضباط الفرنسيين الكولونيل « نيجر » والتي بدأت أعمالاً همجية ضد المواطنين الآمنين ، وذلك لضرب المقاومة التي صعّدت من عملياتها ضد قوات الاحتلال .

وقد اشارت الصحف يومها الى بدء هذه الحملة ، قالت احداها : « بلغنا أن قوة مهمة من الجيش الفرنسي قادمة بطريق البحر من الاستانة ، نزلت بجهات صور مع كامل عدتها وانضمت الى الجنود التي هناك للتنكيل بالعصاة وزعمائهم »[١] .

« سارت الحملة في طريق الساحل واستقرت أولاً في صور ، ثم تغلغلت في داخلية البلاد فناوشها الثوار في وادي الحريق على غير انتظام ثم انسحبوا الى الجبال ، ولم تتمكن القوى الفرنسية من التغلب عليهم والقبض على احد منهم فتابعت سيرها سالكة وادي عاشور حتى وصلت تبنين وبنت جبيل فاحرقتها ، واطلقت المدافع على دار محمد بك التامر في تولين فهدمتها ، وعلى دار الامير فاعور بالخصاص الحولة فدمرتها ايضاً ، وفتكت بكثير من الابرياء الآمنين ، وكثر السلب والنهب الى أن استقرت الحملة في قرية (هونين) »[٢] .

عن المقاومة التي تصدت للحملة في وادي الحريق يورد احد معاصري تلك الحقبة ما مفاده : « دخلت الحملة الفرنسية المؤلفة من ٤٠٠٠ رجل وادي الحريق بعد اجتيازها سهل صور ، فعرض عليها الثائر صادق الحمزة ومعه بضعة عشر رجلاً ، فصدوها عن التقدم بما كان مع الثائرين من الذخيرة مدة سبع ساعات ، حتى اذا نفذت ذخيرتهم ولم يمدهم احد تراجعوا ولم يفقد منهم احد »[٣] .

والمساعدة التي ارادها الثوار لم تكن إلاّ من قبل الحكومة العربية في دمشق التي لم تحرك ساكناً تجاه حملة فرنسا الارهابية سوى باحتجاجات مماثلة لسابقاتها ، مع العلم انه فهم من هذه الحملة بدء بسط النفوذ الفرنسي على كل سوريا .

لقد قامت الحملة باعمال بربرية خلال سيرها ، فقد طال اذاها مشروعات

---

(١) جريدة البشير عدد ٢٠ ايار ١٩٢٠ .

(٢) محمد جابر آل صفا ـ مرجع سابق ص ٢٢٨ .

(٣) احمد رضا ـ مذكرات للتاريخ ـ العرفان م ٣٤ ج ٢ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

الفلاحين وبيوت الثوار والزعماء وعلماء الدين ، حتى ان عناصرها كانوا يقتلون كل من يتهم بمساعدة الثوار او بالانتماء للمجموعات المقاومة ، وهذا ما اضطر الكثير من السكان العامليين الى الفرار باتجاه الجنوب « فلسطين » ، حيث اخلوا قراهم بعد وصول انباء تتحدث عن ارتكاب مجازر بشرية ضد السكان الآمنين ، وانفرد المواطن وحده في الساحة ، يواجه همجية الآلة الغربية التي استخدمت اسلحة ثقيلة لضرب الانتفاضة من جذورها . وإضافة لنيران مدافعها قصفت الطائرات الحربية مواقع قيل ان الثوار استخدموها خلال كفاحهم .

فقد اشير في تقرير ورد لأحد الصحف الموالية الى أن : « طيارة فرنسية ألقت قنابلها على قرية بنت جبيل التي تبعد خمس ساعات عن صور وعدد سكانها يزيد على خمسة آلاف ، وان الطائرات احرقتها ودمرت منازلها بجملتها ولم يرد في التقرير شيء من الخسائر الروحية ، التي لا بد لها ان تكون كثيرة إلاّ إذا شعر اهلها بالعقاب النازل بهم فاركنوا الى الفرار »[٤] .

لقد مارست الحملة ابشع انواع الهمجية ضد المواطنين الآمنين القابعين تحت فكي ظلم الاقطاع وقهر الاحتلال .

في رواية لاحد المتطوعين العملاء الذين شاركوا في الحملة يشير الى مدى الهمجية التي اتبعت ، يقول العميل : « سافرنا من النبطية نهار الخميس في ١٨ أيار سنة ١٩٢٠ فكان طريقنا على الزواتر (زوطر الشرقية والغربية) ومنهم الى الجوهرية ومنها الى القعقعية ، ومن بعدها قطعنا الجسر وطلعنا الى فرون ، فكان وصولنا اليها الظهر ، فحطينا فيها فما وجدنا من سكانها احد فنهبناها ، ولما طلع الصباح اخذنا بالسير حتى أقبلنا على مساواة مجدل سلم (تولين) فصوبنا المدافع عليها وهدمنا منها عمارة محمد بك ، ثم اقبلنا على تل تبنين ، وإلا انصبَّ علينا الرصاص مثل زخ المطر ، (اشارة للمقاومة) فانتشر الجيش وهجمنا على العدو واشتعل الرصاص حتى ارفقنا عليهم فقتلنا منهم ثلاثة او اربعة مجاريح ، ثم نزلنا لليهودية (ابدل اسمها مؤخراً بالسلطانية) فسلمت ، وعند الصباح سافرنا على عيناتا ، فما وجدنا بها احد ، فنهبناها واكلنا دجاجها ، ودبينا فيها الحريق فرمدّناها ، ثم طلعنا بنت جبيل فما وجدنا

(٤) جريدة لسان الحال ـ عدد ٩ ايار ١٩٢٠ .

فيها احداً ، فكسرنا فيها يومين ومـا اقبل علينـا احد ، فنهبنـاها وحـرقناهـا ، ومن بعد صوبنا عليها المدافع فهدمناها ، وفي اليوم الثالث طلعنـا على مارون حـرقناهـا واقبلنا على يارون ، فلاقتنا اهاليها ونسوانهـا بالـزلاغيط ودق الجرس وامسينـا بتلها قبـال بلد اسمها (فارة) فصوبنا المدافع عليها فضربناها ، وكنا نرى « العالم » (الناس) تنغـل مثل النمل واشتغل عليهم المتريوز فقتل منهم الكثير وجملة مجاريح »[٥] .

وهنـاك رواية اخـرى لمجرى عمليـات الحملة الارهـابيـة وردت في « الكتـاب الذهبي لجيوش الشرق ١٩١٨ ـ ١٩٣٦ » الذي يحـدد القوات الفـرنسية في الجنـوب على الشكل الآتي :

«١ ـ فصيلة ارلابوس في النبطية وقد اشتملت على :

ـ لواء من فيلق الرماة الافريقيين الثاني .

ـ نصف بطارية ٦٥ .

ـ مفرزة فرسان .

ـ مئة متجند .

٢ ـ فصيلة نيجر في صور المؤلفة من :

ـ لواءين من فيلق الرماة الافريقيين السابع والعشرين .

ـ بطاريتين ٦٥ .

ـ ثلاثة مفارز فرسان .

وقد وضعت جميع تلك القوات تحت امرة الليوتنان كولونيـل نيجر الـذي وصل الى صور عشية الثامن عشر من ايار » .

اما عن سير حملة نيجر فيورد الكتاب :

« كانت خطة الكولونيل نيجر تقضي بـان يضم الفصيلتين المنطلقتين من صـور والنبطية ويوجههما صوب تبنين سريعاً ، لتتمكن من تطويق عصـابات المنـطقة ومنهـا عصابات صادق الحمزة وادهم خنجـر التي اشارت المعلومـات الى وجودهـا في جوار بـاريش . زحفت فصيلة الكولـونيل نيجـر في ٢٠ أيار ، في السـاعة الثـانيـة صبـاحـاً واحـاطت في الساعـة الرابعـة بقريـة البازوريـة التي حامت عليهـا الشبهات واخـلاها

(٥) سليمان ظاهر ـ مجلة العرفان م ٣٣ ج ٣ ص ٦٠٩ ـ ٦١٠ نقلاً عن لسان احد المتطوعين.

السكان ثم وصلت في الساعة العاشرة الى جويا حيث اصبحت على اتصال بفصيلة ارلابوس المعسكرة في صريفا .

وفي ٢١ ايار نهاراً قامت الفصيلتان ببعض اعمال تختص بالامن والنظام المحليين ، وفي مساء ذلك اليوم انطلق لواء الى طير زبنا (الشهابية) ليسهل نفاذ الجيش الى مضيق تبنين عند انبثاق الفجر فقابلته العيارات النارية واضطر الى الاشتباك بمعركة للاستيلاء على طير زبنا (الشهابية) ، ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد منذ قام العدو (رجال المقاومة) بغارة مقابلة في الساعة الحادية والعشرين وكان في حوزته رشاش فمكنه ستار الليل من الاقتراب من المعسكر فأصاب منا ثلاثة قتلى وثلاثة جرحى بينهم ضابط صرعه الرصاص عن كثب .

وفي ٢٢ أيار زحفت فصيلة نيجر عند الساعة الرابعة صباحاً وكانت جميع الأكمات الشرقية والجنوبية امامها آهلة بشرذمات صغيرة من العدو (رجال المقاومة) صممت على اقفال المضيق والحؤول دون مرور الجيش وفتحت النار على مسافة بعيدة ولكن الجيش استمر في تقدمه فاحتل مضيق كفر دونين فدير انطار فالموقع المرسوم برقم ٧٦٣ وفي الساعة السابعة وصلت الى اليهودية (السلطانية) فصيلة ارلابوس المنطلقة من مجدل سلم واستدبرت العدو فرأى انه لا طاقة له بتلك القوات المنتشرة وانهزم . لم يعترض الجيش في زحفه على بنت جبيل امرٌ ذو بال وخلت الديار امامه لأن معظم الثوار قد اجتازوا الحدود الفلسطينية وتوقف الجيش في بنت جبيل ثلاثة ايام كان يعمل خلالها على اعادة النظام ولمِّ شعث النصارى الذين لجأوا الى فلسطين وشاؤوا العودة الى قراهم مطمئنين الى وجود قواتنا ، وفي ٢٦ أيار غادر الجيش بنت جبيل وقام بطواف في وادي الحجير حيث كانت الديار تخلوا امامه باستمرار ، على ان فصيلة ارلابوس التي سلكت الطريق الى يارون قد وقعت في ذلك النهار على جماعات منهزمة بالقرب من سلعا وتعقبتهم فلاذوا بالمنطقة البريطانية واشتبكت في اليوم ذاته عند قادس (قدس) بالبدو الموالين للعصاة المدبرين .

وفي ٢٨ أيار اعترضت فصيلة ارلابوس مهاجمة قرية خلصة (الخالصة) تأديباً لجماعات البدو في منطقة الحولة فانطلقت من معسكر هونين في الساعة السادسة منحدرة الى القرية المذكورة وسلكت اليها بعض السبل التي تمكنها من تطويق العدو من الشمال والجنوب معاً ، وكان لواء بوكار (التابع لفيلق الرماة الافريقيين السابع

والعشرين) مرابطاً على ذروة هونين الجنوبية الغربية فدعم المهاجمين من الجناحين والمؤخرة ، بينما كان لواء بار التابع للفيلق نفسه يقوم على حراسة قافلة الذخيرة ويرصد الناحية الجنوبية من حيث كان يحتمل بروز العصابات ، ودارت رحى المعركة فاستقبل العدو (رجال العصابات) طلائع صفوفنا بنار حامية تتدفق من ذروة الخالصة الشرقية الشمالية على ان مدفعيتنا تمكنت من اسكات تلك النيران سريعاً فاحتل جيشنا القرية ، وفرَّ العدو بينما كانت قرى السهل ترفع الاعلام البيضاء .

وفي ٢٩ أيار عسكرت فصيلة ارلابوس في تبنين ولبثت هناك حتى رجع النصارى الى قراهم وارتد سائر الجيش الى صور حينما رجع السكان الى الحقول على مألوف عاداتهم . وفي الثاني من حزيران تفككت حلقات التجريدة بعدما انهت مهمتها »(*) .

لقد طالت همجية الحملة معظم الاراضي العاملية ، لانتماء الشباب في معظم القرى لمجموعات الثوار الذين احرقت بيوتهم والذين تراجعوا باتجاه الجنوب (فلسطين) والشرق (حوران) ليواصلوا النضال خارج الجبل . واضافة للخسائر والاضرار التي لحقت بالمواطنين من جراء شراسة الحملة ، عمدت السلطات الفرنسية الى اخضاع الجبل لاجراءات قمعية وضرائبية على غرار ما يحدث في الحروب الدولية .

فقد فوجىء المواطنون بدعوة موجهة من السلطات المحتلة لاجتماع طارىء حددته في الخامس من حزيران ١٩٢٠ ، وفي اليوم المحدد حضرت شخصيات من جميع الأهالي الى صيدا حيث وصلها الكولونيل « نيجر » الذي القى خطاباً يتضمن التهديد والوعيد بحيث اوجب على المواطنين العامليين تحمل مسؤولية التعويضات لعملاء فرنسا في الجبل ، لمساندتهم الاعمال الثورية ضد الجنود الفرنسي وعملائه .

بعد ذلك قدم للعامليين وثيقة تتضمن ضريبة الهزيمة تلخصت على الشكل الآتي :

(*) جريدة السفير ١٩٨٤/٩/٢٣ ـ عبد اللطيف قطيش ـ نقلاً عن الكتاب الذهبي لجيوش الشرق ١٩١٨ ـ ١٩٣٦ من ص ٩٣ الى ص ٩٧.

١ ـ دفع غرامة حربية وقدرها مائة الف ليرة عثمانية ذهب .
٢ ـ التعهد بتسليم الثوار المحكوم عليهم للسلطات الفرنسية .
٣ ـ المحافظة على أمن البلاد بما في ذلك حرية بعض الطوائف .
هذا مع القاء اللوم على المواطنين عن كل ما يجري على ساحة جبل عامل .

ووزعت الضرائب على اقضية جبل عامل الثلاثة :
١ ـ قضاء مرجعيون ٤٥٠٠٠ ليرة.
٢ ـ قضاء صور ٣٥٠٠٠ ليرة.
٣ ـ قضاء صيدا ٢٠٠٠٠ ليرة.

لم يكفِ المواطنين خسائر الحملة من اتلاف مزروعات وهدم ودمار وتعطيل مواسم ، بل زاد الامر سوءاً بهذه الضرائب التي فرضت على جبل عامل قسراً ، خصوصاً اذا علمنا ان الجباة الظالمين جمعوها اضعافاً مضاعفة . هكذا جاءت هذه الضريبة الجديدة مع الظلم الاقطاعي وهمجية الاحتلال لتوجه الشعب نحو الحقل لمواجهة هذه الحرب القاهرة في ظل السكوت من الحكومة العربية في دمشق .

احكام الاعدام والنفي :

أما بخصوص الوثيقة المقدمة من الكولونيل « نيجر » فقد ورد في احد بنودها تسليم المحكومين الفارين من الثوار زعماء وعناصر.

واضافة لاحراق منازلهم ونهبها اصدرت السلطات الفرنسية احكاماً خاصة بهؤلاء الابطال من الاعدام الى النفي . فقد صدر حكم الاعدام بكل من الآتية اسماؤهم :

صادق الحمزة ، محمود احمد البزي ، موسى بوزفلي ، الشيخ عبد الله عز الدين ، رياض محمد حسن فرحات ، عبد المجيد محمد بزي ، محمود ماراج ، سليمان طرفة ، حاج فياض شرارة ، حاج محمود سويدان ، ادهم خنجر ، علي حرب ، محمود احمد قاسم ، عبد الحسين سرور ، نمر بلوز ، محمد التامر ، سيد يوسف تامر ، يعقوب قرداني ، حسين علي مدا من الريحان ، محمود محمد قاسم من البازورية ، احمد قاسم بركات من البازورية ، محمود محمد قاسم دياب ، رشيد

غصين من القنطرة ، طحان بن العميد خليل من العديسة واخواه رشيد وحسن ، سليمان طباجة من العديسة ، شكيب عبد الله من الخيام ، لطفي عبد الله من الخيام ، محمد عرب من الخالصة ، عزوز مصطفى من الدورة ، كامل شرور من حانين ومحمود سليمان من العديسة .

وصدر حكم النفي المؤبد وضبط الاملاك بكل من :

كامل الاسعد ، عبد اللطيف الاسعد ، الحاج محمود سعيد بزي ، عبد الحميد بزي ، سعيد عبد الحسين شرف الدين ، مراد الغطيمي ، حسين يوسف نصر الله سعد ، حاج جواد من الخيام ، حاج خليل من الخيام ، عائلة فرحات من دير راشيت[٦] .

غير ان معظم الثوار كانوا قد تراجعوا من الجنوب باتجاه فلسطين ومنها الى شرق الاردن ثم انه صدرت احكام عفو بحق بعض المحكومين بينما استمرت السلطات تلاحق الثوار اينما حلوا ووجدوا .

الرد العربي على الحملة : احتجاجات فارغة :

انفرد جبل عامل في تحمل مسؤولية مقاومته ضد قوات الاحتلال ، في وقت كان فيه بأمس الحاجة لمساعدة عربية سريعة . وقد اشيع يومها عن مساعدة من الملك فيصل غير أن المواطنين لم يتلقوا اياً منها ، وكل ما فعلوه ارسال رسائل احتجاج للصحف والمجلات والمسؤولين .

فقد رفعت رسائل احتجاج « الى الصحف العربية والعالمية للأعمال الوحشية في جبل عامل وطلب المعونة والمساعدة للذين تخربت قراهم . . ونهبت اموالهم . . . من سكان مقاطعة صيدا وصور ومرجعيون . . الذين تحت الاشراف الفرنسي »[٧] .

وارسل فيصل رسالة احتجاج الى غورو حول اعمال الحملة الهمجية وسياسة فرنسا تسليح مواطنين محليين لـ« ادخال المنافرة بين طائفتين عاشوا دهوراً

---

(٦) راجع جريدة لسان الحال ٩ حزيران ١٩٢٠ .

(٧) خيرية قاسمية ـ مرجع سباق ص ١٨٢ ،

كـالاخوان » . ممـا « سيسفر عن مشـاكل جـديـدة ليس من مصلحـة فـرنسـا ، او من مصلحة السلم العام »[8] . مع الطلب بالتوقف عن التسليح . « كما ارسـل الى لويـد جورج بعد حملة جبل عامل ، بأسبوع يطلب منه التوسط ، بـاسم الانسانيـة ، ويبلغه انـه قد شـرح لغورو ان هـذه الاجـراءات سـوف تعـرقـل جهـود فيصـل لاقـرار السلم والامن »[9] .

لم تثمر كل هـذه الاتصالات والاحتجـاجات عن اي مسـاعدة للعـامليين الذين انفردوا وحدهم في تحمل مطاليب السلطات الفرنسية .

النتائج العامة « لحملة نيجر » :

استـطاعت الحملة الفرنسيـة بكثافتهـا البشريـة وآليتها العسكـريـة المتـطورة ، تحقيق المـطلب الأول للفـرنسيين بتـطهيـر منـاطق التمـرد في سـوريـا حيث ستعمـل السلطات على بسط نفوذها حيناً بعد حين .

اسفـرت حملة نيجـر عن تضييق الخنـاق على الثـوار على انهـا لم تستـطع تصفيتهم ، فقد شهد الجبل بعد الحملة مباشرة اعمالاً ثورية اضافة لتحركات نضاليـة قام بها بعض الثوار ، خارج الجبل .

ورأت فـرنسـا من خـلال فـرض الضـرائب على المـواطنين إضعـافـاً للحـالـة الاقتصادية داخل الجبل مما سيجبر الاقطاعيين على تبني سياسـة جديـدة تثقل كـاهل الفلاحين .

ولا شك ان مثل الضرائب التي فرضت على كاهل العامليين سوف تزيد الحـالة الاقتصادية سوءاً خصوصاً اذا عرفنا ان معظم هذه الضرائب ستقع على كاهل الفلاح ، هذا في ظل نمو النفوذ الاقطاعي الذي سيمد يده نحو مشاريع الدولة المنتدبة القاضية بتقسيم المنطقة .

وممـا سيساعـد على هذا النمـو سلطة الاقطاعيين غيـاب الرصـاصة والصـرخـة العالية من افواه العلماء ، فالثوار والعلماء متواجـدون خارج الجبـل لاسباب قسـرية .

(٨) خيرية قاسمية نفس المرجع السابق.
(٩) نفس المرجع السابق ص ١٩٠ .

هذا على صعيد الجبل الداخلي ، اما بخصوص المنطقة فان فرنسا ستواصل بسط نفوذها للسيطرة عليها .

من الجنوب (فلسطين) امنت الحدود بوجود السيطرة البريطانية هناك ، وجبل عامل اخضع للسلطة الفرنسية والانظار كلها توجهت لنواة الثورة العربية « دمشق » .

الموقف العربي وتحركات قوات الاحتلال :

في تلك الايام اضحت الحكومة العربية في دمشق صورة شاب عليل ينتظر ضربة قاضية تريحه وتنهيه . فقد وصلت طروحات الزعماء هناك بدءاً من فيصل ، الى الطريق المسدود ودون ايجاد حل للمأزق الجديد . فالرد العربي كان يصطدم حتماً بالضعف العسكري امام تطور الآلة العسكرية الغربية ومن المستحيل يومها ايقاف المشروع الرامي لتقسيم المنطقة والسيطرة عليها .

وطبعاً لن ينحصر الموقف العربي بفئة معينة او قرار معين يصدر عن أهل « الحل والعقد » ، بل ستعرف الساحة عدداً من المبادرات المشرفة . . . فسوف تندفع فئات ليست قليلة الى العمل المسلح والتحضير له بينما تتأرجح بعض الاطراف بين الانتظار والرد العسكري .

وشهدت مناطق الحدود بين قوات الاحتلال والمنطقة الخاضعة للحكومة العربية تحركات بشًّرت ببدء المشروع الفرنسي ، وحصلت هناك عدة صدامات اعقبها تقدم للآلة العسكرية الفرنسية باتجاه الشرق (سهل البقاع) .

فقد كانت السنة منذ مطلعها تشهد تحركات فرنسية لاجتياح البقاع وقد حصلت معارك عدة بين الجيش الفرنسي هناك والثوار تكثفت مع الوقت ، اما شهر تموز فقد وصل مليئاً بالاحداث الهامة والمواقف المختلفة .

شهد هذا الشهر عدة اتصالات بين الحكومة العربية في دمشق والسلطات الفرنسية ، خصوصاً مع ورود انباء عن احتمال اجتياح المنطقة .

لقد عملت فرنسا على زيادة افراد جيشها في سورية ، فكانت تلحق الكتيبة بالكتيبة حتى اصبح في « المنطقة الغربية » عشرات الآلاف من الجنود المسلحين باحدث انواع الاسلحة .

وكانت ترد بين الحين والآخر اخبار الحشود الفرنسية العسكرية على حدود المنطقة الشرقية ، مما خلق جواً من الرعب والحماس في آن معاً فأوقع البلاد في حالة ضياع تام خصوصاً دمشق .

وزاد فيصل من اتصالاته مع حلفائه البريطانيين مستنكراً مما يجول في المنطقة ، غير ان الاخيرة تغاضت عن الامر لتسهيل عمل حليفتها فرنسا .

وامام كل التطورات اضطر فيصل لارسال ممثله نوري السعيد الى بيروت لمقابلة الجنرال غورو للتشاور معه في موضوع زيارة يقوم بها فيصل لاوروبا ، إلا ان غورو انبأه إستحالة اي تقدم وأبلغه ان رسالة هامة ستصل فيصل في القريب العاجل .

لم تكن هذه الرسالة الهامة سوى الشروط التي ستطرحها فرنسا على الحكومة العربية والتي ستأتي بشكل انذار لها يجب تنفيذه . شرح غورو في مستهل الرسالة الاحوال والاوضاع التي آلت اليها البلاد خلال ولاية الحكومة العربية والمتمثلة بالحركات النضالية ضد جنود الاحتلال التي يعتبرها غورو مجرد تعدٍ ضد قواته . وأورد غورو « خبر تسع حوادث مع ذكر اسماء الزعماء المسؤولين عنها وهي حوادث تشمل اعمالاً تخل بالامن اخلالاً خطيراً في مناطق الشيعة في جنوبي لبنان . . . »[(١٠)] ثم تابع عرض سياسة الحكومة وتدابيرها ضد السياسة الفرنسية اضافة لعرض الخسائر الناتجة عن الاعمال العسكرية ضد قوات الاحتلال .

بعد هذا السرد للوضع العام في سورية ، كشف عن الانذار للحكومة الذي اتخذ شكل ضمانات تطلبها فرنسا وعلى الحكومة العربية تنفيذها على ان يصار الابلاغ عن قبولها في مدة اقصاها منتصف ليل ١٧ تموز ، وتضمنت هذه الضمانات :

« ١ ـ حق التصرف بسكة رياق ـ حلب بصورة مطلقة ، ويتضمن هذا التصرف بان يراقب مفوضون عسكريون فرنسيون جميع ما ينقل في محطات رياق ـ بعلبك ـ وحمص وحماه وحلب ، كما انه من الضروري جداً إحتلال مدينة حلب التي هي مركز مواصلات هامة لذا لا يسعنا تركها تسقط بيد الجيش التركي .

٢ ـ الغاء التجنيد الاجباري كما انه ينبغي تسريح الجنود الى ان يبلغ الجيش

---

(١٠) زين زين ـ الصراع الدولي . . . مرجع سابق ص ١٧٠ .

الشريفي العدد الذي كان عليه بتاريخ الاول من كانون المنصرم .

٣ ـ قبول الانتداب الفرنسي . ان هذا الانتداب يحترم استقلال الشعب السوري ، ولا يناقض مبدأ الحكم بسلطة دستورية تستمد سلطتها من ارادة الشعب ولا يتضمن الانتداب سوى المعاونة بشكل مساعدة من الدولة المنتدبة ، دون ان يتخذ مطلقاً شكل الاستعمار أو إلحاقٍ أو إدارة مباشرة .

٤ ـ قبول العملة الورقية السورية كعملة وطنية سورية .

٥ ـ تأديب « المجرمين » الذين كانوا اشد اعداء فرنسا »[١١] .

كان مع الحكومة فرصة ثلاثة ايام لقبول الشروط او رفضها ، وفي حال تبني الفكرة الثانية ، « الرفض » فان الحكومة الفرنسية تكون حرة في التصرف وفق رأيها .

أوجد الانذار جواً من الحماس للمواجهة الذي دبَّ سريعاً في نفوس المواطنين ، ونشط التحرك الشعبي في معظم احياء دمشق فيما بدأ رجالات الحكومة في المدينة اجتماعات موسعة لمراقبة الوضع .

في اجتماعات الحكومة العربية التي كثفت نشاطاتها ، اختلفت الآراء بين قبول لبنود الانذار وبين رفض مطلق لأي من بنوده .

اما المؤتمر السوري العام فقد رفض قبول البنود واصرَّ على المقاومة والتصدي . وأهم من أصرَّ على المقاومة كان وزير الخارجية يوسف العظمة ؛ فمنذ اعلان الانذار قام العظمة بتحركات واسعة شملت فرق الجيش العربي مع مراقبة للمواقع الاستراتيجية المواجهة لسهل البقاع ، هذا امام المساندة الشعبية التي انضمت للقائد العظمة والتي فوجئت في العشرين من تموز بقرار الدولة قبول شروط الانذار بما في ذلك تسريح الجيش الذي اخلى مواقعه وصَعُبَ إعادة تجميعه .

طالبت الجماهير يومها باسقاط الحكومة واجمعت كل المظاهرات الصاخبة على ذلك والتي دعت المواطنين للدفاع والتصدي .

ووصل الامر لاقتحام دار فيصل « الخائن » حسب ما ورد في هتافهم ، الا ان

---

(١١) نفس المرجع السابق ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

الجنود تمكنوا من منعهم من الدخول .

الى ذلك سافر وفد عربي يحمل الرد بقبول بنود الانذار ووصل بيروت في الوقت الذي بدأت فيه القوات الفرنسية زحفها وتقدمها نحو الشرق ، وفسر غورو ذلك بعدم وصول الرد اليه في الوقت المحدد .

المهم في ذلك ان وحدات الجيش الفرنسي بدأت زحفها عندما سرَّح الجيش العربي كتائبه ، ولم يبق في الساحة سوى المناضل يوسف العظمة الذي سارع الى جمع المتطوعين لصد الهجوم الفرنسي ، ومع تقدم القوات الفرنسية استعد المتطوعون العرب لصد الزحف ، والتقى الجيشان في ميسلون حيث نشبت بين الطرفين معركة غير متكافئة عدة وعدداً ، اسفرت عن هزيمة الجيش العربي واستشهاد قائده يوسف العظمة . واكملت القوات الفرنسية زحفها باتجاه دمشق ودخلتها في اليوم التالي بينما كان فيصل قد انسحب مع اعضاء حكومته الى درعا .

ومع دخول السلطات الفرنسية دمشق وجهت الى الملك فيصل انذارات لترك درعا في الاول من آب . وانهى برحيله ، ودخول فرنسا دمشق ، تاريخ الحكومة العربية التي وضع كل العرب آمالهم عليها لبناء دولة جديدة .

انشاء دولة لبنان الكبير :

دخلت فرنسا دمشق في وقت بدأت قواتها حملة واسعة ضد الثوار الموالين للحكم العربي على معظم اراضي سوريا .

وأضحت المنطقة بأسرها بأيدي السلطات الفرنسية ، حيث بدأت بتنفيذ بنود اتفاقية سايكس ـ بيكو على ارض الواقع .

وأول عمل قامت به السلطات المحتلة تقسيم المنطقة السورية لعدة دويلات طائفية بحيث اعطت كلاً منها طابعاً طائفياً خاصاً ، مع تصفية الاعمال الثورية في المنطقة الغربية ، وبدأت مشروعها بانشاء «دولة لبنان الكبير » تجسيداً لاحلام اهالي «جبل لبنان » . « ففي اول ايلول ١٩٢٠ اعلن الجنرال غورو باسم الجمهورية الفرنسية قيام لبنان الكبير وتوسيع حدوده ليشمل جبل لبنان والمناطق التالية :

ـ مقاطعة بيروت وتضم منطقة صيدا وصور ومرجعيون .
ـ مقاطعة طرابلس وتضم منطقة عكار .

ـ الاربعة مناطق التالية : البقاع ، بعلبك ، حاصبيا ، راشيا »[١٢] .

ووفق هذا التقسيم الجديد الحق جبل عامل بالدولة الجديدة .

التمسك بالولاء العربي :

إلّا انه رغم ضم الجبل ادارياً للدولة الجديدة بقي العامليون يتطلعون باحلامهم الى عاصمة المنطقة « دمشق » ويعلقون عليها آمالهم وطموحاتهم .

واعتبر العامليون انفسهم مرتبطين مصيرياً بالواقع السوري العام فابقوا مشاركتهم بكل تطور على الساحة رغم القمع والارهاب الذي مارسه الاحتلال .

ورفض كثير من السياسيين العامليين ورجال الدين اي تعامل مع الدولة الجديدة وطال العديد منهم حملات القمع من قبل سلطات الاحتلال .

وقد عبَّر العامليون عن الولاء السوري ، والرفض التام للضم خلال عدة مؤتمرات شاركوا فيها نوردها في حينها .

مواصلة النضال العسكري خارج الجبل :

نزح زعماء المقاومة خارج حدود الجبل ، خلال حملة « نيجر » الارهابية وتفرقوا ، منهم من رحل الى فلسطين ومنهم الى شرقي الاردن ومنهم الى سوريا .

ومن هناك واصل المناضلون العامليون الثورة ضد جنود الاحتلال الذين تواجدوا على الارض السورية .

بادىء ذي بدء، انسحب المناضل ادهم خنجر الى خارج الجبل باتجاه حوران ، ثم بعد معركة ميسلون الشهيرة أقام في قرية (الزبيد) القريبة من بلدة الجاعوني في فلسطين ، واقام معه رجاله وكل من محمد التامر والحاج خليل العبد الله وعائلتهما .

ويروي القاضي رضا محمد التامر في مذكراته المنشورة عام ١٩٥٥ حادثة حصلت هناك مع ادهم خنجر وبحضور والد القاضي رضا فيقول: « وفي صباح احدى الايام كنا جالسين في المنزل في قرية الزبيد. وإذ بنا نفاجأ بما يقارب الخمسين جندياً

---

(١٢) مهيب حماده ـ تاريخ علاقة البقاعيين بالسوريين ـ ١٩٨٢ ص ١٤٣ .

من الانكليـز يطوقـون المنزل الـذي نسكنـه وفي مقـدمتهم مختـار القـريـة ، ويـدعى الخواجة (الطي) يهودي الجنسية ، ونادى على والدي ليخرج لمقـابلة الجنود فـأيقنا ان الانكليز اتفقوا مع الفرنسيين على تسليمنـا اليهم ، وان الجنود جـاؤوا للقبض على خالي كامل بك وعلى والدي والحاج خليل عبد الله . خرج والدي وهـو مرتـدٍ قميص النوم وقبل خروجه طلب من ادهم ان يدخل ويختبىء بين النسـاء، فرفض ادهم طلبـه قائلاً إذهب يا خال واستفسر طلب الجنود ولا تخاف عليَّ .

خرج والدي فوجد المختـار قادمـاً برفقـة الجنود فتقـدم والدي ليستفسـر ما هـو طلب الجنود ، وإذا بأدهم يقفز مسرعاً من نافذة المنزل وهو مدجج بالسـلاح ومصوبـاً مسدسه الى رأس المختار الخواجه الطي صـائحاً بـالجنود بعـد تأكـده أنهم من اليهود ومتستـرين بلباس جنـود الإنكليز ، قـائـلاً لهم اذا كنتم تعتقـدون إنني ممن يـطوقـون بـالحبال كمـا فعلتم مع غيـري من قبل فخسئتم وخـاب ظنكم إني أنـا أدهم خنجـر . وخاطب المختار قائلاً له : إما أن تطلب من هؤلاء الجبناء أن يفكوا طوقهم عن المنزل وينصرفوا إلى خارج البلدة حتى يكون لي لقاء معهم بمفردي هناك حيث لا يوجد نساء ولا اطفال ، وإما أن أطيّر نخاع رأسك . فلما سمع المختار ذلك من أدهم والمسدس موجه على رأسه جمد في مكـانه وصـار يخاطب الجنـود باللغـة العبريـة . لكن والدي خشي من عاقبة الأمر ، فثار بوجه أدهم وطلب منـه عدم استعمـال لهجته القـاسية مـع الجماعة خوفاً من حصول ما لا تحمد عقباه وتشريد النساء والاطفال ثـانية . لكن أدهم لم يلتفت الى والدي وصاح بجماعته الممترسين على زوايا سـطح المنزل قـائلاً لهم : كـل من يبقى من هؤلاء مكانـه أردوه قتيلاً فمـا كـان من الجنـود المـزيفين إلاَّ وبـدأوا ينسلون من المكان خلف بعضهم حتى أصبحوا بعيدين عن المنزل رغبـة لطلب أدهم ومخاطبة المختـار لهم بالعبـرية . وفيمـا بعد صـاح على رجلين من رجالـه وهما علي نـدى من قريـة الريحـان، وأيوب عليق من يحمـر الشقيف فـوثبـا كـالأسـدين واعتليـا جـواديهما وبيـد كل منهمـا بندقيتـه الحربيـة مصوبـة نحو الجمـاعـة حتى أبعـدوا عن المنـزل، وبقي المختار واقفـاً وحده وينـظر الى ادهم، وقبل مسيـره قال لـوالـدي ان الجمـاعـة تـزيّـوا بـزي الانكليـز وجـاؤوا بي رغمـاً عن إرادتي، واني لا أعلم مـا هـو مقصدهم، أنا بأمرك يا أدهم بك وبأمر محمد بك. وبعد اطمئنان المختار على حياتـه انصرف الى منزله ، وركب ادهم وبقية من معه والتحقوا بجماعتهم ، وقبل انصـرافهم

تجولوا بشارع البلدة بدون اكتراث . لكن والدي طلب من ادهم مراعاةً لشعور النساء والاطفال مغادرة القرية والذهاب الى احد منازل شيوخ عرب القليطاط القريب عن قرية الزبيد ثلاثة كيلومترات تقريباً . وقبل مغادرة ادهم أعلمه والدي بأنه سيوافيه الى عند أحد مشايخ العربان ويتحادث معه بأمر إقامته ومصيره ، فامتثل أدهم لكلام والدي وذهب وبرفقته جماعته . وفي المساء عاد الينا وبرفقته الرجلين أمضى السهرة بيننا وركب والدي ورافق أدهم الى مضارب عرب القليطاط »(١٣) .

لقد حاول اليهود التخفي بثياب الجنود الانكليز حتى لا ينكشف أمرهم ، وما عملهم هذا إلّا للانتقام من أدهم حيث انه كان « قتل رجلين وامرأة منهم في مستعمرة التخشيبة ، اثناء حادث وقع بينه وبين طلائع الجيش الفرنسي الذي كان يتعقب أفراد العصابات الثائرة بعد احتلال بلاد جبل عامل »(١٤) .

وكانت حادثة مماثلة قد جرت مع المناضل صادق الحمزة اثناء انسحابه الى سهل الحولة، عندما استدرجه اليهود الى سهرة ذات مساء، واتصلوا بسلطات الانتداب البريطاني لالقاء القبض عليه، الا انه اكتشف المكيدة ، واشتبك مع الدورية التي حضرت لاعتقاله وتمكن من الفرار.

ادهم خنجر عند الملك عبد الله:

وتوجه ادهم بعد هذه الحادثة الى شرقي الاردن، وفي طريقه اليها عرج الى القنطرة، والتقى فيها بالثائر احمد مريود، ثم وصل اربد، وفي شرق الاردن نزل عند الامير عبد الله الذي اسند اليه وظيفة مفوض بالشرطة ليبقى مقرباً منه، الا انه لم يصمد كثيراً في سلك السلطة فتركها « وجاء ليلتحق بالثورة ، متابعاً رسالته . وكان مؤمناً بأن عليه واجباً لهذه الرسالة المقدسة »(١٥) .

أما البطل صادق الحمزة فقد وصل سوريا واتصل مع قياديي الثورة هناك حيث نسقوا عدة عمليات خاضوها في حوران وجوار دمشق . فيما الثائر محمود الاحمد البزي هاجر من البلاد باتجاه افريقيا حيث اكمل حياته هناك .

(١٣) رضا التامر ـ ذكريات رضا التامر ـ بيروت ـ ١٩٥٥ ـ ص ٣٢ ـ ٣٣ .
(١٤) رضا التامر ـ نفس المصدر السابق ص ٣٣ ـ ٣٤ .
(١٥) نفس المصدر السابق ص ٤٧ .

وتشهد المنطقة السورية عمليات بطولية قام بها الثوار العامليون على أرضها خصوصاً نضالات الحمزة ، والمحاولة البطولية التي قام بها أدهم خنجر لاغتيال الجنرال غورو اثناء زيارته القنيطرة .

محاولة اغتيال « الجنرال » غورو :

اراد الجنرال غورو المفوض السامي الفرنسي في الشرق « وهو في مركز القوة وبعدما دانت اليه مقاليد السلطة ، أن يبدأ عهداً جديداً من التعاون مع زعماء البلاد تدليلاً على حسن نواياالانتداب الافرنسي ، فتوجه في احد الايام بموكب رسمي ، لزيارة الامير محمود الفاعور في القنيطرة (كان الفاعور لفترة وجيزة احد الملتفين حول فيصل والثائرين ضد الانتداب بحيث عملت مجموعات عاملية تحت رايته) وكان ذلك في ٢٣ حزيران ١٩٢١ »[١٦] . وامام تحركات ادهم خنجر في المنطقة ، وصلته اخبار عن هذه الزيارة ، فاستغل المناسبة وجمع رجاله وكمن للموكب عند مشارف بلدة القنطرة منتظراً وصوله .

وما هي إلاّ ساعات حتى اطلّ موكب غورو مع بعض الملتفين حوله من خونة البلاد ، وكالبرق فاجأ الثوار الموكب وامطروه بالرصاص من كل الاتجاهات مركزين على مكان تواجد غورو « فاصيب الجنرال غورو بكمّ ذراعه المبتورة ـ والتي كان قد خسرها في احدى معارك الحرب الكونية الاولى ـ فنجا باعجوبة في حين قتل امين سره القومندان (برانية) واصيب مرافقه حقي بك العظم رئيس دولة سوريا في ذاك الوقت برصاصة في فخذه واخرى في ذراعه وثالثة في شفته »[١٧] .

وبالفعل نجا غورو من الموت باعجوبة في حين كان أول من يُقصد . . . وفرَّ الثوار بعيداً عن الانظار تاركين الساحة تتلوث بدم القتلى والجرحى ، وادهش هذا العمل البطولي السلطات الذي عبر به المناضل ادهم خنجر عن امرين :

١ ـ تتبعه لاخبار المنطقة خصوصاً تلك التي تخص جنود الاحتلال وقياديه من تحركات في البلاد .

---

(١٦) سلام الراسي ـ لئلا تضيع ـ مصدر سابق ص ٩٤ .

(١٧) نفس المصدر السابق ص ٩٥ .

٢ ـ شجاعة فائقة في التصدي للجنود متى سمحت الظروف .

وعلمت السلطات ان اعين الثوار تتبعها في كل مكان ، وقامت بعد المحاولة البطولية بتجريد حملة انتقامية في منطقة العملية ، طالت اهالي بلدات مجدل شمس وجياتا حيث « دمروا بيوتهم وفرضوا عليهم غرامات مالية باهظة جداً وتبين بعد ذلك ان ادهم خنجر هو الذي كان يقود تلك الشلة من الفرسان المكلفين بقتل الجنرال غورو »[١٨] واصدرت السلطات الفرنسية آنذاك امراً لكل ثكناتها بملاحقة وتتبع اخبار ادهم خنجر لاعتقاله .

نسف المؤسسات الفرنسية :

واضافة لاعماله البطولية ضد جنود الاحتلال ، وجَّه المناضل ادهم خنجر انظاره نحو المصالح الفرنسية في البلاد وخصوصاً المنشآت العامة ، فقد توجه « على رأس مجموعة من رجاله لنسف محطة توليد الكهرباء في دمشق ، فانكشف امرهم ولاحقتهم السلطة الفرنسية »[١٩] .

اللجوء الى السويداء والقبض عليه :

بعد محاولة تنفيذ العملية البطولية التي استهدفت محطة توليد الكهرباء الفرنسية ، أخذت قوات الاحتلال تتابع تحركاته مما دفعه الى التنقل بخفية في سوريا .

وقرر إذّاك اللجوء الى دار المناضل سلطان باشا الاطرش احد الثائرين على سياسة السلطات الفرنسية في جبل الدروز في السويداء .

امتطى ادهم جواده وسار نحو « القريّة » بلدة الثائر سلطان الاطرش فوصلها ليلاً ، غير أنه لم يجده في منزله ، إلاّ أن أهل البيت اصرّوا على بقائه ريثما يأتي .

في تلك الليلة حدث ما ليس في البال عندما وشى احد مواطني المنطقة من عملاء السلطات الفرنسية بوجود ادهم في منزل السلطان فما كان من السلطات

---

(١٨) نفس المصدر السابق ص ٩٥ .

(١٩) سلطان باشا الاطرش ـ مقابلة مع مجلة صباح الخير ـ شباط ١٩٨٢ ص ٣٣ .

الفرنسية إلاّ أن احاطت بالمنزل « والقي القبض عليه دون معرفة صاحب البيت الذي كان يومذاك غائباً عن داره فعدَّ ذلك خرقاً لتقاليد الضيافة »[٢٠] .

في قراءة لهذه الحادثة كتبها المؤرخ يوسف ابراهيم يزبك يلمس القارىء مدى المأساة التي لاحقت الثائر أدهم خنجر ليأخذ صورة واضحة عن تضحيات الثوار في حركة النضال ، يسرد المؤرخ :

« في ذات ليل من صيف ١٩٢٢ منذ ستين عاماً والناس نيام في بلدة القريّة في جبل الدروز بلدة سلطان الاطرش ، وصل الى دار السلطان رجل ملثّم نهكه الجوع والعطش وهدَّه التعب والاضطراب ، فارتمى ارضاً ، اسرع اليه الخادم نواف يرى من المنتاب ، فقال له الزائر :

ـ اريد سلطان ، انا ضيفه .

الضيافة في ذلك الزمان المبارك هي من مقدسات التقاليد الدرزية مقدسة بالمعنى الكامل للكلمة . لفظة ضيف تعني جميع موجبات الشرف والكرم والمروءة متى دخل الضيف بيتاً صار آمناً لا تطوله يد مهما سما المقام بصاحب هذه اليد .

اسرع الخادم بادخال الزائر المضافة ـ مضافة القريّة التاريخية ـ وخرج يأتيه بالقهوة فاستوقفه هذا قائلاً :

ـ « انا ادهم خنجر هربان من درب الحكومة ، انا في وجه سلطان . . . » (اي لاجىء اليه) .

« في وجه السلطان . . . » كبرت الكلمة في سمع نواف الخادم فكرر الترحيب مؤهلاً ، مؤنساً وطمأنه أن رب البيت سيأتيه بعد قليل ، ولم يكن سلطان الاطرش في بيته ولا في قريته ، لكن من عادة بني معروف في الجبلين ، هنا وفي سورية (يقصد لبنان) انه لا يقال لزائرهم ان صاحب الدار غائب ، مهما بعد عن داره ، وانما يرجعون بالطارق ويقولون له :

ان رب البيت آت بعد قليل .

واستيقظت ام سلطان وعرفت نبأ الزائر اللاجىء الى حمى ابنها . فنهضت تعد

(٢٠) عباس ابو صالح ـ تاريخ الموحدين الدروز ـ مرجع سابق ص ٣١٨

لـه بنفسها العشـاء . ادهم خنجر الصعبي من جبـل عامـل ـ وآل صعب هؤلاء عشيـرة قديمة جداً كان لها مجدها في دولة صـلاح الدين الايـوبي وحكمت مقاطعـة الشقيف وكـان سلطان يعرف ادهم من سـراة البيوتـات اللبنـانيـة العـريقـة في الجنـوب ، ومن شجعانها المغاوير الذين قاومـوا الاحتلال الفـرنسي ، انه قـاد ضد هـذا الاحتلال مـع اخـوان له من آل عسيـران وآل بزي وسـواهم عصابـة القت الـرعب في حكـام صيـدا ومـرجعيـون وصـور واقضت مضـاجعهم ، ولمـا استسلم ثـوار الجنــوب لحكم النـار والحديد افترق ادهم خنجر عنهم خوفاً على نفسه من مشنقة المحتلين الذين كانـوا قد حكموا عليه بالموت ، ففر الى البراري متوارياً عن الابصار ، ولكنه لم يرم سلاحـه . وفي ذات يوم عرف ان الجنـرال غورو آت الى الجـولان لزيـارة محمود الفـاعور اميـر عشيرة الفضل فأسرع ادهم وقطع الطريق ، ولمـا اطلَّ الجنـرال اطلق الرصـاص عليه (حزيران ١٩٢٠) ولكنه اخطأه . وغورو في ذلك الزمان احـد اعلام الجيش الفـرنسي الذي وصفه لويد جورج رئيس الوزراء البـريطاني بـانه « الجيش الاعـظم في العالم » وغورو ايضاً هو المفوض السامي للجمهوريـة الفرنسيـة في سوريـة وكليكية وصـاحب الصلاحيات التي تحاكي صلاحيات الأباطـرة الرومـان : الموت والحيـاة بين شفتيه ، وعرف الفرنسيون في الحال ان هذا العمل الرهيب عمله ابن خنجر فشدوا في مطاردته وشددوا ووعدوا بمكافأة كبرى لكل من يأتيهم به حياً أو ميتاً ، ولكن جهـدهم طار مـع الـريح ، وظـل ادهم متخفياً يتنقـل متخفياً من مخبـأ إلى آخر ، من قعـر واد الى قمـة جبـل ، حتى وصل الى (القـريّة) بلدة سلطان الاطـرش (وفي قولـه انه وصـل اليها فارساً) .

تعشى ادهم وانتـظر مجيء السلطان ، غيـر ان سلطانـاً تـأخــر فـأدرك ادهم ان مضيفـه غائب ، وكـان الـلاجىء تعبـاً مـرهقـاً في اشـد الحـاجـة الى النـوم واستسلم لكابوسه ، وفي الصباح الباكر أفاق على جلبة تقرع (تقرب) من المضـافة ثم سمعهـا في الباب ، فأوجس خيفـة ووقف الى النافـذة يطلب مهـرباً ، وفـوجىء بضباط ودرك يحيطون بالدار وقد سدوا المداخـل والمخارج كلهـا ، فرفعـوا المسدسـات في وجهه وبلمح البرق انقضوا عليه فاسقط في يده لا يستطيع حراكاً .

وركضت ام سلطان مذعورة تستطلع الخبر : مـا هذا يـا نواف ؟ وأشـار الخادم الى نـافذة المضـافـة فـرأت الجنـد قـد كبَّلوا ضيفهـا فصـرخت فيهم : « ضيـف . . .

ضيف . . . ضيف . . . » ولم يردوا ، بل ساقوه الى طريق الكفر .

أتسأل من أمر بهذا العمل ؟

اتسأل كيف درى الفرنسيون أن ادهم خنجر جاء القريّة ؟

أما الآمر فهو الكاتب ترانغا رئيس دائرة الاستخبارات في السويداء ومستشار الامير سليم الاطرش « حاكم » الجبل وقد ثبت بعد مدة ان هذا المستشار لم يطلع الامير سليماً على عزمه ارسال الجند لاعتقال ضيف سلطان ، وقد تم ذلك كله في ليل واحد واما معرفة ترانغا وصول الضيف فبقيت سراً إلاّ على سلطان الذي عرف ان الواشي واحد من آل الاطرش ، كوفىء على عمله الدنيء بوسام « اللجيون دونور » وسيأتيك السبب في سياق الحديث .

وارسلت ام سلطان احد ابنائها يدعو اخاه للرجوع حالاً .

استقبلته تغص بالدمع :

يا ميمتي يا سلطان ، عشرات الوف الذباح التي نحرتها ونحرها ابوك وجدك من قبل لاكرام ضيوفنا ، وقد جبلت التربة حول البيت بدمائها حتى صارت حمراء ، ذهبت هدراً . . . وانكسر خاطرنا في آخرتي . .

ما الحكاية يا أماه ؟

قصت عليه الخبر فهاله الأمر .

ومشى خطوات ، ورجع . . . ثم تلفت يميناً ويسارًا فرأى المضافة مظلمة ، خيِّل اليه انه يرى لطخات سوداء تملأ جدران البيت وصار يراها في الخارج ، وعلى الطريق ، وفي الضيعة كلها . . . بل رأى نفسه في حوض اسود ، واللطخات تغطي الكون ، وسمع وكأنه في النوم اصواتاً بعيدة تطن في اذنيه ، سمعها تخرج من القبور . . . سمع صوت ابيه ذوقان الاطرش الذي قتله الأتراك لدفاعه عن تقاليد بني معروف وعقائدهم وكراماتهم ، ثم سمع سلطان اصوات اعمامه وجدوده . . . سمع صوت العشيرة يزأر . . . شعر بان النهاية تدور به لتنقض عليه ، يا ويحه لقد خارت قواه وضاقت سبله فجلس على المقعد وبكى . . . مع الفجر كان زيد الاطرش ، شقيق سلطان ، في طريقه الى السويداء ، يحمل الى نسيبه الامير سليم الاطرش « حاكم » الجبل كتاباً يقص فيه الحادث ويختمه بهذا الكلام :

« . . . وانت ادرى الناس يا ابن عمنا بتقاليد العشيرة التي لا ترضى عن هذا العمل ، النخوة الدرزية طعنت في الصميم ، لا ادري ما أقوله امام العرب وأين أضع رأسي ، فأريد منك ان تكتب الى الجنرال غورو وتصف له خطورة الحادث ، وقل له : « ان سلطان لا يستطيع السكوت ولن يسكت عن هذه الاهانة إلا باطلاق ضيفه ، ثم قل له اني مستعد لارضاء الحكومة الفرنسية بما تفرضه ثمناً لهذا المعروف الذي ينقذ سمعتي بين الناس » قلت ان سلطاناً كان خصماً صريحاً للانتداب الفرنسي منذ ساعته الاولى . . . واشتهر انه قائد المعارضة ضده في جبل العرب يصرخ في كل ناد و« مجلس » بان الانتداب منقص من كرامة الوطن ، فوعد سلطان بارضاء حكومة هذا الانتداب تنبئنا بمدى الطعنة التي مزقت قلبه . وكان الامير سليم الاطرش لا يحب نسيبه سلطاناً وكثيرون من الطرشان والمتزعمون الآخرون الدائرون في فلك ضباط الاحتلال كانوا حاقدين عليه حسداً ، لانه بقي شامخ الرأس ، لم ينغمس بالزلفى التي اسف بعضهم اليها ، ولكن سليماً استكبر حادث الاذلال ، وهاله ان يعبث الفرنسيون وفي عهده بتقاليد قومه وعشيرته الى مثل هذا التحدي المهين ، الذي يتناول سمعة الطرشان وسمعة بني معروف جميعاً ، فلم يرَ مناصاً من مراجعة مستشاره الكابتن ترانغا بما كتبه اليه نسيبه لعله يرعوي ، فأصرَّ المستشار على اعتقال ادهم خنجر وعلى رفض التدخل في شأنه .

كتب الامير سليم الى سلطان بما جرى بينه وبين ترانغا ، ثم همس في اذن زيد شقيق سلطان بانه سيؤيد سلطاناً في كل احتجاج يبديه على دوس تقاليد البلاد ، بأنه مستعد للاستقالة فيما اذا فشل مسعاه . واستطاع ادهم ، بواسطة موظف لبناني من المتن ان يوصل الى سلطان رسالة يخبره فيها بمأساته ويختمها بهذه العبارات :

« . . . دخلت دياركم العامرة مستجيراً وأنا أمين على نفسي لأني أعرف شهامتكم ونخوتكم ، ولا أزال داخلاً في حريمكم واولادكم والطرشان كلهم ، فحياتي صارت بقبضة الفرنسيين . . . وعطوفتكم فهمكم كفاية . . . واختم بتقبيل يدكم »(*) .

(*) يورد حنا ابو راشد في كتابه : جبل الدروز سلطان باشا الاطرش ـ مصر ـ زيدان ١٩٢٥ البرقية التي ارسلها ادهم خنجر الى سلطان الاطرش وهذا نصها :

فازداد قلق سلطان واشتد اضطرابه : انه لم يشعر مرة في حياته بمثل هذا الالم الذي فجّره كلام ضيفه ، ومزّق قلبه ، انه يكاد يجن ، وفجأة خطر بباله خاطر يقرر مصيراً : يا لنخوة بني معروف . . . وابرق الى الجنرال غورو في بيروت بتفصيل ما حلَّ به ، وقال له :

« الاتفاق بين فرنسا ودروز الجبل انكم تحترمون عوائدنا وتقاليدنا وغير خافٍ على فخامتكم ان الذي يقصدنا يصير ضيفنا ، والضيف نحميه بدمنا ، وادهم خنجر قصدني حتى ارجو له العفو من فخامتكم فاخرجوه من بيتي في غيابي ، راجعت حكومة السويداء وما جاوبوني ، والكابتن ترانغا لا يقبل مراجعة ، استحلف عدلكم وشرفكم العسكري ان لا تسمحوا بجعلي مضغة في افواه العرب اذ ليس في البلاد رجل اهين مثلي هذه الاهانة ، تكرموا عليَّ بارجاع ضيفي وقيدوا عنقي بالجميل طول حياتي ، واذا كان العكس لا سمح الله فاني اقول بكل صراحة ، اني انظر الى موتي واهانة ضيفي كأنهما امر واحد ولا فرق بينهما ، والعاقبة غير محمودة . واكرر

كتاب ادهم خنجر

سيدي صاحب العطوفة سلطان باشا الافخم :

«بعد اهداء السلام اقبل الايادي مع الاقدام، ثم اعرض لعطوفتكم بانني كنت قاصداً دياركم العامرة لاجل ان احتمي فيها من نوائب هذا الزمان، فعندما وصلت القى القبض عليَّ المدير والعسكر ، واخذوا مني حصاني وامتعتي كلها وبعد سألوني عن اسمي فجاوبتهم الواقع ، وبعد اخذ افادتي ذهبوا بي الى «الكفر» وبعد مضي خمس ساعات في البلد ذهبوا الى السويداء والآن قيد السجن.

فالآن اصبحت حياتي في يد الحكومة الفرنسية ولا يمكن تخليصها الا بمساعدتكم وعلى كل حال لكم في العادة ان تحموا وتخلصوا كل مناداق، وانا لولا ما كنت امين على حياتي بوجود عطوفتكم ما كنت اتيت جهراً. . . والآن دخلت دياركم العامرة مستجيراً، وداخل في حريمكم وفي اولادكم حتى وفي كل الطرشان . . . ».

١٨ تموز (يوليو) سنة ١٩٢٢

الداعي

ادهم خنجر الصعبي

«حاشية : سيدي لم يكن ان يمضي عليَّ اكثر من اليوم في السويداء ومن بعد مرادهم ان يسفروني الى الشام، فارجوكم تداركوا أو تدرِكوا هذه المسألة اليوم، حيث لا معين لي غير عطوفتكم ودمتم سيدي» .

الالتماس من مروءتكم لانقاذ شرفي ووطني »(*) .

قال الراوي رحمه الله : « هذه البرقية الى الجنرال غورو لم تترجم كافية ، وانما اختصروا مضمونها ، هل عن قصد ؟ ففهم المفوض السامي انها تهديد فغضب ، وكان غورو قد وقرت اذناه بما سمعتاه عن عداء سلطان الاطرش للانتداب الفرنسي ، وصوروه له بانه العدو اللدود لكل شيء فرنسي .

فأمر الجنرال بارسال طائرة من دمشق الى السويداء لتقل ادهم خنجر الى بيروت ، ونقلوه « وحاكموه » وحكموا عليه بالاعدام »[٢١] .

من خلال هذه القصة الصغيرة لحادثة اعتقال المناضل العاملي ادهم خنجر تبدو صورة جلية عن اهمية ثوار الجبل في تخطي العمل المحلي نحو الثورة العامة ، اضافة لروح الثورة التي عمت البلاد والتي مثل سلطان باشا الاطرش احد رموزها وقيادييها .

انتظر سلطان الاطرش عودة شقيقه الذي فاجأه بخبر نقل ادهم خنجر وانهم لن يبقوه في قلعة السويداء . سارع سلطان الى جمع رجاله وتمركز « في قرية (التلعة) قرب السويداء لقطع الطريق على السيارات التي قد تحمل السجين الى دمشق »[٢٢] ظناً منه ان السلطات ستنقل ادهم بواسطة السيارات .

علمت فرنسا بالامر وما يجري هناك ، فارسلت آلياتها الى المنطقة وسيارات

(*) يورد حنا ابي راشد نص البرقية على الشكل التالي :
عالية : فخامة المندوب السامي لسوريا ولبنان المعظم : «مع الاسف، لم يراع البند ان فرنسا تحافظ على تقاليدنا وعوائدنا ، ومعلوم ان الضيف والقاصد هما واحد في نظر العشائر، فرجال حكومتنا الوطنية، لم يراعوا هذا البند وسعادة المستشار ترانكا يؤيد اصراره، اطلب من حلمكم او عدلكم ان لا تجعلني مضغة في افواه العرب، وان اتخصص بالاهانة، عن امثالي في سوريا، بعد هذا اعترف في حلمكم، ويقضي الواجب اوامر الشكر، لفخامتكم وجاها . . غير مجهول ان موتي، واهانة ضيفي، مثل بعضهما في عوائد السوريين . . ».

(٢١) يوسف ابراهيم يزبك ـ مجلة الجمهور ـ ١ نيسان ١٩٨٢ ص ٣٥ ـ ٣٦ ومجلة المستقبل عدد ٢٦٧ ، ص ٥٤ ـ ٥٥ ـ ٥٦ .

(٢٢) مجلة صباح الخير ـ مرجع سابق ص ٣٣ .

مصفحة كما ارسلت طائرة للسويداء لتقل ادهم الى دمشق ، عند وصول السيارات الى المنطقة هاجمها سلطان مع رجاله وانقضوا على احداها « وهي تطلق عليهم نار رشاشاتها دون ان يتراجعوا وتمكنوا من تحطيمها بعد تعطيلها »[٢٣] ولما وصل خبر ارسال الطائرة لنقل ادهم الى سلطان الاطرش هاله الامر ورفع يده للسماء وقال :

« لا حيلة لنا في السماء ، اما في الارض فاننا مستعدون لبذل ارواحنا في سبيل كرامتنا »[٢٤] .

ومنذ ذلك اليوم اعلن المناضل سلطان الاطرش الثورة جهراً على الانتداب الفرنسي(*) بحيث شكلت حادثة اعتقال ادهم خنجر الشرارة لانطلاقة هذه الثورة(**)

---

(٢٣) عباس ابو صالح ـ مرجع سابق ص ٣١٩ .

(٢٤) نفس المرجع السابق ص ٣١٩ .

(*) واجه سلطان الاطرش خلال انتفاضته بعد اعتقال المناضل ادهم خنجر من منزله، عدة مضايقات من ابناء منطقته المتعاونين مع سلطات الاحتلال، واستطاعت الاخيرة الحصول عبر هؤلاء على مناشير تدين انتفاضة المناضل سلطان باشا الاطرش ومذيلة بتواقع رجال الدين في جبل العرب. ومما جاء في احداها:

«... نبدي انه طرق مسامع حضرتكم، ان سلطان باشا ومعه جماعة مخالفين للدولتين الفخمتين، ومرادهم خراب البلاد وتشتيت العباد، حيث العمل القايم به سلطان باشا هو طلب تخليص السجين، ادهم الشقي، بحجة انه ضيفه، وهذه الحجة عارية عن الصحة، حيث لا صحة معقولة ولا برهان سديد تثبت سلطان. هذا خطأ عظيم لا نتيجة له الا بسوء العاقبة الوخيمة، حيث ان ادهم الشقي، تخفى من وجه العدالة، لانه محكوم عليه، بدماء نحو العشرة نفوس فضلا عن اعتدائه على حرمة شخص فخامة الجنرال غورو صديق الجبل...».

راجع وجيه كوثراني ـ بلاد الشام ـ معهد الانماء العربي ـ ١٩٨٠ ـ الشام ص ٣٦٤.

وهذا المنشور يثبت ما لقيه المناضل سلطان باشا الاطرش من مصاعب تجاه نضاله لانقاذ ادهم خنجر..

(**) الهبت حادثة اعتقال ادهم خنجر ونضال سلطان باشا الاطرش لنجدته حماس الشعراء فنظموا القصائد الوطنية فيها ومما قاله الشاعر القروي (رشيد سليم الخوري):

خفقت لنجدة العاني سريعا ... غضوبا لو رآك الليث ريعا
وحولك من بني معروف جمع ... بهم وبدونهم تفني الجموعا
كأن به الى الافرنك جوعا ... وسيفك مثل ضيفك لن يجوعا

ايليا حاوي ـ الشعر العربي المعاصر ـ الشاعر القروي ـ الجزء الثاني ـ دار الكتاب اللبناني ـ ١٩٧٨ ص ٨٤ ـ ٨٦.

والتي ستعود في تموز ١٩٢٥ (الذكرى الثالثة لـلانتفاضـة الاولى) لتتفجر من جـديد كثورة سورية كبرى .

وهكذا تم اعتقال ادهم خنجـر، حيث حوكم من قبـل سلطات الانتداب وحكم عليـه بالاعـدام بتهمة القتـل، ومن الاسمـاء التي اتهم بقتلهـا حسب قـرار الاعـدام : يوسف شداد ونقولا متري وبارو قائد حرس غورو والمسيو برانيه .

وفي ٢٧ تشرين الثاني عام ١٩٢٢ نقل المنـاضل أدهم خنجـر الى سجن القلعة في بيـروت . وفي السجن طلب استئناف الحكم الصادر بحقه الى المجلس الحربي الأعلى في باريس ، إلاَّ أن الأخير صدق على الحكم بإعدامه.

وعن كيفية تنفيذ الحكم ، أوردت الصحف اللبنانية الخبر على الشكل التالي :

«. . . وفي الساعة الخامسة من صباح أمس (الاربعاء ٣٠/أيـار/١٩٢٣) حضر الى سجن القلعة أربعة من الجنـود الفرنسيين بسـلاحهم فاقتـادوا أدهم على سيارة من نوع الكميون يحيط بها شرذمة من فرسان الصباحية ، فتوجهوا به الى سـاحة كبيـرة من محلة الـروشة ، اصـطفت فيها فـرق الجنود الفـرنسية تتقـدمهـا هيئـة ديـوان الحـرب العسكرية في بيروت والموسيقى العسكرية وبضعة عشر نفراً من أهالي تلك المحلة . ولما وصلت السيارة به ، أخذت الجنود السلام وعـزفت الموسيقى ثم أنـزل أدهم من السيارة وكان يحمل بإحدى يديـه كوفيـة وعقالاً ، وفي اليـد الأخرى يـدخن لفافـة من التبغ . واقتاده الجنود الاربعة الى خشبة نصبت في وسط الساحة ، ثم اركعوه وشـدوا يديه وجسمه الى الخشبة المذكورة وكان وجهه لجهة الجنود وظهره لجهة البحر . ولما ارادوا ربط عينيه بمنديـل رفض . ثم وقف اثنا عشـر جنديـاً على مسافـة ستة أمتـار ثم صدر الأمر بانفاذ الحكم عليه فأشار الاودجوان للجنود الاثني عشر فـأطلقوا على أدهم وقد أصاب أكثر رصاصهم جمجمـة رأسه ، ثم اقتـرب الاودجوان واطلق رصـاصة من مسدسه في اذن المقتول حسب المعتاد ثم صدرت الأوامر للجنود بمزايلة المكـان مارة من امــام المقتــول على عــزف المــوسيقى ثم نقلت الجثــة الى حيث دفنـت (في الباشورة) »[٢٥] .

---

(٢٥) البرق ـ عدد ٣١ ايار ١٩٢٣ ولسان الحال عدد ٣٠ أيار ١٩٢٣ . اعدام أدهم خنجر.

« ولم يـذهب اعـدام بـطل مثـل ادهم ، دون أن يثير نقمـة الجمـاهيـر . فقـد اهتاجت الجماهير في بيروت ، وتصـادمت مع قـوى الأمن ، واطلق هؤلاء الرصـاص على المتظاهرين الغاضبين ، وقتل برصاصهم واحـد من الأهلين وجرح كثيـرون ، اذ كان رجال الشرطة يريدون ان يتـولوا دفن الشهيـد « أدهم » وكانت الجمـاهير تـريد أن تستسلم جثمانه ليدفن باحتفال يليق ببطولته ووطنيته »[٢٦] .

اما المناضل صادق الحمـزة فكان قـد فرَّ الى شـرقي الاردن وسوريـا ومن هناك واصل نضاله ضد سلطات الاحتلال الفرنسي ، وخاض بمشاركة اقطاب من الثوار عدة معارك ناجحة طالت المحتل اينما وجد ، واستمر مناضلاً حتى استشهاده . معاصـروه تحدثوا عن اغتياله في منطقة الليطاني ، فيما الشاعر العاملي موسى الـزين شرارة ذكـر « انه قتل في الاردن اغتيالاً »[٢٧] اما شكيب وهـاب احد اقـطاب الحركـات والثورات المسلحة في سوريا ولبنان فقـد ذكر ان الثـائر صـادق الحمزة قتـل « بواسـطة اثنين من رفاقه هما ابو دياب الكردي وشـريف البعلبكي في حوران »[٢٨] فـالكل يتحـدثون عن موته اغتيالاً وإن تعددت الروايات .

اعدم ادهم خنجر واغتيل صادق الحمزة وهاجـر محمود البـزي وتفرق الثـوار ، ومع رحيلهم ماتت الثورة المسلحة في جبل عامـل وخلت الساحـة لمشاريـع الانتداب الجديد .

قراءة في الثورة العاملية ورحلة ما بعدها :

واجهت الثورة العامليـة خلال مسـارها (١٩١٨ ـ ١٩٢٢) مصـاعب عدة عملت على الحد من تقدمها سريعاً وحدَّت من شموليتها .

واذا كانت الثورة قـد استقطبت الفـلاحين فانهـا اصطدمت بجـدار هائـل انشأه اقطاعيو الجبل . . فهؤلاء حرصوا للحفاظ على مـراكزهم المـوروثة عن الآبـاء وسعوا لذلك حتى عن طريق استخدام مختلف الوسائل .

---

(٢٦) رضا التامر ـ مصدر سابق ص ٤٨ ـ ٤٩ .

(٢٧) موسى الزين شرارة ـ من دفتر الذكريات الجنوبية ـ مصدر سابق ص ١٣ .

(٢٨) سلام الراسي ـ لئلا تضيع ـ مصدر سابق ص ٩٦ .

ورغم كل هذا ، استطاعت الثورة العاملية استيعاب كل الافرازات عندما عملت على التصدي لكل تلك المشاريع ، الا ان التدخل الاستعماري الذي كثّف ضرباته للمقاومة اضافة لحملاته العسكرية اجبر المقاومة على الخروج من الساحة العاملية مع زعماء الثورة لتخلو البلاد لحلفاء الاحتلال .

اضف الى ذلك ، الضعف العام في قلب الحكومة العربية التي يصب الثوار كل طموحهم نحوها ويعلقون آمالهم عليها ، والتي انتظروا منها المساعدات وبالأخص العسكرية ، غير انها لم تستطع ان تفي بمتطلبات الثورة العاملية ، وانحصر الدعم على بعض الخطابات والحماس الجماهيري في دمشق .

فالحكومة العربية وبالاخص زعيمها فيصل لم تستطع تبني المقاومة العربية ضد التواجد الفرنسي ـ على سبيل الخصوصية ـ جهراً لاعتماده على الحوار مع الحلفاء ريثما تنجلي كل المواقف .

كل هذا أجبر كل منطقة على تحمل مسؤولياتها وحدها ، وهذا ما حدث في جبل عامل . . .

سارت الثورة العاملية في طريقين : النضال السياسي وقاده العلماء ورجال الدين وبعض المثقفين في الجبل ، والنضال العسكري الذي قاده الثوار في سنوات الاحتلال الاربع (١٩١٨ ـ ١٩٢٢) . في النضال السياسي الذي حمل لواءه علماء الجبل ومثقفوه اضافة للتأييد الشعبي المطلق ، ادى العامليون الواجب تجاه القضية العربية من ولاء للحكومة العربية في دمشق ، الى مشاركة في المؤتمر السوري العام الى عقد مؤتمر وادي الحجير .

وإذا سارت الثورة العاملية في سنواتها الاربع الاولى وفق النهجين العسكري والسياسي فانها ستتخذ بعد العام ١٩٢٢ مساراً واحداً هو الدرب السياسي .

الباب السادس

تحت حكم الانتداب الغربي

الفصل الاول

مشاريع الغرب

لم تحسم المعاهدات المعقودة بين الحليفتين انكلترا وفرنسا ، قبل انتهاء الحرب العالمية ، معظم القضايا المتعلقة بأمور البلاد المحتلة واوضاعها المستقبلية . فقد استمرت الدولتان في اجراء المحادثات على شكل عام بمشاركة دولية (مؤتمرا فرساي وسان ريمو) وبشكل ثنائي (اتفاقات ثنائية وسرية) بحيث لعبت اطماع كليهما دوراً بارزاً في تأزيم الوضع ، وإطالة مدة المفاوضات من تشرين الاول سنة ١٩١٨ الى ايار سنة ١٩٢٠ .

كانت كلتا الدولتين تعملان وفق نهج خاص لكسب مواقف ونقاط الواحدة على حساب الاخرى ، خصوصاً بريطانيا التي اعتبرت نفسها مهدورة الحقوق امام المطالب الفرنسية ، بحيث ادعت ان عطاءاتها البشرية والمادية تفوق بكثير ما قدمته فرنسا خلال الحرب . ومجمل المحادثات التي جرت بين الطرفين انطوت على كيفية تقسيم البلاد المحتلة ، على اعتبار انها غنائم الحرب .

ما يتعلق ببحثنا ، ما جرى من تلك السياسة المتعلقة بالوضع العربي ، او بالأحرى ما عرف يومذاك بالقضية السورية ، والمتعلقة أولاً وأخيراً ببلاد الشام .

بعد كل الجلسات والمحادثات والمؤتمرات ، انتهت المفاوضات وصبت في المعاهدة المعقودة خلال الحرب بين الدول الثلاث بريطانيا وفرنسا وروسيا ، والتي

عرفت بمعاهدة سايكس ـ بيكو حيث عمدت كل من فرنسا وبريطانيا الى تجسيد بنودها على ارض الواقع .

حددت هذه الاتفاقية حصص الدول الثلاث في الدولة العثمانية التي كانت تحتضر يومها ، ووُقع على حصص بريطانيا وفرنسا في الوطن العربي في السادس عشر من ايار عام ١٩١٦ في لندن .

جاءت الاتفاقية المتعلقة بالاراضي العربية في اثنتي عشرة مادة وخصت فرنسا وبريطانيا دون روسيا . نصَّ البند الاول التأكيد على استعداد كل من فرنسا وبريطانيا الاعتراف وحماية « دولة عربية مستقلة او حلف دولة عربية تحت رئاسة رئيس عربي في المنطقتين (أ) (داخلية سورية) و(ب) (داخلية العراق) المبينتين في الخريطة الملحقة بهذا ، ويكون لفرنسا في منطقة (أ) ولانكلترا في منطقة (ب) حق الاولوية في المشروعات والقروض المحلية ، وتنفرد فرنسا في منطقة (أ) وانكلترا في منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الاجانب بناءً على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية »[١] .

ونصَّت البنود الاخرى على مشاريع الدولتين الاستعماريتين في المنطقة (أ) و(ب) ، في انشاء الحكم الذي ترغب فيه كل منهما ، ثم انشاء ادارة حرة في فلسطين (سوريا الجنوبية) على ان تنال انكلترا ميناءي حيفا وعكا (فلسطين) ، كما نصَّت باقي البنود على صلاحيات في التجارة واستلام خطوط سكك الحديد في البلاد وشؤون الجمارك . وشددت الدولتان على عدم التنازل عن اي بقعة من البلاد خصوصاً فرنسا إلاّ بشروط محددة (المادة التاسعة) وعدم التفاوض بشؤون المنطقتين على ان لا تسمح الدولتان لاي دولة ثالثة باقتطاع اقطار من شبه الجزيرة العربية ، في حين نصت المادتان الاخيرتان على ان تستمر المفاوضات مع العرب في امور الحدود مع النظر « في الوسائل اللازمة لمراقبة جلب السلاح الى البلاد العربية »[٢] .

لن نبدي أي تعليق على هذه المعاهدة ، بل اننا نكرر طرح الحقيقة وهي ان التقسيمات الحدودية للاراضي العربية ليست إلاّ مخلفات تلك المعاهدة . كشف

---

(١) جورج انطونيوس ـ يقظة العرب ـ مرجع سابق ص ٥٧٩ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٥٨٢ .

لاول مرة عن هذه المعاهدة أواخر عام ١٩١٧ بعد نجاح الثورة في روسيا ، ورغم اعتراضات العرب عليها إلاَّ ان بريطانيا ، حليفة الشريف حسين ، عمدت الى المراوغة في شأنها ، مذكرة ان حقوق العرب محفوظة لدى الحلفاء ، ولم تؤثر فضيحة المعاهدة في تصحيح خطأ الشريف حسين الذي تمثل بالتبعية للغرب .

مؤتمر سان ريمو :

في مؤتمر فرساي (١٩١٩) عمدت الدول الحليفة الى عرض القضايا وفق المعاهدات السابقة ، حيث اقرَّ المؤتمر بضرورة اخذ رأي المواطنين السوريين من خلال استفتاء شعبي تجاه القضايا المصيرية التي تتعلق بالحقوق العربية وخاصة دولتهم المنشودة . ورغم ان الاستفتاء جاء بنتيجة سلبية لاحلام الغرب إلاَّ أن الدول الحليفة لم تسمح له بالبروز حيث انه لم يشكل أي ضغط ايجابي على المفاوضات الجارية بخصوص البلاد .

واستمرت المفاوضات والاتصالات ثنائية بين فرنسا وبريطانيا واحياناً مع فيصل الى ان جاء مؤتمر سان ريمو (٢٥ نيسان ١٩٢٠) وحسم كل المناقشات باعلانه وضع « كل المستطيل العربي الواقع بين البحر المتوسط والحدود الفارسية تحت حكم الانتداب ، وان تقسم سورية في ثلاثة اجزاء منفصلة : فلسطين ولبنان وما تبقى من سورية ، وان يبقى العراق دون قسمة ، ووزعت الانتدابات بحيث تلائم مطامح الدولتين ، فاما سوريا ولبنان فيوضعان تحت انتداب واحد يعهد به الى فرنسه ، ويكون لبريطانيا انتداب على العراق وآخر على فلسطين ، واضيفت فقرة تنص على ان الانتداب على فلسطين سيلتزم تطبيق وعد بلفور ، ولم يذكر شيء عن التناقض السافر بين هذه المقررات والرغبات الصريحة لدى الشعوب التي يعنيها الامر »[٣] .

ورغم الرفض المطلق لقرارات الحلفاء السابقة والواردة في مؤتمر سان ريمو والذي سمح باعلان النضال رسمياً ضد التواجد الغربي خصوصاً الفرنسي ، الا ان دول الاحتلال باشرت تنفيذ مشاريعها الاستعمارية على ارض الواقع إثر انسحاب القوات البريطانية من دمشق ، تلتها حملات فرنسية ارهابية على مناطق عدة من البلاد

---

(٣) نفس المرجع السابق.

لتصفية الثوار وحُسمت كل المواقف في الرابع والعشرين من تموز ١٩٢٠ عندما زحف الجيش الفرنسي باتجاه دمشق واحتلها بعد معركة بطولية قادها وزير الدفاع في الحكومة العربية المناضل يوسف العظمة الذي جسَّد باستشهاده الرفض العربي لمشاريع الغرب الاستعمارية كما رأينا .

الفصـــل الثانـــي

مـا بعــد ميسلــــون

في خضم الآمال التي علَّقها العـرب على الحكومـة في دمشق ، غيَّرت معـركة ميسلون خارطة المنطقة وفتحت ابواباً جديدة في مسار البلاد .

فقد خرج فيصل بن الحسين مع بعض اعضاء حكومته من دمشق ، الى الحدود الفاصلة بين الانتدابين ، ثم الى حيفا في فلسطين ، بعـد تلقيه تهـديدات مبـاشرة من السلطات الفرنسية للخروج من الاراضي السورية .

ومع خروج فيصل ، تم تشكيل حكومة جديدة في دمشق من العملاء المنتظرين ورود الفرنسيين حيث اتسم دورها بتغطية المشاريع الانتدابية .

وفي ايلول عام ١٩٢٠ كشفت فرنسا عن مخططاتها الراميـة لتجزئـة المنطقـة ، باعلانهـا دولة مستقلة جـديدة في المنـطقة ، اطلقت عليهـا اسم « دولة لبنـان الكبير » وتشكلت هذه الدولة الجديدة كأول تجزئة للبلاد من سهل البقاع وبيروت وجبـل لبنان وجبل عامل واجزاء من ولاية طرابلس .

وفي تشرين اول من العام ذاته اكملت فرنسـا مشروعهـا التقسيمي في المنطقـة عنـدما اعلنت عن تجـزئة مـا تبقى من بلاد الشـام لدويـلات مستقلة في حلب ودمشق وجبـل العلويين وجبل الـدروز ، بحكـومـات مستقلة وأصبحت المنـطقـة مجـزأة وفق اطماع الغرب .

هكـذا اضحت بلاد الشـام : تجزئـة استعماريـة ضمن دويلات مستقلة ورعـاية غربية مباشرة ، هـذا في وقت برز فيـه من ادّعوا تمثيـل العرب ، بثـوب جديـد عندمـا اخذوا يركضون وراء مصالح تافهة ومراكز تخصهم وحدهم .

جبل عامل في اطار التجزئة الاستعمارية :

استطاعت فرنسا من خلال مشروعها التقسيمي للمنطقة ، التقرب لبسط مشروع الانتداب الذي اقرَّه مؤتمر سـان ريمو لتكـون الدولـة الحاكمـة والراعيـة لكل امـر في البلاد .

ولتثبيت دعائم انتدابهـا عمدت الى اتبـاع سياسـة التفرقـة وهو الاسلوب التقني الـذي يستعمله معظم المحتلين لبسط حكمهم . فـاثنـاء إحتـلالهـا البـلاد ، واجهت سلطات الانتـداب تيارات مختلفـة من المعارضـة الشعبية ، غيـر انه مـع سيادة التيـار المقاوم وجد البعض ضـالته في المستعمـر حيث رمى نفسه في حضنـه معطيـاً له كـل الولاء .

وحفظت سلطات الانتداب الدرس الاول من المقاومـة العامليـة ، فأرادت بعـد تثبيت دعائم انتدابها في المنطقة الرد على النضال بسياسة قمعية ضد المواطنين .

ومع ضمه لدولة لبنان الكبير كان على الجبل مواجهة مشاكل جذرية وحـده دون أي مساعدة من اطراف المنطقة . فالسياسة التقسيمية في المنطقـة اعطت لكـل دويلة سياجاً خاصاً ، وانفردت كل منها بحل مشاكلها الخاصة بعد ان حوصرت داخل الثوب الذي حاكه الاستعمار ، مما دفع بالفكر الوحدوي ان ينحصر ضمن مناطق مجزأة .

الســـنوات الاولـى :

واذا كانت انظار العـامليين واخوانهم في معـظم المناطق المشكلة « دولـة لبنان الكبير » معلَّقة على مشروع الوحدة ، فان قسمـاً من سكان الـدولة الجـديدة علَّق كـل طمـوحاتـه على هذه الـدولة ، وانـدفع هؤلاء بحمـاس بالـغ لتثبيت دعائم الـدولـة ، حريصين على التمسك بكل موازين الحكم فيها .

واذا خضنـا مجال الحـديث ضمن دولة لبنـان الكبير على اسـاس تشكيل جبـل عامل احدى محافظاته ، فان هذه الدولة شهدت في مطلع تـأسيسها تيـارين متعاكسين

تجاه وجودها :

ـ **التيار الاول** : الاكثرية وهي التي ترفض تواجد مثل هذه الدولة ، مع الحرص على ما عرف يومها بالوحدة السورية والرفض التام لأي مشاركة ضمن الدولة .

ـ **التيار الثاني** : الأقلية ممن طالبوا بتواجد هذه الدولة وعملوا لها .

هذان التياران المتعاكسان سيواجهان مشاكل جذرية حول اساس هذه الدولة . فاذا كان التيار الاول سيرفض كلياً المشاركة بأي نوع من الحكم تحت ظل الدولة والانتداب ، فان التيار الآخر سيندفع بكل ما له من قوة لبناء اسس الدولة الجديدة ضمن سياسة مرسومة مسبقاً بولاء تام لسلطان الاحتلال .

والرفض المطلق لأي مشاركة في الحكم من الطرف الاول سيؤثر سلباً على مسار الدولة الجديدة التي سيحرص الاستعمار ، بكل ما له من اثر على ابقائها في المنطقة ، والمشاركة من الطرف الثاني في السلطة ستتيح الفرصة لايجاد « كوادره » (علم ، ثقافة ، انماء ، اتجاهات سياسية جديدة . . . الخ) وبمساعدة مباشرة من سلطات الاحتلال ضمن امتيازات وحقوق على حساب المواطنين الآخرين ، وهذا بالطبع سيخل لاحقًا بالتوازن العام بين التيارين بعد ان تسد في وجه التيار الاول معظم الابواب مما سيضطره للقبول بواقع الامور .

ان قراءة سريعة لسنوات الحكم الاولى ضمن الدولة الجديدة ، ترينا الفرق النسبي الشاسع بين ممثلي الشعب ومراكزهم في الحكم وبين من يمثلون من مواطنين .

وسوف نتطرق وفق ذلك نحو دراسة شاملة للتيار الاول خلال مراحل الانتداب الغربي (١٩٢٠ ـ ١٩٤٦) هذا التيار الذي سيفرز بذات المرحلة تيارين مضادين :
الاول يكمل مشروعه الوحدوي فيما ينشق الثاني نحو السلطة ضمن الدولة .

الفصل الثالث

النضال السياسي والمشاركة باحداث فلسطين

تدابير الاحتلال والرفض الشعبي :

استطاعت السلطات المحتلة بسط مشروعها الانتدابي بإلباسه ثوباً مغايراً للحقيقة لتعرضه على المواطنين بتفصيل ولون جديدين .

ووفق مشروعها التقسيمي بدأت دولة الانتداب تمرير سياسة عسكرية ضد المناطق المشكلة للدولة الجديدة ، وذلك ضمن حملات ارهابية طالت النضال العسكري في البلاد .

فقبل اعلان ولادة الدولة ، عمدت سلطات الانتداب الى « تطهير » مناطقها من الآلة العسكرية الكفاحية في وجوه عدة كان ابرزها حملة نيجر على ما رأينا التي طالت جبل عامل .

لقد فاجأت سلطات الاحتلال المواطنين آنذاك بفرضها « ضريبة السلاح على كل قرية حتى ولو كانت عزلاء وليس عندها قطعة سلاح واحدة ، ان تقدم مائة بارودة وكذا (فرودة) وهلم جرا »[1] .

أما ما كانت ترمي اليه سلطات الاحتلال من هذه الضريبة فليس إلاّ لاخلاء

---

(١) حسن محمد سعد ـ مرجع سابق ص ٩٧.

الجبـل من الآلة العسكـرية التي تسـاعده مبـاشرة في كفـاحه ضـد التواجـد الغربي ، واكملت مشروعها لافقار الجبل عندما عمدت الى بيع السلاح ، بالخفاء ، للمواطنين بأسعار عالية لدفعها كضريبة لتستولي على الاموال ويرضخ لمطالبها القاسية .

وهكذا ستدفع هذه الظروف بالعمل النضالي العسكري نحو الوراء ، خصوصـاً اذا ما تأكد لدينا أن ورود مساعدة عسكرية من المناطق المجاورة التي يعلق المواطنين آمالهم عليها أصبح من المستحيلات .

أول نضـال سيـاسي جسَّـده العـامليـون ، خـلال سنـوات الحكم الانتـدابي ، الرفض المطلق للمشاركة بأي شكل في سلطة الـدولة الجـديدة التي شكلت اراضيهم احدى مناطقها .

وانفـرد إذ ذاك قلة من المواطنين في تسلم المـراكز الثـانويـة في الدولـة ، فيما كـانت المراكـز الاساسيـة في ايدي سلطات الانتـداب . ستـة عشـر عـامـاً (١٩٢٠ - ١٩٣٦) سيقضيهـا العامليـون مع اخـوانهم في المنطقـة مع الصـرخة الصـاخبة « لا » للاستعمار و« نعم » للوحدة .

الثورة السورية الكبرى :

ولأسباب عدة أهمها سياسة الانتداب القمعية والروح الثـورية العـامة انفجـرت في المنطقة الثورة وقادها هذه المرة المناضل سلطان باشـا الاطرش ، واستحقت لقب الثورة السورية الكبرى لشمولية اعمالها واتساع آفاقها ، مشكلة حداً فاصلاً في تـاريخ الانتداب للوطن السوري .

بدأت هذه الثورة في جبل العرب (السويـداء) ومن هناك أخـذت تتسع بـاتجاه دمشق بحيث واكبتها انتفاضـات عدة في معـظم انحاء الـوطن منزلـة بقوات الاحتـلال اعنف الضربات .

لم يكن من السهـل أن يلبي العامليـون نداءات الثـورة والمشاركـة بأعمـالهـا . فالبلاد تخلو إجمالاً من أي بندقية بعد أن قضت ضرائب الاستعمار على ذلك ، ورغم هذا اتجهت الثورة في تشـرين اول من عام الثـورة نحو جبـل عامـل من الشرق عنـدما دخل الثوار حاصبيا ، وأجروا على ارض الجبل صدامات مبـاشرة مـع جنود الاحتـلال

وعملائه . « ولعب المجاهدون العامليون دوراً بطولياً رائعـاً في تلك الثورة »[٢]، رغم الواقع المر الذي كانوا يعيشونه .

نحو النضال السياسي :

هدأت ساحـة النضال العسكـري المسلح مع نهـاية الثـورة السوريـة الكبرى ، وبدأت فرنسا تحت حماية المجتمع الدولي تكرِّس مشروعها الاستعمـاري في سوريـا وفق التجزئة المرسومة بمعاهدة سايكس ـ بيكو ، ولعبت ظروف عـديدة محليـة ودولية دوراً هـاماً في سيـر هذا المشـروع حيث بدأت تلك السيـاسة تؤقلم مجتمعـات البلاد العربية المستهدفة بالمعاهـدة المشؤومة ، إن في العـراق حيث تكرست ملكيـة فيصل الاول في ظل العيون البـريطانيـة ، او في فلسطين التي بـدا شعبها مثقـلاً تحت عبء الانتداب البريطاني من جهة ومخططات اليهود والحركة الصهيـونية من جهـة اخرى . هكـذا انفردت كـل « دويلة جديـدة » في مواجهـة همومهـا بنفسها ، مبتعـدة قسراً عن احلام العرب الذين دخلوا الحرب الى جانب الحلفاء في سبيل الاستقلال والوحدة .

واذا كان حلم الوحدة العربية قد اصبح يومها صعباً ، فـان امال أهـالي ومواطني منطقة الشام التطلع وبأمل جديد لتحقيق الوحدة السورية .

في قلب هذه المقاومة السياسية الجديدة واجه جبـل عامـل المشروع الفـرنسي وذلك ضمن مبدأين :

١ ـ رفض الانضمام لما سمي بدولة لبنان الكبير.

٢ ـ طلب الوحدة السورية .

وفي هـذه الرؤى الـوحدويـة اتحد صـوت جبل عـامـل مـع أصـوات المنـاطق المضمومة قسراً للدولة الجديدة ، فـالتقوا جميعـاً على هدف واحـد وساروا سـوياً في سياسة الوحدة السورية التي أمِلُوا بهـا خطوة اولى نحـو الوحـدة العربيـة ، وذلك على مدى عشرة اعوام (١٩٢٦ ـ ١٩٣٦) عام التحـول في تلك السياسـة . ومع أن وجـوهاً اقطاعية وسياسية ذات مصـالح شخصيـة قد انحـرفت في علاقـاتها غيـر المباشـرة مع سلطات الانتداب إلاّ أن موقف جبل عامـل الشعبي قد انحصـر في المشاركـة الفعَّالـة

---

(٢) زاهية قدورة ـ تاريخ العرب الحديث ـ دار النهضة العربية ١٩٨٥ ، ص ٣٠٩.

بمختلف اللقاءات والمؤتمرات التي عقدت في بيروت ودمشق وصيدا والمطالبة كلها بالوحدة السورية ، وفي مقدمتها مؤتمرات الساحل التي برز فيها المجاهد الشيخ احمد عارف الزين صاحب مجلة العرفان وبجانبه المجاهدان الشيخ احمد رضا والشيخ سليمان ظاهر . برز موقف الشيخ احمد عارف الزين الوحدوي في رده العنيف على سلطات الانتداب التي ارسلت تستشيره في شؤون دستورية حول مشروع دستور للجمهورية اللبنانية حيث كرر مطالبته الجريئة بالوحدة والانضمام الى سوريا كأغلب رجالات المناطق المضمومة للجمهورية الجديدة بعد ان وعوا ان مسألة الاستشارة لا تتعدى إضافة طابع قانوني على مشروعهم الدستوري والذي جاء وفق اوامر عصبة الامم ومتخذاً صورة الدستور المنحة .

ومع اعلان الجمهورية اللبنانية وقيام الدستور ، رفض اغلب رجالات تلك المناطق المشاركة في شؤون الحكم وتطلعوا من جديد الى دمشق التي شهدت ولادة الكتلة الوطنية لمواجهة المشروع الفرنسي هناك .

مؤتمر في دمشق :

وفي شهر حزيران عام ١٩٢٨ تداعى الجميع لعقد مؤتمر هام في دمشق لدرس أمور وشؤون الساحل والاقضية الاربعة المضمومة الى الجمهورية اللبنانية .

حضر المؤتمر اغلب القيادات في تلك المناطق « من صيدا وجبل عامل : محمود زنتوت والحاج اسماعيل الخليل ، الشيخ احمد رضا ، احمد عارف الزين ، محمد علي الحوماني ، يوسف ابو ظهر ، توفيق الجوهري ، سليمان زنتوت ، بديع الزين ، سعيد عسيران .

ـ من بيروت : عمر بيهم (عمر الداعوق تخلف بسبب المرض) عبد الرحمن بيهم ، الحاج بشير جبر ، عبد الله اليافي ، صلاح بيهم ، محمد خرما ، انيس نجا ، احمد الداعوق ، عزت قريطم .

ـ من طرابلس : عبد الحميد كرامي ، عبد اللطيف بيسار ، سعدي المنلا ، مصطفى الهندي ، حسن رعد ، صبحي الملك ، عارف حسن الرفاعي .

ـ من عكار : عثمان باشا المحمد ، عبد الفتاح الشريف ، حسن عطيه .

ـ من بعلبك : صبحي حيدر ، نجيب حيدر ، اديب الرفاعي ، لطفي حيدر ، عباس ياغي ، اديب قانصو ، محمد حسين شومان .

ـ من وادي التيم : فؤاد الشهابي وغيره .

ـ من البقاع والمعلقة : ابراهيم القيم ، الدكتور امين قزعون ، قاسم الهيماني »[٣] .

تضمن قرار المؤتمر مقدمة جاء فيها : « لما كانت القضية السورية قضية واحدة لا تقبل التجزئة والانقسام ولما كان السوريون امة واحدة تربطهم جامعة القومية ولا تفرق بينهم الاديان والمذاهب . . . . قررنا ما يلي :

« ـ يؤيد المؤتمر ميثاق البلاد القومي ويطلب الى الجمعية التأسيسية تحقيق وحدة البلاد السورية »[٤] .

ابرزت مقررات هذا المؤتمر الهام آمال اهالي جبل عامل واخوانهم في المنطقة وعلى رأسها الوحدة السورية العامة ، فيما فاجأ سلطات الانتداب إن في المشاركة فيه ومنهم نواب في المجلس التمثيلي او في مقرراته الوحدوية .

المشاركة في مؤتمر القدس :

ـ كما شارك العامليون في مؤتمر القدس الذي عقد بين السابع والسابع عشر من شهر كانون الاول عام ١٩٣١ في مدينة القدس بدعوة من مفتي فلسطين الحاج امين الحسيني ولبى دعوته وفود من اثنين وعشرين بلداً . مثل جبل عامل في هذا المؤتمر العام كل من الشيخ احمد رضا والشيخ سليمان ضاهر والشاعر العاملي محمد علي الحوماني حيث اتخذ موضوع الخطر الصهيوني المحور الاساسي لأعماله ، وقرر تشكيل سبع لجان شارك ممثلو الجبل في عضوية بعضها ، فيما جاءت مقررات المؤتمر كتصدٍ ضروري لمشروع الصهاينة في فلسطين .

واستمرت خلال تلك السنوات المطالب الوحدوية تحتل مشاريع مختلف رجالات مدن الساحل والاقضية الاربعة .

---

(٣) عصام خليفة ـ مجلة الواقع ـ العددان ٥و٦ تشرين اول ١٩٨٣ ، ص ٢٥٠ .

(٤) حسان حلاق: مؤتمر الساحل والاقضية الاربعة ـ الدار الجامعية ـ ١٩٨٣ ـ ص ٢١ .

في مؤتمر الساحل :

وفي سبيل ذلك عقد من جديد مؤتمر الساحل في منزل سليم علي سلام في بيروت في ١٦ تشرين الثاني عام ١٩٣٣ وشارك فيه الشيخ احمد عارف الزين . ومما جاء في المذكرة التي صدرت عن المؤتمرين من سكان مدينة بيروت ومدينة طرابلس وملحقاتها ومدن صيدا وصور وجبل عامل وملحقاتها :

١ ـ اعادة المطالبة بالوحدة السورية .
٢ ـ شكوى حول الضرائب التي تجبيها الدولة اللبنانية من تلك المناطق .
٣ ـ شكوى حول اهمية الانتداب على اقتصاد الدولة .
٤ ـ السماح بعودة المبعدين السياسيين . وغيرها من المطالب المحقة .

مؤتمر شباب جبل عامل ـ دمشق :

وفي جانب آخر تداعى عدد من شباب جبل عامل الى عقد مؤتمر لهم في دمشق في الشهر نفسه من عام ١٩٣٣ لمناقشة امور الجبل المصيرية ودراسة اوضاع المنطقة حيث خرجوا بالبيان التالي :

« عقد شبان جبل عامل وطلابه مؤتمراً في دمشق للنظر فيما تواجهه البلاد من الأحداث الخطيرة وتحديد موقف جبل عامل فيها تحديداً يعرب عن اماني العامليين وآمالهم .

فبعد ان استعرض المؤتمرون الموقف الحاضر وحللوا المعاهدة الاخيرة التي طلع بها الفرنسيون على البلاد تحليلاً وتدقيقاً قرروا ما يأتي :

يعلن المؤتمرون على رؤوس الاشهاد بان جبل عامل لن يتحول عن مطلبه في الوحدة والاستقلال التامين ، وان كل حل لا يتضمن هذين الشرطين لا يمكن للامة ان تقبله بوجه من الوجوه ، ولما كانت المعاهدة الاخيرة ليست إلا غلاً في عنق الشعب السوري العربي ، ولما كانت تبعد البلاد عن تحقيق وحدتها وسيادتها فلا يسعهم الا

استنكارها وعدم الاعتراف بها »[٥] .

وقد انتخب المؤتمرون السيد حسن الامين رئيساً للمؤتمر والسيدين محمد علي رضا ومحمد صفي الدين لأمانة السر .

١٩٣٦ عام التحول السياسي :

واستمر الوضع على ما هو عليه حتى عام ١٩٣٦ الذي زخم بالاحداث الدولية والمحلية وشهد تصعيداً مهماً في المقاومة السياسية والشعبية في جبل عامل وفي المنطقة في وقت كان يدور في الخفاء مشروع معاهدة سورية فرنسية فلبنانية فرنسية صدمت المشروع الوحدوي في المنطقة واجبرت السياسة في كلٍ من البلدين على التحول الخطير من الوحدة الى الانقسام وتمزيق المقاومة السياسية لتصبح في سورية على حدى وفي لبنان على حدى آخر .

معركة انتخابية :

وقاد العامليون عام ١٩٣٥ معركة انتخابية سياسية ضد سياسة الانتداب كتعبير صادق عن رفض كل ما هو مدعوم منه ومؤيد .

فعندما شغر احد مقاعد الجبل بوفاة النائب فضل الفضل عمدت السلطات الفرنسية الى ترشيح بهيج الفضل خلفاً له ، حيث واجه العامليون خصوصاً الشباب منهم التحدي الواضح ، فقادوا في وجه هذا المشروع حملة انتخابية واسعة ، شارك فيها الفلاح والعامل والاستاذ ، ورشحوا عبد اللطيف الاسعد ضد الفضل يومذاك ؛ وعبروا عن تأييدهم للاسعد في المظاهرات الشعبية العديدة التي انطلقت في اكثر من بلدة ومدينة ، وكانت حملات القمع قد وصلت الى حالة لا تطاق على يد المدعو بتشكوف احد ممثلي الانتداب في الجبل وضاقوا ذراعاً من تصرفاته ، فكانت الحملة الانتخابية وقتها مناسبة لاطلاق اهزوجة علي هيدوس احد شعراء الجبل العاميين والتي قال فيها :

بتشكوف خبر دولتك   سلطاننا عبد اللطيف

---

(٥) علي عبد المنعم شعيب ـ مطالب جبل عامل ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٨٧، ص ١٢١ نقلاً عن جريدة القلم الصريح تشرين الثاني ١٩٣٣ .

باريس مربط خيلنا ورصاصنا زعزع جنيف

ومع ان الهزيمة قد لحقت بمرشح الشعب عبد اللطيف الاسعد ، نظراً لتزوير الانتخابات من قبل سلطات الانتداب ، إلاَّ أنها كانت تجربة حية لتوحيد الصف العاملي الذي سينشط مجددا عام ١٩٣٦ .

تصعيد المعارضة :

واذا كان عام ١٩٣٦ يعتبر بحق عام التحول السياسي في سورية فان المعارضة والمطالبة الوحدوية قد وصلت الى قمتها في ذلك العام ، وشكل جبل عامل لذلك ارضاً خصبة بمختلف فئاته .

وفي خضم التغيرات الدولية التي بدأت تشهدها اوروبا في ذلك العام ، عمدت فرنسا الى اتباع سياسة جديدة في المنطقة بعد ان أسفرت اتصالاتها عن عقد معاهدة بينها وبين سورية تلتها معاهدة ثانية مع لبنان وبذلك كرَّست مشروعها التقسيمي وجعلت من العام ١٩٣٦ عام التحول الواضح في السياسة داخل سورية . خلال ذلك العام شارك العامليون اخوانهم في مختلف قضايا المنطقة المصيرية إن في التصدي لسياسة الانتداب أو في الاستمرار بسياسة الوحدة .

انتفاضة التبغ :

منحت الدولة العثمانية عام ١٨٨٣ حق احتكار انتاج التبغ الى شركة فرنسية في مختلف الاراضي العثمانية بما في ذلك جبل عامل ولمدة خمسين عاماً ، ومع نهاية عام ١٩٣٢ وجد المزارعون العامليون الأمل في التخلص من سلطة الاحتكار ، إلاَّ ان سلطات الانتداب عمدت الى تجديد العقد مع الشركة الفرنسية ضاربة عرض الحائط بحقوق المزارعين الفقراء .

تضايق المزارعون من هذا التجديد الجائر وبدأوا حركة احتجاج واسعة ضد سلطات الانتداب الحامية لسياسة الاحتكار تلك حتى عام ١٩٣٦ عندما تحولت حركة الاحتجاج الى ثورة شعبية عمت مختلف قرى ومدن الجبل متخذة الاساليب العديدة .

ولعبت بلدة بنت جبيل دوراً رئيسياً في قيادة تلك الانتفاضة الفلاحية حيث

شهدت مظاهرات واضرابات متكررة كتعبير ساخط على سياسة الاحتكار .

وتوجت هذه المدينة انتفاضتها تلك بمؤتمر شعبي دعت اليه مختلف فئات الشعب من مزارعين وعمال ومثقفين وعقد في مسجد المدينة .

وعند انتهاء المؤتمر الشعبي « خرج المؤتمرون في مظاهرة احتجاج نحو مركز ادارة الريجي في البلدة وحملوا نعشاً وضعوا في داخله (النير والسكة) وهما رمزا الزراعة »[٦] ثم قدموا الى ممثل الادارة هناك مذكرة احتجاج تشرح مطالب المزارعين ومقررات مؤتمرهم . وعمدت سلطات الانتداب الى التصدي للانتفاضة الشعبية العارمة فأمرت جنودها « باعتقال عدد من المتظاهرين وبعضهم من المزارعين الذين سيقوا الى سجن الرمل في بيروت ، وحوكموا امام المحاكم المختلفة واصدرت بحقهم احكاماً بالسجن »[٧] . وقع خبر الاعتقال كالصاعقة على المواطنين في بنت جبيل من مزارعين وعمال وفي مختلف القرى المجاورة للبلدة ، الذين تجمعوا من تلك القرى ودخلوا بنت جبيل متضامنين مع اهلها وساروا في مظاهرة شعبية صاخبة تتقدمها الهتافات الفلاحية المعبرة نحو مركز ادارة الريجي ، مما أزعج سلطات الاحتلال فأمرت بالتصدي للمظاهرة التي اصطدمت مع جنود الاحتلال حيث تصدت الصدور العارية لرصاصهم مما اوقع في صفوف المزارعين ثلاثة شهداء هم مصطفى العشي (بنت جبيل) محمد جمال وعقيل دعبول (عيناتا) وعدد من الجرحى .

هذه التظاهرة وعملية التصدي المباشر لرصاص الاحتلال كانتا وليدة القهر اليومي الذي يعانيه المزارعون من جراء سياسة احتكار احدى اهم مزروعاتهم الصناعية ، فضلاً عن الاجواء الغريبة التي بدأت تعصف بفلسطين منبهة الى خطر الصهيونية المدعوم من سياسة الاستعمار الاوروبي ، هذا الخطر الغريب الجديد شعر العامليون به ذلك العام فبدأوا مشاركة فعّالة في النضال ضد الهجمة الصهيونية الخطيرة .

مشاركة جديدة في مؤتمر الساحل :

في الطرف الآخر شارك جبل عامل في مؤتمر الساحل الذي عقد في منزل

---

(٦) مجلة الباحث ع ٢١/٢٢ ـ مرجع سابق ص ٣٢١.

(٧) نفس المرجع السابق ص ٣٢١.

السيد سليم علي سلام ببيروت في العاشر من شهر آذار عام ١٩٣٦ . يعتبر هذا المؤتمر من اهم المؤتمرات السياسية التي عقدها ابناء المناطق المضمومة للجمهورية اللبنانية وآخر مؤتمر وحدوي في المنطقة .

شارك في المؤتمر كل من الشيخ احمد عارف الزين والشيخ احمد رضا والشيخ سليمان ظاهر وعادل عسيران ، كما شارك في المؤتمر السيد عبد الحميد كرامي والمؤرخ يوسف يزبك والاديب صلاح لبكي اضافة لعدد من الوجوه السياسية المرموقة يومها .

خلال نقاشات المؤتمر تحدث الشيخ احمد عارف الزين ومما قاله : « ان الوحدة السورية ايها السادة هي حيوية لنا . ونحن مهما جرى لا نرضى عنها بديلاً . واذا كنا نطالب بها فاننا نسعى ونعمل لها لأنها الخطوة الاولى للوحدة العربية التي ننشدها »[٨] .

وطالب الشيخ سليمان ظاهر من المؤتمرين المشاركة بالوفد السوري المفاوض في باريس اذا كان هدف تلك المفاوضات اقامة الوحدة السورية .

خرج المؤتمر الذي وقَّع مقرراته كل من الزين ورضا وظاهر بمذكرة سياسية هامة رفعت الى الكوت دي مارتل المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان . واهم ما ورد فيها اعادة المطالبة بالحرية والسيادة التامتين والوحدة السورية الشاملة .

كان هذا المؤتمر آخر المؤتمرات التي عقدها ابناء المناطق المضمومة الى لبنان للمطالبة بالوحدة السورية ، فقد قضت المعاهدة السورية الفرنسية على آخر آمال الوحدة واقفلت العمل السياسي امام اعيان تلك المؤتمرات الهامة التي عقدوها اكثر من مرة ، وفتحت هذه المعاهدة ومثيلتها اللبنانية الفرنسية المجال امام مؤيدي الانفصال للعمل بحرية ضمن الدولتين الجديدتين حتى تاريخ اعلان استقلالهما عام ١٩٤٣ .

برقيات تؤيد الوحدة :

وفي الوقت نفسه الذي عقد فيه مؤتمر الساحل ، وصل الى المندوب السامي

---

(٨) حسان حلاق ـ مرجع سابق ص ٤٥ .

الفرنسي برقية من اهالي مدينة النبطية جاء فيها : « نكرر طلبنا بالوحدة لتشمل جبل عامل ، استفتاء شعبي حر يظهر مصداقية طلبنا الذي نرجوك رفعه الى عصبة الامم ووزارة الخارجية الفرنسية »[٩] . ووقع البرقية كل من : محمد علي رضا ، بشير جابر ، حسان حمادي ، كامل ظاهر ، محمد علي ظاهر ، محمد فقيه ، نزار رضا ، رئيف الحسن ، محمد بدير وبهاء الدين بو خدود .

كما وصل الى المفوضية الفرنسية في بيروت برقيتان من بنت جبيل وصور وجاء في الاولى : « تدعم الشبيبة العاملية الكتلة الوطنية ولا تقبل ببديل عن الوحدة السورية . استفتاء حر وعام سيثبت أحقية مطلبنا »[١٠] . ومن اهم الذين وقّعوا عليها الشاعر موسى الزين شرارة وعلي بزي . وجاء في برقية صور : « نحن شباب صور نرجوكم رفع امانينا المعلنة بالحاقنا بسورية التي لأجلها ضحينا ، الى وزارة الخارجية وعصبة الامم »[١١] .

المشاركة العاملية في النضال ضد الهمجية الصهيونية :

في نظرة عابرة سابقة تبدو لنا حتمية العلاقات المترابطة بين اهل جبل عامل واخوانهم في فلسطين ، وبصور مختلفة كما رأيناه من مصير مشترك ، تحالف عسكري دفاعي ، الى تبادل تجاري وثقافي متين .

من هنا نشأت اخوية العيش بين مواطني المنطقة ، فيما الهجمة الصهيونية التي بدأت اواخر القرن الماضي ، اضافت بديهية الواقع المصيري الواحد ، خصوصاً مع الافصاح عن نوايا الاستعمار بكل الوانه المشيرة الى تغيير خارطة المنطقة (تجزئة ، استيطان . . .) ، واكثر مع اعلان الصهيونية عن عزمها انشاء دولة يهودية في فلسطين تتوسع رويداً رويداً وتشمل وفق بروتوكولاتهم اراضي عربية واسعة . ومع تنفيذ المشروع الخطير وتصاعد عمليات الهجرة اليهودية لفلسطين بمؤازرة مباشرة من سلطات الاحتلال البريطاني (وعد بلفور ، تسهيلات مرور المهاجرين . . .) انفجر الكفاح الفلسطيني المسلح ضد اليهود وسلطات الانتداب البريطاني ، واشعلت بذلك

(٩) علي شعيب ـ مرجع سابق ـ ص ١٣٧ .
(١٠) نفس المرجع ص ١٣٧ .
(١١) نفس المرجع ص ١٣٧ .

ثورة فلسطين الكبرى .

مع وصول اصداء الانتفاضة الى الجبل بدأت مباشـرة حملة تطويـع في صفوف المواطنين لمساندة الثوار الاحـرار في فلسطين ، فيمـا عمَّت مظاهـرات شعبية عـديدة معظم انحاء الجبل .

فقد « تعددت اشكال الدعم الشعبي في الجنوب (جبل عامل) لتلك الانتفاضة من المساعدة في نقل و« تهريب » السلاح ، الى توفيـر المخبأ للثـائرين الفلسـطينيين الذين كانت تضطرهم الظروف لاجتياز الحدود ، الى المشاركة المباشرة في الثـورة ، واعلان التضامن عبر المظاهـرات التي شملت الجنوب كمـا شملت غيره من المنـاطق اللبنانية والاقطار العربية ، تأييداً للثورة الفلسطينية ولأطول اضراب في التـاريخ اعلنـه شعب فلسطين العربي »[١٢] .

وفي يوم (الاضراب العام ١٥ ايار ١٩٣٦) أضربت مدن جبل عامل وقراه تأييداً ودعمـاً للانتفـاضة ، فيمـا تألفت في صيـدا بوابـة الجبل الشمـالي « لجنـة لمسـانـدة المجاهدين قوامها الشيـخ احمد عـارف الزين ، تـوفيق الجوهـري ، عارف لـطفي ، معـروف سعد ، محي الـدين البـزري ، عبـد الله خـروبي ، سليم الـزين ، عبـد الله البزري ، بدوي النابلسي ، حسني الصباغ وانور البزري »[١٣] .

كما اضربت مدينة صيدا في الثاني عشر من شهر تموز من العام ذاتـه احتجاجـاً على استمرار الارهاب البريطاني ضد الحركة الوطنية الفلسطينيـة ، وخلال الاضـراب حصـل صدام مـع سلطات الاحتلال الفـرنسي في المدينـة اسفر عن استشهـاد محمد نعمي النعماني وعبد الحليم الحلاق وجرح آخرين واعتقل عشرات المواطنين .

وفي ذلك العام بـرز المناضـل الصيداوي معـروف سعد الـذي تمكن من جمع متـطوعين ثوار من مـدينته والمشـاركة مبـاشرة مـع النضال الشعبي ضـد المستـوطنين الصهاينة وسلطات الاحتلال .

---

(١٢) رمزي حبيب ـ مجلة الباحث ع ٢١/ ٢٢ ـ مرجع سابق ص ٧١ .

(١٣) نزيه حسني ـ صيدا ومسألة الزعامة السياسية ـ معروف سعد ـ المركز الثقافي للتعليم والدراسات الجامعية ـ صيدا ١٩٨٢ ص ٩٠ .

بـدأ معروف سعـد نضالاتـه عام ١٩٣٥ عنـدما كـان استاذاً في مـدرسـة البـرج الاسلامية في حيفـا ، يلقي على طلابـه محاضـراته الثـورية محـذراً من خطر الحـركة الصهيونية ، وكان يلبث هناك ايام الدراسـة ويعود يـومي الخميس والجمعة الى مـدينة صيـدا « ليعمل على تنفيـذ قرار مقـاطعة البضـائع اليهـودية ، ومنـع تصديـر الخضـرة والفاكهة من لبنان الى يهود فلسطين وسلطاتها البريطانية »[١٤] .

كما طال نضاله اليهود المهربين عبر الاراضي العامليـة الى فلسطين عنـدما بـدأ مع اخوانـه « يتصدون للمهـربين ، ويتربصـون بالشـاحنات العـابرة بين صيـدا وصور والنبطية ومرجعيون وتل النحاس »[١٥] .

جديد النضال السياسي:

وهكذا كانت تجتمع هموم ومشـاكل الاستعمـار امام مـواطني الجبل ممـا وضع الجميع امام مصير مجهول وفي غياب مشروع واعٍ ينقذ البلاد من ذلك المرض الـذي ضرب كل آمال الوحدة والتحرير .

وفي الخامس من شهر تموز من العام ذاته عقد الزعماء السياسيون المعـارضون اجتمـاعاً عـاماً لهم في منـزل الشيخ عبـاس الحر في صيـدا ، تكلم فيه الشيـخ الزين والاستاذ حسني ابو ظهر وممثلو وفود المناطق ، وانتخب الشيخ الـزين احد سكـرتيري المؤتمر وانتهى المؤتمر بقرارات اهمها :

١ ـ طلب تحقيق اماني الجماهير الحقَّة بالوحدة السورية والسيادة القومية .

٢ ـ يطلب اجراء استفتاء شعبي نزيه بموضوع « الوحـدة » اذا ما شكت سلطات الاحتلال بصحة رغبات الشعب .

٣ ـ تفويض الوفد السوري للمدافعة والملاحقة وتحقيق اماني الشعب .

« وفي ١٢ تموز ١٩٣٦ تقرر انطلاق تظاهرة سلمية نحو سراي الحكومة ومكتب المستشار الفرنسي للاحتجاج على سياسة الارهـاب التي تستعملها سلطات الانتـداب الفـرنسي ضد رجـال الحركـة الوطنيـة والثورة الفلسـطينية ، وراحت الجمـاهير تهتف

---

(١٤) شفيق الارناؤوط ـ معروف سعد ـ نضال وثورة ط ١/ ١٩٨١ ص ٦٧ .

(١٥) نفس المرجع السابق ص ٦٨ .

للوحدة السورية ، فأمر قائد الدرك بـاطلاق النـار على الجماهيـر ، فاستشهـد بعضهم واصيب معروف سعد وهو يقتحم « قشلة » الدرك في جرأة ومجازفة خطيـرتين ، ووقع ارضـاً لكثرة مـا نزفت جـراحه من دمـاء فاقتـرب منه رجـال الشرطـة وحملوه الى احد مكاتب « القشلة » حيث عولج واوقف »[١٦] .

اشعـل هـذا الحـادث مـوجـة من العنف عمَّت معـظم انحـاء الجبـل استنكـاراً لتصـرفات سلطات الاحتـلال وعملائـه « وقامت وفـود غفيرة من النبـطية وبنت جبيـل وصور ومرجعيون وطرابلس وبيروت وصيدا بمقابلة رئيس الجمهورية للاحتجـاج على قائد الدرك الذي أمر باطلاق الرصاص ، وتألفت لجنة في صيدا للاشراف على تنظيم الاضــراب وجمــع الاعــانــات للمنكــوبين ، وانتخــاب المحــامين للدفــاع عن المتهمين »[١٧] .

كـل ذلك لم يكن نـاجحاً في الـوقوف بـوجه المخـططات الانتدابيـة والقاضيـة بتكريس سياستهـا التقسيمية ، فـالآمال المتعلقـة على الوحـدة تحطمت على صخـرة الانتداب الذي كان يملك القوة والسلطة ليفـرض مشاريعـه قهراً على الجميـع فكانت المعاهدتان بين كل من لبنان وسوريا من جهة وفرنسا من جهة اخرى تكـريساً للتجـزئة وانشاء الدولتين الجديدتين .

---

(١٦) شفيق الارناؤوط وجوه ثقـافية من الجنـوب ـ الجزء الاول ـ منشـورات المجلس الثقافي للبنـان الجنوبي ١٩٨١ ص ٤٧ .

(١٧) نفس المصدر السابق ص ٤٧ .

الفصــل الرابــع

التحـول السياسي في المشــرق العربــي

نجح الانتداب بمفهومه القـانوني واهـدافه السيـاسية في تحقيق غـايات الـدول الغربية ، واهمها تكريس التجـزئة الاستعمـارية للدولـة العثمانيـة وانشاء دول صغيـرة كانت سنوات الانتداب كفيلة في تحويـل المناطق المجـزأة الى دول مستقلة الواحـدة عن الاخـرى ، واصبحت المنطقـة العربيـة تحوي عشـرات الـدول التي انغلقت كـل واحدة في حدودها المصطنعة وغاصت في هموم بناء الدولة الجديدة ضمن امكانياتهـا الخاصة .

وكـان عام ١٩٣٦ عـام التحول السيـاسي بالفعـل ، وفيه بـدأت احلام الـوحدة تتلاشى على ما رأينا لتتحول الى قبول بالأمر الواقع والتكيف معه .

الانعطاف المباشر في سياسة المعارضة :

في الرابع والعشـرين من شهر تشـرين اول عام ١٩٣٦ ، شـارك العامليـون في المؤتمر الذي عقد في بيروت (منزل عمر بيهم) وهو المؤتمر الذي بدأ يشهد تغيرات في آراء المعـارضة تجـاه الوحـدة . كانت اصـداء المعاهـدة السوريـة ـ الفرنسيـة قد شاعت في معظم الاجواء ، هذه المعاهدة التي اثرت مباشـرة على سياسـة المعارضـة داخل الجمهورية اللبنانية . لقد وجدت المعارضة نفسها وحيـدة على الساحـة بعد ان تلاشت الفكرة الوحدوية التي كافحت من اجلها لمدة ستة عشر عاماً وقد ادى كل ذلك

الى انعطاف مباشر في سياستها تجاه سلطات الاحتلال .

ففي المؤتمر الذي اشرنا اليه تبدلت مطالب المعارضة واتخذت موقفاً ليناً تجاه المطالب السابقة .

في البند الثاني نقرأ : « لما كان فريق من ابناء الوطن لا يرون تحقيق الوحدة السورية اليوم فان المسلمين حباً منهم في ايجاد روح الالفة (. . .) لا يرون بأساً في وضع الصلة بين الجمهورية اللبنانية والجمهورية السورية على اساس الاتحاد بأوسع ما يمكن من اشكاله »[1] فقد تحولت فكرة الوحدة الى اتحاد بأوسع ما يمكن من اشكاله مع الجمهورية السورية ، اما في شأن المعاهدة التي بدأ مناقشتها وفد من « الجمهورية اللبنانية » في باريس على غرار معاهدة « سوريا ـ فرنسا » فقد اشير في البند الثالث فيها « ان تتضمن المعاهدة فصلاً ينص على اللامركزية بحيث تضمن المساواة بين الطوائف في الحقوق والواجبات »[2] .

اسباب عدة تشابكت في نزع الفكر الوحدوي من ابناء المنطقة ، وحولت مصيرها باتجاه معاكس (التجزئة) ، ودفعت بكل جزء منها على حدا للعمل على تحقيق استقلال خاص (سوريا ، لبنان ، فلسطين ، الاردن) وربما كانت بوادر الحرب العالمية الثانية الحافز الاول لصنعها .

استمرار النضال مع فلسطين وانتفاضات فلاحية :

الى ذلك استمر عدد من رجالات السياسة يلتقون للبحث في امور البلاد بمشاركة من رجالات الجبل .

ففي « المؤتمر القومي العربي » الذي عقد في بلودان (٨ آب ١٩٣٧) مثّل وفد جبل عامل طلائع رجاله « معروف سعد والشيخ عارف الزين وتوفيق الجوهري (صيدا) والشيخ احمد رضا والشيخ سليمان الظاهر (النبطية) وعلي بزي وموسى الزين شرارة (بنت جبيل) والفريد ابو سمرا (مرجعيون) »[3] .

---

(١) عصام خليفة ـ مرجع سابق ص ٢٥٧ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٥٨ .

(٣) شفيق الاناؤوط ـ معروف سعد ـ مرجع سابق ص ٩٦ .

كما تابع العامليون في تلك السنوات مساندة القادة الفلسطينيين خلال تصديهم لسلطات الاحتلال والحركة الصهيونية والتحق العديد منهم بجبهات القتال .

وخلال ذلك شهدت عدة قرى في جبل عامل انتفاضات فلاحية ، قادها فلاحو الجبل ضد رجال الاقطاع واسفرت عن انهاء هذا النظام المرهق ، ومن اهم تلك الانتفاضات ما وقع في قرية بليدا حيث حصلت انتفاضة واسعة عندما استيقظت القرية صبيحة احد الايام على تمرد فلاحي ضخم ، زحف خلاله المزارعون باتجاه منزل الاقطاعي في بلدتهم الذي كان يرهقهم وتمكنوا من دخول المنزل وقتله مستخدمين معاولهم في ذلك ، وكانت النتيجة ان وزعت الاراضي على المزارعين فيما لقنت رجال الاقطاع درساً في التمرد والحرية .

امام موجات الاستقلال :

اكمل سياسيو البلاد اتصالاتهم لنيل الاستقلال واستلام زمام الحكم واجلاء جنود الاحتلال ، فيما تداخلت اسباب عدة في تحقيق ذلك كانت هزيمة فرنسا امام المانيا (الحرب العالمية الثانية) السبب المباشر الاول لذلك .

ان اسباب التقارب بين المعارضة والحكم تعود الى عام ١٩٣٤ ، العام الذي اعاد فيه الاستعمار الحياة الدستورية الى مجراها الطبيعي والذي اسفر عن ايجاد شخصيات محسوبة على المعارضة (رؤساء حكومة منذ عام ١٩٣٦ ـ نواب) ومع تلميح سلطات الانتداب عن نيتها بمنح « الاستقلال » للبنان بدأ فكر رجالات الوطن يتبلور في ايجاد ميثاق وطني نحو بناء الدولة تكون منطلقاً لاستلام الحكم .

ورغم ان نصوصاً عدة صاغها عدد من المفكرين في ذلك ، الا ان البيان الوزاري الأول الذي القاه رياض الصلح (أول رئيس وزراء للوطن بعد اعلان الدستور) في السابع من تشرين الاول ١٩٤٣ ، شكل برنامجاً سياسيًا لمرحلة الاستقلال ، وبناء عليه منح المجلس النيابي الثقة التامة للحكومة آنذاك .

العامليون والاستقلال :

وامام اتصالات عدة اجراها رجال الدولة ، منحت سلطات الاحتلال ، الاستقلال للجمهورية اللبنانية في ٢٢ تشرين ثاني ١٩٤٣ بعد معركة سياسية فسَّرها

مفكرو جبل عامل بـ« اللعبة السياسية » .

فالعامليون لم يروا بالاستقلال الموهوب للبنان ذلك الأمل الذي انتظروه ، ولو ان فكرهم القومي قد تحطم على صخرة سياسة الانتداب . وهذا اللباس الجديد « الاستقلال » الذي ارتدته « الجمهورية اللبنانية » لم يلفت انظارهم بشكل من الأشكال بل كان بالنسبة لهم « قيداً وكان عبئاً وتمزيقاً منحطاً للبنان ، جرَّ عليه الويلات والمصائب فيما بعد ، فقد كرَّس الامتيازات لابناء العائلات كما كرَّس التسلط الطائفي وأكد زعامة العملاء الذين تعاونوا مع فرنسا واخلصوا لها الولاء »(٤) .

وبالنسبة لشعراء الجبل فقد عبروا عن آرائهم في هذا الاستقلال الموهوب ، ومنهم الشاعر المتمرد موسى الزين شرارة الذي قال :

يا عهد في لبنان ما لك والد	فالى متى التزمير والتطبيل
لا يخدعنك المدعون فكلهم	عند الحقيقة ما لديهم دليل
من منهم البطل الذي بجيوشه	ضاقت جبال عندنا وسهول
لا تغترر بجماعة مأجورة	أنى يميل الحاكمون تميل
هي بوق كل مسيطر او حاكم	ودمى تلفق باطلاً وتقول(٥)

هذه صورة عما رآه الشعراء في تشرين والاستقلال الذي تحول الى استغلالٍ للشعب والوطن .

صعود قضية فلسطين :

وصلت قضية فلسطين الى قمة الاحداث على الساحة خصوصاً مع بداية العقد الخامس من هذا القرن ، بعد أن افصح اليهود المهاجرون عن عزمهم ببناء دولة لهم على ارض فلسطين والتي ادت الى حرب مصيرية بينهم وبين مناضلي فلسطين .

في عام ١٩٤٧ تداخلت دول عدة اضافة لهيئة الامم المتحدة لحل هذه المشكلة التي هددت أمن المنطقة بأسرها .

---

(٤) قيصر مصطفى ـ مرجع سابق ص ١٤٩ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ١٥١ .

وأمام التلاعب الغربي بالقضية ، بدأت دعوات انتهازية لتقسيم فلسطين لدولتين واحدة للعرب وثانية لليهود كارضاء للطرفين ، غير انها قوبلت برفض مطلق من مواطني فلسطين واخوانهم العرب . وبدأت حينذاك صيحات النضال تعم معظم ارجاء الوطن العربي ، للمشاركة بالكفاح المسلح ضد الحملة الصهيونية .

ومع تسارع الاحداث على المنطقة ، وامام سكوت الانظمة العربية ، تصاعدت دعوات الالتحاق بجبهات القتال ، فولد جيش الانقاذ الذي ضمَّ مقاتلين من الوطن العربي . انضم كثير من العاملين المتحمسين للقضية الى هذا الجيش وشهدت اراضي الجبل الجنوبية معارك حاسمة مع العصابات الصهيونية امام تقدمها شمالاً .

« وشكل الجنوب احد أهم مساحات الحرب مع العدو الصهيوني وكان أحد أهم الجبهات للجيوش العربية وتحديداً فرق الانقاذ السورية والمتطوعين العرب واللبنانيون »[٦] .

الوضـــع العـــام :

فوجئت الجماهير العربية اثناء دخولها فلسطين بقرار الهيئة التأسيسية لجامعة الدول العربية (١٥ أيار ١٩٤٨) القاضي بالهدنة وايقاف الحرب وعمت موجة الاستنكار معظم انحاء الوطن العربي فيما رفض كثيرون الخروج وواصلوا القتال .

الى ذلك استمرت قرى جبل عامل الجنوبية تشهد قتالاً عنيفاً خصوصاً في بلدة المالكية (جنوب جبل عامل) حيث حصلت معركة عنيفة ، قادها قائد جيش الانقاذ فوزي القاوقجي .

ومع بدء العد العكسي لجيش الانقاذ بدأت الصهيونية تنفيذ مجازر بربرية ضد مواطني فلسطين فيما جيش الانقاذ ينسحب ، ولما وصل اليهود الى الشمال احتلوا قرى عدة من الجبل العاملي وهجَّروا سكان سبع قرى بعد ان نفذوا مذبحة جماعية في بلدة حولا ذهب ضحيتها ثمانية وخمسون مواطناً هم :

---

(٦) سليمان تقي الدين ـ صفحات من تاريخ جبل عامل ـ المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ـ مرجع سابق ص ١٤٠ .

ديب عبود ٨٠ سنة ، ابنه احمد عبود ٢٥ سنة ، حسين الحاج مصطفى ٦٥ سنة ، السيد محمود قاسم ٦٥ سنة ، السيد عبد الله قاسم ٧٥ سنة ، الشيخ عبدو سليمان ٦٠ سنة وولده محمد سليمان ٢١ سنة ، كامل علي حسين ٤٠ سنة ، عبد الكريم يعقوب ٣٥ سنة ، عبد الكريم نصر الله ٣٠ سنة ، علي احمد قطيش ٤٥ سنة ، محمد احمد شريم ٤٥ سنة ، علي احمد شريم ٢١ سنة ، منصور مصطفى ٧٥ سنة ، احمد قاسم قطيش ٣٠ سنة ، حسن توفيق دغمان ٣٥ سنة ، توفيق دغمان ٣٧ سنة ، احمد قاسم فاضل ١٤ سنة ، احمد بعلبكي ٦٥ سنة ، جواد الامين ٤٠ سنة ، يوسف مزرعاني ٤٥ سنة ، حسين علي حسين ٦٥ سنة ، ولده علي حسين حسين ٢٠ سنة ، حسن حسين فاروق ٢٨ سنة ، عبد شبيب شريم ٥٠ سنة ، الشيخ عبد الخالق عبد الله ٦٠ سنة ، حسن محمد ايوب ٢٨ سنة ، حسن مصطفى غنوي ٣٥ سنة ، علي حمود علي حسن ٢٥ سنة ، ملحم خليل ايوب ٦٥ سنة ، محمد ابراهيم ياسين ٦٠ سنة ، محمد حسين ياسين ٦٠ سنة ، حسين احمد غنوى ٢٧ سنة ، محمد هزاع علي حسين ٣٠ سنة ، خليل موسى زريق ٤٠ سنة ، ابراهيم مصطفى بوزكلي ٤٥ سنة ، علي احمد مزرعاني ١٥ سنة ، ايوب سليم ٥٥ سنة ، احمد ابراهيم سليم ٦٠ سنة ، محمود فرحات ٦٥ سنة وولده حسين فرحات ١٦ سنة ، نمر احمد نصر الله ٦٠ سنة ، علي حسن حمود ٢٥ سنة ، نصر الله نصر الله ٦٠ سنة ، دياب مصطفى عبود ٦٥ سنة ، عبد الله حميد فاعور ٦٥ سنة ، احمد علي ضاهر ٧٥ سنة ، علي سليم ٦٥ سنة ، عبد الامير سليم ٣٥ سنة ، عبد الله سلوم ٣٣ سنة ، حسن محمد احمد ٦٠ سنة ، محمد علي فاعور ١٩ سنة ، خديجة حسين ياسين ٤٥ سنة ، طريفة عبود ٧٠ سنة ، آمنة محمد التقي ٥٠ سنة ، شوشان ايوب ٥٠ سنة ، سكنة فوعاني ٢٢ سنة »[٧] .

لم يستطع جيش الانقاذ ، لاسباب عدة تقدمتها خيانة الانظمة العربية وقتذاك ، انقاذ فلسطين ، وخرجت الجماهير كلها خائبة ، كل منها ينظر نحو انظمة بلاده . وبدأت موجة التمرد ، فولدت الانقلابات في معظم الاقطار العربية ، وكان اهمها

---

(٧) معاً من اجل الجنوب، معاً من اجل لبنان ـ منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ١٩٧٩ ـ ص ٤١ ـ ٤٢ .

انقلاب الضباط الاحرار في مصر عام ١٩٥٢ الذي اوصل وجوهاً جديدة الى الساحة كان ابرزهم الضابط جمال عبد الناصر الذي بدأ سياسة جديدة في البلاد واضعاً نصب عينيه مشروع تحقيق الوحدة العربية .

وكاخوانهم العرب هلل العامليون للثورة في مصر وايدوها بكل ما للكلمة من معنى وشاركوا عام ١٩٥٦ في حرب السويس اثناء العدوان الثلاثي عليها عندما تطوع العديد من شبابهم واتجهوا لمساندة اخوانهم في التصدي للهجوم العدواني .

وتفاقم الوضع العربي آنذاك مع ولادة « حلف بغداد » مما حتم انفجار احداث « لبنان » عام ١٩٥٨ ، فكانت الازمة الاولى التي عادت وولدت من جديد عام ١٩٧٥ .

الفصــل الخامــس

الامام السيد موسى الصدر

وضع جبل عامل ١٩٤٣ ـ ١٩٥٨

الوضع الاقتصادي ـ الاجتماعي :

ينفتح جبل عـامل جنـوباً على فلسـطين ، حيث تشكل تـلالـه امتـداداً لجبـال الجليل . على مر العصور سادت الاتصالات التجارية والثقافيـة بين المنطقتين فضـلاً عن تحالفات عسكرية وغيرها . فقد كان جبل عامل سوقاً لمنتوجات فلسطين والعكس بالنسبة لاسواق فلسطين ، فيما الليرة الفلسطينية تداولت بشكل ايجابي بعد الاحتـلال الغربي للمنطقة ، ولهذا كان اعلان دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ واقفال الحدود مـع جبل عامل ضربة قاضية لاقتصاد الجبل ، فرضت هجرة الايـدي العاملة بـاتجاه مـدن لبنان فضلاً عن فراغ هائل للسكان .

الوضــع السياســي :

خضـع جبل عـامل حتى انتهـاء الحـرب العـالميـة الاولى عـام ١٩١٨ للنـظام الاقـطاعي بأسـاليبه الاجتمـاعية والاقتصـاديـة بحيث لم يسمـح لاي ثـورة ثقـافيـة او اجتماعية بالولادة ، باستثناء تحركات علماء الدين الذين مارسـوا نشاطـاتهم الخاصـة ببث فكـرهم في مدارس تعليم القـراءة ، فيما سلطتهم على رجـال الاقـطاع لم تتعـد رهبة الدين . بـاستثناء ذلـك لم يرَ الجبـل اي حركـة اصلاحيـة تقدميـة تقلب موازين

الحياة وتحاكي مباشرة سلطة الدولة التي عملت على ابقاء النظام الاقطاعي ، مقابل تأمين متطلباتها . ان قراءة سريعة لاجتماعيات مواطني الجبل على مر القرون السابقة ترينا مدى ارتباط العامليين بالواجبات الدينية رغم انهم يعيشون تحت سقف تسلط الاقطاع .

بقي العامليون حتى الخمسينات من هذا القرن بحاجة لقائد يلتفون حوله ويعطيهم بعضاً مما فقدوه عشية دخولهم في جغرافية الدولة الجديدة .

في سنوات الاستقلال الاولى حاولت الزعامات الاقطاعية حصر التمثيل الشعبي في جبل عامل بشخصها ، وقد استطاعت لظروف عديدة من نفوذ تاريخي الى دعم من السلطة الى الوضع الاقتصادي والاجتماعي المتردي ، إلاّ أن هذا النفوذ أخذ مع بداية الخمسينات واختراق الاحزاب السياسية للساحة يلفه الاهتزاز مما دفع به انحداراً .

ومن غير الممكن قراءة هذه المرحلة دون الوقوف عند التجربة الرائدة السياسية والحزبية في آنٍ واحد التي قادها المرحوم رشيد بيضون . فقد فتح بيضون اسلوباً جديداً في العمل السياسي في لبنان عندما أسس « حزب الطلائع » الذي ضم مختلف الفئات الشعبية في صفوفه ، وبدأ سياسة توجيهية جديدة ارسى معالمها في قلب العاصمة بيروت التي شهدت نزوحاً كثيفاً من الجنوب . الا ان السلطة اللبنانية كانت تراقب الحدث بدقة ، حيث عملت على اجهاض هذا المشروع السياسي الجديد ، عندما دفعت أحمد الاسعد باتجاه تأسيس حزب جماهيري مضاد مستغلّة نفوذ الاخير الشعبي فأسس « حزب النهضة » كمشروع مواجهة لحزب الطلائع ، مما أوجد منذ اللحظة الاولى لولادته صراعاً خطيراً بين الحزبين ، وقسم الرأي العام الشعبي في جبل عامل خاصة الى شقين متخاصمين تطور الى اشتباكات ونزاعات خطيرة ، مما سمح للسلطات اللبنانية بالتدخل وحل كلٍ من الحزبين تحت ذريعة تصاعد الصراع .

ومن هذا الواقع المرّ تطلع العامليون بأمل نحو قائدٍ يجمع لواءهم ويهدف الى تقدمهم وتحقيق مواطنيتهم وتأمين مطالبهم وحقوقهم في الدولة ، وقد تزامن هذا الامل بالتطلع مع وصول سماحة الامام السيد موسى الصدر الذي بدأ فوراً مسيرة

جديدة كان أفقها كل لبنان .

الامـــام موســى الصـــدر :

ولد الامام الصدر في مدينة قم في ايران عام ١٩٢٨ ، وتلقى علومه الدينية فيها ثم الدراسة الجامعية في القانون والاقتصاد بجامعة طهران .

وصل الامام الصدر الى لبنان أواخر حياة الامام السيد عبد الحسين شرف الدين احد علماء ومجاهدي جبل عامل والذي وجد في الامام الصدر أملاً لإكمال طريقه ، مما دفع بالعامليين الى طلب مجيئه من ايران عقب وفاة الامام عبد الحسين شرف الدين (قدس سره) . ولأن جبل عامل شكّل ابتداء من عام ١٩٢٠ احدى محافظات الجمهورية اللبنانية ، فقد وعى السيد موسى الصدر وحدة هذا الوطن وعمل من خلاله ببعد شاسع عن آفاق الطائفية ، والتي اجبرته بعد ادراكه الفراغ الشاسع بين ابناء الوطن الواحد على العمل لتثبيت دعائم الجماهير المحرومة داخل الدولة .

فبعد فترة قصيرة تعرف خلالها على واقع الشعب بدأ الامام الصدر مسيرته الشجاعة بوعي وحدوي في شكل لم يعرف جبل عامل ولا حتى لبنان مثيلاً له من قبل ، حيث كانت صرخته تنطلق من كل الجهات ، من النادي والمسجد والكنيسة . كانت اصلاحات الدولة السياسية الشغل الاساسي لفكر الامام ، فالنظام المعمول به لم يكن ليخص معظم المواطنين اضافة لهشاشته الداخلية والتي عرضته في فترات متلاحقة لضربات قاسية ، في حين شكلت المؤسسات الاجتماعية المسؤولية والهدف الأول في فكره التقدمي .

قبل الامام الصدر لم يكن العامليون ليشعروا بتلك الاحاسيس الوطنية التي تربطهم بمصير شعب وارض واحدة ، حيث كانت معظم حقوق ابناء الجبل واخوانهم في باقي المناطق مهدورة ولا أحد يسأل عنها .

لقد كان الشعب في الدولة الجديدة يتعطش للفكر الوطني ، عندما بدأ الامام الصدر يبثه فيه مولداً آفاقاً جديدة من التطلع للأمام ووعي أسس مشاركته في بناء هذا الوطن .

وامام مصداقية قراره وروحه الثورية التف المواطنون من معظم الطوائف حول القائد الجديد الذي جاوز في طرحه وحدة الوطن الى وحدة القرار العربي .

وحاولت معظم التيارات المستوردة ضرب فكر الامام الصدر وعملت وفق ارشادات من الخارج على ايقاف دربه فيما هو يواصل كفاحه في خدمة الشعب ، عندما آل على نفسه حمل لواء الدفاع عن حقوق المحرومين بين ابنائه حسب ما أحب تسميتهم .

لم يعرف الوطن اللبناني منذ انشائه شخصية واحدة عملت على توحيده بأسس سليمة وصحيحة قبل الامام الصدر الذي جاءت طروحاته من منطلق وحدوي شمل معظم طوائف الوطن . ففي اول بيان له حثَّ الامام الصدر المواطنين على التضامن والتعاون آخذاً بقول الرسول القائد (ص) : « يد الله مع الجماعة » . وفي هذا البيان الذي تلاه من على منبر جمعية خيرية بصفته الناظر العام لها ، شدَّدد الامام على الغاء الصيغة الطائفية عن كل نشاط داخل الوطن قائلاً بالحرف الواحد : « ان الجمعية (ويقصد بها جمعية البر والاحسان ومركزها مدينة صور) لا يقتصر انعكاسها على طائفة معينة ، بل هي جمعية خيرية لكافة الطوائف وهذا صندوقها يدخل فيه الخير من الجميع ، وهذه يد الجمعية تمتد لمساعدة الجميع »[1] ومن يومها بدأ الامام الصدر يفصح عن فكره الوطني في كل اللقاءات التي شارك فيها ومن بينها الندوة اللبنانية وهي عبارة عن هيئة تضم مفكرين من الوطن من معظم طوائفه ، سعت عبر ندواتها الى بث الفكر الوطني والانمائي .

إن همّ الامام الصدر الأساسي كان ينطوي على انشاء المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية للمواطنين خصوصاً المحرومين بكل طوائفهم . لقد أثَّر حرمان هؤلاء المواطنين في نهج الامام الذي سعى بكل ما بوسعه لتحقيق مطالبهم عن طريق اطلاق صرخاته في وجه حكام الوطن . ففي الوقت الذي كان هؤلاء الحكام لاهين في ملاذهم ومراكزهم كان الامام الصدر يبحث عن حقوق المحرومين بالرد على اهمال الدولة عن طريق تأسيس مراكز انمائية للمواطنين تمكنهم من الصمود بأرضهم ، وسعى الامام الصدر الى انشاء مجلس شرعي للطائفة الاسلامية الشيعية في لبنان عام ١٩٦٩ وانتخب رئيساً له ، كما استطاع استيعاب معظم قضايا المنطقة المصيرية ، انطلاقاً من فكره الديني ، حتى انه وضع حلولاً لاكثر مشاكل الوطن واستطاع لفت

---

(١) الامام السيد موسى الصدر منبر ومحراب ١٩٦٠ - ١٩٦٩ - دار الارقم ١٩٨١ ص ١٠ ــ ١١ .

الانظار حوله مبدلاً النظرة البالية نحو رجال الدين .

الامام الصدر وجبل عامل :

لم تخلُ كلمة أو خطاب أو ندوة عقدها الامـام الصدر إلّا وتحـدث خلالهـا عن جبل عامل الذي شكّل همه الاول .

كانت الهموم التي تراود الامام الصدر حول الجبل تستوعب معظم قضايـاه بدءاً من الهاجس الامني امام الاعتـداءات الصهيونيـة مروراً بـالقضية الاقتصـادية الحيـاتية وصولاً الى هويـة الجبل الـوطنية والعـربية . اراد الامـام الصدر تحصين مـواقع جبـل عـامل وايجـاد الشخصية العسكـرية القـادرة على الـوقـوف امـام اعتـداءات الحـركـة الصهيـونيـة . ففي اول بيـان وجهـه الى ابنـاء الـوطن بعـد انتخـابـه رئيسـاً للمجلس الاسلامي الشيعي الاعلى أكد الامام الصدر ان « محنة الجنوب اليوم هي محنة لبنـان كله . هي محنة العرب جميعاً . هي محنة فلسـطين الجريحـة . هي محنة الانسـانية في كل زمان ومكان » هذا في وقت كان يعمل فيه لاعداد النفوس وتهيئتها للنضال على ارض الجبـل ، بعد أن أكـد أن القضية على ارض جبـل عامـل مصيريـة لهذا الـوطن اللبناني يوم قال : « اطفئوا نار الجنوب قبل ان تحرق لبنان » .

واتسعت دعواته للكفاح والنضال يوماً بعد يوم واعطاها شرعية القرار الوطني في مذكرة قدمها باسم المجلس الذي يرأسه عندما وضع اللبنانيين عامة والعامليين خاصـة امام مسؤولياتهم تجاه تزايد اعتداءات اليهود على الوطن محدداً امور القضية وفق نهج علمي جاء فيه : « يـرى المجلس نفسه ملزمـاً بالتـوجه الى المسؤولين مـطالباً بـاتخاذ تدابير سريعة وواقية من الاخطار وبـالاسراع في تنفيـذ التدابيـر المتخذة سـابقاً مؤكـداً على ما يلي :

١ ـ بناء شعب يفهم المواطنية في ارقى مستوياتها ، يحس بوجوب دفع ضريبـة الدم ويشعر بواجب الفداء وذلك باقرار قانون الخدمة الالزامية . والمجلس مع ادراكه لحدوده ولعدم تدخله بشؤون المسؤولين من اصحاب الاختصـاص ، درس ما يتـطلبه تنفيذ هذه الخطوات من امكانات ماديـة وبشريـة ، ويرى انـه بالامكـان تخفيض نسبة التكاليف بوسائل مختلفة يضعها امام المسؤولين اذا اقتضى الامر ذلك . . .

٢ ـ تدريب ابناء الجنوب للقيام بواجبهم المقدس واعدادهم لما يلي :

أ ـ حمل السلاح بحيث يستكمل جميع شروطه الفنية .

ب ـ الدفاع المدني بمختلف القدرات المطلوبة .

ج ـ بناء الملاجىء وتعميمها .

٣ ـ بذل جميع الامكانات التي من شأنها ان ترفع المستوى الاجتماعي لابناء الجنوب ويساعد هذا على ضمان رفع معنوياتهم وبروز مظاهر ولائهم ، ويشدهم الى الارض شداً مصيرياً بعد ان يعوا بحسهم الوطني ولمسهم المادي الفرق بين التزام بالارض وضياع في تشرد »[٢] .

وعندما صعّدت الحركة الصهيونية من اعتداءاتها على جبل عامل وعلى قرى منطقة العرقوب خصوصاً كفر شوبا كثّف الامام الصدر لقاءاته مع القيادات الدينية والسياسية في البلاد واسفرت اتصالاته عن انشاء « هيئة نصرة الجنوب عام ١٩٧٠ » ، والتي ضمت رؤساء الطوائف الدينية في جبل عامل ، وهدفت الى تأمين مستلزمات الصمود لابناء تلك المناطق واطلاق حقوقهم في المحافل المحلية والدولية .

لقد حمل الامام الصدر محنة الجنوب ، وعمل كل ما بوسعه لوضع العالم بأسره امام صورة حيّة عن ذلك ، وهمّه الوحيد ايجاد الروح الثورية في نفوس مواطني جبل عامل تستطيع الصمود امام رياح العدو الصهيوني .

وأكمل نداءاته محذراً من اخطار العدوان وحاثاً على اعداد الشخصية المناضلة داعياً الى حمل السلاح في مواجهة المخططات ، حيث عبر في صرخته الشهيرة في مهرجان الشهيد معروف سعد « السلاح زينة الرجال» عن آلية التصدي للمشروع الصهيوني .

الامام والحركة الصهيونية :

حذّر الامام الصدر في معظم خطبه وفي كل المناسبات التي تحدث فيها عن الخطر الصهيوني القابع على ارض فلسطين ، مشدداً على تأمين مستلزمات الصمود في وجه الخطر . كما سعى الامام الصدر الى وضع الحدث الصهيوني في واجهة الاحداث المصيرية للوطنين اللبناني والعربي .

---

(٢) منبر ومحراب ـ مصدر سابق ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .

واعتبر الامام الصدر « اسرائيل شر مطلق » مستحيل التفاهم معها بل هي العدو الاساسي الذي يجب استئصاله من جسم الامة كما انه كان يعي تماماً اطماع اسرائيل في جبل عامل وانه سيأتي يوم تغزو فيه الجبل محذراً العامليين واخوانهم من مغبة الانزلاق في مخططاتهم فأصدر فتواه الجريئة « التعامل مع اسرائيل حرام » .

... والقضية الفلسطينية :

وامام اخطار الحركة الصهيونية ، احتلت القضية الفلسطينية واجهة الاحداث التي اخذ بها الامام الصدر وعمل لها ، حيث كان يجل دور المقاومة الفلسطينية ويدعو الجميع للالتفاف حولها والعمل لاجلها . واعرب عن انه يعمل كل ما بوسعه لحمايتها يوم قال : « بعمامتي احمي الثورة الفلسطينية » هذه الثورة التي ارادها الامام ان تنطلق من اسس متينة حددها بثلاث نقاط :

١ ـ الايمان بالله .

٢ ـ التخطيط والعمل بنهج علمي .

٣ ـ الوحـــدة .

هكذا اراد الامام الصدر الثورة الفلسطينية ومن هذا المنطلق أمل نجاح الثورة . واغتنم يوماً فرصة قال فيها مخاطباً مسؤولي المقاومة « ان شرف القدس يأبى التحرر إلا على ايدي المؤمنين » مشدداً على ضرورة دعم « هذه المسيرة العظيمة المقدسة وهذا الجهاد المقدس »(٣) والتي إن بوشر بدعمها بأسس سليمة « سوف يوفر علينا الآن الاضعاف مما نبذله في المستقبل »(٤) .

تقييم فكر الامام الصدر : حركة المحرومين :

شملت تطلعات السيد موسى الصدر معظم الحقول والمجالات المتعلقة ببناء انسان القرن العشرين بطموحاته والتزاماته وحضارته . فقد اراد الامام الصدر ايجاد الشخصية الوطنية القادرة على الوقوف سداً منيعاً امام معظم التيارات الخارجية التي من الممكن ان تهدد امن الوطن ارضاً وشعباً ، فضلاً عن انه صبَّ فكره في اصلاح

---

(٣) منبر ومحراب ـ مصدر سابق ص ١٣٨ .

(٤) نفس المصدر السابق ص ١٣٨ .

نظام هذا الوطن على أن يمد من خلاله ظلاً يخيم على معظم اراضي المنطقة والعائلة البشرية وهذا ما اقتبسه من رسالات السماء المتمثلة اولاً واخيراً بالعدالة .

عندما جاء الامام الصدر الى لبنان اذهله الخلل القائم في قلب نظامه فيما العدو الصهيوني باعتداءاته المتكررة دفع بالامام للتفكير جلياً في خطورة الامر وخطبه . لقد شملت طروحاته الانسان بذاته ايمانه بالله وبالارض والمجتمع ، ثم تطلع للوطن فعمل على الغاء كل الحواجز الحائلة دون ازدهاره خصوصاً « الطائفية السياسية » . بعدها ركّز الامام على الخطر الذي يهدد امن الوطن بل امن الامة العربية والاسلامية بقيمها الانسانية ووضع لمعظم تلك المشاكل حلولاً نظرية دفعت بعدد غفير من مثقفي الوطن الى الالتفاف حوله والعمل معه في سبيل الاصلاح . واسفرت اللقاءات والمناقشات عن ايجاد صيغة سياسية جديدة على الساحة الوطنية باهداف سليمة وقع ميثاقها كبار رجال الفكر في لبنان . تلك هي حركة المحرومين التي ارتآها الامام الصدر واخوته مفكرو الوطن الامتداد الحقيقي لحركة الانسان منذ ان كان . انها تعبير عن « طموحه نحو حياة افضل يدفعه للتصدي لكل ما يفسد عليه حياته أو يجمد مواهبه او يهدد مستقبله »[٥] .

حددت مبادىء الحركة بميثاق عام ضمَّ ثمانية بنود تتلخص فيما يلي :

١ ـ الايمان بالله بمعناه الحقيقي لا بمفهومه التجريدي ، الذي هو الاساس لجميع نشاطاتنا الحياتية ولعلاقاتنا الانسانية وهو الذي يجدّد باستمرار ثقتنا وعزيمتنا ويزيد من طموحنا ويصون بدقة سلوكنا ، والايمان بالانسان بحريته ، بكرامته ، وبرسالته في حياته التي هي الهدف من خلقه .

٢ ـ ان طريق الحركة يرسمه تاريخ وتراث الوطن على ان نأخذ تجارب الآخرين بعين الاعتبار .

٣ ـ محاربة « كل استبداد واقطاع وتسلط وكل تصنيف للمواطنين »[٦] مع الرفض المطلق « للطائفية السياسية » .

---

(٥) ميثاق حركة امل .

(٦) ميثاق حركة امل .

٤ ـ رفض الاحتكار والظلم الاقتصادي واعمال الربا وغيرها .

٥ ـ توفير الفرص المتكافئة للمواطنين كافة مع التمسك بالعدالة الاجتماعية .

٦ ـ التمسك بالسيادة الوطنية ومحاربة كل انواع الاستعمار والاعتداءات ، مع التمسك بالمصالح القومية وتحرير الارض العربية والدفاع عن جنوب لبنان (جبل عامل) اما على الصعيد العالمي فالرفض لتقسيم العالم الى معسكرين .

٧ ـ التمسك بقضية فلسطين « والوقوف الى جانب شعبها وحماية مقاومتهم وصيانتها »[٧] .

٨ ـ التأكيد على « ان حركة امل ليست حركة طائفية ولا عملاً خيرياً ولا موعظة ونصحاً ، ولا تهدف الى تحقيق مكاسب فئوية ، انها حركة المحرومين جميعاً . . . انها حركة اللبناني نحو الافضل »[٨] .

بهذه المبادىء اراد الامام الصدر صنع الحركة الجديدة للوطن بعد ان مزّقه الخلل القائم بنظامه ودستوره ، وبدأ فعلاً تنفيذ وتجسيد ذلك عندما بدأت مجموعات شعبية تتلقى التدريب العسكري لحماية تلك المبادىء على ارض الواقع .

وكانت الانطلاقة الحقيقية في مهرجانين شعبيين ضخمين : الاول في مدينة بعلبك ، والثاني في مدينة صور حيث اعلن المواطنون قسمهم الشريف باكمال مسيرة المحرومين لتحقيق كل المطالب المهدورة . ومن قلب معسكر التدريب اعلن الامام الصدر ولادة « حركة امل » الجناح العسكري لحركة المحرومين اثر الحادثة المؤسفة التي وقعت اثناء دورة تدريبية في منطقة بعلبك . وفي خضم تلك الاحداث المتتالية ، كانت تحاك في الخفاء الخيوط الاخيرة لمسرحية الدم في لبنان والتي انبثقت عنها الحرب الشرسة التي دعيت بالحرب الاهلية اللبنانية ، كان خلالها الامام الصدر الصرخة الحرة الداعية الى وقف الاقتتال والعودة الى الحوار والتفاهم بين ابناء القضية الواحدة والوطن الواحد .

---

(٧) ميثاق حركة امل .

(٨) ميثاق حركة امل .

الفصل السادس

الحرب الاهلية اللبنانية

تداخلت ظروف عدة في نشوب الحرب الاهلية اللبنانية التي بدأت في نيسان عام ١٩٧٥ وأسفرت عن تمزيق الوطن .

ويتصدر تلك الظروف المحلية الخلل القائم في قلب النظام اللبناني . والذي تعرض في فترات سابقة من الحرب لهزات عديدة سياسية (عام ١٩٥٨) واقتصادية (اهمها افلاس بنك انترا) ، اوجدت الشقاق في بنيته حتى وصل عام ١٩٧٥ بالنفس الاخير حيث اندلعت الحرب واجتمعت ظروف محلية مع اخرى خارجية جعلت من تلك الحرب ازمة دولية استمرت سبعة عشر عاماً .

يضم « لبنان » بصغر مساحته (١٠٤٥٢ كم^{٢}) العديد من الطوائف الكبيرة والصغيرة لعبت كل منها على حدا دوراً خاصاً في تاريخ بلاد الشام .

وهذا التنوع الطائفي شكَّل ارضاً خصبة للتدخل الغربي في شؤون المنطقة ، والذي لعب دوراً بارزاً في اشعال نار الفتن على مراحل عدة في القرون السابقة بين تلك الطوائف اضافة لانتفاضات محلية وحملات عصاة تلقت دعماً مباشراً من الخارج (علاقات فخر الدين المعني الخارجية ، الفتنة في جبل لبنان عام ١٨٤٠ ـ ثم عام ١٨٦٠) ثم بعد حين ضم الوطن اللبناني تلك الطوائف التي حرص المستعمر الغربي خلال سنوات انتدابه في المحافظة على خلافاتها بل على توسيعها من خلال سياسته الاستعمارية القائمة على مبدأ « فرِّق تسد » . فقد عاش الوطن اللبناني ثلاثة وعشرين

عـاماً (١٩٢٠ ـ ١٩٤٣) تحت حكم سلطات الانتـداب الغـربي المبـاشـر التي عملت على ايجاد سياسة تبعية للوطن ، بعد ان دعّمت طبقة اجتمـاعية حصـرت السلطة فيها ممن وقفوا بجانبه سنوات احتلاله الاولى ، فيما عمد الى ابعـاد باقي الفئـات عن تلك السلطة .

وبعيداً عن قراءة الواقع الطائفي للبنان ، والذي ساهم في ولادة الحرب الاهلية فيه ، فاننا سنتوقف عند اهم اسباب تلك الحرب المشؤومة .

خلل النظام اللبناني :

يكمن الخلل الاسـاسي للنظام اللبنـاني في قلب دستـوره الـذي منح لـه عـام ١٩٢٦ من قبل سلطات الاحتلال بعد انشاء الجمهورية اللبنانية ، هذا الدستـور الذي يقترب في شكل نشأته من المنحة الى اي شكل آخـر ، وان كانت سلطات الاحتـلال حاولت اضفاء روح المشاركة الديمقراطية لاصداره بعد الاستفتاء الخاص الذي رعتـه دون الأخذ به والعمل من خلاله . واذا كانت لرئيس الجمهوريـة صلاحيـات كبيرة في هذا الدستور فان المشكلة تقع في المادة الخامسة والتسعين منه حيث كرّست الطائفية السياسية في الجمهورية الجديدة ، والتي سار الانتداب على تيارها وكرَّس من خلالها الاقطاع السياسي داخل الحكم .

وممـا زاد الامر سـوءاً اللامشـاركـة العـامـة لممثلي الشعب في ولادة « الميثـاق الوطني » عشية الاستقلال والذي اكتفى رجلان اثنان فقط في صياغته وتكريسه للدولة المستقلة .

كل ذلك عرض النظام اللبناني لهزات عنيفة متتالية خصوصاً عام ١٩٥٨ وازداد الامـر سوءاً مـع بدايـة السبعينات دافعـة بالـوطن الى الهاويـة وكل ذلـك امام تمسـك الاقطاع السياسي بمراكزه ومطالبة المحرومين من ابناء الوطن بحقوقهم المشروعة .

العمل الفدائي في لبنان :

شـاركت فصـائـل من الجيش اللبنـاني في الحـرب الحـاسمـة التي جـرت بين الجيوش العربية والعصابات الصهيونية عام ١٩٤٨ وحدثت معارك مباشرة بين الطرفين على ارض جبل عامل ، قدم الجيش خلالها شهداء عدة وقَبِلَ معظم قرارات الجامعـة

العربية الصادرة في حينها واستقبل لبنان آلاف النـازحين الفلسطينيين بعـد عام ١٩٤٨ وتصاعد عددهم مع هزيمة ١٩٦٧ ثم عام ١٩٧٠ إثر احداث الاردن .

ونمـا العمل الفـدائي على ارض لبنـان بعـد هـزيمـة ١٩٦٧ ، حيث استقـطب سريعاً المواطنين خصوصاً العاطلين عن العمل وتصاعد على اثرها وتوسـع . وحاولت سلطات الدولة الحدّ من ذلك فاصطدمت مع الحركـة الشعبية التي تمثلت بمـظاهرات صاخبة ، والتي وضعت اتفاقية القاهرة حداً لها . وبعد احداث الاردن عام ١٩٧٠ عاد العمل الفدائي يتصاعد واصطدم مع الجيش اللبناني في ايار ١٩٧٣ ، اقـدمت بعدهـا ميليشيات محلية على اقامة حملات تدريب استعداداً وحماية لها كـان العمل الفـدائي في مقابلها يتصاعد حتى وصل الامر الى نيسان ١٩٧٥ عندما انفجر الوضع اثر مجزرة بشـرية حصلت ضـد عناصـر فدائيـة ، وجد العمـل الفدائي بهـا وقوداً وارضـاً خصبة للتدخل وانفجرت .

الوضع الاقتصادي / الانهيار :

« كان الله في عون لبنان » بهذه العبـارة انهت مجلة « العربي » استـطلاعها عن الصناعة في لبنان عام ١٩٦٩ ، بعد ان عزت ذلك الى الاقتصاد الحر السائـد في لبنان وهـو بمثابـة « اقتصاد متحـرر منطلق ، نـابع من بيئـة حرة ، تكـره القيـود والتخـطيط والنـظام ، ويختلط فيها الاقتصـاد مـع مكـائـد السيـاسـة المحليـة . . والعـربيـة . . والعالمية . . »[1] . هذا الاقتصاد دفع بالتجارة ايضاً ، بتوجيه حر لا يتبع أي قانون او نظام عاكساً تطور الصناعة والزراعة فحدَّ من تقدمهما بعد ان استقطب الايدي العـاملة على حسابهما اضافة لنظام الخدمات وغيره . فبالنسبة للزراعـة حالت سيـاسـة الـدولة دون تقدمها بعـد ان غضت النظر عن تنفيـذ مشاريعهـا في هذا الحقـل المهم ، الذي كـان يستقطب نسبـة عاليـة من الايدي العـاملة خصوصـاً في جبل عـامـل الـذي كـان « مشروع الليطاني » وحده الكفيل في نمو الزراعة فيه والـذي حال تقـاعس النظام عن تنفيذه .

امـا بخصوص التنميـة الزراعيـة (ارشاد زراعي ـ قـروض زراعية ـ تعـاونيات)

---

(١) سليم زبال ـ مجلة العربي ـ العدد ١٣١ ـ اكتوبر ١٩٦٩ ص ٩١.

فانها لم تعرف دربها السليم في الجبل العاملي ولا حتى في باقي المناطق مما ابقى الزراعة في حقلها البدائي . اضف الى ذلك سوء التعامل بين السلطات المختصة والمزارع خصوصاً زراعة التبغ التي تزرع بشكل واسع في جبل عامل .

كل تلك الظروف ، اضافة لإقفال الحدود الجنوبية للجبل ، دفعت بالمواطنين للنزوح الى العاصمة والعمل في مصانعها التي شهدت نمواً مميزاً ، فيما أنشأ الفقراء أحزمة سكنية حول العاصمة ذات طابع شعبي عرفت بـ« أحزمة البؤس » ، في تلك الأحياء الشعبية وجدت الافكار الثورية ارضها الخصبة عندما بدأت تزرع روح التمرد في نفوس المواطنين لمحاربة انظمة المصانع وباقي حقول العمل (انشاء نقابات - قيام مظاهرات - ندوات . . .) والذي تخطاه المواطنون للاصطدام مع سلطات الدولة وساعد ذلك على استيعاب معظم شعارات الحرب اللبنانية ساعة انفجارها .

انتفاضة عمال المصانع :

وفي ظل نمو الاقتصاد اللبناني الحر ، وجد صغار التجار الفرصة السانحة لخوض حقل الصناعة عندما شرعوا بانشاء مصانع صغيرة بطابع شعبي اخذت مع تزايدها تهدد مصلحة كبرى الشركات الصناعية التي عمد اصحابها الى ضربها بمشاركة مباشرة من سلطات الدولة التي لم تستطع حماية تلك المصانع والحفاظ عليها .

الى ذلك شهدت كبريات المؤسسات الصناعية حالات تمرد في صفوف عمالها تضامناً مع المصانع الصغرى واستنكاراً لتدني الدخل والاجور وطول ساعات العمل ، واتخذت اشكالاً عدة من اضرابات عن العمل الى مظاهرات شعبية صاخبة طالت قوانين الدولة ، التي تدخلت سلطاتها مباشرة وتصدت للمتظاهرين في اكثر من مرة مستخدمة الرصاص باتجاه صدور المنتفضين وقد سقط في احداها اضافة لعدد من الجرحى احدى العاملات « فاطمة الخواجة » (عيترون - جبل عامل) كأحد رموز المقاومة العمالية .

انتفاضة مزارعي التبغ ك ٢ (١٩٧٣) - النبطية :

كما استمرت سلطات الدولة في ضرب زراعة التبغ السائدة في جبل عامل ، عندما عمدت الى التجديد لـ« شركة الريجي » المحتكرة للزراعة مع استمرار تدني

اسعاره امام موجة الغلاء التي هددت خبز الفلاح اليومي . وقابل المزارعون ذلك بانتفاضات شعبية هتفت ضد قوانين النظام البالية ، فتصاعدت وتوّجت بالانتفاضة الشعبية في الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني عام ١٩٧٣ بمشاركة فلاحية وشعبية من مختلف القطاعات في جبل عامل التي اجتمعت في منطقة النبطية وانطلقت باتجاه مقر « الريجي » في المدينة للتعبير عن سخط المزارعين لتدني اسعار محاصيل التبغ ، وذلك في تظاهرة تتقدمها الهتافات عندما عمدت سلطات الامن بأمر من السلطات كالعادة الى التصدي للفقراء وأطلقت الرصاص باتجاه صدور المتظاهرين فقدمت خلالها الحركة الفلاحية ، الفلاحَيْن المناضلين حسن الحايك (كفر تبنيت) ونعيم درويش (حبوش) شهيدين دفاعاً عن حقوق المزارعين والفلاحين في الوطن .

انتفاضة صيادي الاسماك ـ شباط ١٩٧٥ (صيدا) :

ولم تقف سلطات النظام عند ذلك الحد من ضرب العمال والمزارعين فيما الدروس التي لقّنها هؤلاء لم تخرجها عن سياستها القمعية ، بل اكملت مشروعها الهمجي وطالت هذه المرة حقلاً آخر من حقول العمل ساعة اقدمت على ضرب صيادي الاسماك في الوطن بمنحها ترخيصاً لشركة اجنبية (بروتين) لاحتكار صيد الاسماك غير آبهة بخبز الصيادين .

فعلى شاطىء لبنان تعيش مئات العائلات من صيد الاسماك خصوصاً على شاطىء جبل عامل الممتد من مدينة صيدا حتى رأس الناقورة . وجاء ترخيص الدولة للشركة الاجنبية الضربة القاضية للصيادين الذين قابلوا ذلك بموجة من الاستياء تخللها العنف كرد طبيعي على مثل تلك الاجراءات . وكانت مدينة صيدا خلال ذلك ، المركز الاساسي لانطلاقة شعارات الصخب والاحتجاج ، فاجتمعت واتحدت بمظاهرة صيّادية شعبية صاخبة قادها المناضل معروف سعد في ٢٦ شباط عام ١٩٧٥ بمشاركة عمالية ونقابية عمد خلالها المتظاهرون الى قطع الطرقات واشعال اطارات السيارات حيث قام رجال الامن بايعاز من كبار موظفي الدولة بالتدخل مباشرة للدفاع عن الاحتكار وتصدى لهم المتظاهرون ، فيما اطلق رجال الامن الرصاص باتجاههم وطالوا رمز النضال والتمرد ، المناضل معروف سعد الذي اصيب بعدة رصاصات انطلقت من « الوطن » الى الوطنية وكانت كفيلة باستشهاده .

نشــوب الحــرب :

شكّل العمل الاجـرامي الشرارة الاولى للظهـور المسلح والصدام المبـاشر مـع « الجيش اللبناني » وفتح الباب امام انطلاقة الرصاصة وبدأت الحرب .

في معظم تلك الحركات برهن النـظام اللبناني انـه غير قـادر على الحفاظ على أمن الوطن حيث طالت معظم اخطائه قطاعات الشعب والجماهير الكادحة .

قد يكون لبعض التدخلات « النظامية » بالرصـاصة ، مبـررات اساسيـة الا انها تسقط بمعظمها امام سوء وخلل النظام من الاساس .

فلا يمكن ان يقبل العقل والمنطق فكـرة ضرب احـزمة البؤس لسبب انهـا تشوّه جمال العاصمـة ، في حين يستطيـع النظام حـل تلك المشكلة بطرق عـدة (ارشاد ، تنظيم مدني للاسكان الشعبي . . .) ولا يمكن أن يكون مشروع اعطاء رخصة لشركة اجنبية (بروتين) تحتكر الثروة السمكيـة وتضرب مئـات العائـلات التي تحيا من رزق البحر ، لسبب واحد ولو كان رئيسياً تمثله الدولة بسوء عملية حركة الصيد المستخـدمة من قبل الصيادين في حين تحل المشكلة بتنظيم ذلك بالسهر والارشاد .

لقد فشلت الدولة بكل اجهزتها في ايجاد حلول لمعظم المشـاكل التي اخـذت تهدد امن الوطن باسره .

وإذا كـانت انتفاضـة الصيادين ومـا رافقها من صـدام مباشـر بين المتـظاهـرين ورجـال الامن قـد اوقـدت الشـرارة الاولى للحـرب الأهليـة على ارض لبنـان ، فـان الاحـداث المحليـة التي تسـارعت بعـد ذلـك على ارض الـواقـع سـاهمت بـاشعـال الحرب .

في ١٣ نيسان حصلت مجزرة بشرية بحق عنـاصر من العمـل الفدائي ، فـوجد خلالها الآخير نفسه معني في الامر وسمح لنفسه بالتدخل مباشرة والرد بالسلاح .

وفي اليوم التالي للحادثة اندلعت في ضواحي بيروت معارك عنيفة بين الفدائيين والكتائب اصطفت الاحزاب الوطنية في حينها بجانب الفلسطينيين وانـطلقت المعارك بعد ذلك الى المناطق التجارية في قلب العاصمة لتتوسع من هناك باتجاه لبنان كله .

وهكذا نشبت على ارض لبنان اعنف حالات القتال والحروب الداخلية ، عندما استخدمت اضخم الاسلحة اضافة لاتباع ابشع انواع القتل والتشويه . وواكبت الحرب المسلحة ، معارك سياسية ضخمة شملت معظم سياسيي وقياديي « الوطن » اسفرت عن شق عميق في صفوف مواطني « الدولة اللبنانية » .

وهكذا عاش لبنان التمزق العنيف والانهيار في ظل العناد والطروحات البعيدة عن المنطق ، وبرهن استحالة بقائه وطناً حراً مستقلاً كما اشيع في ادبياته السياسية .

ومع تمزق الوطن لعبت الحرب الدور الاساسي في تدخل العدو الصهيوني المباشر لتحقيق مشاريعه التاريخية ، وفق بروتوكولاته ، لغزو الوطن واحتلاله .

فقد وجدت « اسرائيل » الفرصة المناسبة لتحقيق اهدافها ومطامعها التاريخية ، بالتدخل في شؤون الوطن والحصول على ثرواته الطبيعية والاراضي لتبني عليها مستوطنات لمهاجريها ، توازيها ايضاً بضربة قاضية للعمل الفدائي الذي بات يومها يهدد امن شماليها .

امام كل ذلك استمر جبل عامل البقعة الملتهبة والخصبة للتدخلات والانتكاسات جعلت منه مرتعاً للسياسات الخارجية ، والتدخلات الاسرائيلية التي كانت ترسم على ارضه معالم الحرب العربية ـ الاسرائيلية الخامسة .

البـــاب الســابــع

النضال العاملي ضد الاحتلال الاسرائيلي

الفصـــل الاول

جذور الحركة الصهيونية

- اسرائيل شر مطلق
- التعامل مع اسرائيل حرام

الامام موسى الصدر

يكاد يكون انشاء « دولة اسرائيل » الوجه الآخر للحركة الصهيونية العالمية والتي ساهم الاستعمار الغربي لمنطقة الشرق الاوسط في زرعها في قلب العالم الاسلامي ، ان يكون المشكلة الرئيسية الاولى على الساحة الدولية بأسرها .

بعد مرور عقود على انشاء الكيان الصهيوني تحت اسم « دولة اسرائيل » خاضت الانظمة العربية حروباً عدة معها وفشلت في معظمها بتحقيق اي نصر (١٩٤٨ ـ ١٩٥٦ ـ ١٩٦٧) باستثناء حرب (١٩٧٣) بعد ان اتخذت طابعاً دولياً ، تلتها مباشرة طروحات استسلامية توصلت بعض الانظمة الى الاعتراف بالكيان الصهيوني بل واقامة معاهدة سلام مشتركة معه .

الفكر اليهودي والاطماع الاسرائيلية :

تنحدر سلالة اليهود من نبي الله يعقوب الملقب باسرائيل والذي انجب بزواجه مرتين ، اثني عشر ذكراً ، تسلسل منهم اسباط بني اسرائيل .

في بداية رحلتهم عاصر بنو اسرائيل الحملة الاضطهادية التي قادها الفراعنة في مصر على الشعب آنذاك . وخلال تلك الفترة عرفوا الرسالات السماوية بوحي من الله

وبواسطة عدد من الانبياء والمرسلين . وشكلت منطقة جنوب بلاد الشام اهم المراكز الرئيسية لهبوط الوحي التي انطلقت منها الى معظم انحاء الدنيا .

والكتاب السماوي المعروف لدى اليهود يدعى « التوراة » وهو عبارة عن مجموعة من ستة وأربعين سفراً (ومعناه كتاب) اولها سفر التكوين . يصعب على الباحث الأخذ بنصوص التوراة كمصدر اساسي لدراسة الفكر اليهودي ، عندما يتأكد لدينا الخطأ التاريخي الذي أقدم عليه اليهود بممارستهم عمليتي الدس والتزوير في نصوصه وعلى فترات معينة من الزمن سابقة ولاحقة ، دون ان يكون ذلك شاملاً لمعظم الأسفار انما جاء ذلك وفق ما كانت تقتضيه مصالح العنصرية . وتصاعد ذلك مع صعود الحركة الصهيونية العالمية التي وجدت بالتوراة المثال الاعلى لمباشرة مخططاتها العنصرية . واقدمت بعد عدة دراسات على ادخال باب الاجتهاد للفكر اليهودي حيث اسفر ذلك عن ولادة « التلمود » الذي اضحى مطابقاً لمعظم مشاريع وافكار الحركة .

ان قراءة سريعة للحقبة الاولى للتاريخ اليهودي ترينا بكل وضوح جوهر الفكر اليهودي العميق النابع من العنصرية الذاتية .

عرف اليهود عدداً كبيراً من انبياء الله الذين أتوا بعدة رسالات سماوية ، كانت بجوهرها كباقي الرسالات ، تحضهم على التصدي للظلم القائم في المنطقة على ايدي فراعنة مصر ، ثم انهاتبعث فيهم روحانية الاديان السماوية القائمة على المحبة والعدالة والمساواة ، فيما هم يستمرون في غطرستهم وجبروتهم وتحريفهم لآيات الله عز وجل .

لقد جاء ذكر مثل ذلك في القرآن الكريم آخر الرسالات السماوية والذي يورد آيات عدة عن حياتهم وواقعهم ونظرتهم من الرسالات التي انزلت عليهم . واستمر هؤلاء القوم في عنصريتهم مع حقبة التاريخ الميلادي . فقد رفضوا الاعتراف بنبوة السيد المسيح عيسى ابن مريم (ع) الذي جاء بـ« الانجيل » مبشراً بالدين الجديد والداعي الى المحبة والعدالة والمساواة ، ومع انه اكَّد الرسالة بالامثلة الحية (شفاء المرضى ، انزال مائدة من السماء . . .) رفض اليهود الاعتراف به كنبي مرسل باستثناء الحواريون منهم ومارسوا على المؤمنين الجدد ابشع انواع الظلم والاضطهاد

وجسّدوا قمة كفرهم بمحاولتهم صلب المسيح كتعبير عن سخطهم وعنصريتهم .

ولما بعث الله بآخر الرسالات السماوية ـ الاسلام ـ حاول اليهود المباشرة بمشاريعهم التعسفية ضد النبي محمد (ص) قائد المسيرة . إلّا أنهم هذه المرة باؤوا بالفشل أمام صبر المؤمنين وبأس الرجال ، حيث تصدى المسلمون لهم في أكثر من موقع ، وسجلوا عليهم في موقعة خيبر الشهيرة انتصاراً مروعاً حطموا فكرة جبروتهم بمعظم ابعادها .

هكذا ترسخت العنصرية اليهودية في نفوس معتنقيها واتخذت قالباً خاصاً لها بحيث لعبت دوراً بارزاً في ابقائهم اقلية امام باقي الديانات والتي جاءت بعد رسالاتهم ، الا انهم لاقوا انتشاراً أوسع مع هبوطهم في مختلف البقاع ، واتخذوا خلالها احياء ومناطق خاصة بهم وبانحياز مستمر عن العلاقات الاجتماعية المشتركة من مصاهرة وقبول متهودين من باقي المجتمعات .

وبرز فيهم تيودور هرتزل (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) مفكراً صهيونياً وضع نصب عينيه فكرة الحصول على بقعة ارض يجمع عليها شمل اليهود المتفرقين ، وانشاء وطن قومي لهم ، فكانت فلسطين المقدسة ذلك الامل الذي دخل احلام المفكر الصهيوني الذي بدأ تحركاته مع اولي الامر للحصول على مأربه .

وأمام اتصالاتهم ، توصل رجال الحركة الصهيونية الى عقد مؤتمرات سرية لهم افتتحوها بمؤتمر بال في سويسرا عام ١٨٩٧ وهو المؤتمر الذي عرضت فيه نيّة احلام ومشاريع الصهيونية على طاولة البحث ، وأسفر عن صدور نظريات صهيونية خطيرة عرفت ببروتوكولات حكماء صهيون والتي شملت ٢٤ نصاً عرض خلالها المجتمعون معظم مشاريع حركتهم حيث باشروا تجسيدها بعد المؤتمر .

بدء مشروع الاستيطان :

حرّك تيودور هرتزل فكرة الهجرة الى فلسطين وجعلها وطناً لليهود وقام بعدة محاولات للوصول الى مبتغاه . كانت فلسطين يومها جزءاً من الدولة العثمانية تحت خلافة السلطان عبد الحميد الثاني ، حيث ألهبت بتاريخها العريق وموقعها الحساس المهم ، حماس اليهودي الشاب الذي باشر مخططه بزيارة رسمية قام بها للعاصمة العثمانية اسطمبول لبحث المشروع الخطير فعرضه على السلطان ، فلسطين

قالب العالم الاسلامي مقابل صفقة مهمة للسلطان والدولة « حلفاء سيقدمون له العون في ثلاثة مجالات : الماليون اليهود كسير صموئيل يساعدون بالمال . . . ثم إن الصحافة اليهودية ستحسن سمعة العثمانيين التي شوهتها القضية الارمنية والصراع الطويل في البلقان ، واذا استقر في فلسطين المستوطنون اليهود الموالون للسلطان امكنهم ان يساعدوه في حل الخلاف المحتمل مع العرب »[1] .

تلك كانت عروض هرتزل على السلطان مقابل الوطن القومي ، قابلها الخليفة العثماني بالرفض المطلق الذي ارسل له رداً حاسماً « انصحه ألاّ يتقدم خطوة واحدة اخرى في هذا الشأن . لا استطيع أن أبيع قدماً واحدة من البلد لانه ليس ملكي بل ملك شعبي . لقد ربح هذه الامبراطورية وغذّاها بدمه ، وسنغطيها مرة اخرى بدمنا قبل ان نسمح بتمزيقها »[2] .

ذاك كان رد الخليفة ، واجهه هرتزل بقناعة جديدة ، عندما اتخذ من كلمة « بتمزيقها » الهدف الرئيسي لتنفيذ مشروعه ـ بتمزيق الخلافة تنزف الارض ويهون ساعتئذٍ الاستيلاء على الارض في ظل وهن شعب الامبراطورية . واستطاع مواكبة فكرة تمزيق الخلافة ، بمشروع انمائي اولي اتسم ببناء المستوطنات ، بدأ حينها هرتزل الاتصال باثرياء اليهود ودعاهم للبدء في المشروع ، وكان على رأسهم الممول روتشيلد الذي باشر بناء مزارع ومستوطنات مع تحسين احوال اليهود داخل الارض المقدسة اجتماعياً واقتصادياً ، حيث استطاعوا من خلالها بث حملة دعائية ضخمة على الساحة الدولية كانت بمثابة مفاضلة بين اليهود (نمو اجتماعي ـ مزارع . . .) وعرب فلسطين (حياة بدائية) استغلوها لكسب الرأي العام الغربي بانهم أولى بالعيش على ارض فلسطين من العرب . لهذا خططوا قبل وقوع الحرب العالمية الاولى ، وعندما همدت نارها ولاح شعاع النصر بجانب الحلفاء استطاعوا الحصول على الصيغة القانونية الدولية لذلك مع الوعد الخطير الذي اعطاه لهم وزير خارجية بريطانيا آنذاك بلفور ، الذي قضى باعطاء وانشاء وطن قومي لليهود على ارض فلسطين تعترف بريطانيا وباقي الدول بشرعيته .

---

(١) دزموند ستيورت ـ تاريخ الشرق الاوسط الحديث ـ دار النهار للنشر ١٩٨١ ص ١٥٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٥٨ .

وإزاء ذلك تصاعـدت حملات الهجـرة للوطن القومي من مختلف انحـاء الكرة الارضية ، هذه الهجـرة التي واجهها العـرب بمختلف وسائلهم ، لكنهم اخفقـوا امام الظروف القسرية التي واجهت المنطقة بأسـرها خـلال احتلال الحلفـاء للبلاد ، والتي قضت بوضع فلسطين تحت سيطرة الانتـداب الانكليزي ، (واهب وعـد بنفور) ممـا ساعد مباشرة على تسهيل عملية الهجرة اليهودية مع تقديم معظم التسهيلات لذلـك . وواكبتها مساعدة مادية ضخمة من الحـركة الصهيـونية العـالمية . وهكـذا رفع اليهـود شعار « وطن بلا شعب » (فلسـطين) لشعب بلا وطن (اليهـود) لمشروعهم الخـطير واكملوا السيـر فيه ، واستغلوا الحملة النـازية ضـد شعبهم في المانيـا خلال الحـرب العالمية الثانية ، لكسب الدعاية العالمية على انهم شعب مستضعف مشرَّد يحتاج الى وطن . ومع نهايـة تلك الحرب لعبت الـظروف الدوليـة وانتصار الحلفـاء على المانيـا دوراً بـارزاً في تقدم المشـروع وتوسيـع الهجرة فسـاعد ذلـك بعد عـدة صدامـات مع الجيوش العربية وتحقيق انتصارات عليهـا ، عن اعلان انشـاء الكيان السيـاسي تحت اسم « دولة اسرائيل » في الرابـع عشر من شهـر ايار عـام ١٩٤٨ فحققوا بـه احلامهم التاريخية ، بعد ان حصلت دولتهم على الاعتراف الدولي .

الفصـــل الثانـــي

الاطماع الاسرائيلية في جبل عامل

لم يحدد رجال الحركة الصهيونية الحدود الرسمية للوطن القومي الذي حلم اليهود به في فلسطين ، بل تركوا ذلك لمقتضيات المستقبل ووفق ما تطلبه حركتا الهجرة والاستيطان .

في زيارة له لبرلين اجاب تيودور هرتزل على بعض الاسئلة حول الوطن القومي الذي اشار اليه في الدولة العثمانية ، سئل : « كم من ارض السلطان يريد ؟ حتى بيروت في الشمال أم أبعد من ذلك ؟ اجاب هرتزل : « سنطلب ما نحتاج اليه كلما زاد المهاجرون زاد طلب الارض . طبعاً سنحترم حقوق الملكية الخاصة ، وسنشتري الارض من اصحابها الحاليين »[1] .

وفي المؤتمر الصهيوني الذي عقد في المانيا (٣٠ نيسان ١٩٠١) اكّد المؤتمرون « أن من الواجب على الصهاينة انتزاع الاراضي المجاورة لفلسطين ودفع الهجرة اليهودية اليها » . وفي « عام ١٩١٩ قدمت المنظمة الصهيونية الى مؤتمر السلام في باريس مذكرة تطالب فيها شمول كل الاراضي اللبنانية حتى نهر الليطاني »[2] هذا إضافة لعدة قرارات اسرائيلية صدرت بهذا الشأن وطالبت بضم

---

(١) دزموند ستيورت ـ مرجع سابق ص ١٥٨ .

(٢) معاً من اجل الجنوب ـ معاً من اجل لبنان ـ مرجع سابق، ص ٢٨ .

اراضي جبل عامل الى دولة اسرائيل .

سياسة الشراء والضم :

ارادت دولة اسرائيل اتباع الاسلوب نفسه الذي عملت به في فلسطين والقائم على شراء اراضي مواطني المنطقة لبناء مستوطنات يهودية عليها ، إلّا أن محاولتها على ارض جبل عامل باءت فعلاً بالفشل ، باستثناء التنازلات القسرية المباشرة من سلطات الانتداب الفرنسي التي رفضت بادىء ذي بدء التنازل عن اي شبر من الاراضي الواقعة تحت سيطرتها بما فيها جبل عامل كتحدٍ لسلطات الانتداب البريطاني في فلسطين . إلّا أنه بموجب معاهدة حسن الجوار المعقودة بين فرنسا وبريطانيا انتقلت سبع عشرة قرية عاملية من سلطة الانتداب الفرنسي الى الانتداب البريطاني التي تنازلت بدورها عنها للحركة الصهيونية « وهذه القرى هي : المطلة ، النخيلة ، الصالحية ، الناعمة ، الخالصة ، الزوية ، المنصورة ، الذوق الفوقاني ، الذوق التحتاني ، خان الدوير ، الدواره ، الخصاص ، العباسية ، دفنة ، اللزازة » وتشكل هذه القرى العاملية ما يعرف بمنطقة الحولة ، التي تعتبر « من اخصب الاراضي في العالم ، فهي تعطي ثلاثة مواسم في السنة ، ويبلغ فيها الخصب درجة تفوق حدود التصور »(٣) .

وفي عام ١٩٤٨ ضمت الحركة الصهيونية الى دولتها سبع قرى عاملية كانت سلطات الانتدابين الفرنسي والانكليزي قد ضمتهما للأخير بعد مفاوضات عدة بين الطرفين ، وهذه القرى هي : هونين ، تبريخا ، قدس ، صلحة ، ابل القمح ، النبي يوشع ، المالكية ، والاخيرة ذات موقع استراتيجي هام شهدت اعنف المعارك بين جيش الانقاذ العربي والعصابات الصهيونية عام ١٩٤٨ . اضف الى ذلك مئات الدونمات التي ضمتها اسرائيل بعد حرب عام ١٩٤٨ وهجَّرت سكانها واستحدثت عليها مزارع حديثة تزيد عليها اسرائيل بعد كل حرب تخوضها في المنطقة .

موقف العلماء من سياسة الشراء والضم :

احدثت سياسة الحركة الصهيونية من شراء وضم اراضٍ ، ضجة واسعة في

---

(٣) سلام الراسي ـ مرجع سابق ص ٦٣ .

مختلف الاوساط داخل جبل عامل . وباستثناء محاولات بعض الاقطاعيين المحليين بيع مزارعهم ، فان تحرك العلماء المجاهدين واسراعهم في الحد من ذلك اقفل الدرب امام العصابات الصهيونية لاكمال مشروعها .

كانت صرخة المجاهد السيد صدر الدين فضل الله ذات صدى كبير في معظم اوساط ابناء الجبل عندما اصدر فتوى دينية تقضي بتحريم بيع الاراضي للعصابات الصهيونية . وقد أدت هذه الفتوى الى توقف عملية البيع ، واقفال المشروع الصهيوني من اساسه .

العمل الفدائي في جبل عامل :

للنضال الفلسطيني على ارض جبل عامل خصوصياته المختلفة ذات الجذور التاريخية المتألقة بثنائية الكفاح الملتحم بين الشعبين الحميمين . ففي سنوات النضال الاولى التي فجَّرها الفلسطينيون ضد الحملة الصهيونية ، ساند العامليون اخوانهم المقاتلين في عمليات التصدي بكل ما استطاعوه ووفق ما اقتضت يومها مقوماتهم البشرية والحياتية .

وكما انهم استقطبوا فكرة الحركة الفدائية ورجالاتها الثوار الفارين من بطش سلطات الانتداب البريطاني قبل عام ١٩٤٨ ، فانهم استقبلوا بكل اخوية صادقة جماهير فلسطين بعد الكارثة . لقد فتح العامليون صدورهم وبيوتهم لاخوانهم النازحين من ارض فلسطين تحت حملات القمع الصهيوني وحضنوا بذلك بذور الثورة والانتفاضة الفلسطينية متلقفين فكرها الكفاحي ، عندما وعوا من اللحظة الاولى للاحتلال الصهيوني لفلسطين واعلان قيام دولتهم ، ان الخطر الصهيوني يهدد أمن الامة العربية بأسرها ، فوضعوا كل طاقاتهم في خدمة اخوانهم النازحين .

لقد تنوع الدعم من احتضان المناضلين الفارين من ملاحقة سلطات الانتداب والعصابات الصهيونية ، الى مشاركة قتالية مع الثوار ووعي حقيقي لأبعاد الثورة تجلَّت برفض المناضل العاملي معروف سعد الخروج من فلسطين بأوامر من « الجيش اللبناني » عام ١٩٤٨ بعد اعلان الهدنة من قبل اللجنة التأسيسية للجامعة العربية .

في مجال آخر بدأت معظم الدول العربية المحيطة بفلسطين تشهد تغيرات اساسية في انظمتها السياسية من انقلابات الى حركات تحرر قضت على الانظمة

الملكية فيها وأوصلت الى سدة الرئاسة وجوهاً جديدة جعلت القضية الفلسطينية شعاراً في سياستها الدفاعية والخارجية ، حتى اضحت فلسطين قضية العرب الاولى .

هكذا اصبح الصراع الفلسطيني الاسرائيلي صراعاً عربياً اسرائيلياً ، وبهذا وسَّع العرب في سنوات الخمسينات من خطة تنمية القطاع العسكري لمواجهة الكيان الصهيوني خصوصاً في مصر التي شهدت ثورة الضباط الاحرار فيها وأوصلت القائد العربي جمال عبد الناصر الى سدة الرئاسة ، وبالتالي الى قيادة العرب في ذلك الصراع الدائم ، فكان مستهدفاً عام ١٩٥٦ لعدوان ثلاثي من بريطانيا وفرنسا واسرائيل على اراضي جمهوريته .

ومع التغييرات الاساسية التي طرأت على معظم الدول العربية حتى منتصف الستينات من ولادة دول عربية جديدة (خصوصاً في الخليج) عرفت القضية الفلسطينية تطورات جديدة تأثرت مباشرة بالسياسات العربية المختلفة بين دولة واخرى . ولم تعرف الاستقلالية إلا مع ولادة حركة فتح عام ١٩٦٥ ، هذه الحركة التي اخذت على نفسها باديء ذي بدء مسؤولية المقاومة الفلسطينية حيث لاقت دعماً سياسياً ومادياً عربياً ودولياً الى ان جاءت هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ وهزَّت الامة العربية بأسرها بما فيها منظمة التحرير الفلسطينية التي بدأت بعد تلك الهزيمة مسيرة جديدة في بناء البنية المسلحة خصوصاً في الاردن الذي وجدت فيه ارضاً خصبة مع كثافة عدد الفلسطينيين النازحين اليه ، إلا أنها تلقَّت ضربة قاضية هناك من النظام الاردني الذي قضى عليها عسكرياً وذلك في ايلول عام ١٩٧٠ . كما جاءت وفاة الزعيم العربي جمال عبد الناصر ضربة اخرى للقضية الفلسطينية وهذا مع ما سبقه ، دفع بالمقاومة الفلسطينية للبحث عن ارضية جديدة لها خصوصاً مع اقفال جبهات القتال مع العدو الصهيوني .

لم يبقَ امام المقاومة الفلسطينية سوى لبنان حيث نزح اليه الألوف بعد احداث الاردن ، وبعد ان اصبح المنطقة الوحيدة التي تتنفس منها المقاومة .

كان جبل عامل قد شهد تطوراً في العمل الفدائي بعد هزيمة ١٩٦٧ مباشرة واصبحت منطقة العرقوب مسرحاً مهماً لعمليات التدريب العسكري لفصائل المقاومة ، بعد ان استقطبت المئات من المتطوعين اللبنانيين في صفوفها ، وجاءت

اتفاقية القاهرة برعاية الجمهورية العربية المتحدة في الثالث من تشرين الثاني عام ١٩٦٩ لتحدد مناطق تواجد العمل الفدائي بكل ابعاده . وكشفت الاحداث التي انبثقت من خلالها اتفاقية القاهرة ضعف النظام اللبناني في تأمين الأمن لمعظم المناطق اللبنانية ، فيما فرض العمل الفدائي نفسه على الساحة ، والذي بدأ مباشرة يتصاعد ومستمراً في استقطاب العديد من المواطنين اللبنانيين اثر حملة بث ثوري في المناطق الشعبية خصوصاً التي عرفت حملات تدريب للعناصر الفلسطينية واللبنانية ، شاركت بعد مدة في تنفيذ عمليات فدائية ضد دولة اسرائيل انطلاقاً من الاراضي اللبنانية كجبهة مفتوحة مع العدو الذي بدأ اثر ذلك بالرد على العمل الفدائي ، بعمليات عدوانية على جبل عامل بمختلف أدواته العسكرية . ومقابل الوهن والضعف داخل النظام اللبناني ، استمر العمل الفدائي في التصاعد خصوصاً مع احداث الاردن الآنفة الذكر ، فوسّعت اسرائيل على اثرها من اعتداءاتها . وحصلت صدامات مباشرة بين العمل الفدائي والسلطة اللبنانية ، مما أوصل البلاد الى صدام خطير بين الفدائيين والجيش اللبناني في ايار عام ١٩٧٣ ، سيطر خلالها الجيش اللبناني على معظم المخيمات الفلسطينية المحيطة بالعاصمة .

أما في الجبل فقد استمر العمل الفدائي متصاعداً خصوصاً بعد حرب تشرين عام ١٩٧٣ وما تبعها من اقفال لمعظم جبهات القتال مع اسرائيل ، فأصبح يومها جبل عامل رئة المقاومة الوحيدة وساحة الصراع الاولى بين العرب واسرائيل .

خلال الحرب الأهلية :

واذا كان الوجود الفلسطيني في لبنان وعمله الفدائي قد شكّل احد اسباب الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٧٥ فانه وجد في تلك الحرب الفرصة المناسبة للتدخل كطرف مباشر بين المتنازعين عندما ساند المعارضة داخل النظام اللبناني فيما وسّع نشاطه الخاص باستيعابه الالوف من المواطنين اللبنانيين وهذا ما ساعد على تصعيد كفاحه المسلح ضد اسرائيل .

وبعيداً عن معظم طروحات فصائل المقاومة الفلسطينية وقراراتها بالنسبة للحرب الأهلية ، فان العمل الفدائي اتخذ من بيروت ولبنان مركزاً اساسياً له ، واصبحت المقاومة الفلسطينية عنصراً اساسياً على الساحة اللبنانية لها الضغط المباشر

على مختلف حلقات الحرب الأهلية اللبنانية .

الاعتداءات الاسرائيلية على جبل عامل :

تقوم سياسة التوسع الصهيوني على القتل والدم بحيث تستخدم مختلف انواع الاساليب ببشاعتها وقذارتها لتنفيذ معظم مخططاتها ومشاريعها ومهما كلف ذلك من ثمن وأي سبيل اتخذت . فقد نفَّذ الصهاينة خلال حربهم مع الجيوش العربية وبعد دخولهم شمال فلسطين والتوسع باتجاه جبل عامل ، مجزرة بشرية بحق ابناء بلدة حولا الجنوبية على غرار ما فعلته ايديهم في دير ياسين وغيرها من مدن وقرى فلسطينية ، ذهب ضحيتها ٥٨ مواطناً من مختلف الاعمار اضافة لسياسة التدمير والاتلاف الزراعي داخل البلدة .

واستمرت الاعتداءات الصهيونية طوال شهور الحرب العربية ـ الاسرائيلية حتى صدور قرار اللجنة التأسيسية للجامعة العربية القاضي باعلان الهدنة مع الكيان الصهيوني ، مما سمح بابرام اتفاقية بين دولة اسرائيل والدولة اللبنانية عرفت باتفاقية الهدنة لعام ١٩٤٩ .

لم يعتبر سياسيو العرب الهدنة مع الكيان الصهيوني ايقافاً للصراع العربي ـ الصهيوني ، بل اعتبروها هدنة حرب تبقي الجبهة مفتوحة مع كيان العدو . هذا ما ظهر لاحقاً في اكثر من مرة (حرب السويس ١٩٥٦ ـ هزيمة ١٩٦٧ وغيرها) .

ومع بروز العمل الفدائي بعد الهزيمة وانطلاقة المقاومة الفلسطينية ، ردَّت اسرائيل بمختلف وسائل دفاعها على عمليات المقاومة الفلسطينية داخل اراضي جبل عامل الذي دفع خلالها ثمناً من الامن والارض مما سبب حركة نزوح قسرية لابناء مناطق حدوده باتجاه الشمال خصوصاً الى بيروت التي شكَّلوا حولها حزاماً شعبياً اخذ اسم حزام البؤس . وعام ١٩٧٠ صعَّدت اسرائيل من اعتداءاتها على شرق الجبل وطالت قرى آمنة في ذلك القطاع (كفر شوبا ، العرقوب وغيرها) ووضعت خلاله المنطقة في جو إرهابي . واعلن الامام الصدر اثر ذلك عن تشكيل « هيئة نصرة الجنوب » من عضوية الزعماء الروحيين في الجبل . وخلال احداث ١٩٧٥ وجدت اسرائيل الفرصة سانحة ، وتدخلت اكثر من مرة في شؤون الوطن بعد ان اجرت اتصالات مباشرة مع بعض الفئات على الساحة أسفرت عن فتح بوابة عبور على حدود

الجبل بين اسرائيل وعملائها واخذت قوى العدو بتسليح ميليشيات انعزالية درَّبتها على التصدي للعمل الفدائي للاضعاف من شأنه وليبقى تدخلها في اي وقت مفتوحاً في الشؤون اللبنانية .

خلال تلك الاحداث كان جبل عامل يدفع ضريبة الدم والنزوح حيث خيَّم عليه جو من القهر والخوف اتسم بطابع مخيف مع تعدد الصراعات داخل العمل الفدائي .

اجتيـــاح آذار ١٩٧٨ :

خلال تلك الفترة وسَّعت اسرائيل من اعتداءاتها ، ولمَّا وجدت الفرصة سانحة لتنفيذ مآربها اقدمت على اجتياح جبل عامل في ١٣ آذار عام ١٩٧٨ مستخدمة احدث انواع الاسلحة الجوية والبحرية والبرية ، واصطدمت خلال ذلك مباشرة مع المنظمات الفلسطينية والمحلية في عدة مواقع هامة . في حين مارس الجيش الاسرائيلي اضخم عمليات القصف المدفعي على مواقع العمل الفدائي ، وسهل ذلك لعملية زحف باتجاه الشمال وصل خلالها العدو الى نقاط متقدمة داخل جبل عامل واحتل مساحات واسعة من الاراضي شملت عشرات القرى التي نزح سكانها باتجاه الشمال ، فيما اقدم الاسرائيليون فور دخولهم بعض تلك القرى على تنفيذ مجازر بشرية بحق ابنائها اضف الى ذلك سياسة التدمير التي طالت كل الشرايين الحيوية داخل تلك القرى .

ومع تلك الحرب حرَّكت الحكومة اللبنانية سياستها الخارجية وقدَّمت الى « مجلس الامن » عدة مذكرات تشرح فيها الوضع الخطير الذي عاشه جبل عامل آنذاك حيث قابل « المجلس » ذلك باصدار قرارات هامة حول الاجتياح الاسرائيلي ، هما القراران ٤٢٥ و٤٢٦ اللذان صدرا في التاسع عشر من شهر آذار ١٩٧٨ . واللذان دعيا « اسرائيل الى ان توقف عملياتها العسكرية ضد سلامة اراضي لبنان ، وان تسحب فوراً قواتها من كل الاراضي اللبنانية »[٤] الا ان اسرائيل رفضت التقيد بهذين القرارين وبقيت قواتها على اراضي الجبل فعاد بعد ذلك مجلس الامن واصدر

---

(٤) ندوة مجلة الكفاح العربي ـ ماذا فعلت الامم المتحدة للبنان والقضية العربية؟ العدد (٣٤٠) ١٤ كانون الثاني ١٩٨٥ ص ٨.

قراراً آخر رقم ٤٢٧ في ٣ ايار ١٩٧٨ لكنه لم يؤثر هو الآخر في اجبار اسرائيل على الانسحاب الى الحدود الدولية .

نتائج الاجتياح :

عرفت فصائل المقاومة الفلسطينية والقوى المحلية ضروباً ملحمية عدة من النضال اثناء تصديها للجيش الاسرائيلي خلال زحفه واجتياحه لجبل عامل ، إلاَّ أنها امام تطور آلة العدو العسكرية واستخدامه سلاحي الجو والبحر فضلاً عن السلاح البري ، اخفقت في صد آلياته التي وصلت الى نقاط متقدمة داخل اراضي جبل عامل .

وقد اسفر الاجتياح البربري عن خسائر بشرية ومادية جسيمة ، وضعت جبل عامل في أتون نكبة حقيقية .

المجازر البشرية :

فقد اقدمت سلطات الاحتلال ، بواسطة جيشها ، على دخول عدة قرى عاملية آمنة بآلياتها الضخمة حيث قامت بعمليات جرف وهدم للمنازل بعد ان اجرت داخلها مجازر بشرية بحق مواطنيها . ففي بلدة الخيام ، ارتكبت القوات الغازية بالتعاون مع عملائها مجزرة بحق مواطني البلدة ذهب ضحيتها واحدٌ وثلاثون مواطناً من مختلف الأعمار فضلاً عن تهديم البلدة كلياً بعد ان أُفرغت من سكانها الذين نزحوا شمالاً ، وباتت خلالها مدينة اشباح لا ينطق بها حي بتاتاً .

كما دخلت قوات الاحتلال بلدة العباسية وهدَّمت بعض منازلها ونفذت مجزرة ذهب ضحيتها تسعة واربعون مواطناً ، وفعلت ذات الشيء في بلدة كونين الحدودية والتي ذهب ضحيتها تسعة وعشرون مواطناً من مختلف الاعمار . . وابيدت داخل الجبل قرى كاملة بعد تهجير سكانها ، وهدمت فيها المنازل ، واتلفت المزروعات وقضي بداخلها على نبض الحياة ، وهذه البلدات هي : « الخيام حانين ، رشاف ، يارين ، مارون الراس ، الزلوطية ، الضهيرة ، البستان ، ام التوت ، مروحين ، القنطرة ، الغندورية وراشيا الفخار »[٥] .

---

(٥) معاً من اجل الجنوب ـ معاً من اجل لبنان، مرجع سابق ص ٥٢ .

هذا فضلاً عن الخراب الذي لحق بمعظم قرى الجبل .

انشاء الشريط الحدودي :

وبعد صدور قراري مجلس الامن ٤٢٥ و٤٢٦ والقاضيين بضرورة انسحاب قوات الاحتلال عمدت سلطات العدو قبل انسحابها الوهمي إلى انشاء منطقة عازلة في الجبل اطلقت عليها اسم الشريط الحدودي الذي ضم اراضي واسعة من الجبل والتي اضحت منطقة معزولة يمارس عليها شريعة الغاب تحت ظل القهر والاعتداء ، وقد ضم الشريط الحدودي القرى التالية :

« الناقورة ، الضهيرة ، البستان ، يارين ، الزلوطية ، مروحين ، ام التوت ، علما الشعب ، طير حرفا ، شمع ، شيحين ، الجبين ، بيوت السيد ، بنت جبيل ، عيترون ، عيناتا ، مارون الراس ، يارون ، راميا ، بيت ليف ، صربين ، حانين ، رشاف ، رميش ، دبل ، عين ابل ، القوزح ، جديدة مرجعيون ، دبين ، القليعة ، برج الملوك ، كفر كلا ، دير ميماس ، عديسة ، مركبا ، بني حيان ، طلوسة ، رب ثلاثين ، حولا ، ميس الجبل ، بليدا ، محيبيب ، الخيام ، عين عرب ، الوزانة ، صردة ، الميسات ، الماري ، السلامية ، مزرعة حلتا ، مزرعة المجيدية ، البياض ، بيت ياحون ، الطيبة وكفر شوبا[٦] .

التشريد والنزوح :

الى ذلك نزحت مئات العائلات من جبل عامل باتجاه الشمال (صيدا وبيروت) والتي تركت مقومات العيش الحيوية على الارض واصيبت الحالة الاقتصادية بضربة قاسية طالت معظم الحقول الزراعية : تبغ ـ حمضيات ـ اضافة الى التجارة .

وبالتأكيد لا يمكن حصر خسائر الاجتياح بتفصيلاته فقد عطّل معظم مقومات الحياة داخل الجبل لفترة الغزو واسفر عن خسائر بشرية ومادية جسيمة فضلاً عن انشاء الشريط الحدودي على ما رأينا ، فيما اوجد جواً من الرعب وفتح حرباً جديدة بين فصائل المقاومة الفلسطينية المتواجدة على ارض جبل عامل وقوات العدو عندما بدأت

---

(٦) نفس المرجع السابق ص ٥٤ .

المقاومة تحصين قواعد عسكرية لها داخل الجبل ، استخدمت فيها القصف المدفعي لشمال فلسطين المحتلة وتلقت بدورها القصف بـالطيـران الاسرائيلي ، بـادئة حـرب تبادل القصف استمر خلالها جو جبل عامل ملبداً بغيوم الحرب والموت والخراب .

الفصـــل الثالــث

الاحتــــلال

مقدمـــات الغـــزو :

تراجعت قوات الاجتياح الاسرائيلي من نقاط تمركزها المتقدمة في اراضي جبل عامل بعد صدور قراري مجلس الامن ٥٠٨ و٥٠٩ ، وانكفأت الى الحدود الدولية بعد ان شكلت شريطاً حدودياً كثمرة لغزوها (آذار ١٩٧٨) كان كرادع للعمل الفدائي المنطلق من الجبل ، حيث اقفل الشريط ، (الذي خضع لأوامر ميليشيات عميلة للعدو) الدرب امام العبور الفدائي الى الارض العربية المحتلة .

غير ان سلطات العدو لم تنه اعتداءاتها على مراكز منظمة التحرير الفلسطينية العسكرية داخل الجبل بل استمرت في قصف اهدافٍ عسكرية عدة للمنظمة بطائراتها المقاتلة ، فيما كانت مدفعية المتعاملين داخل الشريط الحدودي تقصف القرى والمناطق الآمنة الواقعة الى الشمال من ذلك الشريط . وتشابكت اثناء ذلك احداث كان لها دور في تغيير مسار السياسة على ارض الوطن وأثّرت مباشرة في تبدل بعض المعادلات العسكرية على ارض الواقع .

اخفـــاء الامـــام الصـــدر :

وخلال ذلك فقدت الساحة العاملية وساحة المحرومين في لبنان الصرخة الحية التي حملت لواء الدفاع عن حقوقها ، عندما اخفي الامام الصدر عن ساحة جهاده ،

في ظروف غامضة اثناء زيارة قام بها الى ليبيا .

وانتفض جبل عامل يومها بمعظم سكانه استنكاراً لعملية الاخفاء وعبَّر عن ذلك في مظاهر شتى ، فيما شهدت المؤسسة العسكرية التي اسسها الامام الصدر ، التفافاً لا مثيل له من قبل جماهير الوطن الكادحة ومحروميه وانطلقت يومها حركة امل وبدعم جماهيري فوسَّعت عملها النضالي الذي شمل مختلف الميادين .

تصعيد في عمليات الفدائيين :

الى ذلك جدد العمل الفدائي تصديه للعدو في عمليات بطولية عدة ، فصعَّد من قصفه المدفعي المباشر لشمال الاراضي المحتلة وطال القصف خلال ذلك مستوطنات العدو في الشمال ، خصوصاً مستوطنة « كريات شمونة » التي حوَّلتها مدفعية الكاتيوشيا آنذاك لمنطقة رعب تخطتها القذائف المدفعية الى مستوطنات مجاورة عدة وهددت نقاطاً متقدمة داخل الاراضي العربية المحتلة فيما استمرت سلطات العدو بالرد على مواقع عسكرية للعمل الفدائي .

وكان الرد الاسرائيلي على ذلك عنيفاً جداً باسلحته المتطورة الذي شرع من جديد امام تواجد قوات الطوارىء الدولية تنفيذ اعماله العدوانية داخل الجبل « فقد تعرض الجنوب بين نيسان ١٩٧٨ وآخر سنة ١٩٧٩ لحوالي ١٧٠ اعتداء نفذها العدو جميعها باسم محاربة « المخربين الفلسطينيين » لكن نتيجتها كان سقوط ١٤٧ مدنياً لبنانياً بينهم ٣٤ طفلاً لا يتجاوزون الثانية عشرة من العمر ، فضلاً عن ١٨٤ جريحاً وحوالي العشرين مخطوفاً »[١] .

انشاء دولة لبنان الحر :

وشهدت منطقة الشريط الحدودي تطوراً جديداً على صعيد وضعها الاداري عندما اعلن احد ضباط الجيش اللبناني سعد حداد انشاء « دولة لبنان الحر » على ارض الشريط الحدودي في ١٩٧٩/٤/١٩ كدويلة متعاملة مع اسرائيل ، والتي قدمت الدعم المباشر لها خصوصاً على الصعيد العسكري عندما بدأت بتدريب ميليشياتها وقدمت لها السلاح والعتاد تحت اسم « جيش لبنان الحر » حتى يكون

---

(١) انصار جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية ـ سنتان ـ بيروت ١٩٨٤ ، ص ١٦ .

الرادع الامني لها بوجه عمليات الفدائيين .

حـــــرب تمـــــوز :

ومحاولة منها لمعاودة الكرة عام ١٩٧٨ حاولت قوات العدو العسكرية معاودة اجتياح جبل عامل من جديد ، عندما بدأت آلياته تحركاً عسكرياً باتجاه الجبل بمشاركة سلاحي الطيران والبحر وذلك في شهر تموز عام ١٩٨١ ، فاشتبكت خلال ذلك مع عناصر العمل الفدائي و« القوات المشتركة »، حيث ابدوا مجتمعين هذه المرة بطولة وبسالة في التصدي لجيش العدو ، واوقفوا خلال ستة ايام متتالية من الاشتباكات الضارية تقدم قوات العدو ، في حين شهدت مستنقعات نهر الليطاني اعنف الصدامات بين سلاح العدو الجوي ومضادات الفدائيين الارضية ، اضافة للقصف البري المتبادل على مواقع عسكرية فدائية من الاراضي المحتلة واليها من مرابض المدافع داخل الجبل .

واذ اخفق العدو في التقدم شمالاً ، انكفأ الى الحدود محافظاً على الشريط الحدودي ومعاوداً عملياته العسكرية ضد مواقع الفدائيين في جبل عامل بمساندة من عملائه داخل الشريط الحدودي الذين وسَّعوا قصفهم المدفعي الى اماكن آمنة في الجبل طالت مدينة صيدا .

مقدمـــات الاحتـــلال (١٩٨٢) :

وتلبَّدت سماء الجبل منذ مطلع العام ١٩٨٢ بأنباء واخبار وكالات الانباء العالمية وتصاريح قياديي العدو حول حرب اسرائيلية عربية جديدة يكون جبل عامل مسرحاً لها حيث توجد فصائل المقاومة الفلسطينية على أرضه .

بدأت صحف العالم تكشف في تحليلاتها منذ الشهر الاول للعام ١٩٨٢ قضايا سرية متعلقة مباشرة بتلك الحرب ، ذات طابع الغزو ، فيما كانت مصادر القوات الدولية المتواجدة على ارض جبل عامل تتحدث عن حشودات ضخمة لآليات العدو على الحدود الدولية بين لبنان وفلسطين المحتلة ، اضافة لنقلها اخباراً موثوقة عن مناورات عسكرية قام بها الجيش الاسرائيلي في القطاع الشرقي للجبل . . . وفي ربيع العام ذاته صعَّدت فصائل المقاومة الفلسطينية من ضربها وقصفها المدفعي لمستوطنات الجليل الأعلى من مواقع ثابتة لها في جبل عامل ، حيث أوجدت جواً من

الرعب الدائم في القطاع الشمالي لفلسطين المحتلة ، في وقت كثر فيه الكلام عن قرب الحرب خصوصاً مع الانسحاب الاسرائيلي من صحراء سيناء ، حيث نقلت قوات العدو فصائل جيشها الرابض في الصحراء الى حدودها الشمالية بينما استمرت تصاريح قادة العدو حول توجيه ضربة قاضية للعمل الفدائي داخل لبنان ؛ وانتظر العالم بدء تلك الحرب . . .

الانفجـــــار :

كانت اسرائيل تنتظر حادثاً واحداً يطال أمنها في اي مكان لتتذرع بانفجار الحرب وتبدأ غزوها والذي اعدت له منذ سنوات لتحقيق اطماعها التاريخية ، وهذا ما جرى عندما انتشر في الثالث من شهر حزيران نبأ محاولة اغتيال السفير الاسرائيلي في لندن شلومو ازغوف والذي نفت على اثره منظمة التحرير الفلسطينية مسؤوليتها عن الحادث ، إلاَّ أنه شكَّل المسوّغ المشروع للجيش الاسرائيلي ، فاتهم المقاومة الفلسطينية بتدبيره ، وبدأ على الفور في اليوم التالي قصفه المباشر على مواقع المقاومة اينما كانت في لبنان . . .

وهكذا بدأت اسرائيل حربها الخامسة مع العرب في الرابع من حزيران عام ١٩٨٢ بسلسلة غارات جوية على مواقع العمل الفدائي ، طالت مناطق وقواعد عسكرية في جبل عامل وبيروت ، فيما شاركت بوارجها البحرية ومدافعها البرية في القصف المباشر على ساحل الجبل وداخله مما اوقع عشرات القتلى في صفوف المدنيين ومقاتلي المقاومة الفلسطينية . وامام ردة الفعل الفلسطينية السريعة بقصفها مستوطنات الشمال في فلسطين المحتلة بدأ العدو في اليوم الخامس من حزيران تصعيداً في عملياته العسكرية .

الاجتيـــــاح :

ولم يكن ذلك القصف الاسرائيلي المركَّز سوى شرارة لعملية اجتياح واسعة باشر بها الجيش الاسرائيلي في السادس من حزيران عندما دخلت قوات جيشه جبل عامل ، تخللتها انزالات برية بالطائرات المروحية في مواقع عسكرية عدة في الجبل ، ومشتبكة مباشرة مع القوات المشتركة التي أبدت بسالة حية في عملية التصدي للآلة الحربية المتطورة ، واستطاعت اسقاط طائرة حربية للعدو واسر طيارها

في حين كبّدت جيشه خسائر بشرية بالعشرات . . .

ومع ذلك القصف كانت آليات العدو تتقدم شمالاً لاحتلال قرى ومدن جبل عامل حيث جرت مقاومة عنيفة بين القوات المشتركة وقوات العدو فيما القصف مستمر على ضواحي العاصمة بيروت .

وامام القصف العنيف وصعوبة امداد مقاتلي القوات المشتركة ، سقطت قلعة الشقيف ، فيما تابع العدو زحفه شمالاً واشتبكت مقاتلاته الجوية مع مثيلاتها السورية ، وانفرد لبنان مع المنظمات الفلسطينية والقوات السورية المتواجدة على ارضه في التصدي للحرب الاسرائيلية الخامسة ، فيما باقي دول الوطن العربي المنقسمة تتصدى بالتصاريح الغوغائية دون ان تقدم اي مساعدة في الحرب المفروضة على الامة بأسرها .

وهكذا احتلت اسرائيل جبل عامل مواصلة زحفها باتجاه الشوف واحتلت بدورها البقاع الغربي ، فيما واصل طيرانها ضرب المواقع السورية في منطقة البقاع بعد ان عاود اشتباكه مع مقاتلاتها في اكثر من موقع ، واكملت القوات المشتركة تصديها للغزو حتى الحادي عشر من حزيران عندما اعلن وقف اطلاق النار الاول الذي التزمت فيه كل الاطراف ولم تلبث اسرائيل ان خرقته بعد ان استغلت الفرصة لاكمال استعداداتها فتقدمت بآلياتها من جديد ووصلت الى بعبدا وهي مركز القصر الجمهوري اللبناني في ١٩٨٢/٦/١٣ ، فيما تجددت الاشتباكات عنيفة على محور خلدة تخلله قصف مباشر على ضاحية بيروت الجنوبية .

الى ذلك باشرت سلطات الاحتلال حملة واسعة من الاعتقالات التي طالت الشعب بمختلف اعماره وفق مسلسل ارهابي كبير اتخذ عدة اشكال قمعية .

وواصل جيش العدو حصاره لمدينة بيروت وضاحيتها الجنوبية التي شهدت محاورها اعنف الصدامات بين المقاتلين الشرفاء وجيش العدو . واستطاعوا ببسالة توقيف آلياته المتقدمة باتجاه العاصمة ، وجعلوا من مثلث خلدة مثالاً للمقاومة والتصدي حيث أبدوا بسالة فائقة في اسر دبابات العدو واقتحام مواقعه المتنقلة الذي كان يستخدم اضخم انواع سلاحه في حربٍ برية وجوية وبحرية .

ووصل الوضع السياسي الى حالة التأزم . وبعد عدة محادثات شاملة رعتها

الولايات المتحدة الامريكية اتفق اخيراً على خروج المقاومة الفلسطينية من العاصمة والتي خضعت لذلك ، وخرج مقاتلوها على دفعات متتالية بين شهري آب وايلول ، فيما دخلت القوات الدولية وفق ما قضاه الاتفاق وانتشرت في بيروت وضاحيتها لتحقيق الهدنة ، وساعدت تلك الوحدات الغربية على تغيير واقع الوطن السياسي حيث ظهرت على الساحة مبادرات جديدة فرضت من واقع الاحتلال على الوطن بأسره وأتت بوجوه جديدة الى الساحة السياسية . وبعد خروج المقاومة الفلسطينية من بيروت والقوات الدولية معها وظهور احداث جديدة على الساحة انتهزت قوات العدو الصهيوني الفرصة لدخول العاصمة ، حيث اجرت مجازر بشرية رهيبة في مخيمي صبرا وشاتيلا ذهب ضحيتها الوف الابرياء ، ووصلت جحافل العدو حينها الى شوارع رئيسية عدة في العاصمة بيروت ، فسجل خلالها سقوط اول عاصمة عربية بأيدي قوات الاحتلال الاسرائيلي بعد القدس .

هكذا احتلت اسرائيل القسم الاكبر من لبنان (الجنوب ـ البقاع ـ الجبل) بما فيه عاصمته بيروت التي انسحبت منها بعد وقت قصير اثر عمليات بطولية طالت جنودها فيما رسَّخت اقدامها في باقي الاراضي المحتلة ، عاش الشعب اللبناني خلالها مأساة الاحتلال الاسرائيلي المرير .

الاجـــراءات الاوليـــة :

باستثناء بعض جيوب المقاومة حول المدن الرئيسية في الجبل فان نار المعركة هدأت في معظم قرى جبل عامل ، فيما لف البلاد جو من الخوف والصمت . اما الرعب فقد تقدم يومها عبور الآليات الى القرى ودخل الى صميم الحياة في الجبل . فصور مجازر اليهود ما تزال عالقة في ذاكرة المواطنين خصوصاً اولئك الذين عاصروا سنوات النكبة وشاهدوا بأم أعينهم بربرية اليهود في مجازر عدة داخل فلسطين بل وفي جنوب الجبل (حولا وغيرها) .

وأول عمل قامت به سلطات العدو ، النداء بمكبرات الصوت داعية المواطنين الذكور للتجمع في ساحات القرى ، حينئذٍ اخذ ضباطها في توجيه خطابات رسمية دعوا فيها اهالي القرى الى تسليم اسلحتهم لجيش الدفاع الاسرائيلي ، وبعد ان تحدثوا عن مشروع لجيشهم القاضي باعطاء تصاريح خاصة للمواطنين تمنحهم حق

المرور على حواجز الجيش المنتشرة عند مفارق الطرق الرئيسية افصحوا عن مشروع آخر خطير عبَّر عنه الضباط ومفاده ان تلك التصاريح مؤقتة ريثما يتم منح بطاقات شخصية خاصة من قبل جيش الدفاع الاسرائيلي . وكانت اسماء المواطنين الذكور تدوّن على لوائح رسمية يتم خلالها الحصول على اكبر عدد ممكن من المعلومات الشخصية . وبالفعل تم تسليم عدد قليل من الاسلحة فيما رجال المقاومة زرعوا منذ اليوم الاول بنادقهم في الارض وانتظروا ريثما تعلن ساعة الصفر ليخرجوها ويناضلوا بها .

سياسة الاعتقال :

من اليوم الاول للاحتلال نهج العدو سياسة عدوانية تحت غطاء مكافحة « الارهاب الفلسطيني » على ارض جبل عامل ، بدأها باعتقال الشباب بحجة الانتساب لمنظمات فلسطينية . وكانت مدينة صيدا قد عرفت حملة الاعتقال بشكل جماعي خصوصاً على حواجز العدو التي كانت تعتقل الوافدين الفارين من حرب بيروت الى الجبل وشملت تلك الحملة الاولى الفتيان والشباب والرجال شاملة ايضاً المريض والمعاق والعاجز فيما مورس على المعتقلين ابشع عملية تعذيب جماعية تمثلت بالارهاب من تجويع الى تعذيب جسدي الى اذلال نفسي قاهر . . وكان المعتقلون ينقلون بواسطة باصات اسرائيلية خاصة الى معتقلات اولية انشأها العدو على وجه السرعة (كمعتقل صفا ـ الغازية) وكانت هذه المعتقلات في العراء . . . ثم انشأت سلطات الاحتلال معتقلاً كبيراً منظماً على ارض الجبل هو معتقل « انصار » الشهير الذي نقل اليه آلاف المعتقلون الذين نصبت لهم عشرات الخيم بل مئاتها . وقبل الوصول الى انصار كان المعتقل يزور ارض فلسطين المحتلة ليخضع لعملية التحقيق الشاملة معه والتي وفق مزاج جنود الاحتلال إما توصله الى انصار او تعيده الى البيت . وبعد مدة وجيزة انشئت معتقلات محلية للتحقيق في « الريجي » النبطية ومدرسة الشجرة (صور) ومار الياس في صيدا حيث كان المعتقل يلقى اشد انواع اساليب التعذيب اثناء عملية التحقيق معه .

في ذاكرة المعتقلين الاوائل لا تزال ترسخ احداث هامة من تاريخ الصراع العربي الاسرائيلي . ليالٍ حالكة بالعذاب والقهر عاشها المعتقلون لشهور عدة قبل الدخول الى انصار . وفي انصار الجمهورية العربية المستقلة عاش العرب كل العرب

داخل المعتقل تجمعهم روابط بعيدة وعميقة حيث انتموا الى جنسيات عربية مختلفة . فقد كان هذا المعتقل الشهير مدرسة بكل ما للكلمة من معنى ومنبراً حراً للفكر وُجِدَ فيه المعلم والتمليذ وخرَّج بالفعل رجال المقاومة ، بعد ان شكَّل رمزاً جديداً من رموز النضال ضد القهر والاحتلال .

عمليات الاعتقال :

وكان لعملية الاعتقال الوقت والاسلوب الخاصان ، من اعتقال على حواجز العدو الى اعتقالات جماعية في اماكن حصول عمليات المقاومة البطلة ثم العملية الاكثر ممارسة ، الاعتقال من داخل القرية بايعاز مباشر من عملاء الداخل الذين يزودون العدو بمعلومات شخصية ومحطات هامة عن حياة المعتقل .

وبخصوص حملة الاعتقال التي كانت تلي عمليات المقاومة مباشرة فانها كانت الاخطر حيث يعمل العدو على اتخاذ اجراءات امنية طارئة يقوم خلالها بحملة واسعة يعتقل جميع المتواجدين في مكان العملية ليصار الى التحقيق معهم حول العملية .

الاعتقال داخل القرية :

واتخذت عملية الاعتقال داخل القرى اساليب مختلفة وعديدة ، احياناً يرسل الى المطلوب علماً مع مختار القرية بوجوب الحضور الى مركز مخابرات العدو محددين وقتاً معيناً . ولاعتقالات القرية التي يحدث فيها عمليات بطولية تطور أخطر ، تسد منافذ البلدة ويمنع الخروج والدخول منها واليها ، وبعد وصول تعزيزات دفاعية لجيش العدو ، تدخل الدورية الى الساحة وتدعو بمكبرات الصوت المواطنين للتجمع (وغالباً ما يطلب ذلك امام ملعب مدرسة او ساحة النادي الحسيني) تبدأ بعدها عملية فرز معقدة تحت حر الشمس ثم يسأل عن اسماء مطلوبة لجيش العدو ، وعندما لا يجدون احداً تبدأ عملية دهم واسعة في المنازل والحقول بحثاً عن المطلوبين ، واذا لم يوفق العدو بالعثور على احد ، يأخذ أقارب المطلوبين كرهينة تشكل ضغطاً على المقاوم لتسليم نفسه . أما عملية الاعتقال الليلية ، وكانت الأشهر في قرى الجبل ، فانها تبدأ بعد منتصف الليل ، تتحرك سيارات العدو تدخل سكون القرية فيشعر المواطنون بها ويؤكدون ان شيئاً ما سيحدث . . . تتقدم الآلية ، ينزل الجنود ويقرعون باب المطلوب فإذا عثر عليه داخل منزله فانه يكبل وتعصب عيناه ثم

يصعد به الى الشاحنة بعد وضع كيس في رأسه خصص لذلك ، تنتقل بعدها القافلة الى منزل آخر .

ومن قرية الى اخرى تسير قافلة المعتقلين باتجاه مركز المخابرات حيث تجري معهم عملية تحقيق شاملة تحت وطأة التعذيب والاذلال .

هذه صورة مختصرة ، عن الحدث اليومي الذي استمر الجنوب يعيشه كل ايام الاحتلال يوماً بعد يوم ، حيث لم تبق قرية إلا واعتقل العشرات من شبابها وسيقوا الى سجون الاحتلال .

حملات القمع والارهاب :

ولم يكتفِ العدو باتباع اساليب الدهم والاعتقال بل تعدى ذلك الى الارهاب اليومي الذي طال معظم قطاعات ومقومات الحياة على ارض الجبل .

كان للحصار المثال الاول في ذلك ، تتجمع آليات العدو ، تسد منافذ القرية ، تداهمها وتعتقل شبابها بعد ان يخضع اهاليها لحملة اذلال وتعذيب شاملة تحت حر الشمس المحرقة ، وغالباً ما كان يستمر الحصار اياماً وليالي ووصل الامر في بعض القرى ان عانت من نقص بالمواد الغذائية والمياه وظهرت بوادر انتشار امراض خطيرة . وفي القرية ذاتها يبدأ مسلسل الارهاب ، ففيها تفجر منازل المقاومين المطلوبين لجيش الاحتلال وفيها تتحول البساتين والمزروعات الى اراضٍ جرداء .

وعلى حواجز العدو كانت تمارس عمليات اذلال يومية ، صفوف من السيارات التي تخضع للتفتيش يقابلها اطلاق نار غزير فوق رؤوس العابرين ، ومورس ذلك اكثر على حاجز باتر ـ جزين .

وعمّت موجة اغتيالات لبعض الشخصيات المناضلة مختلف انحاء الجبل وطالت علماء دين على رأسهم شيخ الشهداء الشيخ راغب حرب إمام بلدة جبشيت الصرخة الحسينية اليومية زمن الاحتلال ، كما مارست قوات الاحتلال سياسة الابعاد والنفي بحق علماء الدين (كالسيد محمد حسن الامين) والسياسيين كـ(محمود فقيه) .

تدابير الاحتلال وطروحاته :

ولتمرير مخططاته العدوانية حاول العدو الظهور بتصرفات مغايرة لحقيقته امام مواطني الجبل فاراد الدخول عبر حقول شتى تقربه من المواطنين .

اما حملته الاعلامية الاولى فمركّزة على انه مخلص للعامليين من بطش التنظيمات الحزبية التي كانت قائمة على ارض الجبل وانه لن يطال امن المواطنين ومهمته سريعة هي القضاء على الارهاب ثم العودة الى دولته .

بعدها تدخل العدوفي العديد من قضايا الحياة اليومية للمواطنين كحقل الطبابة الذي بدأه بفتح مراكز طبية له داخل الجبل ثم بناء علاقة صحية مع مستشفيات ومراكز الطبابة المحلية على انه يؤمن علاجاً ويجري عمليات جراحية لمرضى محليين داخل الاراضي العربية المحتلة . وشرع العدو يطرح بعض مشاريع فكرية خاصة كتعليم اللغة العبرية في بعض المدارس إلاّ أن محاولته باءت كلها بالفشل .

وفتح العدو الحدود بين جبل عامل والاراضي العربية المحتلة وسمح للمواطنين بزيارة فلسطين المحتلة وللفلسطينيين بزيارة اهلهم ، فيما باصات اسرائيلية تقل سياحاً يهوداً بدأت تصل الى جبل عامل لزيارة الاماكن الأثرية فيه ، وفتحت ايضاً شركة الطيران الاسرائيلية فروعاً لها في لبنان فيما ظهرت على الساحة الجرائد الاسرائيلية ، ولكن لفترة قصيرة .

تنظيم القرى :

اما السياسة الخاصة التي حلم بها العدو فكانت فكرة ايجاد سلطات بديلة عن الوجه الشرعي للسلطة اللبنانية داخل القرى والمدن ، يكون عناصرها مواطنين محليين تتحمل مختلف قضايا القرى ومشاكلها وباتصال مباشر مع سلطات العدو .

ولعب العملاء السابقون العاملون تحت لواء « جيش لبنان الحر » دوراً بارزاً في ذلك اثناء الاحتلال المباشر ، ومن هذا الجيش انطلقت فكرة تنظيم القرى .

كانت المحاولة الاولى في هذا الميدان ، في شباط ١٩٨٣ في وقت وسَّع جيش الاحتلال فيه اتصالاته مع بعض المنحطين المحليين ممن لبسوا صبغة العمالة للعدو

وعملوا وفق اوامر جيشه .

بـادىء ذي بدء دخلت المخـابرات الاسـرائيلية المشـروع تحت ستـار عمليـة الاحصاء الشاملة ، فبعد ان حصلت على معلومات سطحية عن المـواطنين (الاسبوع الاول لـدخولهـا الجبل) وزَّع في مـطلع العام ١٩٨٣ استمـارات على مخاتيـر بعض القـرى طلبت منهم املاءهـا ثم تسليمها الى ضبـاط القرى كمـا جـاء فيهـا ، وشملت مختلف المعلومات عن معظم القضـايا الحيـاتية لمـواطني الجبل ، اسئلة مفصَّلة عن اوضاع القرية واهلها وساكنيها وحدودها ، تقسيمها ادارياً ، جغـرافياً ، اسمـاء رؤساء الهيئات فيها ، الآثار ، مصادر الموارد الاساسيـة وغيرهـا ، وغايتـه في ذلك الـوصول الى المشروع الاسرائيلي القـاضي بتنظيم شؤون القـرى والمناطق وفق تبعيـة مباشـرة لسلطات الاحتـلال على غـرار مـا هـو مـطبق في الاراضي العـربيـة المحتلة بحيث « تقضي باقامة روابط قرى في الجنوب وذلك عبر تنظيم المخاتير لوحدات تشكـل من ٩ الى ١٠ اشخاص تنتشر في ١٠ مناطق تشمل الجنوب كله ، وتضم كل منـطقة نحـو ١٢ قرية ، ويتم بعد ذلك تشكيل لجنة عامة تتـرأس العمل وتضم ضبـاطاً اسـرائيليين الى جانب ممثلي اللجان العشر وعلى رأسهم مسؤول توكـل اليه مهمـة الاشراف على هذه الروابط[٢] . اما التنظيم العسكري لذلك فقد ارادته سلطات الاحتلال مجموعات عسكـرية تحمـل اسم « الحرس الـوطني » وتضم عناصـر من القـريـة عينهـا ومهمتهـا المحافظة على امن القرية الاسرائيلي بتنسيق مباشر مع جنود الاحتلال .

افـــرازات الاحتـــلال :

وجـاءت تلك الاجراءات الاسـرائيلية بـوجوه عميلة على السـاحـة من منحـطي النفوس ، عملوا كل على حدا لإيجاد تنظيم عسكري (غالباً لا يتجـاوز عدد عنـاصره عدد اصابع اليد) مـوالٍ للعدو ويخـدم مصالحـه مباشـرة فيما فشـل العدو في ايجـاد شخص واحـد يرضى المـواطنين به ، ففتـوى الامام الصـدر الشهيـرة « التعـامـل مـع اسرائيل حرام » كانت قد قضت على كل اثر لذلك وسدَّت الطرق امام كـل من يحاول استغلال حرمان المواطنين لقضايا عدوانية .

---

(٢) الجنوب اللبناني في ظل الاحتلال الاسرائيلي ـ اعداد وكالة مختـارات الاخبار العـربية والعـالمية ١٩٨٥ ص ٣٨ ـ ٤١ .

ونستدل على ذلك من التبديل الـذي كان يحصـل باستمـرار بين قياديي عمـلاء اسرائيل وحتى في الاسم الذي تعرف به المجموعات العميلة ، فمن جيش لبنان الحر الى الحـرس الوطني الى الجيش الجنـوبي الى غير ذلـك من التسميـات ، وكـل تلك المحاولات باءت بالفشل .

الفصل الرابع

النضال العاملي ضد الاحتلال الاسرائيلي
١٩٨٢ ـ ١٩٨٥

ـ الموقف سلاح
ـ المصافحة اعتراف
الشهيد راغب حرب

الكفاح الشعبي :

في الشطر الآخر للاحتلال ، كمنت المقاومة العاملية التي ولدت نقيضاً معاكساً لعمليات القمع والارهاب اليهوديين اضافة لوجود الاحتلال عينه .

ايديولوجية المقاومة ، مقوماتها ، ظروف وجودها ، انطلاقتها ، الفرق المشاركة بها ، رموزها ، بعض ابرز عملياتها ، كل هذه العناوين النضالية اوجدتها المقاومة العاملية بصدق وأمان على ارض الواقع واوجدت عصراً جديداً في تاريخ الصراع العربي الاسرائيلي هو عصر المقاومة .

والنضال في جبل عامل ذو وجهين اثنين ، الاول متمم للآخر والعكس بالعكس ، الكفاح الشعبي والمقاومة العسكرية .

تعددت اساليب الرفض والنضال على ارض جبل عامل واختلفت انواعها وفق مقتضيات الامر بسبب الظروف الاستثنائية والعامة التي كانت تفاجيء المواطنين كل فجر .

وكشق اول للمقاومة العاملية ، انبثقت جبهة الكفاح الشعبي التي خاض غمارها العامليون بمختلف اعمارهم نساءً ورجالاً في جبهة شعبية واسعة وشاملة لعبت دوراً بارزاً في ايجاد الصورة الواضحة للرفض المطلق للوجود الصهيوني على الا.ض. ويمثل هذا الكفاح الشعبي ، في عدة وجوه متشابكة فرضت على الاحتلال جواً من الرعب الدائم ، ومن ابرز تلك المواقف التي عرفها الجبل :

١ ـ الاعتصامات :

وكان الابرز في تمثيل هذا النوع من الكفاح ويحصل عادة في القرية او المدينة التي تشهد حدثاً عدوانياً بارزاً وخاصاً بها في اغلب الاحيان (مداهمة ـ اعتقال اشخاص ـ محاصرة ـ اغتيال رموز . . . وغيرها) ويتم ذلك بدعوة عامة بواسطة مكبرات الصوت موجهة الى الاهالي كلهم للتوجه والتجمع في اماكن محددة كان النادي الحسيني المقر الاكثر مناسبة لذلك حيث يتوافد اليه الأهلون يتقدمهم رجال الدين في اكثر الاحيان الذين يبدأونه بالقاء خطب حماسية من وحي المناسبة يتخلله تلاوة مباركة لآيات من القرآن الكريم وخطب وأحاديث مسجَّلة ، يكبر فيها الاعتصام عندما تبدأ وفود من القرى المجاورة مشاركة حية مع القرية المعتصمة اضافة للحملة الاعلامية التي كانت تواكب ذلك .

وكان على المعتصمين الاستمرار في اعتصامهم حتى يتم تنفيذ مطالبهم من اعادة معتقلين او فك حصار وما الى ذلك .

وفي تلك الاعتصامات مثلت جبشيت باعتصامها الشهير في آذار ١٩٨٣ مرحلة جديدة في النضال الشعبي ضد قوات الغزو بعد ان شهد جبل عامل عدة انتفاضات قروية محلية ، كتظاهرة بلدة السكسكية والمواجهة المباشرة في بلدة القليلة ، ومدينة صيدا وغيرها إلَّا انه مع جبشيت بالذات بدأت الاعتصامات تأخذ ابعادها الجديدة ، والذي كان سببه الرئيسي فضلاً عن وجود الاحتلال عينه ، اعتقال إمام البلدة الشيخ المجاهد راغب حرب ، وتحولت جبشيت على اثره الى قلعة ثائرة عندما بدأت وفود شعبية من مختلف القرى ، تتوافد الى القرية لتعلن استنكارها وتضامنها في نفس الوقت هاتفة بشعارات حماسية ومعادية لقوات الاحتلال ، اضافة للتأييد الشعبي المطلق من مختلف قرى ومدن لبنان التي شاركت جبشيت انتفاضتها وشكلت ضغطاً

مباشراً على سلطات الاحتلال التي اضطرت الى اطلاق سراح الشيخ حرب في الرابع من نيسان ١٩٨٣ ، وبعد ١٧ يوماً من اعتقاله . وبعد جبشيت توالت الاعتصامات الشعبية وانتقلت من قرية الى اخرى شاملة الجبل بأسره ولمعت في ذلك قرى عديدة اشهرها : « دير قانون النهر ـ جبشيت ـ معركة ـ برجا ـ بيصور ـ الصرفند ـ القرعون ـ المروانية ـ النبطية ـ كامد اللوز ـ زفتا ـ جباع ـ حبوش ـ جب جنين ـ سحمر ـ كفر حتى ـ السكسكية ـ عدلون ـ الغازية ـ كفر تبنيت ـ قعقعية الجسر ـ الحلوسية ـ عين قانا ـ الجبين ـ كوثرية السياد ـ البازورية »[1] اضافة لمدن : الجبل صيدا وصور والنبطية وغيرها .

وخلال ذلك مباشرة كانت حملات الاعلام تتابع بدقة سير الاعتصام حيث تنقل صوراً حيَّة عنه . مما يزيد الاعتصام قوة فيتحول في اكثر الاحيان الى مهرجان شعبي حاشد .

استمرت موجة الاعتصامات مواكبة للنضال العسكري حتى الانسحاب الاسرائيلي بحيث كانت تنتقل من المناطق المحررة الى القرى التي استمرت لفترات متتالية خاضعة للسيطرة الاسرائيلية .

٢ ـ التظاهرات والاضرابات :

وقد تحصل الاولى احياناً اثناء الاعتصام ، عندما يخرج المعتصمون من النادي الحسيني في تظاهرة شعبية ضخمة تأتي مباشرة بعد جو من الحماس ، حيث يسيرون في الشوارع تتقدمهم يافطات واعلانات وصور رموز المقاومة ، فيما الشعارات المعادية لقوات الاحتلال والمساندة للمقاومة تتصدى واجهة التظاهرة ، يهتف فيها المتظاهرون بكلمات حماسية بل يفيضون في بث الشعارات المقاومة والطاعنة بالاحتلال ورموزه والمتعاملين معه . . واذا صادف اثناء ذلك مرور دورية اسرائيلية فان الجو يزداد حماسة اكثر حين يعمد المتظاهرون الى قطع الطريق في وجه الآليات ويبدأ جو آخر من الهتافات المعادية وتستخدم اساليب اخرى مع الجنود كرشق الآليات بالحجارة وغيرها ويضطر الجنود اكثر الاحيان للعودة الى اوكارهم .

---

(١) سنتان ـ انصار جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية ـ ص ٨٦ .

اما الاضرابات فكانت تأتي كرد طبيعي على تجاوزات مسبقة يتعرض لها المواطنون من قبل جنود الاحتلال وكانت ، محلية وطنية ، شاملة ، وكثيراً ما كانت تأتي دعوات الاضراب من العاصمة بيروت (اغتيال رموز دينية ، مشاريع الاحتلال ، ممارسات قمع) ، تسبق الدعوة الى الاضراب بيوم او اكثر على موعده المحدد ، يتهيأ خلالها المواطنون للتنفيذ على اكمل وجه وفي اليوم المحدد للاضراب تتعطل معظم مرافق الحياة في القرى والمدن العاملية وتقفل خلالها المحال التجارية والصناعية ، وتشلّ الحركة كلياً في مشاركة شعبية موحدة تشمل الجبل بأسره . وخلال الاضراب تكون اعتصامات محلية في القرى قد بدأت فجراً في المساجد فيما يقوم الشباب بقطع الطرق الرئيسية على المفارق (رمي الحجارة ، اشعال اطارات السيارات . . .) متحدين بكل قواهم اجراءات الاحتلال العدوانية ، الذي يحاول رجاله افشال الاضراب في اكثر الاحيان كاجبار التجار على فتح حوانيتهم وازالة العوائق عن الطرقات المقفلة . وكانت سلطات الاحتلال ايضاً ترد على ذلك بأساليب عدة ، كوضع اشارات (×) على المحال المشاركة بالاضراب لمنعها من مزاولة عملها بعد فكه وتطلق النار على بعضها ، واخيراً وصلت اجراءاتها القمعية الى حد اقفال مناطق تجارية وصناعية بأسرها لعدة ايام متتالية اذا ما شاركت بأي اضراب .

٣ ـ المهرجانات :

لعبت المهرجانات الشعبية على اختلاف انواعها (الدينية ـ السياسية ـ الوطنية) دوراً بارزاً في دعم الانتفاضة الشعبية الصارمة إن لم نقل انها كانت المؤشر الاول لاندلاع مثل تلك الاعمال ، يوم تحولت ذكرى تغييب الامام السيد موسى الصدر الرابعة (٣١ آب ١٩٨٢) الى مهرجانين شعبيين ضخمين في مدينتي صور والنبطية .

فقد شارك عشرات الألوف من العامليين في احياء تلك المناسبة تحت وطأة الاحتلال ، حيث اطلقت خلالها الهتافات ومن بينها شعار لصاحب الذكرى « التعامل مع اسرائيل حرام » و« اسرائيل شر مطلق » كما رفعت خلالها يافطات تدعو المواطنين للثورة وأعلام لحركة امل ، وصور لصاحب الذكرى ، وكانت المهرجانات فرصة سانحة لاعلان الولاء لله وحده واعلان النضال ضد قوات الاحتلال وهذا ما ورد على اكثر من لسان ممن تعاقبوا على الكلام خلال المهرجانين .

وبالفعل جاء المهرجانان استفتاء شعبياً للعــامليين بعد اقــل من ثلاثــة اشهر فقط على دخول العدو ارض الجبل .

الى ذلـك بدأت المهـرجانـات تتوالى في اكثـر من قريـة جنوبيـة ، حيث كانت حفلات تأبين شهداء المقاومة تتحول الى مهرجانات شعبية كبيرة تعلن العداء المبـاشر للاحتلال وتدعو لطرده بكل الاساليب .

٤ ـ المواجهـــــة :

وهي التصدي المباشر وجهاً لوجه لجنود الاحتلال وآليـاته وكـانت تحصل على صعيد فردي وجماعي ، فقد كانت المواجهة تتخلل معظم الاعتصـامات والتـظاهرات والاضرابات ، عندما يتصـدى المواطنـون لآليات العـدو وقذفـه بقنابـل المولـوتوف ، والحجارة التي يرد عليها العدو باطلاق الرصاص مما يوقع جرحى بين الطرفين .

وتعتبر انتفاضة عاشـوراء (العاشـر من محرم عـام ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٣ م) والتي حصلت اثناء المشاركة في احتفال عاشوراء السنوي في مدينة النبطية ، قمة المـواجهة بين المواطنين وجنود الاحتلال ، يوم تصدى الوف المشاركين لآليات العـدو ومنعوهـا من اكمال سيرها عندما حاولت استفـزاز المحتفلين باختـراق صفوفهم فكـانت مناسبـة حماسية اختلط فيها عنوان الذكرى البـطولية « ذكـرى استشهاد الحسين بن علي (ع) » مع الحدث الـذي دفع بـالمشاركين الى الهجـوم على الآليات وايقـافها وضـرب جنود الاحتلال الذين فرّوا في كل اتجاه واطلقوا النـار باتجـاه المواطنين فسقط شهيـد وعدد من الجرحى منهم ، الا انهم استطاعـو جرح عـدد من جنود الاحتـلال بعدمـا احرقـوا آلياته كلها متمثلين بالذكرى وصاحبها الامام الحسين (ع) . الى ذلك تعددت اساليب المواجهة بتعدد مواقعها ، ففي بلدة معركة استخدمت نسوة البلدة ، ولأول مرة سلاحاً جديداً في مواجهة جنود الاحتلال الذين اقتحموا البلدة ، عنـدما صبُّـوا على رؤوسهم الزيت المغلي لردعهم عن تنفيـذ مآربهم ، وبـالفعل لعبت المـرأة دوراً بارزاً في كـل انواع الكفاح الشعبي مسـاندة بـذلك رجـال المقاومـة الاحرار وأهمهـا عمليات امـداد رجال المقاومة بالسلاح والعتاد .

٥ ـ اساليـــب مختلفـــة :

تمثلت احياناً في انتفـاضات معسكـر انصار الشهيـر حيث كان المعتقلون هنـاك

يقـومون بـاعتصامـات ومهرجـانات على غـرار تلك التي حصلت في المعتقـل الاكبـر (هتافات ـ قذف الجنود بالحجارة) وكانت سلطات الاحتلال تـرد باطـلاق الرصـاص على المعتقلين وكثيراً ما قتلت وجرحت عدداً منهم .

ومن اسـاليب النضال الشعبي المقـاومة المـدنيـة الشـاملة(*) والتي حـددت في بيـانها الاول نهجهـا النضالي المقـاوم على صعيـد شعبي تمثـل بمقـاطعـة البضـائـع الاسرائيلية التي غزت اسواق الجبل ، والمشاركة بالاعتصامات والمهرجانـات وما الى ذلك من مقاومة الشعب لقوات الاحتلال . كما كان للمناشير الثوريـة السريـة دور بارز في هذا النضال اضافة للحملة الاعلامية التي كانت تواكب الاحـداث النضاليـة حدثـاً بحـدث وبمختلف الوسـائل (جـرائـد . . . راديـو ، تلفـزيـون) وغيـره دون أن ننس المشـاركـة الشعبيـة خـارج الجبـل التي كـانت تقـوم على اسـاس المهـرجـانـات والاعتصامات في مختلف مناطق الوطن خصوصاً في العاصمة بيروت .

نتائج المقاومة الشعبية :

لعبت المقـاومة الشعبيـة المدنيـة دوراً طليعيـاً خـلال عمليـة التصـدي لقـوات الاحتلال وتميز ذلك الدور بما يلي :

١ ـ بث الـروح الثـوريـة في نفـوس المـواطنين ودعـوتهم للعـودة الى النضـال والتصدي .

٢ ـ احتضان المقاومة المسلحة وتغـطية اعمـالها وبـطولاتها وحمـايتها من كيـد العدو وعملائه في اكثر من موقع .

٣ ـ ترهيب قوات الاحتـلال وجعله يشعر انـه في ارض مزلـزلة وان الشعب كله عدو له .

٤ ـ بقيت العين الساهرة على تحـركات العمـلاء وشكّلت اتصـالاً مبـاشـراً مـع المقاومة المسلحة وانصارها في الخارج وحفظ سجلات العملاء ريثمـا تنسحب قوات الاحتلال .

(*) اعلنهـا سماحـة العلامـة الشيخ محمـد مهدي شمس الـدين اثناء احتفـالات العـاشـر من محـرم ١٤٠٤ هـ الموافق لعام ١٩٨٣ .

الفصل الخامس

المقاومة العاملية المسلحة ضد الاحتلال الاسرائيلي

لا نبالغ اذا ما عرَّفنا المقاومة ضد الاحتلال الاسرائيلي في جبل عامل بالمقاومة الشعبية ، بشقيها المدني والمسلح ، فالشعب بكل فئاته قاد هذه المقاومة المشرفة . لقد كانت لثلاث سنوات ١٩٨٢ ـ ١٩٨٥ هاجس الوطن اليومي ، بعد ان تركت آثارها على مختلف القضايا السياسية في لبنان وواجهت بصدق المشاريع الانتهازية التي فرضها وجود الاحتلال واهمها اسقاط اتفاق السابع عشر من ايار .

وقد عرفت المقاومة المسلحة على ارض الجنوب التسميات العديدة وأهمها :

المقاومة الوطنية اللبنانية ، والمقاومة الاسلامية ، والمقاومة المؤمنة ، اضافة للعديد من التسميات الاخرى ، فيما انحصرت اعمال المقاومة المدنية الشاملة بما هو مدني .

وقبل الخوض في مسيرة المقاومة ، لا بد لنا من الوقوف عند انطلاقتها وتبنيها لحرب العصابات ، ومن ثم طرق امدادها واماكن انطلاقتها .

انطلاقة المقاومة :

اختلف الاوساط في تحديد اليوم الاول لانطلاقة المقاومة المسلحة ضد

الاحتلال الاسرائيلي في لبنان والتي شارك فيها المواطنـون لاي فئة سياسية او حـزبية انتموا .

وتؤرخ المقـاومة المسلحـة في جبل عـامل اليـوم الاول للغزو الاسـرائيلي عيداً رسمياً لانطلاقتها ، بعد ان كان لها صدامات مباشرة مع زمره واعتداءاته قبـل الخامس من حزيران عام ١٩٨٢

فخـلال عمليـة الغـزو تصـدت مجمـوعـات عـديـدة من ابنـاء الجبـل للجنـود الاسرائيليين الزاحفين بـأسلحتهم الثقيلة الى ارضه بـاتجاه الشمـال ، واشتبكت تلك المجمـوعات في اكثـر من موقـع معهم وحـول المـدن الـرئيسيـة في الجبـل وقـلاعـه الشهيـرة ، خصوصـاً قلعة الشقيف التي شهـدت معركـة ضاريـة استخدم فيهـا العـدو سلاحه الجوي والبري نظراً لحصانتها وصمدت حـوالى الخمسة ايـام قبل سقـوطها . وعندما وصلت قوات الغزو الى ضواحي بيروت تصدَّت المقاومة المسلحة لها وفتحت مع جنود العدو معارك عديدة باسلة خصوصاً في مثلث خلدة الذي شهـد تصديـاً رائعاً ضد الجيش الاسرائيلي المدعوم بسلاح الدبابات والطائرات والبوارج الحربية ، حيث تم اسر عدد من دبابات العدو الذي اعيق زحفه نحو بيروت . وهكذا ولـدت المقاومـة مع الغزو الاسـرائيلي والاحتلال وتصـدت في اكثر من مـوقع لجحـافل جيشـه قبل ان يعمـد الى تثبيت اقدامـه في مـواقـع مختلفـة من مسـاحـة الارض التي طـالهـا الغـزو البربري .

تبني حرب العصابات :

اتخذت المقاومة في لبنان عمـوماً وفي جبـل عامـل خصوصـاً اسلوباً نـوعياً في التصـدي لجنود الاحتـلال ، حيث عرفت تلك المقـاومـة اسلوب حـرب العصـابـات وتمثلت بمجموعات مسلحة من مختلف الاعمار كانت تراقب تحـركات العـدو ساعـة بسـاعة مستخـدمة في ذلـك مختلف انواع الاسلحـة بدءاً من السكين وانتهـاءً بقذائف المدفعية وبأعمال فردية وجماعية على السواء .

وقد ساهمت الطبيعة الجغرافية في الجبل على تبني حرب العصابات فكثيـراً ما نصبت الكمـائن على المنعـطفـات والـطرق ممـا كـان يفـاجيء العـدو ، او نصبت الصواريخ على التلال ووجهت نحو مراكز العدو .

اسلحـــة المقاومة :

في اوائل ايام الاحتلال اعتمد المقاومون على الاسلحة التي اخفوهـا عن اعين جنـود الاحتلال والتي كـانت متعددة ، وذلـك منـذ بـدء الحـرب الاهليـة اللبنـانيـة ، واستطاع المقاومون بتلك الاسلحة فتح حرب العصابات وبدء العمليات اليومية .

إلَّا أنه مع الوقت ومع نفاذ بعض الذخائر وتطور عمليات المقاومة النوعية كان لا بد من طلب الامداد من خارج الجبل . فقبل الانسحاب الاسرائيلي من منطقة الشوف كـانت عمليـات الامـداد تتم من بيـروت بمختلف الـطرق ، الا انـه مـع الانسحـاب المذكور ، عمد العدو الى اقفال معظم الطرق المؤدية الى الجبل باستثنـاء معبر بـاتر ـ جزين ، ونشر جيشه على طول التلال المواجهة لخطوط التماس الجديدة الفاصلة بين جبل عامل وباقي الاراضي اللبنانية مما اعاق عمليات الامداد .

لقد شكلت العاصمة بيروت ، نقـطة امداد اسـاسية ، بمختلف انـواع الاسلحة والذخائر التي حملها المقاومون على اكتافهم عبر الاودية والجبال والانهار ، وقد دفـع العديد منهم حياته اثناء ذلك .

امـا داخل الجبـل فقد كـان التعاون بين المقـاومين يسهـل عملية نقـل وامـداد السلاح ، والذخائر مما ساهم في نجاح العمليات العسكرية .

أساليب عمـــل المقاومـــــة :

تعددت عمليات المقاومة المسلحـة باختـلاف مواقـع العدو وتحـركاتـه اليوميـة والمتنقلة في مختلف انحاء الجبل .

وأكدت هذه العمليـات البطوليـة ونتائجهـا صحة الممـارسة وقـدرتها التنـظيمية وسهـرها على مـراقبة كـل اعمال الاحتـلال حيث جاءت عمليـات الرد منـاسبة لهـا ، وخـلال تلك الرحلة البـطولية المـزروعة بـالاشواك خـاضت المقـاومـة البـطلة مئـات العمليات المتنوعة وفق تخطيط منظَّم وخبرة واسعة حيث عرفت الاساليب التالية :

١ ـ زرع الالغام والعبوات الناسفة :

وهي اكثـر نواع العمليـات الناجحـة والاكثر استخـداماً في الجبـل وقد نفـذهـا

المقاومون يومياً ومرات متعددة .

وطال هذا النـوع من العمليات افـراد الدوريـات الاسر ائيليين المشـاة والآليات النقالة التي كانت تتطاير اشلاء بفعل تلك الالغام المزروعة على جوانب الطرقات .

٢ ـ الاشتبـاكـات المباشـــرة :

وقد نفذها المقاومون بكمائن جريئة نصبوها لآليات العدو اثناء قيامها بالدوريات والتنقلات اليوميـة ، حيث كانـوا ينتظرون قـدومها ليفـاجئوهـا بالقـذائف الصاروخيـة ورصـاص اسلحتهم الرشـاشة ، وبـطرق منظمـة وسريـة ومدروسـة خصـوصـاً لجهـة الانسحاب السريع بعد وصول نجدات العدو .

٣ ـ ضرب مراكز ومواقع العدو :

واسلوبها نصب الصواريخ المختلفة واطلاقها باتجاه مـراكز العـدو المنتشرة في معظم انحاء الجبـل ، وتوجت تلك الاعمـال بالاقتحـامات الجـريئة كتفجيـر مركـزي الاستخبارات والحاكم العسكري ، في بنايـة عزمي وفي مـدرسة الشجـرة في صور ، وتـطورت هذه العمليـات لتصل الى قلب الاراضي العـربية المحتلة كتصعيـد مبـاشـر للمقاومة .

٤ ـ العمليـات الاستشهاديـــة :

ومثلت قمـة العمليـات المقـاومـة وهي التي زرعت الـرعب في نفـوس جنـــود الاحتـلال وهزَّت كيـانه من الـداخل حيث دخلت الى قلب معسكـراته وحـطمت كـل التحصينات .

٥ ـ عمليـــات تصفيـة العمـــلاء :

وكانت تطال هذه العمليات المتعاملين مع قوات العدو ، فكـان رجال المقـاومة يكمنون للخونة فيفاجئونهم باطلاق الرصاص او يفجرون سياراتهم الخاصة وقد طالت رمـوزاً عديـدة من العملاء ، هـذا وكان هنـاك العديـد من انواع العمليـات المقـاومـة الاخرى الا ان اهمها انحصر فيما حددناه .

مســــار المقاومــــة :

فيما كان العـدو يكمل زحفـه الى قلب بيروت كـانت بوادر المقـاومة قـد بدأت تنـظم اعمالاً محـدودة على ارض جبل عـامل طـالت باصـات « السياح » الاسـرائيلية

الذين جاؤوا يستطلعون الوطن الصريع . ومقابـل تلك الاعمال الفـردية بـدأت خلايـا عسكـرية عملهـا السري في لقـاءات متعددة لـرسم خطة عمـل منظمـة تنزل الهـزيمة بجيش الاحتلال ، ويومـاً بعد يـوم بدأ صـراخ العدو يعلو رويـداً رويداً امـام خسائـره اليومية بشرياً ومادياً ، فيما عمليات المقاومة تتصاعد في عملها وتستقطب بين صفوفها العنصر تلو العنصر في ظل حملة اعلامية شاملة واكبت عملياتها البطولية .

في شهـور الاحتلال الاولى بـدأت المقاومـة تنتقل من منـطقة الى منـطقة حتى شملت سـاحة الغـزو خصوصـاً في بيروت التي استقبلت جنـود الاحتلال بـالرصـاص الدامي وفجَّرت عملياتها البطولية في شهر ايلول حيث اجبرت العـدو على الانسحاب السريع .

هكـذا بدأت المقـاومة تتصـاعد لتـلاحق قوات العـدو اينما حـلَّ ، حتى اذا مـا انسحب من بيروت واعلن عن بقائه في باقي الاراضي وجـدت المقاومـة نفسها ملزمـة بالتصدي لجحافل جيشه المدجج بالسلاح .

تفجير مقر الحاكم العسكري في صور :

وتوجت تلك العمليات البطولية باقتحام مقـر الحاكم العسكـري في صور والتي نفَّذها الشهيد احمد قصير باسم المقـاومة الاسـلامية مفجـراً نفسه بسيـارته حيث دمَّـر المركز تدميراً كاملاً ، وذلك في الحادي عشر من تشرين الثاني عام ١٩٨٢ . في هذه العملية الجريئة خسر العدو حسب اعترافاته تسعة وستين قتيلاً واربعين جـريحاً هـزت كيانه من الداخل عندما دعا حكامه الى عقد جلسة طارئة لمجلس وزرائه لبحث نتـائج العملية .

الى ذلك كانت مجموعات المقاومة كلها تواصل عملها البـطولي ملاحقـة جنود العـدو حيثما حـل ومر ، حتى دبَّ الـرعب التام في صفـوفه واجبـرته على الاعتـراف بمقاومة الجبل .

وجنباً الى جنب شاركت المقاومة الشعبيـة في اضافـة رونق النضال الى جـانب المقاومة البـاسلة المسلحة واصبـح الشعب الحاضن الـرئيسي للمقاومـة بل والـداعم الاساسي لها ، حيث دفع راحته في سبيل نجاحها .

استمرار العمليات في العام الجديد :

مع اطلالة العام الجديد صعَّدت المقاومة المسلحة عملها البطولي ضد سلطات الاحتلال حيث اخذت تضرب آليات العدو بشكل يومي ، واصبحت شبحاً مخيفاً يلاحق جنود الاحتلال اينما حلوا وساروا . ورافق تلك الاعمال البطولية حملة اعلامية ضخمة حيث اخذت المقاومة تتصدر عناوين الصحف اليومية ونشرات الأخبار المحلية والدولية .

وكتعبير عن رفض الاحتلال التام جاءت انتفاضة بلدة جبشيت الاولى في آذار ١٩٨٣ كردة فعل طبيعية على ممارسات العدو واعتداءاته خصوصاً بعدما قاموا باعتقال امام البلدة الشيخ راغب حرب احد رموز المقاومة الشعبية .

وفيما المقاومة البطلة بشقّيها العسكري والمدني تخوض معركتها الحقيقية مع العدو الاسرائيلي ، كان « النظام اللبناني » يوقِّع معه اتفاقية ذل بين لبنان واسرائيل عرفت باتفاق السابع عشر من ايار ١٩٨٣ .

وتوالت انتفاضات القرى الواحدة تلو الاخرى خصوصاً تلك التي عاشت حصاراً حولها بعد العمليات التي كانت تنفذ بالقرب منها أو بداخلها ، واخذت سلطات الاحتلال تزيد من حملاتها القمعية وتنتقل من قرية الى اخرى ، في وقت صعَّدت فيه المقاومة اعمالها خصوصاً بعد الانسحاب الاسرائيلي من منطقة اقليم الخروب في عملية انتشار جديدة .

ومع هذا الانسحاب الجديد اصبحت قوات الاحتلال تنتشر على ارض جبل عامل وحدوده الشمالية ، من خط الأولي صعوداً حتى الباروك مع الاحتفاظ بمنطقة البقاع الغربي ، وفرضت حصاراً على الجبل بعد ان اقفلت طريق الساحل وفتحت طريقاً جبلية وعرة في منطقة باتر ـ جزين كنطقة عبور وحيدة بين جبل عامل وباقي اراضي لبنان .

وعرف اقليم الخروب بعد الانسحاب الاسرائيلي منه فتنة جديدة على ارضه عمل الاحتلال على تسعيرها في سبيل الهاء الشعب عن اكمال مسيرة المقاومة .

وتصاعدت عمليات المقاومة من جديد ضد قوات الاحتلال وخاضت معه صدامات يومية حيث عرفت تطوراً نوعياً عندما اخذت المجموعة الواحدة تضم العشرات من المقاومين الاشاوس .

انتفاضة عاشوراء محرم ١٤٠٤ هـ :

يقيم العامليون سنوياً ذكرى معركة كربلاء التاريخية « عاشوراء » التي خاض فيها الحسين بن علي (ع) سبط الرسول الاكرم محمد (ص) معركة ضد انحراف السلطة في الدولة الأموية وممثلها الطاغية يزيد ، حيث تستمر احياء هذه الذكرى عشرة ايام . . . وفي اليوم العاشر ككل سنة يجتمع العامليون في ساحة مدينة النبطية ليحيوا يوم استشهاد الحسين (ع) في احتفال جماهيري حاشد ، وفي العاشر من محرم عام ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٣ م تجمَّع الألوف من المواطنين في ساحة المدينة وبدأوا احياء الذكرى التي الهبت حماس المشاركين والذين تزايد عددهم ذلك العام . وفيما الحماس في أوجه حاولت بعض آليات جنود الاحتلال اختراق صفوف المواطنين فتصدوا لها بالصدور العارية وهجموا على الآليات العسكرية واشعلوا فيها النيران وجرحوا العديد من الجنود الذين لاذ رفاقهم هرباً بعدما اخذوا يطلقون النار على المواطنين مما ادى الى استشهاد مقاوم وجرح آخرين .

تصعيد الانتفاضات الشعبية :

وبعد انتفاضة عاشوراء في النبطية توالت انتفاضات القرى العاملية وصعَّدت عملها المقاوم في اعتصامات يومية ، كتعبير شعبي شامل عن رفض الاحتلال ، كاعتصام بلدة المروانية التي شهدت مهرجاناً مقاوماً شاملاً اعلن فيه العامليون تبني المقاومة المسلحة ورفض الاحتلال ، واعتصام بلدة دير قانون النهر ومواجهة اهالي الصرفند مع قوات الاحتلال في ذات الاسبوع .

تفجير مقر الحاكم العسكري الجديد في صور :

واستمرت قوات الاحتلال في اجراء تحصينات حول مراكزها العسكرية خوفاً من عمليات استشهادية تستهدف مواقعها . إلاَّ أن عيون المقاومة كانت ساهرة على كل شيء ففاجأت سلطات الاحتلال بعملية صور بعد اقل من سنة من تفجير المقر الاساسي مما دبَّ الرعب في صفوفه ، واظهرت قدرة المقاومة على اختراق كل

تحصيناته . واراد العدو الرد على العملية البطولية فأقفل نقطة العبور عند جسر الأولي لمحاصرة المقاومة ومنع امدادها ، إلاّ أنها ردت على تلك الاجراءات بتصعيد عنيف في عملياتها .

العـــام الجديـــد :

مع اطلالة عام ١٩٨٤ ، اطلت المقاومة بسلسلة عمليات متنوعة ومتنقلة وعادت مدينة صيدا الى واجهة الاحداث عندما اخذت شوارعها تشهد يومياً مواجهات بين رجال المقاومة وجنود الاحتلال وفي الثامن عشر من شهر كانون الثاني ١٩٨٤ تصدى احد فتيان المدينة نزيه قبرصلي (١٤ عاماً) لدورية اسرائيلية راجلة وجهاً لوجه فقتل عدداً من جنودها واستشهد متأثراً بجراحه .

وأصبحت المقاومة خبز الشعب اليومي والجميع ينتظر سماع اخبارها ، وتأقلم ابناء الجبل مع حالة الحصار التي فرضها العدو على الجبل اضافة لاجراءاته القمعية بحقهم .

وبدأت قرى الجبل الواحدة تلو الاخرى تدخل التاريخ من بوابته الكبيرة وتتسابق لتسجيل اسمائها في دفتره وبالدم الاحمر ، حتى اخذت وسائل الاعلام تتحدث كل يوم عن مقاومة قرية كانت منسية في سياسة الدولة المهترئة . ومن تلك القرى بلدة الحلوسية التي امتد اعتصامها حوالي اسبوعين بعد ان تصدت بكل قدراتها لسلطات الاحتلال يوم حاول اقتحامها واسر إمامها .

اغتيـــال الشيخ راغـب حـــرب :

وفي السادس عشر من شهر شباط عادت بلدة جبشيت الى الانتفاضة والمواجهة بعد اغتيال إمام البلدة الشيخ راغب حرب أحد رموز المقاومة الشعبية ، وجاءت هذه العملية الجبانة ضربة أليمة الى المقاومة وجماهيرها التي عبَّرت عن حزنها في التظاهرتين الشعبيتين اللتين نظمتا في البلدة يوم استشهاده وفي ذكرى مرور اسبوع على استشهاده كرد فعل طبيعي واستنكاراً للجريمة البشعة .

انتفاضة بلدة معركة :

وبعد ستة ايام على اغتيال الشهيد راغب حرب دخلت بلدة معركة (قضاء

صور) في مقاومة شعبية شاملة ضد سلطات الاحتلال واصبحت قلعة حصينة ومأوى لرجال المقاومة الذين قصدوها من شتى انحاء الجبل ، حيث اصبحت قاعدة لانطلاقة معظم العمليات في منطقة صور وبنت جبيل وبقيادة احد ابنائها المجاهد محمد سعد احد مسؤولي حركة امل في جبل عامل ، وشاركت نساء البلدة في عمليات التصدي لقوات الاحتلال مستخدمة الزيت المغلي سلاحاً في وجه الآلة العسكرية الاسرائيلية .

تصعيد المقاومة :

الفصل الاول من العام ١٩٨٤ جاء مفعماً بالعمليات البطولية ، والجنوب كل الجنوب اصبح مسرحاً حقيقياً تقوم على ارضه مقاومة باسلة ارعبت العدو واجبرته على استبدال جنوده بفرق جديدة سماها بـ« المظليين » بعد ان قام بعرضهم في حملة اعلامية لارهاب المقاومين الذين تشوقوا لرؤيتهم واعطائهم درساً ملائماً ، وبالفعل فاجأت المقاومة « المظليين » الاسرائيليين الجدد بسلسلة عمليات بطولية كرد صادق على ارهاب سلطات الاحتلال .

تصعيد العمليات : انتفاضة ٦ شباط في بيروت :

وفي شهر شباط قاد نبيه بري رئيس حركة امل انتفاضة شعبية ضد التسلط الذي مارسته السلطات اللبنانية في بيروت ، وبذلك تحولت الى مركز دعم للمقاومة إن على الصعيد الاعلامي أو على صعيد الدعم العسكري وأخذت عمليات المقاومة تدار من العاصمة ، محدثة ترابطاً بين الجنوب وكل الوطن . ولا يمكن في هذا الاطار ان ننسى الدعم المادي والمعنوي الذي قدمته سوريا للمقاومين وبمختلف الوسائل معوِّضة بذلك عن التقصير الواضح من باقي الدول العربية .

ووسعت المقاومة عملياتها وطالت قذائفها مناطق الجليل الاعلى في فلسطين فارضة وجودها وبقوة على قوات الاحتلال .

نبيه بري وزيراً للجنوب والمقاومة:

وفي الاول من ايار شكل رشيد كرامي حكومة الاتحاد الوطني التي عين فيها نبيه بري وزيراً للعدل والموارد المائية والكهربائية ، إلا أنه رفض استلام حقائبه

الـوزارية حتى أعيـد تعيينه وزيـر دولة لشؤون الجنـوب والمقـاومـة اضـافـة للحقيبتين السابقتين.

وقد ساهمت وزارة الجنوب في مد يد العون للمقـاومين والاهلين في الجنوب، خصـوصاً الأسـرى في معتقـلات العـدو الـذين خصصت لهم رواتب شهـريـة، كمـا ساهمت في تنفيذ العديد من المشاريع الحيوية والانمائية في الجنوب.

عملية الشهيد بلال فحص :

وفي ١٦ حـزيران فتحت المقـاومـة اسلوبـاً جـديـداً في عملهـا عنـدمـا اقتحم المناضل الفتى بلال فحص بسيارته قافلة لجنود الاحتلال على طـريق الزهـراني وفجَّر نفسه بالقافلة موقعاً في صفوفها العديـد من القتلى ، فيما تـطايرت الآليـات اشلاء في الهواء ، علماً ان نتائجها المعنوية فاقت نتائجها المادية حيث زرعت الرعب في نفوس العدو وفتحت نوعاً جديداً من عمليات المقاومة ، اجبـرت قوات الاحتـلال على اتباع اسلوب جديد في تسيير دورياته مانعة السيارات المدنية من اجتياز قوافل جنوده .

هكـذا اصبحت العمليـات العسكـريـة من جـديـد خبـز الجبـل اليـومي حيث المراهنات الجديدة على هـذا العملاق المتصـاعد والـواعد بفتـح اكيد وزخم الصيف الحار بتصعيد مباشر في عمليـات المقاومـة . وما ان اطـلَّ خريف ١٩٨٤ حتى بـدأت تظهر تباشير انسحاب اكيد لقوات العدو النازفة يومياً من قبضة المقاومة البطلة .

ومـع دخول امـل الانسحاب الى نفـوس العامليين في ذلـك الخريف ، تشجـع المقاومون في ضرب نقاط العدو ودورياته حيث أينعت ثمار المقاومة وحان قطافها .

١٩٨٥ عام الانسحاب :

بدخول العام الجديد كانت المقاومة عنـوان كل حـديث خصوصـاً عندمـا بدأت تصرفات العدو تبشر بقرب انسحابه حيث بدأ تفكيك مخيماته المقامـة منذ سنـوات . وكل ذلك لم يقف في وجه المقاومة بل دفعها الى تكثيف عملها خصوصاً في المناطق التي تأكد بقاء الاحتلال بها حيث صرَّح العدو عن عملية انسحابه القريبة محدداً ثلاث مراحل لذلك وكأنه يريد ان يلتمس الهدوء من المقاومة كما فعـل يوم اراد الانسحـاب من بيروت .

واستهدفت قوات الاحتلال بتاريخ ١٩٨٥/١/٢١ المناضل الصيداوي مصطفى معروف سعد في مجزرة ادت الى اصابته بجروح بليغة والى استشهاد ابنته ومواطن آخر والى اصابة اثنين وثلاثين جريحاً آخرين بينهم زوجته وولده.

وشهدت ارض الجبل عملية بطولية عندما اقتحم الفتى حسن قصير (عامل) بسيارته قافلة لجنود الاحتلال مكرراً تجربة سلفه الشهيد بلال فحص ، حيث اصاب الهدف مباشرة موقعاً في صفوف العدو الخسائر البشرية والمادية الجسيمة وذلك في الخامس من شباط ١٩٨٥ في الذكرى السنوية الاولى لحركة السادس من شباط .

دخل شهر شباط وأمل الانسحاب يتأكد يوماً بعد يوم مبشراً بالنصر الحقيقي والأول للمقاومة العربية ضد الاحتلال الاسرائيلي . اما المقاومة الساهرة فبعد تأكد خبر الانسحاب بدأت خطة عسكرية مهمة عندما شرعت بنقل الاسلحة والعتاد الى قلب المنطقة التي بدا أن العدو سيبقى فيها ، وهي التي عرفت بعد ذلك بالشريط الحدودي وهدف ذلك مواصلة المقاومة هناك بعد الانسحاب المرتقب .

وما ان اطل السادس عشر من شباط حتى كان العدو الاسرائيلي يلملم اذيال هزيمته وراءه فاراً من المقاومة البطلة التي سجلت انتصاراً عربياً مهماً في تاريخ الصراع العربي ـ الاسرائيلي . ففي يوم واحد كان العدو قد اخلى منطقة صيدا بأسرها وصولاً حتى جسر القاسمية جنوباً فكان الانسحاب الاسرائيلي الأول وكانت فرحة النصر تعم كل العامليين واخوانهم في لبنان بهذا الفتح الجديد .

إكمال مسيرة المقاومة :

ومن اليوم الاول لعملية انتشار الجيش الاسرائيلي اكملت المقاومة نشاطها وكثّفت من ضرب مواقع العدو خصوصاً بعد فتح طريق بيروت ـ جبل عامل حيث تدفقت المساعدات البشرية والعتادية لها فصعّدت من عملياتها محققة نتائج هامة ، دفعت بالعدو الى ارتكاب المجازر البشرية بحق الاهالي الآمنين من القرى المتاخمة لخط انسحابها الاول .

هكذا اجبرت المقاومة سلطات الاحتلال على الانسحاب مسجلة بذلك فتحاً لجبل عامل ولكل الاحرار في الوطن العربي ، حيث اثبتت حتمية النصر الاكيد على العدو في حال اعتماد اسلوب النضال ضده .

وجاء الانسحاب ضربة مفاجئة لكل من راهن على الاحتلال حيث بدأت المقاومة تطال معظم رموز العمالة الذين تساقطوا الواحد تلو الآخر بسبب خيانتهم للأرض والشعب زمن الاحتلال .

وهذا ما دفع العديد منهم في الاراضي الباقية تحت الاحتلال الى اعلان توبتهم وهروبهم الى الاراضي المحررة وتسليم انفسهم للمقاومة البطلة .

اجـــــراءات تعسفيـــــة :

وفيما المقاومة تكمل مشروعها العظيم صعَّدت سلطات الاحتلال من اجراءاتها القمعية على نقاط العبور المستحدثة على جسر القاسمية جنوباً ومفرق النميرية شرقاً . ولم تكتف بذلك بل فتحت اسلوباً بربرياً جديداً بحق القرى الآمنة المتاخمة لشريط الانسحاب الاول ونفذت فيها مجازر بشرية ذهب ضحيتها الابرياء من السكان كما حصل في بلدة الزرارية وقرى كوثرية السياد وحومين التحتا وصير الغربية وعربصاليم ، كما قامت بممارسات ارهابية بحق مختلف القرى داخل منطقة صور واقدمت في الثالث والعشرين من شباط على تفجير منزل المقاوم داوود داوود .

مجـــــزرة معركـــــة :

ومقابل نجاح المقاومة في ضرب سلطات الاحتلال في الاراضي المحتلة ، كان العدو يخطط لضرب رموزها فكانت مجزرة بلدة معركة التي طالت احد قادة المقاومة الشهيد محمد سعد ورفيقه الشهيد خليل جرادي وعشرات من الشهداء الابرياء الذين كانوا داخل النادي الحسيني للبلدة وذلك في الرابع من آذار عام ١٩٨٥ ، وردت المقاومة البطلة على مجزرة العدو بتصعيد عملياتها التي طالت مختلف مناطق الجبل والبقاع الغربي المحتلين ، حيث فتحت اسلوب العمليات الاستشهادية من جديد فكانت عملية الشهيد البطل وجدي الصايغ في ١٢ آذار ١٩٨٥ في كفر حونة .

عملية البطلة سناء محيدلي :

واثارت نتائج المقاومة شعور المرأة عندما نفذت المقاومة سناء محيدلي عملية استشهادية باقتحامها بسيارتها حاجزاً للعدو الاسرائيلي عند حاجز باتر في التاسع من

نيسان ١٩٨٥ ، الذي عرف فيه المواطنون اقسى انـواع الذل خـلال عبورهم من والى الجنوب .

وهزت هذه العملية الاستشهادية التي تنفذها فتاة للمرة الاولى كيان العـدو مثلما احدثت هزة قومية في انحاء العالم العربي .

الانسحـــابات المتتاليـــة :

ومـع هذا التصعيـد اليومي بـأعمال المقـاومة وازديـاد خسائـر العـدو من جـراء الضربات الموجعة التي طالت مختلف مواقعـه وما يعكسـه ذلك من ردود فعـل واسعة داخـل الاراضي المحتلة إن في اثـارة الفلسـطينيين للتحـرك والنضـــال او في صـراخ الاسرائيليين داخل مجتمع العدو ، امام كل ذلـك وجد العـدو نفسه مجبـراً على تنفيذ انسحابه الثاني من الجبل عندما اخلت قواته مواقعها في منطقة النبـطية وتمـركزت من جديد في نقاط مستحدثـة على التلال المشـرفة على المـدينة نـزولاً حتى بلدة قعقعية الجسر وتم ذلك في ١١ نيسان ١٩٨٥ ، ثم اتبعته بـانسحاب ثـالث من البقاع الغـربي وراشيا وذلك في ٢٤ نيسان ١٩٨٥ .

وفي ٢٩ نيســان ١٩٨٥ بدأت قـوات الاحتلال انسحـابهـا الـرابـع حيث اخلت منطقة صور بعد ان نفَّذت فيها ممارسات ارهابية طالت مختلف قراها .

وعمت الفرحة اهالي جبل عـامل بهـذا النصر العـظيم الذي تحقق على ايـدي رجال المقاومة بعد ثلاثة اعوام من الاحتلال والقمع .

تثبيـــت الشريـــط الحـــدودي :

بعد تنفيذ عمليات الانسحاب الثالث بدأت اسرائيل سيـاسة عـدوانية بـانشائهـا شريطاً امنياً لحدودها الشمالية وما كان يعرف مسبقاً عام ١٩٧٨ بعد الغزو الاسـرائيلي بالشريط الحدودي .

ومن اهم تلك السياسات الجديدة دعم جيش احد عملائها المعدو انـطوان لحد وذلك للقيام بأعمال امنية تحفظ حدود « دولة اسرائيل » .

وعليه تأكـد للمقاومـة مجدداً خـطورة مشاريـع العدو الاسـرائيلي بعدمـا بدأت اهدافه بتكريس احتلالـه في منطقـة الشريط الحـدودي التي امتدت من جـزين شمالاً مروراً بتلال منطقة النبطية ونزولاً الى جنوبي مدينة صور .

انسحاب كاذب :

وفي السادس عشر من شهر حزيران ١٩٨٥ اعلنت اسرائيل عن انسحابها من منطقة الشريط الحدودي تاركة الوضع تحت سيطرة جيش العميل لحد . إلاَّ أن ذلك لم يكن الا انسحاباً كاذباً حيث مراكز مهمة لجيش الاحتلال بقيت داخل الشريط الحدودي الذي بدأت فيه المقاومة رحلة جديدة طالت جنود العميل لحد ودوريات الاحتلال ، وفتح الاهالي انتفاضة شعبية لأول مرة منذ الاحتلال والغزو الاسرائيلي الاول عام ١٩٧٨ فيما استمرت العمليات الاستشهادية التي شارك بها الثوار من بعض المناطق العربية كسوريا ومصر .

صيف العمليات الاستشهادية :

فقد توالت مع هذا التاريخ العمليات الاستشهادية التي شارك فيها الاحرار من انحاء لبنان والوطن العربي . في التاسع من أيار نفذت الشهيدة وفاء نور الدين عملية استشهادية بطولية عند مفترق ابو قمحة قرب بلدة حاصبيا ، ثم الشهيدة ابتسام حرب التي نفَّذت عمليتها الاستشهادية في التاسع من تموز في رأس البياضة في صور . ومن اهم العمليات الاستشهادية الاخرى بطولات الشهداء : خالد ازرق في الشومرية في التاسع من تموز ، وهشام عباس في الخامس عشر من تموز في كفر تبنيت ، فالشهيد علي غازي طالب في ارنون آخر شهر تموز ، والشهيد جمال ساطي في السادس من آب في حاصبيا ، والشهيد عبد الله عبد القادر في بيت ياحون في الخامس عشر من آب ، والشهيد مناع قطايا في ريمات في الثامن والعشرين من آب ، والشهيد عصام عبد الساتر في كفر حونة في الثالث من ايلول ، والشهيدة مريم خير الدين في زحلة ـ حاصبيا في الثاني عشر من ايلول ، فالشهيد علي طلبه حسن (فتى الاسكندرية) في رأس البياضة ـ صور في الثامن عشر من ايلول وغيرهم من الابطال .

هكذا انتهى عام ١٩٨٥ وفرحة النصر بتحرير الارض من رجس الاحتلال تعم ارجاء جبل عامل محققة نصراً حقيقياً على جيش اسرائيل بعد ان سطَّرت المقاومة صفحة رائدة في تاريخ النضال العربي .

المقاومة سر النصر:

تتوج المقاومة الباسلة في لبنان عموماً وفي جبل عامل خصوصاً نصراً حقيقيا للنضال العربي ضد اسرائيل والذي تفجر منذ مطلع القرن العشرين وبدأ الحديث عن انشاء كيان لليهود في قلب العالم الاسلامي في فلسطين.

فقد توالت الحروب والصدامات بين العرب واليهود منذ بدء الهجرة اليهودية المنظمة الى فلسطين، وتصاعدت المقاومة العربية الشريفة لذلك المشروع الخطير حتى كانت الحرب العربية ـ الاسرائيلية الاولى عام ١٩٤٨ والتي انتهت باعلان دولة اسرائيل، كمحطة اولى للمشروع الصهيوني، حيث باشرت اسرائيل من يومها الاول الاستعداد لاكمال اهداف ذلك المشروع بتوسيع رقعة احتلالها للاراضي العربية المحيطة بها.

عام ١٩٥٦ اشتركت اسرائيل مع بريطانيا وفرنسا في ضرب الثورة الناصرية في العدوان الثلاثي الشهير على قناة السويس، وعام ١٩٦٧ خاضت حربها الغادرة وانتهت بهزيمة العرب الثانية واحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة في فلسطين والجولان وسيناء في كل من سوريا ومصر، وعام ١٩٧٣ خاض العرب ضدها حرب تشرين الشهيرة لكنها لم تسفر عن استعادة اراضي عام ١٩٦٧ ولا ما قبلها الى ان تنازلت عن منطقة سيناء اثر معاهدة السلام مع النظام المصري عام ١٩٧٩.

وامام تلك النتائج وفشل العرب في تحقيق أي نصر حقيقي، حاولت اسرائيل اكمال مشروعها فقامت بغزو لبنان من جنوبه عام ١٩٧٨ ثم عام ١٩٨٢ حيث اسفر غزوها هذا عن احتلال نصف لبنان بعد ان دخلت قواتها العاصمة بيروت.

في لبنان فوجئت اسرائيل بمقاومة باسلة وشريفة، اجبرتها اولاً على الانسحاب من بيروت ثم من الشوف لتحاول الاستقرار في جبل عامل، الا ان المقاومة العاملية الباسلة كانت لها بالمرصاد واجبرتها على الانسحاب باتجاه الشريط الحدودي المحتل الذي انشأته عام ١٩٧٨، حاملة معها ذيول الهزيمة الاولى في تاريخ الصراع العربي ـ الاسرائيلي.

كانت تلك المقاومة شعبية، مقاتلين فرادى يواجهون جيشاً منظماً. ان الدرس

الحقيقي الذي نتعلمه من تلك المقاومة، يتمثل اولاً بايمـاننا بقضيتنـا العادلـة ومن ثم تعاوننا واتحادنا لمواجهة كل خطر يهدد امتنا وحياتنا ووجودنا.

ان ارادة الصمـود والمقاومـة التي عمت ارجاء جبـل عامـل، وكل ذلـك المناخ الوطني الذي احاطها، قد ترك آثاراً طيبة في نفوس كل الاحرار، رغم انها اصـطدمت اولاً بجدار الصمت العربي في مختلف الاوسـاط الشعبية خصـوصاً والفكـرية، والتي عهدناها بجانب المقاومة والنضال في العهود السابقة، ووسـطاً ثائـراً متأثـراً ومؤثراً في القضايا المصيرية والواحدة ومن المحيط الى الخليج.

لكنها المقاومة تبقى الامل الذي يبعث في النفوس الطمأنينة والراحة بان قضيتنا ستنتصر بإذن الله.



خاتمـــة

نعم ، لم نرمِ في هذه الصفحات التي تؤرخ قضية جبل من جبالنا وبقعة ارض من وطننا الى ابراز هوية جديدة او كتاب جديد للمكتبة ، وإن كـان تاريـخ جبل عـامل لم يدرس بتأنٍ وموضوعية كغيره بعد . ان كل ما اردناه اعطاء عيِّنة واضحة عن تاريخنا واهلنـا وقضايـانا ، مسلِّطين الضـوء على روح المقاومـة عندهم ، لكـل انواع الـظلم والتسلط والاحتـلالات بما تمثله هـذه من مشاكـل اجتماعيـة خـطيـرة هـددت وتهـدد المجتمعات البشرية منذ وجدت .

ان في قراءتنا الجديدة نداءً واضحاً لاستئصال الامراض الفتاكة التي يعاني منها وطننـا الكبير ، وفيهـا الصور الـواضحة والمختلفـة التي واجههـا شعبنـا في التـاريـخ بمختلف الاساليب المشروعة ، وكله امل في الـوصول الى الحـرية بكـل ما تمثله من قيم انسـانية وحضـارية وكمبـدأ اساسي في هـذه الحياة لتبقى هـذه الحريـة المحـرِّك الاساسي لمختلف نشاطاتنا وفي جوانب حياتنا اليومية .

نعم ، ونحن نعجـز اليوم عن مـواكبة الحضـارة الماديـة المتقدمـة خصوصـاً ما يتعلق منهـا بقضايـا سياسـة التسلح والأمن النووي ، يبـدو الاصلاح بمختلف وجـوهه سهل المنال لنا جميعاً ، ندرسه بعمق ونبحثه بدقة لنطبقـه بعلم على مختلف قضايـانا المعاصرة .

فالاصلاح يبرز اليوم في زمن زوال الفروقات الثقافية والفكرية يوماً بعـد يوم بين مختلف مجتمعات القرن العشرين ، بل ومـع فرص الاستفـادة شبه المتسـاوية بنتـائج

الثورة الصناعية الحديثة ؛ يبرز الاصلاح كدواء فعَّال للمشاكل الاجتماعيـة التي نعاني منها والتي ، بالطبع ، حلُّ اكثرها انما يقع على عاتقنا نحن ، حيث واجبنا ان يبدأ من الفرد الى العائلة فالمجتمع فالدولة .

فباستعراضنا للمحطات التاريخية التي عاشها جبل عامل في الدولـة الاسلاميـة منذ الفتح ، برزت صور الفوضى واللامسؤوليـة واللاتنـظيم كأسبـاب حقيقية لمختلف الازمات والمشاكل التي عاشتها الدولـة في حقبها المختلفـة ، بدءاً من الـرأس وحتى المجتمعات الصغيرة .

من الصراع على السلطة بدأت الدولة الاسلامية تشهد الحروب الداخلية لتتطور مع تلك الصراعات وتبدأ التجـزئة المحليـة بنشوء الامـارات والممالـك داخل الـدولة ذاتها ، وهذا ما رسَّخ الصراعات المحلية داخل الاقـاليم الواحـدة وسمح لممـارسات خطيرة بالظهور على الساحة ليس اقلها النظام الاقطاعي كآفة اجتماعية فتّـاكة ضـربت المجتمع بأسره ، وكل ذلك سهل للغـرب الناهض مـع انحطاط الـدولة الاسـلامية ان يخرقها ويثبت دعائمه في قلبها والتي نتج عنهـا الاحتلالات المتعـددة لاراضي الدولـة العثمانية والتي كرَّست التجزئة الاستعمارية للدولة واسفرت عن تقسيم المنطقة العربية الى عشرات الدول في حدود مصطنعـة اخذت تتـرسخ مـع الايام لتصبـح احدى اهم المشاكل التي نعاني منها جميعاً .

خلال تلك الحقبة التاريخية التي عـاشتها الـدولة الاسـلامية كـان لجبل عـامل المواقف الواضحة امام كل محطة ، ابرزناها في هذا البحث وكـل هدفنـا كما اردنـا ، التعرف على مواطن الضعف والوهن مما عاناه اهلنا ونعانيـه اليوم علَّه يـدفعنا للتحـرك بحرص نحو اصلاح ذات البين .

وعلى الله قصد السبيل



المصادر والمراجع

أ ـ المؤلفـــات :

ـ القرآن الكريم .

ـ ابن ابي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ـ دار الجيل ـ بيروت، ١٩٨٧ .

ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط ٢ ، ١٩٦٧ .

ـ ابن جبير ـ رحلة ابن جبير ـ دار التراث بيروت ـ ١٩٦٨ .

ـ احمد سعيد ـ القومية العربية ثورة وبناء ـ القاهرة ١٩٥٩ .

ـ احمد الشرباصي ـ الاسلام الاقتصاد ـ الدار القومية ـ مصر ١٩٦٥ .

ـ احمد الشقيري ـ معارك العرب ـ دار النهار للنشر بيروت ـ ١٩٧٥ .

ـ احمد عطية الله ـ القاموس السياسي ـ دار النهضة العربية ـ ط ٣ ، القاهرة ١٩٦٨ .

ـ احمد غسان سبانو : مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سورية ـ لمؤلف مجهول ـ دار قتيبة ـ دمشق .

ـ ايليا حاوي ـ الشعر العربي المعاصر ـ الشاعر القروي ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت (الجزء الثاني)، ١٩٧٨ .

ـ بسام العسلي ـ الايام الحاسمة ـ دار النفائس ـ بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٣ .

ـ توفيق برّو ـ العرب والترك ـ في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ ـ ١٩١٤ دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ـ دمشق، ط ١ ، ١٩٩١ .
ـ جورج انطونيوس ـ يقظة العرب ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ط ٧، ١٩٨٢ .
ـ حسان حلاق ـ مؤتمر الساحل والاقضية الاربعة ـ الدار الجامعية ـ بيروت ١٩٨٣ .
ـ حسن محمد سعد ـ جبل عامل بين الاتراك والفرنسيين ـ دار الكاتب بيروت ـ ١٩٨٠ .
ـ خالدي وفروخ ـ التبشير والاستعمار ـ المكتبة العصرية ـ صيدا ـ الطبعة الخامسة ـ ١٩٧٣ .
ـ خليل مردم ـ الشعراء الشاميون ـ دار صادر ـ بيروت ، لا تاريخ .
ـ خيرية قاسمية ـ الحكومة العربية في دمشق ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٨٢ .
ـ رضا التامر ـ ذكريات رضا التامر ـ بيروت ١٩٥٥ .
ـ رمضان لاوند ـ الحرب العالمية الثانية ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الطبعة الثامنة ١٩٨١ .
ـ زاهية قدورة ـ تاريخ العرب الحديث ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨٥ .
ـ زين نور الدين زين :
ـ نشوء القومية العربية ـ دار النهار للنشر ـ بيروت ط ٣ ـ ١٩٧٩ .
ـ الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ـ دار النهار للنشر ـ بيروت ـ ط ٢ ، ١٩٧٧ .
ـ زينب فواز ـ حسن العواقب ـ والهوى والوفاء ـ تحقيق فوزية فواز ـ منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ـ ١٩٨٤ .
ـ سلام الراسي ـ لئلاً تضيع ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ـ ط ٤ ، ١٩٨٥ .
ـ سليمان موسى ـ الحركة العربية ـ دار النهار للنشر ـ بيروت ـ ط ٣، ١٩٧٧ .
ـ شفيق الأرنائوط ـ معروف سعد ـ ثورة ونضال ـ ط ١ ، ١٩٨١ .
ـ طلال المجذوب ـ تاريخ صيدا الاجتماعي ـ المكتبة العصرية ـ صيدا ـ ١٩٨٣ .
ـ طه ثلجة الطراونة ـ مملكة صفد في عهد المماليك ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت، ١٩٨٢ .

- عباس ابو صالح - تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي - منشورات المجلس الدرزي للبحوث والانماء - د. ت .
- **عدة مؤلفين** : صفحات من تاريخ جبل عامل - منشورات دار الفارابي والمجلس الثقافي للبنان الجنوبي، ١٩٧٩ .
- **عدة مؤلفين**: وجوه ثقافية من الجنوب - منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي - الجزء الاول، ١٩٨١ .
- **عدة كتّاب** : من دفتر الذكريات الجنوبية - دار الكتاب اللبناني والمجلس الثقافي للبنان الجنوبي - بيروت، ١٩٨١ .
- عزيز الاحدب : فخر الدين - مؤسس لبنان الحديث - دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٧٣ .
- عصام خليفة - الحدود الجنوبية للبنان - ١٩٨٥ .
- علي الزين : فصول من تاريخ الشيعة في لبنان - دار الكلمة للنشر - بيروت ١٩٧٩ - دون ناشر .
- للبحث عن تاريخنا في لبنان - ١٩٧٣ .
- العادات والتقاليد في العهود الاقطاعية - دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٧٧ .
- علي عبد المنعم شعيب - مطالب جبل عامل - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت، ١٩٨٧ .
- قدري قلعجي - جيل الفداء قصة الثورة الكبرى ونهضة العرب - دار الكاتب العربي - لا تاريخ .
- قيصر مصطفى - الشعر العاملي الحديث - دار الاندلس - بيروت ١٩٨١ .
- محسن الامين - اعيان الشيعة - دار التعارف - بيروت ١٩٨٣ .
- خطط جبل عامل - الدار العالمية - بيروت ١٩٨٣ .
- محمد جواد آل الفقيه - ابو ذر الغفاري - منشورات دار الفنون - بيروت ١٩٨٠ .
- محمد جابر آل صفا - تاريخ جبل عامل - دار النهار للنشر - بيروت ١٩٨١ .
- محمد علي مكي - لبنان من الفتح العربي الى الفتح العثماني - دار النهار للنشر - بيروت - ١٩٧٢ .
- مسعود ضاهر - الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ١٦٩٧ - ١٨٦١ - معهد

الانماء العربي ـ بيروت ١٩٨١ .
ـ محمد حسين المظفر ـ تاريخ الشيعة ـ دار الزهراء ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٣ .
ـ مصطفى طلاس ـ الثورة العربية الكبرى ـ دار طلاس ـ ط ٣، دمشق .
ـ مهيب حمادة ـ تاريخ علاقة البقاعيين بالسوريين ـ ١٩٨٢ ـ بلا ناشر .
ـ الامام موسى الصدر ـ منبر ومحراب ـ دار الأرقم ـ ١٩٨١ .
ـ ميخائيل الوف البعلبكي ـ تاريخ بعلبك ـ المطبعة الأدبية ـ ١٩٢٦ .
ـ نزيه حسني ـ صيدا ومسألة الزعامة السياسة ـ معروف سعد ـ المركز الثقافي للتعليم والدراسات الجامعية ـ صيدا ١٩٨٢ .
ـ نوفان رجا الحمود ـ العسكر في بلاد الشام ـ دار الآفاق الجديدة ١٩٨١ .
ـ هاني فرحات ـ الثلاثي العاملي في عصر النهضة ـ الدار العالمية ـ بيروت ١٩٨١ .
ـ وجيه كوثراني ـ الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ـ معهد الانماء العربي ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٩٨٢ .
ـ بلاد الشام ـ معهد الانماء العربي ـ بيروت ١٩٨٠ .
ـ المؤتمر العربي الاول ـ دار الحداثة ـ بيروت ١٩٨٠ .
ـ ياسين سويد : التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الامارتين :
١ ـ الامارة المعنية ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ ١٩٨٠ .
٢ ـ الامارة الشهابية ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ ١٩٨٥ .
ـ يوسف ابراهيم يزبك ـ أوراق لبنانية ـ دار الرائد العربي ـ بيروت، ١٩٨٣ .
ـ يوسف الحكيم ـ سوريا والعهد الفيصلي ـ دار النهار للنشر ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٩٨٠ .
ـ يوسف مروة ـ العلوم الطبيعية في القرآن ـ دار مكتبة الهلال ـ بيروت ١٩٦٨ .

ب ـ كتب مترجمة :

ـ دزموند ستيورت ـ تاريخ الشرق الاوسط الحديث ـ دار النهار للنشر ـ الطبعة الثانية ١٩٨١ .
ـ ستيفن هامسلي لونغريغ ـ تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ـ دار الحقيقة ـ بيروت ١٩٧٨ .

ج ـ كتب توثيقية :

ـ الجنوب اللبناني في ظل الاحتلال الاسرائيلي ـ وكالة مختارات الاخبار العربية والعالمية ١٩٨٥ .
ـ سنتان ـ منشورات أنصار جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية ـ بيروت ١٩٨٤ .
ـ معاً من اجل الجنوب ، معاً من اجل لبنان ـ المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ١٩٧٩ .
ـ يوسف ديب ـ الجنوب تحت الاحتلال ـ منشورات المكتب الاعلامي المركزي لحركة امل ـ الجزء الأول، ١٩٨٣ .

د ـ ملاحــــق :

ـ حسن الامين ـ ثورة ايران ـ ملحق النهار ١٩٧٩/٤/٢٠ .

هـ ـ جرائد ومجــلات :

ـ الالواح ـ العدد ١٤ .
ـ الباحث العدد ٢٠ ـ ٢١ تشرين ثاني ١٩٨١ ـ شباط ١٩٨٢ .
ـ البرق ـ تاريخ ٣٠ و٣١ أيار ١٩٢٣ .
ـ البشير ١٩١٩/١٠/٢٢ و٣ نيسان و٢٠ أيار ١٩٢٠ .
ـ تاريخ العرب والعالم العدد رقم ٥٥ .
ـ الجمهور ـ ١ نيسان ١٩٨٢ .
ـ دراسات لبنانية ـ آب ١٩٨١ ـ منشورات وزارة الاعلام اللبنانية .
ـ السفير ١٩٨٤/٩/٢٣ .
ـ صباح الخير ـ شباط ١٩٨٢ .
ـ العربي ـ العددان ١٣١ ـ ٢٨١ .
ـ العرفان ـ م ٣٣ ج ٣ ـ ٧ ـ ٩ ـ ١٠ ـ م ٣٤ ج ٢ ـ م ٥٦ ج ٤و٥ ـ م ٦١ ج ٣ ـ م ٧٠ ج ٥ .
ـ الكفاح العربي ـ العدد ٣٤ ـ ١٩٨٥/١/١٤ .

- لسان الحال - ١٩٢٠/١/١٢ - ١٩٢٠/٥/٩ - ١٩٢٠/٦/٩ - ١٩٢٣/٥/٣٠ .
- المستقبل - العدد ٢٦٨ نيسان .
- النهار ١٩٨٤/١٠/٥ .
- الهلال - م ٥٦ ، ج ١١ - نوفمبر ١٩٤٨ .
- الواقع - العددان ٥و٦ تشرين اول ١٩٨٣ .